

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

كلية الآداب والفنون

قسم الأدب العربي



أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في العلوم

التخصص: أدب مقارن

العنوان

صورة الآخر في الرواية الجزائرية

من سنة 1950م إلى سنة 2010م

من إعداد

عالية زروقي

المناقشة بتاريخ 2017/02/28 من طرف اللجنة المكونة من:

رئيس	جامعة الشلف	أستاذ	عبد القادر شارف
مقرر	جامعة الشلف	أستاذ	عبد القادر توزان
ممتحن	جامعة تيزي وزو	أستاذ	مصطفى درواش
ممتحن	جامعة الجزائر 2	أستاذ	علي ملاحي
ممتحن	جامعة البليدة 2	أستاذ	عبد الله شطاح
ممتحن	جامعة الشلف	أستاذ محاضر أ	أحمد بن عجمية

إهداء:

إلى من كان سندي وعموني طيلة إنجاز هذه الرسالة

زوجي وقرّة عيني

إلى من يرسم ابتسامة أيامي

ابني محمد يحيى وابنتي مريم حفظهما الله ورعاهما

إلى من يحنّ دربي بدعواته النجاح

والديّ العزيزين وجدتي الغالية أطال الله عمرهم

إلى عائلتيّ الكريمتين

إلى كل من أهداني فكرة أو أمارني كتاباً.

إلى كل من شجّعني ورفع معنوياتي.

إليهم جميعاً أهدي هذا العمل

شكر وعرفان

الحمد لله والشكر والإنابة إليه على ما منحني من صبر وقوة وعزم

لإتمام هذا البحث

الشكر موصول إلى الأستاذ الدكتور المشرف على البحث عبد القادر تونان لتوجيهاته

ومساعداته في سبيل إخراجه على هذه الصورة

الشكر موصول إلى كل أساتذة كلية الآداب والفنون بجامعة الشلف

مقدمة:

بسم الله العليم الخبير، والصلاة والسلام على سيد الخلق المعلم الأول، المبعوث رحمة للعالمين، وبعد: تتقارب الأمم والشعوب، تفتح الآفاق وتكاد تختفي الحدود بين الدول والقارات، في عصر أصبح فيه الانفتاح على الآخر، والتعارف والتعايش والتثاقف عنوانا. عصر تتجه فيه الدراسات المعاصرة نحو كشف طبيعة العلاقات المؤسسة بين أقطار العالم المختلفة، لكشف المغمور، وتعرية المستور وإيضاح الغامض من الرؤى والأفكار التي تُصدرها الفئات القطرية والعرقية والدينية عن بعضها. ولعلّ النصوص الأدبية ممثلة في المتون الروائية خير مسجّل، وأفضل مجسّد لحدود تلك العلاقات وما تبني عليها من مواقف.

توجّهت الدراسات الأدبية المقارنة المعاصرة نحو النصوص الروائية، لاستجلاء مواقف الأمم والشعوب ضمن كتابات أمم وشعوب أخرى، لكشف الصّور الأدبية فيما يندرج ضمن حقل الصّورائية في الأدب المقارن، التي غدا الآخر يشكّل فيها محور الدراسة والتحليل، بتعدّد بيئاته واختلاف توجّهاته وأفكاره.

والرواية الجزائرية عبر مختلف مراحل تطوّرها، منذ النشأة والتأسيس عبّرت عن هموم الفرد الجزائري وجسّدت طبيعة اهتماماته وتوجّهاته الفكرية، ورسمت حدود علاقاته مع فئات مجتمعه، وما يعدّ آخرها بالنسبة إليها، بتعدّد وجوه وروده على مستوى المتن الروائي الجزائري وفقا لحدود العلاقات القائمة في الواقع.

وتبعاً لما تقدّم؛ تمّ اختيار موضوع رسالة الدكتوراه المعنون ب: **صورة الآخر في الرواية الجزائرية من سنة 1950م إلى سنة 2010م**، وإن بدا موضوعا واسع الظلال عميق البحث إلاّ أنه واضح المعالم والأجزاء، محدّد الأهداف والغايات، نسعى من خلاله إلى الوقوف على صورة الآخر كما وردت في الرواية الجزائرية باللغتين العربية والفرنسية خلال ستين سنة من الإبداع الروائي، على أن الاهتمام فيها منصبّ على الصورة الأدبية كما وردت في الرواية، وليس من منظور الروائي المجسّد لها.

ولعلّ الغاية من اقتراح هذا الموضوع تعود لأمرين أساسيين، يتعلّق أوّلهما باستكمال البحث ضمن مشروع الماجستير، المقترح من قبل الأستاذ المشرف، حول: الدّراسات الأدبية المقارنة في الأدب الجزائري الحديث، وما له من أهمية كبيرة في تحديد العلاقات بين الأدب الجزائري والآداب الأخرى ومن ثمّ العلاقات بين الأمم والشعوب التي أنتجتها، وميدان الصّورائيّة أكثرها حضوراً في توضيح ذلك. وثاني الدّوافع يعود لذاتية الباحث في السّعي الحثيث لتقصّي منظور الذات الجزائرية من خلال المتون الروائية إلى الآخر، بمختلف أصنافه وتوجّهاته، دون استثناء الروايات المغمورة، أو الاقتصار على العربية منها دون الفرنسية، أو التي كُتبت في مرحلة زمنية دون أخرى، بغية الوصول إلى نتيجة دقيقة المعالم، شاملة الأجزاء، متعدّدة التوجّهات.

وموضوع الدّراسة يندرج ضمن حقل الصّورائيّة وتطبيقه على المتن الروائي الجزائري، ممّا يعني أنّه جديد نسبياً، من حيث كونه ليس أول موضوع يتطرّق لدراسة صورة الآخر في الرواية، وإن كانت هناك دراسات سابقة تتناول أجزاء منه لا كلّها، منها ما اهتمّت بدراسة صورة الآخر على مستوى الرواية العربية، مثل: دراسة همّت بسيوني عبد العزيز: "الشخصية المصرية وصورة الآخر"، ودراسة نجم عبد الله كاظم: "نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة"، ودراسة ماجدة حمود: "صورة الآخر في التراث العربي" ومن الدّراسات ما حدّدت طبيعة الآخر مثل: "صورة المستعمر" لألبير مامي، و"اليهودي في الرواية الفلسطينية" لحسين أبو النّجا، ودراسة عبد المجيد حنون: "صورة الفرنسي في الرواية المغربية"، ودراسة "الجزائر في أدب ألبير كامو" للدكتور عبد القادر توزان، ودراسة الماجستير: "صورة فرنسا في كتابات محمد ديب" لعالية زروقي.

غير أنّ هذه الدّراسة تسعى إلى تحديد صورة الآخر بما فيها صورة المستعمر، صورة الأجنبي الأوروبي والأمريكي، وصورة اليهودي، كما تتّضح على مستوى بعض الروايات الجزائرية، في الفترة الزمنية المقدّرة بستين سنة، وهي دراسة -حسب اطلاعنا- جديدة، لم ترد بهذا الشكل لا في مؤلفات، ولا دراسات أكاديمية، ولا رسائل جامعية، وهو ما نسعى به إلى سدّ بعض الفراغ في المكتبة الجزائرية، وإفادة الباحث والقارئ به.

وتتحدّد إشكالية البحث في نقاط عديدة، أهمّها: من هو الآخر بالنسبة للذات الجزائرية؟ وما هي طبيعته على مستوى المتن الروائي الجزائري؟ وكيف يمكن تحديد المراحل الزمنية التي مرّ بها تطوّر المتن الروائي الجزائري في الفترة الممتدّة من سنة 1950م إلى سنة 2010م؟ ومن هو الآخر وما هي صورته في كلّ مرحلة؟ وما مدى توافق الصور فيما بينها خلال المراحل الزمنية الروائية المدروسة؟ وإلى أيّ مدى كان الكاتب ملتزماً بموقفه تجاه الآخر عبر أعماله المتتالية، وضمن المراحل الزمنية المتعاقبة؟ وهل يمكن الخروج بصورة واحدة للآخر، يشترك فيها جميع الرّوائيين الجزائريين على مستوى نصوصهم الروائية؟

وللإجابة عن الإشكالات المطروحة، تمّ تحديد خطة بحث من مقدّمة وخاتمة، وخمسة فصول؛ اثنان منهما في التنظير للموضوع وتحديد المفاهيم، وثلاثة فصول تتعلّق بالإجراء التطبيقي على مستوى الروايات المختارة للتحليل. وتمّ تخصيص الفصل الأول لدراسة صورة الآخر في العمل الروائي، ويندرج ضمنه ثلاثة مباحث لتحديد المفاهيم وضبط المعارف المتّصلة بالموضوع، من مفهوم لثنائية الأنا و الآخر والعلاقة بينهما، إلى طرح مفهوم الصورائية، وما المقصود بصورة الأنا وصورة الآخر؟ وفي المبحث الثالث المعنون بالآخر في الرواية العربية، عرض لمفهوم أهمّ ثنائيات الأنا والآخر، المتمثلة في مفهوم ثنائية الشرق والغرب التي تنبني عليها جلّ العلاقات المعاصرة، إذ لا بدّ من تحديد الفواصل بين كل من الطرفين حتى يتسنى الوقوف على طبيعة صورة الآخر الذي -غالبا- ما يتمثل في الغرب. وتمّ التطرّق بعدها لصورة الآخر في الرواية العربية، وفق ما ورد في بعض الدراسات العربية السابقة .

وفي الفصل الثاني عرضٌ لتطور الرواية الجزائرية من 1950م إلى 2010م، وذلك بدراستها من حيث المضامين، غير أنه كان من الأهمية بمكان توضيح نقطة مهمّة وإشكالية عميقة، تتعلّق بهوية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، وذلك من أجل إدراج هذا الأدب ضمن الدراسة وتحديد الآخر على مستواه، فإذا لم نعتبره جزائرياً، فلا يمكن عدّه ضمن المتن الروائي قيد التحليل والتمحيص، ولم يكن ذلك من خلال استنطاقه بما لم يحتويه، وإنما تمّ تحديده هويته بالتدرج في تحديد مفهوم الهوية، والهوية الوطنية الجزائرية وأهم معالمها.

ولعلّ السعي للوقوف على صورة الآخر في الرواية الجزائرية يكون مرتبكاً ومتذبذباً، إذا ما لم يتمّ تنظيم هذه الدراسة، بمحاولة الوقوف بالدرجة الأولى على تطوّر الرواية الجزائرية، لاسيما على مستوى المضامين ذلك أن الرواية ذات دلالات شمولية تساهم في تجسيم وبلورة الوعي التاريخي للمرحلة الحضارية

التي تنتمي إليها، ولذلك تم تخصيص المبحث الثاني من الفصل الثاني لدراسة تطور تلك المضامين بتقسيم المرحلة الزمنية المقدّرة بستين سنة، إلى ثلاث مراحل، كان العامل التاريخي هو الفاصل فيها. تمتدّ المرحلة الأولى من 1950م إلى 1962م، وتبدأ المرحلة الثانية بعد استقلال الجزائر مباشرة، وتستمرّ طوال مرحلة البناء والتشييد، وصولاً إلى سنة 1989م، تاريخ تأزم الأوضاع الداخلية في الجزائر، فكانت سنة 1990م بداية للمرحلة الثالثة التي عرفت أجواء جديدة في ظلّ العشرية السوداء، كان انعكاسها واضحاً على مستوى المتن الروائي الجزائري، مروراً بسنة 2000م تاريخ عودة الأمن والاستقرار، والذي عرفت على مستواه الرواية الجزائرية آفاقاً أخرى، ساهمت في بلورتها الظروف الخارجية المحيطة بالكاتب.

وفي أول الفصول التطبيقية عرض **لصورة المستعمر في الرواية الجزائرية**، ويقصد به المستعمر الفرنسي للجزائر خلال فترة الاحتلال، وكيف انعكست صورته في بعض الروايات الجزائرية أثناء الاستعمار وبعده، خصّصنا له ثلاثة مباحث؛ في الأول منها صورة رجال السلطة الفرنسية الاستعمارية في الرواية الجزائرية، وذلك من خلال شخصيات عديدة تختلف صفاتها بين الظلم والاستبداد، والخذاع والمراوغة. وفي المبحث الثاني عرض لصورة المستوطنين الفرنسيين، وذلك عبر شخصيات عديدة كالمستوطن المغتصب، العنصري، المتسامح...، وتمّ تخصيص مبحث ثالث لصورة المرأة المستوطنة الفرنسية، والتي تُدرس من خلال نماذج نسائية متباينة بين التمرد والتحرر، العنصرية والتسامح الثقافية والجمال..

والفصل الرابع يتناول بالدراسة والتحليل **صورة الأجنبي الأوروبي والأمريكي في الرواية الجزائرية**، وخصّصنا له ستة مباحث، يتم على مستوى كل مبحث تقصي صورة أجنبي معيّن، صورة الفرنسي، صورة الإيطالي، صورة الإسباني، صورة الألماني، صورة البريطاني، وصورة الأمريكي. في كل منها تحليل للشخصيات الروائية من الوقوف على سماتها الجسدية والمعنوية، وذكر لبعض الملامح البيئية وفق ما عبّر عنه الكتاب في رواياتهم.

وفي الفصل الخامس والأخير عرض لصورة اليهودي في الرواية الجزائرية، على اعتباره آخرا بالنسبة للذات الجزائرية من المنظور الديني والعرقي، ومن اليهود من كان يسكن الجزائر لفترة معينة، أطلق عليهم اسم يهود الجزائر، وتعرض لهم بعض الروائيين في رواياتهم، وسعينا إلى استقصاء صورهم كما وردت في تلك الروايات -بعضها وليس كلها- ضمن المبحث الأول من هذا الفصل، وفي المبحث الثاني عرض لصورة يهود فلسطين في الرواية الجزائرية، عبر شخصيات ذكورية وأثوية، تحمل صفات ومواقف معينة، من العنصرية والحقد، إلى التسامح والتعايش، عبر عنها الروائيون وحاولنا استقصاء صورها وفي المبحث الأخير عرض لصورة الصهيوني المحتل للأرض الفلسطينية.

وفي نهاية كل فصل من الفصول التطبيقية جدول تلخيصي لموضوع الصورة المدروسة على مستواه، من الإطار الذي تندرج فيه، إلى الشخصية التي عبرت عنه، والصورة التي ظهرت بها، وفق ما تم إدراجه في كل رواية من الروايات التي تم تحليلها.

وفي نهاية البحث خاتمة، ارتأينا تحميلها أهم النتائج الواردة على مستوى الفصول والمباحث بمختلف فروعها وعناصرها، حتى يتسنى ترسيخ بعض المفاهيم المستخلصة، وتعليق بعض النتائج المهمة والتي تعدّ من جهة أخرى إجابات عن إشكالات مطروحة سلفا.

ولتقييد النتائج، والإجابة عن التساؤلات، كان لزاما التقيّد بمنهج يتوافق مع موضوع البحث وطبيعته، والملاحظ أن هذه الدراسة لم تسر على نمط واحد، لتعدّد الميادين التي تغترف منها، وتبعاً لذلك لم يكن المنهج المتّبع واحداً، بل هو مجموعة من المناهج المتكاملة، منها التاريخي المعين على تتبع تطوّر الرواية الجزائرية عبر المراحل الزمنية المتعاقبة، بين سنتي 1950م و2010م، والظروف الاجتماعية والتاريخية المحيطة بها والتي صدرت عنها الروايات في كلّ مرحلة، وكان للمنهج الموضوعاتي حضور في تحديد أهم المواضيع والمضامين التي طرحتها الرواية الجزائرية، وبذلك تحديد طبيعة الآخر الذي وقع معه اللقاء والتصادم في كلّ مرحلة من المراحل التي تمّ إدراجها، ولاستقصاء طبيعة صور هذا الآخر كان لزاما اعتماد المنهج الوصفي التحليلي المقارن، وهو أكثر المناهج حضوراً في هذا البحث، لما يمكنه

من تحليل للروايات واستخراج للصور، ثم المقارنة بينها، وإدراجها ضمن عناصر وفق اشتراكها في طبيعة الآخر الذي عبّرت عنه، والصفات التي يضيفها عليها كل كاتب على حدة.

ويعد البحث متشعب العناصر، متعدد المناهل، مختلف الميادين، مما جعل قائمة المصادر والمراجع المعتمدة متعدّدة، فاحتوت القائمة على مراجع ودراسات تاريخية، من بينها: دراسة عمورة عمار "موجز في تاريخ الجزائر"، بشير بلاّح "تاريخ الجزائر المعاصر: 1930-1989". ومفيد الزبيدي "موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر-من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الأولى (1789-1914)..." ومن الدراسات الخاصة بحقل الصورائية: "الأدب المقارن" لمحمد غنيمي هلال، "مدارس الأدب المقارن-دراسة منهجية" لسعيد علوش، "مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن" لماجدة حمود، و"الأدب العام والمقارن" لدانييل هنري باجو، Omer Massoumou, L'image de L'autre dans la littérature française، وغيرها من الدراسات.

ومن مراجع الأدب الجزائري، والرواية على الخصوص: "المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف" لأمنة بلعلي، "تطور الأدب القصصي الجزائري 1925، 1967" لعائدة أديب بامية، "الرواية والتحويلات في الجزائر" لمخلوف عامر، "اتجاهات الرواية العربية في الجزائر" لواسيني الأعرج، "الأدب الجزائري باللسان الفرنسي: نشأته وتطوره وقضاياها" لأحمد منور، "قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجوه والحدود" لسعيد يقطين. وفي مجال اللقاء بين الشرق والغرب، وموضوع التصادم مع الآخر جملة من الدراسات المهمة ك: "شرق وغرب- رجولة وأنوثة: دراسة في أزمة الجنس والحضارة" لجورج طرايشي "العالم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول" لعلي حرب، "وعي الذات والعالم" لنبيل سليمان، "مسألة الهوية: العروبة والإسلام...والغرب" لمحمد عابد الجابري، "الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق" لإدوارد سعيد، و "نحن والآخر" لغريغوار منصور مرشو وسيد محمد صادق الحسيني...إلى جانب مرجعين مهمين جدا، وقرا جملة من المقالات والدراسات الفكرية والفلسفية هما: "صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه"، للطاهر لبيب وآخرون، و "الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر" رياض زكي قاسم (تحريراً وتقديماً).

والمُدوّنة التي تمّ اختيارها للتحليل، تتمثّل في حوالي أربعين رواية جزائرية، بين العربية والفرنسية وتتوزع تواريخ صدورها طيلة فترة ستّين سنة من الإبداع الروائي الجزائري، وكان اختيارها وفقا لتعبيرها عن الآخر، وذكرها لصفات له، أو لعلاقته بالأنا، وإبداء المواقف منه، فمنها المشهورة لشهرة أصحابها ومنها المغمورة، منها حديثة النشر ومنها القديمة.

وقد تمّ اعتماد عدد من المقالات والدراسات المنشورة ضمن دوريات ومجلات ورقية وإلكترونية على أن الاستعانة بالإلكترونية منها يتعلق -غالبا- بالقراءات الخاصة بالروايات حديثة النشر، ودراساتها أو نقدها، مما يتعدّد وجود دراسات ورقية حديثة تناولها بالتحليل، وإن كانت هذه القراءات مقيّدة بالموقع الإلكتروني الذي سحبت منه، وتاريخ سحبها.

ولا يمكن لأيّ بحث، أن يخلص إلى نتائج ويتكلل بإجابات عن تساؤلات عالقة، دون مواجهة صعوبات وعراقيل، تتراوح درجة الصعوبة فيها تبعا لطبيعة الموضوع، وطبيعة الباحث، إذ لولا الإرادة الجاحمة، والصبر الحثيث لما تمكّن أيّ باحث من مواصلة بحثه، ولعلّ أهمّ العراقيل التي واجهناها منذ البداية، تتعلق باتّساع الموضوع وعمقه، وكثرة المدوّنة المختارة للتحليل، وطول الفترة الزمنية التي تنتمي إليها، فهو كما يبدو، موضوع يتّسم بطابع العموم والشمولية، وهو ما جعل المصادر والمراجع متعددة ومجالات البحث متباينة، مما أوشك في كثير من الأحيان إلى التّفلّت من بين أيدينا، ولعلّ أكثر الصعوبات؛ جملة الروايات المختارة للتحليل المكتوبة باللغة الفرنسية، إذ تصل إلى حوالي عشرين رواية وذلك ليس لضعف في فهمها، ولكن لطول النصوص الساردة لصورة الآخر.

ومع كل ما واجهناه في هذه الرّحلة البحثية، وفي كلّ مراحلها من صعوبات وعراقيل مضنية، كادت أن تثبّت العزيمة، وتقتل الإرادة، إلّا أنه قد أُنجِز بفضل من الله وعونه وتقديره، فالحمد لله والشكر والإناابة إليه. وكان لنا في إنجاز عونا وإرشادا ونُصحا وتوجيها من الأستاذ المشرف الدكتور عبد القادر توزان، الذي أشكره وأقدّر فيه شخص الباحث والموجّه. والشكر موصول إلى لجنة المناقشة، التي تشرّفَتْ بها وبقراءتها لثمرة هذا الجهد المبذول والمتواضع، رغبة مّي في الظفر بنصائحها وتوجيهاتها مما تعدّر

الوقوف عليه، وسقوطه من البحث سهوًا أو جهلاً، لإخراجه في الشكل الذي نرتضيه ويرضى به الباحثون والطلبة، في تقديم الجديد والمفيد للمكتبة الجزائرية.

الفصل الأول:

صورة الآخر في العمل الروائي

المبحث الأول: ثنائية الأنا والآخر

المبحث الثاني: صورة الأنا والآخر

المبحث الثالث: الآخر في الرواية العربية

الفصل الأول: صورة الآخر في العمل الروائي

المبحث الأول: ثنائية الأنا والآخر

تعدّ ثنائية الأنا والآخر من أهمّ الثنائيات التي يعوّل عليها الدرس المقارن، لاسيما ما يتعلّق بالبحث عن موقف كلّ منهما عن الآخر، والأفكار والصور - حقيقية كانت أم خيالية - التي تتشكل في ذهنية الأنا عن الآخر، أو العكس. وتبعا لهذا لا بد من الوقوف على كنه كلا المفهومين، والبحث عن العلاقة القائمة بينهما، كيف تنبني؟ وكيف تنعكس على مستوى الأدب بالخصوص؟ من خلال العناصر التالية:

1/ في مفهوم الأنا:

" الأنا" مقابل "للآخر" ولا يحسن تعريف أحدهما دون الآخر، ومع ذلك نحاول فيما يلي تحديد مفهوم "الأنا" وإن كان يتعدّد ذلك بالتدقيق لكون هذا المفهوم >>متعدّد الدلالات بتعدّد استخدام المنظرين وتباين مشاربهم، فيرمز له مرّة بالأنا و أخرى بالذات <<¹، وإن كانت >>"أنا" تعني دائما الفرد أي الموضوع القائم بذاته، القاعدي، المرتبط بالروح، أو الحامل المادي للنشاط الذي يكتسب واقعية الحياة في التعامل فقط مع شخص آخر أي "أنت" <<²، وهنا تبرز ذاتية الأنا، أي أثناء تصادمها مع اللاّ أنا أو مع الآخر، إذ أنّ >> "أنا" تعني دائما إبراز نقيض الذات، شيء ما مختلف أو شخص ما أمام شخص آخر (أنا=اللاّ أنا) (أنا=الآخر) (أنا-أنت) (أنا-نحن) (أنا-مُلكي) (أنا-أنا) وتكتسب معنى معيّن في سياق هذا المعنى، وكلما كانت الإيجابية أكثر تجريدية يتناقض فيها (أنا) كلما كان التحديد أقل فيه ذاته <<³ و"للأنا" عموما في الفلسفة الحديثة عدّة معان:

¹ سلاف بوحلايس، صورة الأنا والآخر في شعر فكتور هيغو، موقع: www.manifest.univ-ouargla.dz تاريخ

الزيارة: 2014/10/15

² إيغوركون، البحث عن الذات-دراسة في الشخصية ووعي الذات، تر: غسان أدب نصر، منشورات دار معدّ للنشر والتوزيع،

دمشق-سورية، 1992، ص ص 10-11.

³ المرجع نفسه، ص 11.

المعنى النفسي والأخلاقي: حيث >> تشير كلمة "أنا" في الفلسفة التجريبية إلى الشعور الفردي الواقعي فهي إذن تطلق على موجود تُنسب إليه جميع الأحوال الشعورية^{1<<}، أمّا في المعنى الوجودي: >> فتدلّ كلمة (أنا) على جوهر حقيقي ثابت يحمل الأعراض التي يتألف منها الشعور الواقعي، سواء كانت هذه الأعراض موجودة معاً أو متعاقبة، فهو إذن مفارق للإحساسات والعواطف والأفكار، لا يتبدل بتبدلها ولا يتغيّر بتغيّرها^{2<<}. أما في المعنى المنطقي: >> تدلّ كلمة (أنا) على المدرك من حيث أن وحدته وهويته شرطان ضروريان يتضمّنهما تركيب المختلف الذي في الحدس، وارتباط التصوّرات التي في الذهن^{3<<}، وبذلك فإن "أنا" ضمير لفظي، تجتمع فيه الأحاسيس والمشاعر والوعي والإدراك.

وكما كتب هيغل، فإن: >> الوعي بالذات بما هو هوية مخصوصة لا ينبني إلا ضمن تفاعل متين مع غيره، إنه لا يدرك نفسه إلا عبر الاعتراف به من لدن وعي آخر بالذات، ولكن للتخلص من هذه التبعية يقوم الوعي بالذات نفسه على أنه أوحده، ويقصّي الآخر، إن كل واحد يروم إلغاء الآخر حتى يحصل على اليقين بالذات^{4<<}، فالوعي أهم ما يميّز الذات عن غيرها، إن كانت هذه الذات >> ليست وحدة فارغة المحتوى، ولكن هناك عمليات واحتياجات نفسية تلعب دورها في تشكيل هذه الذات ويتكون مفهوم الذات من جميع المعلومات التي نعرفها عن أنفسنا وكما يمكن اعتبار الذات نمطا ظاهرا للإطار المعرفي الخاص بالفرد، وذلك الذي ينمو يتطوّر من خلال التجربة^{5<<}، ذلك أنّ الفرد يتغيّر مع مرور الزمن، ولا يمكن إدراك الفرق بين الأنا وعينها إلا من خلال المقارنة، فإذا أردنا أن >> نتساءل إن كان شيء معين هو عينه [Same] أم لا، فإننا نرجع دوماً إلى شيء وجد في زمن محدّد، ومكان محدّد ونحن متأكدون بأنه في تلك اللحظة كان هذا الشيء مساوياً لنفسه (هو عينه مع ذاته [the Same

¹ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، 2، 198، ص 140.

² المرجع نفسه، ص 140.

³ المرجع نفسه، ص 140، 141.

⁴ روبرار شارفان، الآخر في فرنسا المعاصرة: العربي كبش الفداء، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط2، سبتمبر 2008، ص 593.

⁵ همت بسيوني عبد العزيز، الشخصية المصرية وصورة الآخر، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص 63

[self with it] <<¹. و"الأنا" نوعان "أنا" فردية- و"أنا" جماعية على أنّ "الأنا" الجماعية تمثل "النحن"، >> وإنّ كلمة "نحن" ليست أحادية المعنى: فهي تعني صيغة الجمع من "الأنا"، بل إنّما أن تكون صيغة ضمنية Inclusive أنا + أنتم أو أنا + هم (الصيغة الخارجية Exclusive) <<²، وبهذا المعنى يكون للأنا نوعان فردية يقابلها الآخر الفردي أو النوعي، وجماعية يقابلها الآخر الجمعي. وتبعاً لهذا الأساس فإنّ دراسة >> "الأنا" في سياق العلاقات مع الأفراد الآخرين تحوي مجموعة كاملة من المعاني: إن "الأنا-الآخر" تفترض ليس فقط التفريق، بل التأثير المتبادل القوي، إن "الأنا-نحن" تعبّر عن الملكية المشاركة في شيء ما عام، إن (أنا - لي) تعبّر عن موقف الكلّ من الجزء أو الموضوع من الهدف أن (أنا-أنت) للدعاء والمخاطبة (أنا-الآخر-أنا-أنا) تعني المخاطبة الذاتية والحوار الداخلي مع الذات إنّ "الأنا" إذا وجدت في غير سياق مفيد، فإنّها ستكون وبساطة بدون معنى <<³، فالمعاني التي تحويها الأنا تختلف حسب منطلق الشخص الواعي المدرك لذاته ولما حوله.

ومن >> الشروط الأولية لبناء وحدة بسلوكية اجتماعية هو إنشاء (صورة الآخر): فبفضلها تتحقق نزعة الفرد إلى خلق انشطار بين (النحن) و(الهم)، وإلى تمييز الفروق القائمة بين هؤلاء وأولئك تلك هي النزعة التّواقة إلى إنشاء (نحن) ذاتية تقرن بكلّ ما هو آخر <<⁴. وللوقوف على كل تفاصيل مفهوم "الأنا" لا مناص من الوقوف على مقابلها، وهو مفهوم الآخر.

2 / في مفهوم الآخر:

توجد العديد من الكلمات الدّالة على ما يقابل الأنا، كاللأنا، الآخر، الهو، والغير...، وهي دوال تتقارب فيما بينها من جهة، وتختلف من جوانب أخرى، إذ أنّ >> لفظ "الغير" في علم النفس مقابل للفظ "أنا"، فكل ما كان موجوداً خارج الذات المدركة أو مستقلاً عنها كان غيرها، ونحن نطلق على

¹ بول ريكور، الذات عينها كآخر، تر: جورج زيناقي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، تشرين الثاني (نوفمبر) 2005، ص 269.

² إيغوركون، البحث عن الذات-دراسة في الشخصية ووعي الذات، ص7.

³ المرجع نفسه، ص 11.

⁴ آنا أندرينكوفا، صورة الآخر كخلفية لتصور الذات في المجتمع الروسي، في "الظاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص 157.

الشيء الموجود خارج الأنا، اسم اللاأنا أو الآخر، فالأنا إذن هي الذات المفكرة، والموضوع الخارجي هو الآخر¹، فكل ما هو ليس "أنا" هو "آخر" و>> "للآخر" حضور دائم عند الذات في جميع مراحل الحياة، وكما يؤكد علماء النفس، فإن حضور الآخر ليس شيئاً عارضاً، إلا أن الآخر في الوقت نفسه ليس شيئاً ثابتاً باستمرار، بل تتغير خصائصه بتغير الظروف و المواقع². على أن أهم عامل يساهم في تنوع الآخر هو الذات، >> مما يعني أن كل وعي للذات هو في الوقت نفسه وعي بالآخر، أو بآخر واقعي أو متخيل لا انفكاك لواحدنا عنه فيما يفكر فيه أو يقوله أو يسعى إليه³.

وتختلف هوية الآخر باختلاف المنظور الذي تنظر منه الأنا، والوعي الذي تدركه، >> فالآخر ليس بالضرورة هو البعيد جغرافياً أو صاحب العداء التاريخي أو التنافس الدائم، إذ يمكن للذات أن تنقسم على نفسها، أو يحارب بعضها البعض الآخر⁴، كما أن >> "الآخر" هو من ليس له، لا الأجداد أنفسهم ولا الآلهة نفسها، ولا حتى اللغة نفسها التي لنا⁵، وبالتالي فإن "الأنا" هي من ترسم حدود الآخر وتضع مواصفات شكله، >> فكما يكون الآخر فرداً يكون في أحيان أخرى جماعة، وكما يكون الآخر معروفاً للذات، وقريباً منها، فإنه يكون في أحيان أخرى في أماكن بعيدة وحتى في أزمنة مختلفة⁶ مختلفة⁶.

وعلى العموم يمكن أن تدخل في إطار العلاقة بين الأنا وما يقابلها الشائيتان التاليتان (أنا - آخر "اللاأنا") و(أنا "نحن" - الآخر)، فيكون الآخر في الأولى فرداً، ويكون في الثانية جماعة، ذلك أن الآخر "اللاأنا" يتكوّن >> من أشياء طبيعية وأشخاص يدعون "أنت"، أضف إلى ذلك أن هناك تمييزاً بين

¹ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص131

² مصطفى عمر التير، البعد الجغرافي وصورة الآخر - مقارنة امبيريقية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه ص419.

³ علي حرب، العالم ومأزقه: منطلق الصدام ولغة التداول، منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002، ص281.

⁴ حيدر إبراهيم علي، صورة الآخر المختلف فكرياً: سوسولوجية الاختلاف والتعصيب، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص111.

⁵ جان فآزو، الآخر بما هو اختراع تاريخي، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص51.

⁶ مصطفى عمر التير، البعد الجغرافي وصورة الآخر - مقارنة امبيريقية، ص419

(أنت) حميمة (تنادي بالاسم الأول) ، وآخرين بعيدين (ينادون باللقب أو بالاسم الكامل)، وفي النهاية فإنّ أنا وأنت الحميمة تشكّلان (نحن)، بينما يتشكّل (هم) من حاصل (أنت) الغريب، وهكذا فإن من الواضح أن الآخر هو تعبير عام، يغطّي الحالات التي يعترف فيها بالاختلافات اللغوية، والثقافية الأخرى والتي تشكّل الأساس لهوية "نحن"¹، وبذلك نكون أمام نوعين من الآخر : الآخر الداخلي، والآخر الخارجي.

الآخر الداخلي: ويقصده >> كل آخر يشترك في المواطنة مع غيره، حيث يأتي الاختلاف من داخل ما يسمّى جماعة (النحن) نفسها، وتصبح الفكرة أو العقيدة أو الايدولوجيا وطناً جديداً، أو مجتمعاً يجمع المنتمين إلى الفكرة²، ذلك أن كلّ من يدخل في إطار الثنائية (أنا - آخر)، والتي يكون فيها الأنا فرداً نوعياً، له وعي بمشاعره وأحاسيسه، وإدراك لما حوله، فالآخر يكون مقابلاً له، أي يكون فرداً آخر له ما يميّزه عن الأنا ويخالفه، ليس بالضرورة في كل النواحي، وإنما تكفي ناحية واحدة لاعتباره آخرًا. وبهذا يمكن تقسيم "الآخر" تبعاً للجنس أو الدين، أو الايدولوجيا أو الجغرافيا... كالتالي:

>> الآخر النوعي: ويقوم على التفرقة على أساس النوع ما بين رجل وامرأة/ ذكر وأنثى.

- الآخر الديني: وتكون التفرقة على أساس الدين؛ مسلم-مسيحي-يهودي... إلى غير ذلك.

- الآخر داخل الدين الواحد: ويقصد به الطوائف والفرق المختلفة في كل دين

- الآخر السلطوي: ويقصد به الانقسام ما بين حاكم ومحكوم.

- الآخر العنصري: حيث تقوم التفرقة هنا على أساس اللون: أبيض، أسود...

- والآخر من حيث الإقامة: ريفي، حضري³

وما هذا التعدّد في "الآخر" إلاّ لتعدّد الزوايا التي ينظر من خلالها "الأنا"، فهو لا يحتمل >> دالاً واحداً في كلّ مرة، بل يتبدّل هذا الدال عند كل واقعة تاريخية أو سياسية أو اجتماعية... الخ تبعاً للحال التي

¹ فيلهو هارثي، مفهوم وموارث "العدو" في ضوء عملية التوحيد والسياسات الأوروبية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص 55

² همّت بسيوني عبد العزيز، الشخصية المصرية وصورة الآخر، ص 67.

³ المرجع نفسه، ص 68.

يتمّ منها التّطرق إلى الآخر^{1<<}، فإذا انطلقنا من (أنا=نحن) فإن "الآخر" سيتغيّر بالضرورة، ذلك أنّ الذي كنت أعتبره آخراً في الثنائية (أنا=الأننا) قد يكون ضمّاً صوته إلّياً في إطار الثنائية (أنا=نحن) وبالتالي يخرج من دائرة الإتيّة كلّ من >> لا ينتمي لجماعة النّحن، وهو يشير لكلّ ما يقع خارج الذات الجماعية^{2<<}، وهنا نكون أمام الآخر الخارجيّ، والذي تتشكّل وفقاً له مجموعة من الثنائيات من منطلق اللغة القومية، التاريخ المشترك، أو الرقعة الجغرافية، الثقافة الجمعية، الإرث الحضاري، النظام السياسي، والتّصنيف العرقي، وكلّها عوامل ومحدّدات تتعلّق بالهوية القومية بالدرجة الأولى، وهي التي تفصل "الأننا" عن "الآخر" وتبرز دائرة التمايز والتقابل بينهما. >> وهكذا يقدّم الآخر نفسه في كلّ مرة في كينونة مختلفة تبعا للزاوية التي وُضِعَ فيها صاحب الدّعوة^{3<<}، أو الأننا النّاظرة إلى هذا الآخر.

3/ العلاقة بين "الأننا" و "الآخر":

تنبني ثنائية (الأننا والآخر) أساساً على المفارقة والاختلاف الموجود بين ذاتيين أو بين فردين، وقد >> أجمعت العرب على أنّ الاختلاف و المخالفة في اللغة، تعني أن ينهج كلّ شخص طريقاً مغايراً للآخر في حاله أو في قوله، والخلاف أعمّ من الضدّ، لأن كلّ ضدّين مختلفان، وليس كلّ مختلفين ضدّان وتتّسع مقولة الاختلاف و الخلاف لتشمل أحيانا المنازعة والجدل والمجادلة، وما إلى ذلك، لكن الاختلاف يبقى سنّة كونية لامناص منها^{4<<}، بمعنى أن الاختلاف الذي يجمع بين الأمور ويفرّقها ليس عيباً ولا نقصاً، وإنما هو ممّا يعني ويفيد كلّ من الأننا و الآخر.

فالعلاقة بين "الأننا" و "الآخر" قائمة على الوعي والإدراك لكلّ منهما، إذ >> أنّ إدراك الآخر جزء من إدراك الذات، إدراكه كما هو، ليس كما نريد، وإنّ تصوّره وفهمه يطرح الآليات الصحيحة

¹ دلّال البرزي، الآخر: المفارقة الضرورية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص 101.

² همت بسبوي عبد العزيز، الشخصية المصرية وصورة الآخر، ص 68.

³ دلّال البرزي، الآخر: المفارقة الضرورية، ص 101.

⁴ غريغوار منصور مرشو، سيد محمد صادق الحسيني، نحن والآخر، دار الفكر، دمشق-سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان،

ط 1، رجب 1422هـ-سبتمبر 2001م، ص 93.

للتعامل معه^{1<<}، فعلى الرغم من وجود الاختلافات العديدة بين الأنا والآخر إلا أنه لا بدّ من إدراك الواحد منهما للآخر، >فالفارق سواء أكان فارقا بين الجنسين أو فارقا في السلوك أو الشخصية أو فارقا عرقيا، أو ثقافيا يمكن أن يصبح وسطا تنشأ فيه روح عدائية، ولكنه يمكن أيضا أن يكون بيئة لخلق تفاهم وتعاطف متبادلين^{2<<}، وتبعاً لذلك فإنّ العلاقة بين الذات والآخر علاقة >> في غاية التعقيد حيث يصبح الآخر شرطاً لتحرّر الذات من ذاتية عمياء لا ترى إلاّ نفسها - وربّما لا تراها - ومن ثمّ تحمل نهاية لـصيرورتها... وفي الوقت نفسه فإنّ تحرّر الذات من حدودها، والخروج إلى الآخر، إنّما يعني التجدّد بإدراك نقاط القوى لدى الآخر، التي تعني نقاط الضعف لدى الذات^{3<<}.

وبذلك فإنّ العلاقة بين الأنا والآخر بقدر ما هي علاقة شرطية تلازمية، هي علاقة جدلية من هنا لا بدّ من التساؤل عن كيفية التعايش بين الأنا والآخر، في إطار جدلية العلاقة، والمفارقة الجامعة المانعة، >> فكيف يمكن للمرء أن يدير اختلافه عن سواه، وأن يمارس هويته بصورة عقلانية تواصلية؟^{4<<}، إذ لا يمكن إلغاء الآخر أو رفضه، أو إقصائه من منطلق أن احترام الآخر والقبول به وإكرامه نابع من احترام الذات وإكرامها. إذ >> أنّ قانون احترام الآخر والاعتراف بحقوقه قدر حتمي اعترفنا به أم لم نعتزف، قبلنا به أم لم نقبل، اكتشفناه أم لم نكتشفه، صالحناه أم خاصمناه، ذلك أنّه قانون موجود في حركة الحياة وهو طبيعة الحركة الجوهرية للإنسان^{5<<}، فاحترام الآخر والقبول به هو أول خطوات التعايش بين طرفي الشئانية.

وكخطوة ثانية تسعى جادّة نحو الكمال، لا بدّ من >> حسن الاستماع للآخر الذي يجعلك تضع نفسك في موقع الطرف الآخر، فتكون بذلك قد حصلت على ما حصل عليه من فوائد توفير فرص

¹ إيهاب النجدي، صورة الغرب في الشعر العربي الحديث، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2008، ص10

² همت بسبوني عبد العزيز، الشخصية المصرية وصورة الآخر، ص76

³ سمير مرقش، الآخر. الحوار. المواطنة: مفاهيم وإشكاليات وخبرات مصرية وعالمية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 1426هـ-2005م، ص19.

⁴ علي حرب، العالم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول، ص278.

⁵ غريغوار منصور مرشو، سيد محمد صادق الحسيني، نحن والآخر، ص135

التّصحيح، والتّطور والتّقدم على قدم المساواة^{1<<}، إذ لا يكفي قبول الآخر واحترامه بل لابد من الاستماع إليه، بما يعبر عن نفسه، وبما يقدمه للمجتمع من تجديد وتنمية، تسهم في تطويره وتطوير الذات المستمعة إليه.

وكما يجب على الذات أن تحسن الاستماع للآخر، فهي مجبرة على حسن الاستماع لنفسها ولأنها الخاصة، كي تتمكن من محاوره الآخر، بمعرفة حدودها ومقوماتها، وبالتالي معرفة الذات لذاتها ولآخرها، وبهذا تتمكن من المحاوره بأساليب راقية ناجمة عن الوعي والإدراك لا عن سوء الفهم والجهل والعداء.[>] فبالحوار وحده نستطيع اكتشاف ذاتنا أولاً، والتعرّف عليها جيداً، وتحديد أحجامنا وقدراتنا وإمكاناتنا، ومن ثمّ تطوير أنفسنا للحاق بركب التحولات والتطورات^{2<<}، وتجنّب الإشارة إلى أنّ مفهوم الحوار لا يقتصر على الشّبه، أو للوصول إلى الأفكار نفسها والتطابق في المواقف، وإنما الحوار يكون مع الغير (الآخر) للتعلّم منه والتبادل معه والاعتناء به، لإتقان فنّ العيش معه، وبواسطته، بحيث يحدث التغيير لكلينا، (يسهم كل منّا في تغيير الآخر) عبر ما يتمّ خلقه سوياً من مناخات، ومساحات أو لغات ومجالات،[>] ولذا لا يرمي الحوار إلى التطابق في وجهات النظر بين المختلفين، بقدر ما يرمي إلى خلق مناخ للتعايش أو وسط مفهومي، أو مجال عام أو قيمة تبادلية أو فسحة تنويرية، أو صيغة مركبة، أو لغة حية ومتحركة أو عقلية مفتوحة ومتجددة^{3<<} وحوار الأنا والآخر على نطاقه الواسع يشمل حوار الحضارات الذي يستدعي[>] استمرار التسامح والانفتاح واحترام الخصوصيات والاختلاف والتخفيف من التبشير العقائدي والأدلجة والمصلحية مما يضر كثيراً أو قليلاً بوجود الآخر^{4<<}. لاسيما الحركات الاستعمارية التي تسعى لاستعمار الآخر واحتوائه وإلغائه.

¹ غريغوار منصور مرشو، سيد محمد صادق الحسيني، نحن والآخر، ص 173

² المرجع نفسه، ص 120، 121.

³ علي حرب، العالم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول، ص 288.

⁴ عبد الله أبو هيف، صورة الآخر والحوار بين الحضارات في الرواية العربية، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24، العدد الثالث والرابع،

2008، ص 110.

وتتجلى أهمية الحوار من أهمية الإنسان نفسه، >> بوصفة ناطقا، يمارس علاقته بوجوده كفعل تواصلية عبر المحادثة مع الآخر، بهذا المعنى يشكل الحوار بُعداً من أبعاد الكينونة، خاصة إذا كان تعارفاً أو تداولياً معرفياً حول معاني الكينونة، والهوية والإنسان والحوار <<¹ فالعلاقة بين الأنا والآخر علاقة تقتضي الحذر في التعامل معها، لكونها تلازمية في الوجود، جدلية في المفهوم والبناء تقتضي حسن الإدراك والوعي، ومن ثم القبول والاحترام الذي يوجب حسن الاستماع وحسن التحاور من منطلق الإفادة والاستفادة، بالتسامح والانفتاح بعيداً عن الانعزال وسوء الفهم.

¹علي حرب، العالم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول ، ص 277.

المبحث الثاني: صورة الأنا وصورة الآخر

1/ الصورائية:

يعدّ حقل الصورائية (Imagologie) من أكثر حقول الأدب المقارن اهتماما بالعلاقات بين الشعوب واحتكاكها وتواصلها الثقافي، كونها تسعى إلى دراسة صورة البلد الأجنبي وتجلياتها في الأعمال الأدبية؛ ممّا يسمح بإجلاء الغموض الذي يعتري الصور الخاطئة التي تقدّمها الأمم لغيرها نتيجة سوء الفهم وقلة الإطلاع، وعدم الوقوف على الحقائق. وهي العلم >> الذي يُعنى بدراسة الصور الثقافية التي رسمتها الشعوب عن بعضها، المنبثقة من تحت وطأة غياب أو المتسرّبة من مسكوت عنه وتهتم برصد انطباعات المجتمعات، الرابضة في مخيال الوعي الجمعي، التي تنمّ على أنساق معرفية عامة¹، وقد شهد هذا المجال >> ازدهارا ملحوظا في هذه الأيام، بسبب رغبة بعض المثقفين في سيادة مناخ من التعايش السلمي، إذ أنهم يبحثون عن دور فاعل في الحياة كي يقاوموا لغة العداة التي يعيشها المتعصبون والسياسيون²، مما يساهم في تصحيح ما هو مغلوط والسعي للوقوف عليه بالاستناد إلى مادة أدبية، تفكّك وتبدّد الصورة التي تكوّنّها الذات الناظرة عبر مخيالها الفردي أو الجماعي.

والصورائية أحد أهم الميادين المفضّلة لدى رواد المدرسة الفرنسية³ في الأدب المقارن⁴ تصادف ولادته >> ظهور الوطنيات الأدبية، وانتشار الكتابات الغرائبية التي تبحث عن ميثة الآخر كما

¹ نوافل يونس الحمداني، الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر، مجلة ديالي، العدد الخامس والخمسون، 2012م
² ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1431هـ-2010م، ص9.

³ تعدّ المدرسة الفرنسية أول مدرسة منهجية عرفها الأدب المقارن وأقدمها، من أهم روادها بول فانتينغم، جون ماري كاريه، فرانسوا غويار، يتعدّد مفهومها للأدب المقارن في كونه العلم الذي يدرس علاقات التأثير والتأثير الحاصلة بين الآداب القومية المختلفة معتمدة منها تاريخيا قائما على الوثائق والمصادر وتشترط الاختلاف اللغوي بين الآداب لإقامة الدراسات المقارنة بينها. ينظر: أحلام صغور، واقع الدراسات المقارنة في المغرب العربي، رسالة دكتوراه- مخطوط، جامعة وهران، 2010، ص 6 إلى 13.

⁴ دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1997، ص 89.

تكون لديها عبر التاريخ، أو كما يتكون لديها عبر رحلات ومغامرات وخرافات تراثية¹ تتناقلها الأمم والشعوب.

وقد كانت بدايات **الصورائية** > مع جون ماري كاريه (J. M. carré)، ثم أخذها عنه ماريوس فرانسوا غويار (M. F. Guyard) ودافع عنها، ونشرها في الفصل الأخير من كتابه الصغير ضمن سلسلة (كوسيج- ماذا أعرف؟) عام 1951م "الأجنبي مثلما نراه"²، وقد كانت الأدبية الفرنسية مادام دي ستايل (Mme De stael) بكتابتها "عن ألمانيا" De L'Allemagne، موجهة لمسار هذا الحقل الأدبي، إذ عرّفت الشعب الفرنسي بالشعب الألماني، وبما يتمتع به من مناقب جمّة كالطيبة والاستقامة والصدق، كما نقلت صوراً عن جمال طبيعة ألمانيا³، فساهم هذا الكتاب في تصحيح النظرة المشوّهة التي خصّ بها الفرنسيون الألمان.

لقي حقل الصورائية رواجاً لدى جماعة من الباحثين خصصوا له سلسلة من الرسائل، وضعت قاعدة ومنهجاً لدراسة الصورة الأدبية، من بينها: > رسالة أندريه مونشو "ألمانيا أمام الآداب الفرنسية من عام 1814 إلى عام 1830، تولوز 1953)، ورسالة ماريوس فرانسوا غويار "صورة بريطانيا العظمى في الرواية الفرنسية 1914-1940 ديديه 1945"، ورسالة رينيه شوفال "ألمانيا والحرب 1856-1839-1963 P.U.F"، ورسالة ميشيل كادو "صورة روسيا في الحياة العقلية الفرنسية-1839-1856 فايارد 1967"، وبعض الرسائل الأخرى...⁴، وهي على العموم رسائل اهتمت بتوضيح صور البلدان الأوروبية في آداب غيرها، كما أنها لم تقتصر على دراسة تلك الصور في آداب أديب بعينه بل عمد أصحابها إلى إجمال الصور الجزئية الممثلة من طرف أدباء البلد الواحد، للخروج بصورة عامة، ورؤية شاملة للبلد الآخر.

¹ سعيد علوش، إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي - دراسة مقارنة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1406هـ - 1986م، ص 146.

² دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص 89.

³ ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن - دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص 109.

⁴ دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص 89.

وتتميز الصورة التي يقدمها أدباء بلد عن بلد آخر بالوحدة والتوافق ذلك أنهم ينطلقون من مواقف ذهنية وخلفيات فكرية مشتركة، وإن كانت تهدف دراستها >> إلى إجلاء الأوهام المتبادلة¹ بين الأمم، بمعرفة كل منها للآخر معرفة دقيقة وحقيقية.

ويوجد نوع آخر من الدراسات، تلك التي يهتم فيها الباحث بتقديم صورة بلد أجنبي معين كما تمثلها أديب ما في كتاباته، دون الاهتمام بالتأثيرات التي خضع لها في إنتاجه². وبذلك توضح رؤيته وموقفه تجاه البلد الذي كتب عنه، والذي قد اتصل به، واحتك بشعبه من خلال الرحلة أو الهجرة إليه أو من خلال احتلال هذا البلد لبلده، وقد يكون اتصاله به عن طريق مؤلفات مبدعيه وأحاديث سمعها عنه³، ولا يشترط توافق رؤيته مع رؤية أهل بلده تجاه هذا البلد، بل هي رؤية خاصة وذاتية تنطلق من همومه وأحاسيسه بما حوله، وأهم ما تتميز به دراسة هذا النوع من الصور: الدقة والضبط لكل شاردة وواردة، لاقتصارها على موقف ونظرة أديب واحد فقط.

ولدراسة الصورة الأدبية للبلدان الأجنبية- سواء في أدب أمة أو أدب أديب معين- أهداف يسعى الباحثون إلى تحقيقها، وذلك بمساهمتهم في ترقية ثقافتهم والنهوض ببلدانهم وإحاقها بالركب الثقافي والحضاري العالمين بتغطية الجوانب الناقصة التي قد لا يراها أصحابها إلا من خلال رؤية الآخر لها، >> إذ تعيد الذات اكتشاف نفسها من خلال خروجها إلى الآخر، وقد تبدأ في إدراكها، فالذات لا يمكن أن تكون ذاتاً إلا بوجود الآخر⁴. كما تسمح دراسة صورة البلدان الأخرى >> بإدراك الشعوب للأوهام التي تكوّنت حول بعضها البعض، فتظهر عقلياتها من تلك الأوهام⁵، وبالتالي تصريف الانفعالات المكبوتة تجاه الآخر والمساهمة في إزالة سوء التفاهم والتأسيس لعلاقات سليمة⁶ من الأوهام والتشويهات التي قد تلحقها.

¹ سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن- دراسة منهجية، المركز الثقافي العربي، ط1، 1987، ص 91

² المرجع نفسه، ص 91.

³ ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن- دراسة، ص 110.

⁴ سمير مرقش، الآخر... الحوار... المواطنة - مفاهيم وإشكاليات وخبرات مصرية وعالمية، ص 19.

⁵ عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر، ص 76.

⁶ ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن- دراسة، ص 112.

ومن شأن هذه الدراسات أن تعمّق علاقات الصداقة بين الشعوب وقادتها من خلال >> تكوين رأي عام قد ينتج عنه اتجاه خاص في علاقاتها مع غيرها من جهة، وتهيئ للأمم الأخرى تجارب تتخذها كنماذج في معاملاتهما مع غيرها¹ في تواصلها وتثاقفها للخروج بنماذج ثقافية وحضارية عالمية متكاملة.

ويعدّ اهتمام الباحثين بالصورة الأدبية اهتماماً بالجوانب الفنية والجمالية فيها، بعيداً عن البحث عن الحقائق التاريخية، سعياً للوصول إلى صورة ناجحة تعكس صدق وإحساس وقوة انفعال وجودة تعبير وتصوير تصل إلى درجات عالية من التأثير² فالدارس يبحث عن الصدق في الصورة من خلال صدق الأديب في التعبير، وتأثيره من خلال الصورة التي تقع على جوهر الأفكار والصورة المكوّنة من طرف شعب لشعب آخر³، ولا يطلب منه البحث عن مطابقة الصورة للوقائع كما هي في حقيقتها.

ويلجأ الباحث في استخراج الصور التي يتمثل بها أديب أو مجموعة من الأدباء بلداً معيّنًا إلى دراسة الطريقة التي تكونت بها أفكار أمة ما في أديبها عن الشعب الذي يقصد إلى وصف صورته في ذلك الأدب، أكان ذلك عن طريق الرحلة والمشاهدة المباشرة أم بواسطة المصادر المكوّنة؛ ثم يدرس الباحث المواطن التي زارها الأدباء وتأثروا بها، لأنها تكشف عن العوامل التي ساعدت على تكوين الصورة عندهم، وينبغي أن يكتفي الباحث بدراسة الأدباء الذين لهم مكانة أدبية ويهتم في الأخير بدراسة صدى آراء الرحالة من الكتاب لدى أبناء أمتهم ممّن تحدّثوا عن نفس البلد وأرادوا وصفه وتقديم نماذج بشرية لأهله⁴، ومع ذلك قد >> يصل الباحث إلى صور تبعد عن الأمانة والدقة في التعبير عن البلد المطلوب تصويره⁵، لصدور ذلك عن انفعالات ذهنية ونفسية خاصة، وأحكام جاهزة مسبقة تساهم تساهم في نقل صور لا أصل لها.

¹ محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت - لبنان، ط2، 1961، ص 428.

² عمر بن قينة، الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، شركة دار الأمة، الجزائر، ط1، ماي 1995، ص 109.

³ عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ص 81.79.

⁴ محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص 421.

⁵ محمد زكي العشموي، دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2005، ص 40.

في مفهوم الصورة الأدبية ومكوناتها:

تهتمّ الصورائية بدراسة الصورة الأدبية الممثلة لبلد أجنبي معين، إذ تعدّ المحور الأساسي الذي تدور حوله جلّ دراسات هذا الحقل، والصورة قبل كل شيء، >> لغة... فعل ثقافة وممارسة إنسانية- (متعلقة بالإنسان) للتعبير عن الهوية والغيرية في الوقت نفسه^{1<<} وهي أداة للتعبير عن الآخر والتواصل معه، فهي >> نتاج من إنتاجات المخيلة والحس الإبداعي^{2<<} تتمظهر في النصوص الأدبية >> كإدراك منفتح على العالم والأشياء من منظور وعي الراوي^{3<<}، الذي يحمل موقفا تجاه الأمور يجسده في الصور التي يشكل بها عمله الأدبي.

ويشكل الآخر أو الأجنبي موضوعا لهذه الصورة التي تجسده وترسمه وفقا لما تعبأ به من معطيات فكرية، وثقافية واجتماعية، ذلك أن كل >> صورة هي ترجمة للآخر^{4<<}، هذا الآخر الذي ليس فقط القريب منا أو البعيد عنا، وإنما المختلف معنا من حيث المكان والزمان⁵ على أن هذا الاختلاف هو ما يلاحظه الأديب، إذ يرى عند الآخر ما ليس فيه⁶ وبالتالي يهتم بتصويره ولفت الانتباه الانتباه إليه، حتى يغدو مظهرا مهما يطبع صورة هذا الآخر وإن كانت دراسة الصور تهتم- في أغلب الأحوال- ليس بالأشياء والمظاهر الخارجية، وإنما برؤية الأديب المصور لهذه الأشياء، وموقفه من الأشخاص، بمعنى أن الصورة لا تُعنى بتقديم الحقائق والوقائع كما هي، وإنما بجملته الأحكام والأحاسيس

¹ دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص ص 92. 93.

² محمد نور الدين أفايه، التخيل والتواصل - مفارقات العرب والغرب، دار المنتخب العربي، بيروت - لبنان، ط1، 1414هـ- 1993م، ص 7.

³ شعيب حليفي، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، دراسات في الرواية العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، يناير 2005، ص 161.

⁴ دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص 98.

⁵ Omer Massoumou, L'image de L'autre dans la littérature française, L'Harmattan, Paris, 2004, p7.

⁶ Lantri Elfoul, Traductologie littérature comparée - Etudes et essais , CASBAH , Alger , 2006, p 101.

تجاه هذا الآخر¹ ولو كان خلاف ذلك لَكُنَّا في غنى عن الأدب وأبجھنا لكتب التاريخ وعلم الاجتماع التي تتوافر على أدق المعلومات عن الشعوب وعاداتها ومظاهر حضارتها.

والصورة نوعان إما فردية أو جماعية، إذ تقدم الأولى موضوعا معيَّنا يميّز أمة من الأمم، يعنى بها أديب ما، تبرز من خلال دراسة شخصية هذا الأديب، والإطلاع على حياته ومؤلفاته الأدبية في حين تهتمّ الثانية بظاهرة طبيعية اجتماعية أو تاريخية خاصة ببلد معيّن ضمن أدب بلد آخر² و كلتا الصورتين فردية أو جماعية تمتزج >> فيها عناصر فكرية وعاطفية في الوقت نفسه، موضوعية وذاتية فلا يمكن لأي أجنبي أن يرى بلدا كما يحلو لسكانه الأصليين أن يُرى، ومرّد ذلك أن العناصر العاطفية تطغى على العناصر الموضوعية³، تساهم في تشكيلهما وتوجّه مساراتهما، وكثيرا >> ما تتغلب العناصر الموضوعية لتمنحنا صورة مغلوبة عن الآخر، لأن الأجنبي لا يقدم لنا صورة البلد الذي يتناوله مثلما هي عليه، وإنما مثلما يريد أن تكون⁴ انطلاقا من خلفيات نفسية ثقافية واجتماعية معيَّنة. و >> تعدّ الصورة التي يكوّنها كاتب عن بلد أجنبي، اعتمادا على تجربته الشخصية وعلاقاته وقراءاته جديرة بالدراسة في حالة ما إذا كان هذا الكاتب يمثل شعبه حقا بفضل تأثيره الفعلي في أدب بلده وفي رأيه العام⁵، كأن يكون حاملا هموم الذات معبرا عنها بما يتوافق وعقلية المجتمع، ولا يمثل بذلك بذلك خروجا عن المؤلف من الموقف العام تجاه الآخر.

تعتبر الصورة التي يقدمها المبدع وسيلة يرى من خلالها المجتمع مرآة أعماقه فيها من قبح وجمال فترسم عبرها ملامح ذاته والآخر، فتعايش أفكاره وأحلامه وانفعالاته التي تجلّت في هذا العالم الرمزي⁶ الذي يشكّله الأديب في كتاباته، مما يسمح بتشكيل عدة أنواع من الصور:

¹ Ibid, p103.

² Lantri Elfoul, Traductologie littérature comparée - Etudes et essais , p104

³ بيير برونيل، كلود بيشوا، أ.م.روسو، ما الأدب المقارن؟ تر: عبد المجيد حنون، نسيم م. عيلان، عمار رجال، دار بقاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط1، 1431هـ-2012م، ص106

⁴ سعيد علوش، إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي - دراسة مقارنة، ص 178.

⁵ بيير برونيل، كلود بيشوا، أ.م.روسو، ما الأدب المقارن؟، ص 107.

⁶ ينظر: ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، ص 13.

الصورة الذهنية: وهي >> نتاج نهائي للانطباعات الذاتية التي تتكون عند الأفراد أو الجماعات إزاء شخص، أو شعب أو قضية، وتتكون هذه الانطباعات بفعل تجارب مباشرة وغير مباشرة، مرتبطة بعواطف الأفراد أو عقائدهم واتجاهاتهم^{1<<} وبالتالي فإن الصورة عن الآخر تتشكل أول الأمر في الذهن تكون محملة بمواقف خاصة نابغة من توجه الكاتب ومنظوره، وإذا تسنى لها الخروج والبروز في نص أدبي ما، فإنها تشكل ما يعرف بالصورة الأدبية، وهي نوعان:

الصورة النمطية: وتتمثل في تصوّر يُتّصف >> بالتّصلب والتبسيط المفرط لجماعة ما، يتمّ على ضوئه وصف الأشخاص الآخرين الذين ينتمون إلى هذه الجماعة، وتصنيفهم استناداً إلى مجموعة من الخصائص والسمات المميزة لتلك الجماعة^{2<<} كما يمكن أن تكون نتيجة أحكام وتوقعات مسبقة، وهي تنتج >> عن عملية معرفية نفسية ذات أصول ثقافية بالأساس، تقوم على إدراك الأفراد الانتقائي المباشر بخصائص وسمات موضوع ما، فرداً أو جماعة أو مجتمعا أو مؤسسة أو حدثاً، وتكوين اتجاهات عاطفية نحوه (إيجابية أو سلبية)، وتوجهات سلوكية (ظاهرة أو باطنة) في إطار مجتمع معين^{3<<} وتصبح بذلك الصورة النمطية هي ما يلجأ إليه الفرد ويستحضره عند اصطدامه بآخر تكون معرفته به قليلة، فيسعى لسدّ النقص من خلال جملة ما خزنه في ذهنه من معلومات ومواقف عن ما يشبهه أو ينتمي إليه، مما يعزز تنمية وإثراء العلاقات المشوهة وسوء الفهم بينهما.

الصورة المرجعية: وهي ما يقصد به >> الصورة الفكرية والوجدانية والأخلاقية، التي يتأثر ويتوحد معها أفراد ينتمون إلى جماعة معينة، وتشترط هذه الصورة وجود علاقات اجتماعية فعلية ومباشرة داخل الجماعة، كما تشترط وجود تراث ثقافي يوجه الأفراد (...). وهي بذلك تصير ذات قوة كبيرة لا تضاهي في تصور وفهم العالم أو الآخر بصورة مباشرة وآنية^{4<<}، إذ أنها تركز على مرجعية وخلفية فكرية

¹ علي عجوة، العلاقات العامة والصورة الذهنية، عالم الكتب، ط1، 1983م، ص10

² حلمي خضر ساري، المرأة كـ" آخر" دراسة في هيمنة التنميط الجنساني على مكانة المرأة في المجتمع الأردني، في الطاهر لبيب وآخرون، 761

³ همت بسيوني عبد العزيز، الشخصية المصرية وصورة الآخر، ص71

⁴ المرجع نفسه، ص72.

وثقافية يتوحد بها المجتمع في ذاته، تكون معادلا موضوعيا لصورة الذات، وهي عكس الصورة النمطية والأفكار المقولبة التي تنطلق دون سند واقعي أو حقيقي ملموس.

وللصورة **مكوّنات** لا بد من الوقوف عليها وتفكيكها للتمكن من فهمها منذ لحظة الولادة

إلى غاية تشكّلها كصورة في ذهنية شعبٍ معيّن¹ من خلال الرّحلات التي يقوم بها الأدباء إلى البلدان أو الكتب التي يقرأها الناس عن البلدان الأخرى²، وما دامت الصورة متجسدة في نص أدبي معجمي فإن أولى مكوّناتها **اللغة**، والتي تتمثل في >> ذلك المخزون الواسع من الكلمات التي تنقل صورة الآخر لنا<<³، حيث تكون هذه الكلمات مختارة بعناية سواء من حيث مدلولاتها من أسماء الأماكن والمقاييس الزمنية واختيار الأعلام⁴. على أن كلّ كلمة تساعد على فهم الآخر ووصفه.

ويعدّ **الخيال** من المكوّنات المهمّة في تشكيل الصورة؛ ذلك أنّ >> اللغة تختلط فيها المشاعر بالأفكار، وهي ترجع إلى واقع ترسمه وتدلّ عليه، لكن الخيال هو الذي يرفع لغة الصورة إلى مرتبة الجمال الفنيّ، وهو في الوقت نفسه تعبير عن المجتمع والثقافة<<⁵. فالخيال لا يعني الوهم أو الهروب من الواقع وإنما هو سمو باللغة إلى عالم الجمال الفني من خلال ما يضيفه عليها من مجازات.

ومن المكوّنات الأساسية للصورة **النّمط** وهو >> الشكل الأوّلي للصورة<<⁶، وهو حامل لتعريف لتعريف الآخر >> وهو البيان عن معرفة جماعية دنيا تريد أن تكون مشروعة في أي لحظة تاريخية مهما كانت<<⁷، ويكون في الأغلب صورة مشوّهة عن الصورة الحقيقية لشعب معيّن.

¹ دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص 99.

² ينظر: عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ص ص 76، 77.

³ ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص 117.

⁴ دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص 99.

⁵ ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص 114.

⁶ المرجع نفسه، ص 113.

⁷ دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص 95.

وليس بعيد عن النمط المعبر عنه بالسرد والصورة والسيناريو تتشكل الأسطورة التي هي معرفة وسلطة وتاريخ للجماعة، وهي قصة أخلاقية تُقوّي تماسك الجماعة التي أنتجتها¹، إذ تزخر الصورة بأسطورة كانت في الماضي وأُضفيت عليها روح العصر.

الإطار المكاني- الزماني وهو مكون آخر يساهم في توضيح صورة الآخر من خلال ما يقدمه الأديب من أماكن متعددة وأزمنة متعاقبة توحي كل منها بإضفاء الألوان على الصورة المشكلة للآخر التي يتحرك على مستواها، فكل من المكان والزمان يعدّان فضاء تتحرك فيه العلاقات بين الأنا والآخر والتي لا بد من مراقبتها ومقابلتها للوقوع على حقيقة الصورة ومميزاتها²، حيث لا بد من دراسة الشخصيات في إطار مكاني وزماني معين، وتحديد الشخصيات من خلال الجنس والانتساب السياسي والثقافي من جهة، وكذا بعض الصفات التي تطبعه والميزات التي تميّز الفئات العمرية المختلفة³، مما يسمح يسمح بتشكيل صورة دقيقة وفق ما قدّمه الأديب في نصّه.

وهناك عناصر أخرى تُسهم في تشكيل الصورة الأدبية كالسيناريو والذي يعدّ حواراً بين ثقافتين يُقدّم من خلاله الأجنبي عبر تشكيل جمالي وثقافي أي يقدم عبر الصورة السيناريو⁴، وتشمل المعطيات التاريخية السياسة والاقتصاد وكذا الثقافة وبعض الجوانب الاجتماعية، حيث يجب مقابلة النص بالتفسيرات التي يقدمها المؤرخون، فيتمّ فهم النص ووظيفة الصورة التي يقدمها عبر دورة من خلال التاريخ خاصة تاريخ العقلية⁵، فيعدّ بذلك من العناصر التي تساعد على الكشف الجلي للصورة وتوضيحها.

ويتعدى الجوانب التاريخية والثقافية عناصر لا بد من رصدها، تنكشف فيها تعبيرات الآخر والسّمات والحركة والحديث، والعلاقات الاجتماعية والعناصر التي تتعدى التعريف البسيط، حاملة دلالة

¹ ينظر: ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص 114.

² ينظر: دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص 102.

³ المرجع نفسه، ص 102.

⁴ ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص 115.

⁵ المرجع نفسه، ص 116. وينظر أيضا: دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص 104

خاصة، إلى جانب الوصف المخالف الذي يساعد على تقديم صورة الآخر من خلال ثنائيات متناقضة مع الأنا، بحيث تتجلى الفروق بينهما وتنعكس صورة كل منهما انطلاقاً من هذه التقابلات التي تبرز أيضاً من خلال وصف جسد الآخر ومنظومة قيمه ومظاهر ثقافته، فنواجه النص بوصفه شاهداً ووثيقة عن الأجنبي للتعرف في الأخير على هذا الآخر، ما قيل عن ثقافته أو ما سُكت عنه¹ فكل ما يظهر في النص أو يختفي يشكل جانباً من الصورة، وبالتالي جانباً من شخصية الآخر.

من خلال العناصر المذكورة يمكن تشكيل صورة واضحة المعالم عن الآخر والتي تبرز من خلالها صورة الأنا، وبالتالي معرفة حال الذات من خلال معرفة حال الغير.

وتسعى الصورائية إلى تحليل وتوضيح ميزات المواقف المتباينة التي تطبع إنتاج الأدباء، ؛ ذلك أن لكل أديب أو مجموعة من الأدباء نظرة يخصّون بها الآخر ويتصورونه من خلالها، وهذه المواقف أو الحالات هي:

● الهوس:

حيث تكون نظرة الأديب للأجنبي المنظور إليه، ولثقافته نظرة إعجاب، وعلى أنه >> متفوق حتماً على الثقافة الناظرة، الثقافة الأصلية، هذا التفوق يؤثر جزئياً أو كلياً في الثقافة الأجنبية المنظورة ومن نتيجة ذلك بالنسبة للثقافة الأصلية أن الكاتب أو الجماعة تعدها أقل مستوى، في موازاة التفضيل الإيجابي للأجنبي هناك رؤية سلبية انتقاصية للثقافة الأصلية <<²، وبالتالي هي حالة >> انبهار بالآخر وبذلك يقدم الوهم في صورة الأجنبي على حساب الصورة الحقيقية له <<³، وهو ما يساهم في انتشار الصور المغلوطة عن الذات والآخر معا.

● الرّهاب:

وهو موقف مخالف للهوس، ينتج عن العلاقات العدائية بين الشعوب إذ تتكون صورة سلبية عن الآخر (المعادي) نظراً للمشاعر العدائية وسوء الفهم، فيبرز الواقع الثقافي الأجنبي في مرتبة أدنى

¹ ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص 117.

² دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص 107.

³ ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص 119

من الثقافة المحلية¹ وتتجلى هذه الصور عند أدباء المستعمرات خاصة، حيث يصوّر المستعمر الأجنبي في أبشع الصفات السلبية، كما هو الحال في أدب الجزائريين أثناء الاستعمار الفرنسي للجزائر وتنتج عن هذه الصور السلبية >> إثارة مشاعر العداة تجاه الآخر ومشاعر الولاء والتضامن والتوحد تجاه الذات أو ال(أنا) أو ال(نحن)²، من خلال أصوات أدبية وفية للبلد الأم.

● التسامح:

وهو حالة ثالثة، وموقف إيجابي يساهم في حوار الثقافات والمبادلات الحضارية بين الأمم والشعوب، ينطلق من شعور الأمة الناظرة بدورها الإيجابي مقارنة بالدور الإيجابي الذي تقوم به الأمة المنظورة إليها³، وبالتالي التعايش بين هاتين الثقافتين والتكامل من أجل الخروج بثقافة عالمية راقية ومشاركة.

¹ ينظر: ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص 119.

² المرجع نفسه، ص 119

³ ينظر: دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص 108

2/صورة الأنا (الذات):

يُعدّ البحث عن صورة الذات (الأنا) فردية كانت أم جماعية ، والوقوف على كنهها أهمّ ما يعمّق وعي الذات بذاتها ، وإدراكها لعواملها الداخلية والخارجية و^{>>} تشير صورة الذات إلى موضوع الفكر وتحتوي على جميع المعرفة والمعتقدات التي يملكها أو يستخدمها الناس لوصف تلك الشخصية التي يحملونها^{1<<} فصورة الذات قد تكون فردية نابعة من تصوّر الشخص لذاته، أو جماعية من تصوّر الجماعة لخصائصها وميزاتها وطبائعها،^{>>} هذه الذات الجمعية بحدّ ذاتها لا تختلف كثيرا عن الذات الفردية، وصورتها لدى الجماعة تُبدي الخصائص نفسها التي تبرزها الذات الفردية مع الاختلاف بأن تصوّر هذه الذات يوجد لدى تعدّد من الجماعات الإنسانية، من أن يوجد لدى فرد إنساني واحد^{2<<} وأن الذات الجمعية تتطوّر بناء على التطوّرات التي تحدث في الجماعات المكوّنة.

وقد تكون صورة الذات الفردية أكثر تعقيدا من صورة الذات الجماعية، ذلك أنها تتشكّل من وعي فرد واحد لذاته ، وقد تختلف نسبة هذه الوعي بين القوة والضعف في حين أن الوعي الجماعي سيكون أكثر إدراكا للذات الجماعية، مما يجعل الصورة أكثر تجرّداً وتنمّقا³، وإذا كانت الصورة الذاتية تسعى إلى الثبات الذي يكبحها عن الاضطراب والفوضى، فإنها قد تُورث الكثير من الحقائق وتُخبئ العديد من المعلومات التي تمسُّ بجوهرها ونصاعتها.

والصورة الذاتية معقدة جداً، و^{>>} أول أهمّ تعقيداتها ، هو أننا نعرف عن أنفسنا أكثر بكثير ممّا نعرف حول الآخرين، أو مفاهيم الذوات الأخرى، وثاني هذه التعقيدات هو استمرارية انشغال الفكر بالمعرفة حولها، وثالثها أننا نعيد النظر فيها باستمرار محاولين بذلك تفسير ظروفنا وواقعنا ، ومما يجعل هذه المعرفة أكثر تعقيدا هي الصورة التي تملكها جماعة معينة لذاتها في المستقبل بناء على معرفة الماضي

¹ مهنا يوسف حداد، أثر الصورة الذاتية في الموقف العربي من دولة إسرائيل، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص 332.

² المرجع نفسه ص 332.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص 333.

والحاضر¹ فكأن هذه الصورة التي تملكها الذات الجمعية تسهم في بناء سلوك الجماعة وتصرفاتها بناء على الصورة النمطية المشكّلة في ذهنية أفرادها، وتسعى هذه الذات إلى عدم الإخلال بأيّ من مكونات صورتها، والظهور بمظهر الانسجام بين السلوك والأسس أو القواعد المنظمة لها في الذات،² فالإحساس بالذات والحفاظ على احترام الفرد للجماعة يحدّدان الأهداف التي يزداد بلوغها² ومع هذا تبقى صورة الذات تمتاز بنوع من الضباية والغموض ما لم تقابلها صورة الآخر، والتي نعرف من خلالها ما يماثل سلوكاتها، وتصرفاتها وما يختلف عنها، كما أنها تجعل من الآخر مرآة لها، ترى به إيجابياتها وسلبياتها.

3/ صورة الآخر:

تبرز صورة الآخر بشكل جليّ وواضح، وتكاد تطفو على سطح الدراسات الراهنة سوسولوجياً أنثروبولوجياً وأديبياً، وإن كان لكل ميدان أهدافه ومساعيه، والتي تنطلق في عمومها من الأهمية القصوى التي يجتلبها الآخر كفرد أو جماعة في واقع أو خيال أفراد وجماعات أخرى، حيث يقترن الأنا مع الآخر اليوم أكثر من أي وقت آخر، انفتحت أمامهما كلّ سبل التعارف والتعامل والتقابل، فأصبح بذلك الكلّ يسعى إلى كنهه آخره، حتى يجلب الغموض المترقب والتّصوّر السلبي والنظرة الخاطئة، تلك الصورة التي تتشكل³ في أبعادها الذاتية والموضوعية، وفي أشكالها ومضامينها (...). عبر الذات المكوّنة لهذه الصورة بكل ما تحوزه هذه الذات من مواجهات إيديولوجية وسياسية وخبرات مباشرة تاريخية ومعاصرة³. فالذات هي التي تُوجّه صورة الآخر، وتشكّلها وفقاً لمنظورها الجماعي ووعيتها الذاتي وإن كانت⁴ تُشيد دائماً على ميدان التاريخ، ولكنها تشيّد انطلاقا من أنماط أصلية عابرة للتاريخ هي التي تؤسّس مخيالنا الإنساني⁴ وبذلك يُسهم الإدراك الذاتي إلى جانب الوعي التاريخي، والمخيال الذهني في بلورة وتشكل صورة للآخر، تُسهم بدورها في بلورة الذات وتمتّع الإنسانية بمخيلتها كاملة

¹ مهنا يوسف حداد، أثر الصورة الذاتية في الموقف العربي من دولة إسرائيل، ص 334.

² همت بسيوني عبد العزيز، الشخصية المصرية وصورة الآخر، ص 74.

³ عبد الباسط عبد المعطي، صورة الإسرائيلي لدى المصري بين ثقافة العامة والدراما التلفزيونية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص 357.

⁴ أسماء العريف بياتريكس، الآخر أو الجانب المعلن، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص 90.

والاستعاضة من نقائصها بالاستلها من الآخر، إذا دعت الحاجة إلى ذلك¹ بما يمكن من إقامة التواصل بين أبناء البشر.

والصورة التي تركز عليها الدراسات المعاصرة هي صورة الشعوب المختلفة في مخيلة شعوب أخرى لاسيما بعد شيوع صور نمطية² يتنازعها سوء الفهم والرؤية المحدودة الضيقة بين صفات سلبية، من ازدراء واحتقار بل وكراهية³ وأخرى مغرقة في الإيجابية لتتحول إلى شغف خيالي وموهوم بالآخر⁴ وهي ناتجة في أغلب الأحوال عن نشوء >> موازين قوى، وعن علائق تراتبية، وعن علاقات نزاعية <<⁵ بين الأنا والآخر، على أنّها >> لا تجد مصدرها في الوعي بواقعها، بقدر ما تجده في العلاقة بصورته (...). وصورة الآخر تحيل إلى واقع من بينها، وتعبّر عنه أكثر مما تحيل إلى واقع من بُنيت صورته <<⁶، ذلك أنّ >> الصورة غير الواقع حتى وإن كان الصراع حولها من رهانات الواقع <<⁷ وما هي إلا نتيجة >> انطباعات لا تستند إلى أدلة ووثائق بمقدار استنادها إلى الأقاويل والإشاعات <<⁸ فهي >> ترتبط بشكل وثيق بالأفكار التي ترسّبت عبر قرون عديدة، في ذهن الأفراد الذين لا يستطيعون غالبا، تتبع بدايتها، ولا تطوّرها ولا مصادرهما، الأمر الذي يعيق الذهن عن إدراك ما هو جديد، أو إدراكه مشوّها مخالفا لمقتضي الحال <<⁹، ذلك أنّ الحكم المسبق >> الذي يجعل المرء يرى بخاصة الجوانب السلبية لدى

¹ ينظر: أسماء العريف بياتريكس، الآخر أو الجانب المعلن، ص 96.

² ينظر: أنس سليم الرشيد، صورة الآخر في رسالة ابن فضلان ورواية أكلة الموتى، المجلة العربية، الرياض، موقع:

<http://www.shatharat.net/vb/showthread.php?t=13518> تاريخ الزيارة: 2014/05/15

³ ينظر: عبد الجليل حليم، الفلاحون المغاربة في الأنتولوجيا الكولونيالية بين الجمود وقابلية التحسن، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة

الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص 45

⁴ ينظر: جوزي أنطوينو غونزاليس ألكنتود، أصل الشغف بالآخر لدى حركات الأنتلجنسيا الطلابية في أوروبا، في الطاهر لبيب

وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص 181.

⁵ عبد الجليل حليم، الفلاحون المغاربة في الأنتولوجيا الكولونيالية بين الجمود وقابلية التحسن، ص 450.

⁶ الطاهر لبيب، الآخر في الثقافة العربية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه ص 192.

⁷ المرجع نفسه، ص 192.

⁸ غسان السيد، صورة الغرب في الأدب العربي - رواية (فياض) لخيري الذهبي نموذجاً، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24، العدد

الثالث+الرابع، 2008، ص 90.

⁹ المرجع نفسه، ص 90.

أشخاص يصنّفهم ضمن فئة ال"هم"، ويرى الجوانب الايجابية لدى أشخاص يصنّفهم ضمن فئة ال"نحن"، هو حكم قد يكون لإطلاقه أو للاسترسال عليه أسباب عدّة، (...). فإن حكماً مسبقاً من هذا النوع قد يخدم غاية إنشاء نظام خلقي بسيط في عالم معقّد، كما يمكن أن يقوّي الحاجة إلى الإحساس بالتفوّق على الآخرين، ويمكن كذلك أن يخدم تقوية روابط اللحمة، داخل المجموعة نفسها¹. وبذلك يكون الباحث في مجال الصورة، مطالباً بالتّحري عن حقيقة الصورة-لا واقعيتها- والسعي من أجل تصحيح سوء الفهم، والنظرة الضيّقة من جهة، والغلو في المدح والشغف بالآخر من جهة أخرى، ذلك أنه >> لا يوجد شعب أو أمة لها غريزة أو ذهنية ثابتة، ولا يوجد شعب أفضل من شعب ولا وجود لثقافة أرقى من أخرى، ولا لـ "جنس" أحقر من آخر، وإن الثبات الوحيد عبر التاريخ الإنساني هو ثبات فعل التغيير المجتمعي² الذي يساهم فيه كل أفراد المجتمع، ممّا يسمح بتشكيل الذات الجماعية لصورة عن ذاتها وعن غيرها.

¹ سيغوردن سكيبراك، صورة الآخرين: المخاوف الحقيقية والكاذبة في العلاقات العربية-الأوروبية، في الطاهر لبيب وآخرون، ص546.

² عفيف البوني، في الهوية القومية العربية، في رياض زكي قاسم (تحريراً وتقديمًا)، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط1، نوفمبر 2013، ص58.

المبحث الثالث: الآخر في الرواية العربية

1/ ثنائية الشرق والغرب:

تعدّ ثنائية (الشرق/الغرب) من أهم الثنائيات التي تشهد تقابلا وتواجهها بين الأنا والآخر، إذ تبرز في جميع الميادين التي تبحث في العلاقات بين قوى العالم، وما تشهد من صراعات دامية ومواجهات حقيقية منذ الأزل، على أنه ليس >> الغرب أو الشرق كينونيتين متناغمتين متحجرتين، فكلاهما ذو طبيعة معقدة، تنطوي على شيء من الغموض، وهما غير متجانستين أبداً¹ وإن اختلف حولهما من حيث الاعتداء بكونهما مكانين جغرافيين، أو رمزين دينيين أو إرثيين حضاريين، أو معياريين متناقضين للحدثة والتقدم.

من الباحثين من يعتبر أنّ "الشرق" تشكّل >> وهو ما زال يتشكّل من الحضارات العظيمة التي تقع شرق الغرب : الإسلام والصين والهند واليابان²، وهو بهذا مقيد بالجغرافيا، في حين أنّ >> فكرة الغرب ككينونة سياسية تعود إلى القرن التاسع عشر، قبل ذلك كان هناك العالم المسيحي Christendom³ نسبة إلى المدلول الديني، >> وفي مدلوله الشائع نسبة إلى مفهوم الحدثة⁴، ويرى الطاهر لبيب أنّ الآخر بالنسبة للشرق >> هو الغرب تحديداً، في الخطاب العربي و الإسلامي المعاصر أكد العروي ذلك في الستينات، ويمكن التأكد منه الآن، ميدانياً⁵. فتحوّل العالم المسيحي بمدلوله الديني، إلى ما يعرف "بالغرب" كمدلول جغرافي يتشكّل من مساحة جغرافية هامة، >> يطلق عليها "أوروبا" و "الغرب" Occident. إنّ لمصطلح "أوروبا" تاريخاً ممتداً يعود إلى أيام الإغريق والرومان، وقد كان شائعاً ومتداولاً لفترة طويلة من الزمن⁶ وقد أخذ "الغرب" لأول مرة دوراً سياسياً أكثر بروزاً بعد

¹ ضياء الدين ساردار، الاستشراق: صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية، تر: فخري صالح، مراجعة: أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ط1، 1433هـ-2012م، ص22.

² المرجع نفسه، ص22.

³ المرجع نفسه، ص23.

⁴ ريجين عزرية، اليهود والعرب: صورة الآخر وأثار المرأة، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص498.

⁵ الطاهر لبيب، الآخر في الثقافة العربية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه ص196.

⁶ ضياء الدين ساردار، الاستشراق: صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية، ص23.

الاختراق الكولومبالي للهند والصين والشرق الأوسط خلال القرن التاسع عشر وفي هذا الوقت بالذات بدأ الغرب يضمّ الولايات المتحدة، التي كان يُشار إليها بلفظ "العالم الجديد" ودمج نفسه مع مفهوم "الحضارة" Civilization الذي سكَّه فلاسفة التنوير، وبذلك أصبح مفهوم الحضارة الغربية من ثمَّ هو المقياس الذي تُقاس به الثقافات والحضارات الشرقية، بدلاً من مفهوم العالم المسيحي¹، وبذلك >> وُضع التصنيف المفهومي "العرب" مقابل "مفهوم" الشرق"، ودلَّ الشرق على كل ما ليس غرباً، وعلى بعض ما رغب فيه الغرب حقاً².

فالشرق والغرب اصطلاحان اعترهما تحوُّل دلالي من الديني إلى الجغرافي إلى السياسي والحضاري على >> أنّ الشرق عبارة عن اختراع غربي تنبع صيغته المختلفة والمتعاقبة من المراحل البطيئة التي مرَّ بها ميلاد الغرب ومرَّ بها وعيه بذاته³، وكما يرى إدوارد سعيد أنّه >> شبه اختراع أوروبي بالتحديد، وكان منذ الزمن الغابر مكاناً للرومنس، أي قصص الحب والمغامرات، والكائنات الغريبة، والذكريات والمشاهد التي لا تُنسى والخبرات الفريدة الرائعة...⁴، ومن جهة أخرى يمثل الشرق >> موقع أعظم وأغنى وأقدم المستعمرات الأوربية، وهو مصدر حضارتها، ولغاتنا ومنافسها الثقافي⁵. وبذلك تصير ثنائية الشرق/الغرب ثنائية تقسم العالم قسمين من حيث الجغرافيا (المكان)، ومن حيث الحضارة المتوارثة والمستحدثة بالدرجة الأولى.

¹ ينظر: ضياء الدين ساردار، الاستشراق: صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية، ص ص23، 24.

² المرجع نفسه، ص24.

³ أسماء العريف بياتريكس، الآخر أو الجانب المعلن، ص93.

⁴ إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص42.

⁵ المرجع نفسه، ص93.

وتبني العلاقة الثنائية بين الشرق والغرب أساسا على الصّراع و الصّدام، الذي يعود إلى >> زمن بعيد، تشهده البشرية من وقت لآخر^{1<<}، ولعلّ أهمّ لقاءين ميّزا المواجهة بين الشرق والغرب يتجسّدان ضمن حقتين زمنيّتين >> الحقبة العربية الكبرى في العصر الوسيط الغربي أوّلا، و هي الحقبة التي فرض الوطن العربي الإسلامي نفسه إبّانها على الغرب المسيحي، ثمّ الحقبة الكولونيالية من بعد، وهي الحقبة التي وسّع أثناءها الغرب حدود إمبراطوريته لتمتدّ إلى صميم الوطن العربي^{2<<} وبالتالي هما مرحلتان اختلفت فيهما موازين القوّة و التأثير، إذ شكّل التهديد الإسلامي صورة العدو >> بطابع ديني و عسكري للمسيحية الغربية، في حوالي القرن الحادي عشر، و توسّعت الحرب ضدّ المسلمين، إلى حدّ تعبئة كل أوروبا، و تبعا لذلك طوّر العالم المسيحي اللاتيني بالتدريج وحدته الإيديولوجية، وقد أعطت هذه التعبئة صورة أكثر حدّة لملامح العدو، وركّزت طاقات الغرب على الحروب الصليبية، وفي هذا السّياق كان ينظر إلى العالم الإسلامي كنظام سياسي و إيديولوجي معادٍ، و كذلك كمدينة مختلفة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وكمجال اقتصادي بعيد و أجنبي^{3<<}، و من جهة أخرى كان للغرب >> شعور بالنقص تجاه الإسلام و العرب، وأحيانا أخرى شعور بالخوف من هيمنة هذا العالم، صحبه شعور بالإعجاب بالشرق (...)، بل كان الإعجاب لدى الجناح المتطرّف في حركات الإصلاح الأوربي يصل حدّ تصوّر النظام الاجتماعي في الإمبراطورية العثمانية مثلا للعدالة الاجتماعية و منفذا من الظلم البابوي والاضطهاد الإقطاعي^{4<<}، فكان الشرق بذلك مهيمنا على الغرب مؤثرا في جميع مناحي حياته.

وقد شهدت تلك العلاقة بين الشرق والغرب فتورا نوعا ما، وإن عادت المواجهة بينهما في العصر الحديث، حيث استيقظ الشرق على وقع الصدمة بالآخر الغربي بعد حملة نابليون "العلمية" عام

¹ سالم المعوش، الأدب و حوار الحضارات (المنهج والمصطلح والنماذج)، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، ط1، 1428هـ - 2007م، ص102.

² ريجين عزرية، اليهود والعرب: صورة الآخر وأثار المرأة، ص498.

³ فيلهو هارلي، مفهوم وموارث "العدو" في ضوء عملية التوحيد والسياسات الأوروبية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص61.

⁴ محمد نجيب بوطالب، العلوم الاجتماعية والاستشراق، صورة المجتمع العربي الإسلامي، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص436.

1798¹، وقد >> كانت هذه الحملة ذات وجهين: أحدهما يعبر عن العقل والانجازات الحضارية القائمة على المعرفة العلمية، والآخر لا عقلي يقوم على الرغبة في السيطرة على الشعوب الأخرى <<²، فالغرب أصبح يملك كل وسائل التقدم والحداثة، ويرى >> أنّ ثقافته و حضارته تمثلان نهاية التطور، وأن الحضارة البشرية انتهت إليهما، وما عداهما ركود وتخلّف <<³ وبذلك حملت أوروبا نفسها مسؤولية القيام >> بدور حضاري تمديني للشرق، وثمّ تبرير كلّ الوسائل من أجل التدخل لإدماج الشعوب الأخرى في "حضارة الرأسمالية"، فالحضارة الغربية اعتبرت خلاصة التطور واعتبرت باقي المجموعات والحضارات "بدائية" تعيش طور التوحش و الهمجية والقبلية وشئ أوجه الانحلال والتخلّف <<⁴، ولكنّها بذلك تبرّر مشروعها الاستعماري التوسّعي لبلدان المشرق، الهادف لإخضاعه واستنزاف ثرواته >> فكانت الحداثة إلى البلاد العربية مقترنة بظهور الأطماع الاستعمارية <<⁵ لبسط الحكم و النفوذ، فتربعت بذلك الحضارة الغربية على عرش العالمية، مُلغية كلّ مخلفات الشرق الحضارية، >> وتحت وطأة الشعور بتفوق الغرب وبالعجز العربي، ومع تعمق صدمة الحداثة، أصبح هاجس العلاقة بالغرب حاضراً ومؤثراً في بنية العقل العربي <<⁶ العربي <<⁶ فصار الغرب الحديث مرآة للذات تعكس فيها صورتها، وتجسّد من خلالها كيانها، تسعى للحاق بالغرب وسدّ كل ثغرة من ثغرات التخلّف المتراكم، في مقابل أوروبا الصاعدة و المتطورة⁷، والتي لا بدّ من ترجمة معارفها بمختلف أشكالها و نقلها إلى البلاد العربية.

وهكذا تمثّل ثنائية الشرق/الغرب إحدى أهمّ ثنائيات الأنا و الآخر حيث لا يستطيع الواحد منهما أن يعي ذاته و يكشفها دون وعي الآخر ، رغم كل الصراعات و النزاعات التي تفرّقها ، إلّا أنّها

¹ ينظر: دلال البرزي، الآخر: المفارقة الضرورية، ص 103.

² فتحي أبو العينين، صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي العربي: تحليل سوسيوولوجي لرواية "محاولة للخروج"، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص 814.

³ عبد العزيز الدوري: الهوية الثقافية العربية والتحديات، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص 236.

⁴ محمد نجيب بوطالب، العلوم الاجتماعية والاستشراق: صورة المجتمع العربي الإسلامي، ص 438.

⁵ سناء صليحة، مواجهات الشرق مع الغرب في الرواية العربية، الآخر أصبح الملجأ... في القرن الحادي والعشرين، (حوار مع رشيد العناني)، موقع: <http://www.ahram.org.eg/Archive/2009/12/20/ARTS1.HTM> تاريخ الزيارة: 2014/05/16

⁶ فتحي أبو العينين، صورة الذات وصورة الآخر، في الخطاب الروائي العربي، ص 814.

⁷ ينظر: غريغوار منصور مرشو، سيد محمد صادق الحسيني، نحن والآخر، ص 71.

هي السبيل الوحيد الذي يجمعها على مستوى علاقة تلازمية شرطية و جدلية، لا مناص من بناءها دون السعي الحثيث لاستيعاب كنهها، ذلك أنّ >> الغرب لا يتعرّف إلى نفسه إلاّ من خلال الصورة التي يبينها لنفسه عن "الآخر" : الشرق <<¹، إن كان يعتبر هذا الشرق عدواً، منذ الزمن البعيد، وهو من الشعور بالعداوة يكون وجوده وأناه، إذ يقول محمد عابد الجابري أنّ : >>العقل الأوروبي لا يعرف الإثبات إلا من خلال النفي، و بالتالي لا يتعرّف إلى "الأنا" إلا من خلال "الآخر" ، ومن هنا فهو لا يستطيع التفكير في المستقبل إلا من خلال "سيناريوهات" يوسم فيها لنفسه "الآخر" ...العدو المنتظر <<²، الذي يترقّبه و يصوّره من خلال فكره و كتاباته، و يرى إدوارد سعيد أنّ الشرق >>يمثّل صورة من أعمق صور الآخر وأكثرها تواتراً لدى الأوروبيين، أضف إلى ذلك أن الشرق قد ساعد في تحديد صورة أوروبا (أو الغرب) باعتباره الصورة المضادّة، والفكرة والشخصية والخبرة المضادّة ومع ذلك فلا يعتبر أي جانب من جوانب هذا الشرق محض خيال ، فالشرق جزء لا يتجزأ من الحضارة المادية والثقافة الأوروبية <<³.

ويمثّل الغرب من جهته فكراً و خبرة مضادة بالنسبة للشرق، إذ أصبح حضوره >> في مشاريعنا المستقبلية حضوراً مزدوجاً: نحن نستحضره كخصم نحشاه وفي ذات الوقت كمثال ونموذج يفرض علينا الاقتداء به بشكل من الأشكال على الأقل في مجال العلم و التكنولوجيا، إنه "الآخر" الذي تشعر "الأنا" أنّه يلغيها، و لكنه في نفس الوقت "المثال" الذي لا يستطيع "الأنا" أن تفكر في مستقبلها بدون الارتباط به نوعاً من الارتباط <<⁴، فالشرقي لا يستطيع الاستمرار في الحياة دون التّطلّع لمنجزات الحضارة الغربية بكلّ ما تحمله من إيجابيات وسلبيات، قد تشوّه الهوية العربية والإسلامية، فأصبح يمثّل الحلم المنشود لاسيما بعد وقع الصدمة الشديدة في العصر الحديث.

¹ محمد عابد الجابري، مسألة الهوية: العروبة والإسلام...والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط4، سبتمبر 2012 ص185.

² المرجع نفسه، ص 185.

³ الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ص ص 43، 44.

⁴ محمد عابد الجابري، مسألة الهوية: العروبة والإسلام...والغرب، ص140

كان للعلاقة بين الشرق والغرب، مع كلّ ما تميّزت به من صراعات دامية، ومواجهات تاريخية وحضارية، تصوّرات ورؤى ساهمت في رسمها الشعوب عن بعضها البعض، واتّخذت بذلك شكل صور نمطية شائعة، في ذهنيات ومخيّلات أفرادها، روّجت لها مختلف الأطراف السياسية والثقافية من خلال ما تصوّره نخب المجتمعات ومثقفوها عبر الكتابات الأدبية، والأفلام السينمائية والمقالات الصحفية.

ولعلّ أهم صور الغرب النمطية في المخيّلّة الشرقية (العربية) أنّ >أمريكا هي الشيطان المطلق والغرب هو الصليبيون المشركون، الكافرون، الوثنيون ودارهم هي دار حرب حلّت محاربتة حتى آخر الأزمان: هذا في الهوية، أما في الحكم السياسي فهذه المجتمعات "وضعية" لا مستقرّ فيها للروحانية لأنّها لا تطبّق الأحكام الإلهية و لا تطبّق الشريعة، فتحكم بحجر ما أنزل الله، بل بما صنعه البشر، من قوانين خاضعة للأهواء والتقلّبات، وعليه فالغرب ثقافياً هو الانحلال الخلقى والتفكّلت والنواميس غير المضبوطة بضابط¹، وهي صورة مختزلة تشكّلت في الذهنية العربية عن عالم الغرب، وما يسوده من أنماط حياتية مختلفة عن تلك التي تعيشها العربي، عقيدة و منهجا وعادات وتقاليد موروثة منذ الأزل.

كما أنّ العديد من سكان الشرق ينظرون إلى أوروبا (الغرب) نظرة سلبية على أنّها مادّية وأنانية وعدائية بعض الشيء تجاه الأجانب، متدهورة إلى حدّ كبير تدهوراً يظهر في الثقافة شؤون الأسرة ومن جهة ثانية تمثّل منطقة من العالم يمكن أن تهدّد الحضارة العربية والثقافة التقليدية² المتميزة بتسامحها ومرونتها.

وكما ينظر المشرقي إلى الغربي ويخصّه بتصوّرات ورؤى وأحكام مسبقة فإنّ الغربي بدوره لا يجد صعوبة في زرع صور نمطية عن العربي المسلم بنعته >بالبدوي، الثري، المزواج، والعدواني، والغدار الذي لا يؤتمن، وتستساغ هذه الصورة بأرجحية دون دراسة ولا نقد³، لاسيما من قبل السينما ووسائل الإعلام والاتصال المختلفة، وبذلك نمت الصور السلبية عن المسلمين، وتمسّك بها أكثر الأمريكيين على

¹ دلال البرزي، الآخر: المفارقة الضرورية، ص 105.

² ينظر: سيغوردن سكيرباك، صورة الآخرين: المخاوف الحقيقية والكاذبة في العلاقات العربية والأوروبية، ص 551.

³ غسّان السيّد، صورة الغرب في الأدب العربي - رواية (فياض) لخيري الذهبي نموذجاً، ص 91.

أثما الأصل وتعصّبوا لها، ورفضوا تغييرها أو مناقشتها¹، لأنّه تمّ غرسها في محيط هيئات له كل الأطراف أن يتّخذ الغرب من العرب موقفَ الخوف والشك والرّيبة باعتباره العدو الأول الذي يجب محاربتة. وإن كانت الصور النمطية تبعد عن الحقيقة و الواقع بمقدار معيّن فإنها صور ساهمت في تشكيلها المخيّلة البشرية انطلاقاً من وقائع تاريخية، وأحداث و موافق سياسية وأيديولوجية، تنتجها النخب والأفراد على السواء من جهة، وكذا الأمم في إطار علاقتها بغيرها، وما تبرزه من مظاهر حياتية مختلفة، >فليس الأوروبي بالمسئول وحده على قولة الشرقي في قالب آخريّة لا معنى لها، إلا في حدود ذاتها، بل كان لا بدّ للأوروبي من أن يتواطأ معه الشرقي حتّى ينشئ هذا الضرب من اعتراف الهوية² والغربي بدوره لم يظلمه الشرقي فيما أطلقه عليه من أحكام مسبقة > مبنية على أفكار غير مدروسة حول أوروبا فإنه لا يلزم أن تكون خاطئة كلياً (...). فإن تفكّك العائلة مستفحل جداً في أوروبا وله عدّة استتباعات اجتماعية واقتصادية³ بمعنى أنّ الشرقي لم ينطلق من العدم في تصوير الغربي وإثما له خلفية فكرية من تعامله معه أثناء الاستعمار أو الهجرة أو الرحلة أو المشاهدة الدرامية لإنتاجه السينمائي الخاص به، وكذا من خلال المطالعة الحثيثة لكتابات الإبداعية، لاسيما الروائية، التي تقدم صوراً مفصّلة عن مظاهر حياة الأنا وما تبرزه على مستواها من عادات وتقاليد وتعاملات بين أفراد المجتمع إنثاً وذكوراً، وما يطبع هذه التعاملات من أخلاق وسلوكات.

وبناء على ذلك، فإنه ينبغي على الأفراد - سواء كانوا من مجتمعات غربية أم شرقية - أن يعوا مدى المسؤولية الواقعة على عاتقهم، في محاولة إزالة سوء الفهم الواقع بين الأمم، وما ينجم عنه من علاقات عدائية بين الدول، فلا يجب أن >تسامح مع أنفسنا ونظلم الآخر، بل نتحدّث عن أخطائنا مثلما نتحدّث عن أخطائه! عندئذ نفسح المجال لانتعاش المشاعر الإنسانية الإيجابية التي تسهم في رسم صورة متوازنة للآخر، مثلما نحاول رسمها لذواتنا مما يساعد في نمو فكر منفتح

¹ ينظر: غسّان السيّد، صورة الغرب في الأدب العربي - رواية (فياض) لخيري الذهبي نموذجاً، ص 92.

² منذر الكيلاني، الاستشرق والاستغراب: اختراع الآخر في الخطاب الأنثروبولوجي، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص 81.

³ سيغوردن سكيرباك، صورة الآخرين: المخاوف الحقيقية والكاذبة في العلاقات العربية والأوروبية، ص 552.

على التعددية¹، وبذلك يتم إنتاج صور حقيقية أو تقترب من الحقيقية، تضع الآخر ضمن منظومته الخاصة، بإيجابياته وسلبياته بعيداً عن سوء الفهم والمخلفات الفكرية العدائية، التي لا بدّ من إعادة النظر حولها تاريخياً واجتماعياً، لاسيما الغرب الذي يتصوّر في المخيلة الشرقية عدواً ومستعمراً ومستبداً، إذ يعدّ في الطرف الثاني من المعادلة ممثلاً لطور من أطوار حضارة الإنسان، إنّه غرب الثورة الصناعية والاكتشافات العلمية² وبذلك لا بدّ³ أن نستقبل كلّ قادم بانفتاح، فندرسه و نمحصه، فلا ننهر حتى الذوبان أو الاستسلام، ولا ندوب فيه فنفقده هويّتنا وخصوصيتنا كما لا ينبغي أن نرفضه أو نقاطعه أو ننفيه هكذا وبالجملة⁴، بل يجب التصرّف بعقلانية وحكمة حتى لا يكون الشرقي هو الخاسر في هذه المعركة الحضارية، إذا ما تراجع إلى الوراء، أو تقدّم إلى الأمام بخطى غير مدروسة.

ويبقى حافز التطوّر واستقرار العالم هدفاً منشوداً لكلّ⁵ الشعوب المساهمة في تعميق الوعي الحضاري، حتى لا ينحصر التفكير في المسائل المصيرية والقضايا الحسّاسة، في العالم الغربي وحده إنّ رواسب التاريخ من مخلفات الحروب الصليبية، وتركات الاستعمار الحديث تدفع الإسلام والغرب للتصادم، بينما تحديات المستقبل المشتركة تفرض عليها التعايش⁶ والحوار كحلّ لجميع الأزمات. ويعدّ الأدب قناة مهمّة يتمّ التواصل من خلاله⁷ مع الآخر، كغاية إجرائية تهدف وتعمل معاً على محاولة تأسيس حوار إنساني، وإيجاد أساليب للتواصل الثقافي⁸ الذي قد يتعدّد في الواقع على أنّ⁹ الحوار الأدبي الحضاري يتضمّن الكثير من الأبعاد، نجدها مثبتة في المؤلفات التي ما انعكست تصدر من آلاف السنين في كل من الشرق والغرب¹⁰، وبذلك يمكن الوقوف على حقيقة الصور

¹ ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر في الرواية العربية، مجلة الموقف الأدبي، العدد 492، نيسان 2012، ص 20.

² ينظر: غريغوار منصور مرشو، سيد محمد صادق الحسيني، نحن والآخر، ص 89.

³ المرجع نفسه، ص 149.

⁴ مولود عويمر، الإسلام والغرب بين رواسب التاريخ وتحديات المستقبل، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2008، ص 6

⁵ حبيب بوهور، تمثّل الآخر في النص الأدبي الأوروبي الحديث - مقارنة للآليات التفاعل النصية، مجلة آداب البصرة، العدد 56، سنة 2011، ص 02.

⁶ سالم المعوش، الأدب وحوار الحضارات (المنهج والمصطلح والنماذج)، ص 313.

الأدبية التي يخصّها شعب لغيره من الشعوب انطلاقاً من الأعمال الأدبية المنجزة لهذا الشعب أو ذاك والبحث بين طيّاتها عن صورة الذات أو صورة الآخر.

2/ صورة الآخر في الرواية العربية:

يعدّ الحوار الأدبي بين الحضارات والثقافات من أرقى سبل التواصل والتعارف بين الأمم والشعوب، إذا تُطرح على مستواه إشكاليات عديدة تتعلّق بالهوية¹، وحضور الآخر فكراً وتواجداً في فكر أمة من الأمم، ومدى إسهامه في بلورة عقلية الأفراد والمجتمعات، ومدى قبوله أو رفضه والتأثر به أو التأثير فيه، وإن كان هذا الحوار لا يجد متنفساً ورحابة فضاء إلا في الجنس الروائي، الذي يُعدّ >> أكثر الأنواع الأدبية قدرة على تصوير الواقع الاجتماعي و التفاعل الجدلي معه، بحيث تصير مادّة ثريّة² تساعد في تتبع العلاقات القائمة بين الأفراد المتصارعة في الرواية والتي تعكس الصراع القائم في الواقع، كما تعد الرواية الخيالية أوسع فضاء، إذ يجد >> تأثر الذات بالآخر غير الذات وسطاً ممتازاً في القصص الخيالية، من أجل إجراء التجارب الفكرية التي لا تستطيع العلاقات الحقيقية للتخاطب والتبادل أن تغيّبها، على العكس من ذلك، فإن تلقّي المصنّفات القصصية يساهم في التكوين الخيالي والرمزي للتبادل الفعلي للكلام والعمل، وهكذا فإنّ الكائن المتأثر على الحال القصصية يتداخل في الكائن – المتأثر للذات على الحال الحقيقية³. وبذلك فإنّ الروائي من خلال العلاقات الخيالية التي يقيمها في نصّه بين الأنا والآخر، تُتيح له فرصة التّحرك بحريّة أكثر، بعيداً عن التّمطية والواقعية المألوفة.

¹ ينظر: رزان محمود إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق، الأردن، ط 1، 2003، ص 226

² همت بسبوني عبد العزيز، الشخصية المصرية وصورة الآخر، ص 07، (ينظر أيضاً: ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر، ص 15، وأيضاً: فتحي أبو العينين، صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي العربي: تحليل سوسولوجي لرواية (محاولة الخروج)، ص 814).

³ بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة وتقدم: جورج زباني، المنظمة العربية للترجمة - مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط 1، تشرين الثاني (نوفمبر) 2005، ص 608.

ولعلّ الصراع القائم في المجتمعات من داخلها (بين أفراد المجتمع الواحد)، وخارجها (بينها وبين غيرها) يعدّ مادة خاماً، شكّلت موضوعات مهمة للرواية العربية¹، نسجت أحداثها وحركت شخصياتها ونقلت بذلك معاركها، فطُرحت ثنائية الأنا والآخر على مستواها، بتعدّد أصنافها، عبر أنماط ورؤى متباينة، وإن كادت ثنائية شرق/غرب تطفو على سطح علاقاتها، إذ شكّلت >نسيجاً فكرياً وأديبياً مع بواكير النهضة العربية الحديثة، وما زالت خيوطه لم تُعقد حتى الآن وجسّدت الملامح الفارقة بين الشرق والغرب، أو "نحن" و"الآخر" لحمّة هذا النسيج وسداه²، وعلى أساسها رسمت الأبعاد وتحدّدت الزوايا والظلال.

تشكّلت في النصوص الروائية العربية مواقف متباينة بين الروائيين حول الآخر (الغرب)، ورؤى نمطية وأخرى خيالية، يسعى الدارسون في ميدان الأدب المقارن الوقوف عليها، ومعرفة توجهاتها وإن كان البعض يرى أنّ هذه الثنائية قد أشبعت درساً³ وعولجت بشكل كبير⁴ من قبل الدارسين والباحثين العرب والأجانب على حدّ سواء.

وتجد الإشارة إلى أنّ مواقف الروائيين العرب تجاه الغرب لا تكاد تخرج عن الأنماط المعروفة في الأدب المقارن، من رؤية انبهارية، وعدوانية، وأخرى حضارية.

أ- الرؤية الانبهارية:

وتعبّر عن موقف إعجاب الأنا بالآخر، وربّما الحماسة لإقامة العلاقة معه⁵ لاسيما بعد تأمّل منجزاته وحضارته، والافتتان بتقدّمه وازدهاره في شتى العلوم والفنون والتقنيات، والمعارف والآداب⁶، فهذا

¹ ينظر: خليل بروني، هادي نظري منظم، كاوه حضري، صورة مايكوفسكي في شعر عبد الوهاب البياتي وشير كويكس س (دراسة

صورولوجية في الأدب المقارن)، مجلة إضاءات نقدية، السنة الثانية، العدد الثامن، شتاء 1391 ش/كانون الأول 2012م، ص 56

² إيهاب النجدي، صورة الغرب في الشعر الغربي الحديث، ص 21.

³ ينظر: جميل حمداوي، صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي، موقع:

<https://ar-ar.facebook.com/TnmytBshryh/posts/539553032795051>، تاريخ الزيارة: 2014/11/4

⁴ ينظر: رزان محمود إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، ص 226

⁵ ينظر: نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، ص 52.

⁶ ينظر: جميل حمداوي، صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي (موقع إلكتروني سابق)

الاندهاش والانبهار على حساب الأنا، يتأتى من عدم رؤية الآخر إلا في جانبه الإيجابي المنظم والمتفوق والعقلاني¹، المتولدة عن أثر الصدمة الأولى المتمثلة في رحلة العرب إلى بلاد الغرب منذ القرن التاسع عشر، أين برزت الفوارق الشاسعة في العيش والثقافة والحرية وممارسة الفكر والسياسة والأدب.

ب- الرؤية العدوانية:

ويقصد بالرؤية العدوانية اعتبار الآخر عدواً للأنا بكل ما يحمله من فكر وثقافة وسياسة² لاسيما بعد مرحلة العدوان الاستعماري للغرب وإسرائيل على المناطق العربية، إذا أصبح الآخر العدو المستعمر المستبد، المغتصب، إلى جانب الصورة المعهودة منذ المواجهة بين العالمين المسيحي والإسلامي، والتي تصف الآخر بالكفر والفساد والانحلال الخلقى³، وتصوير المرأة الغربية بالاستهتار والجري وراء شهواتها نابذة كل القيم الإنسانية الأصلية⁴ فيمثل هذا الموقف الرفض للآخر، وربما الصدام ومقاومته، والشعور بالكرهية والحقد والعدوانية تجاهه.

ج- الرؤية الحضارية:

وتستند هذه الرؤية على وضع الآخر موضع الوسطية والاعتدال، فهو >موقف الحياد من الآخر مع الاستجابة المشروطة له⁵، فلا يتجه أصحاب هذا الرأي إلى الغلو في مدح الغرب والافتتان الخارق بمعجزاته الحضارية، ولا إلى سلبيته وعدوانيته فحسب، وإنما يضع العلاقة بين العرب والغرب في إطارها التاريخي⁶، فليس كل الغرب سلمي، وليس كله إيجابي، ولهذا لا نلهث وراء منجزاته. فلنأخذها عنه كما هي ولا نعاديته ونتوقع على أنفسنا في فضاء واحد لاستحالاته في عصر العولمة وإنما لا بدّ من

¹ ينظر: غسان السيد، صورة الغرب في الأدب العربي -رواية(فياض) لخيري الذهبي نموذجاً، ص92.

² ينظر: جميل حمداوي، صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي (موقع إلكتروني سابق)

³ ينظر: غسان السيد، صورة الغرب في الأدب العربي -رواية(فياض) لخيري الذهبي نموذجاً، ص93.

⁴ ينظر: ماجد حمود، صورة الآخر في التراث العربي، ص30.

⁵ نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، ص52.

⁶ ينظر: غسان السيد، صورة الغرب في الأدب العربي أو رواية(فياض) لخيري الذهبي نموذجاً، ص94.

اكتساب ثقة بالذات تمكّن من الحفاظ على الهوية العربية¹ ومركزاتها من جهة، والاحتكاك بالآخر للاستفادة من خبراته العلمية و التقنية للمساهمة في التنمية و الرقي والازدهار.

ومن > هنا أشارت الرواية العربية إلى أكثر من رؤية في التعامل مع الغرب، وكانت الإشكالية الكبرى (...). متمثلة في الطبيعة المزدوجة للغربي، أي صورته بوصفه نموذجاً للتقدم، أو بصفته عدواً غابراً²، ولهذا يعدّ الموقف الثالث، أكثر إقناعاً في التعامل مع الآخر، الذي لا يمكن الاستغناء عنه، إن لم يكن ذلك طواعية- من حيث التصرف بالحكمة في الأخذ منه والتطلع إلى منجزاته- سيكون كراهية بفرض نفسه ومحو غيره سياسياً و ثقافياً.

حظيت الروايات العربية التي تطرقت لموضوع اللقاء بين الشرق والغرب، بالدراسة والتصنيف من طرف النقاد والباحثين في المجال الأدبي، بغية الوقوف على أهم ميزاتهما من حيث المواقف وطرق الطرح وتحديد الآخر على مستواها، فكان ذلك يعتمد - بالدرجة الأولى - على المرحلة الزمنية التي كُتبت فيها، ويعدّ الدكتور رشيد العناني > أحد أهم من درسوا (الآخر) في الرواية العربية بتفصيل وشمولية³، إذ قسّم المراحل الزمنية العربية إلى أربعة مراحل تاريخية فرضتها متغيرات محسوسة في طرق رؤية الروائيين العرب لأنفسهم وللآخر، وهي:⁴

1- المرحلة ما قبل الكولونيالية pré-colonial

2- المرحلة الكولونيالية colonial

3- المرحلة ما بعد الكولونيالية/ القومية post colonial /assertive Nationalism

4- مرحلة ما بعد الكولونيالية/ التحرر من الأوهام - post colonial / Disenchant mentor self – denunciation

وهو تقسيم يعتمد على أهم ما عرفه العالم العربي الحديث و المعاصر من حملات استعمارية غربية لمختلف أقطاره مشرقها و مغربها، فمكّن هذا الحدث (الاستعمار) من اللقاء بين الشرق والغرب

¹ ينظر: ماجد حمود، صورة الآخر في التراث العربي، ص 31.

² رزان محمود إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، ص 226.

³ نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، ص 79.

⁴ ينظر: المرجع نفسه، ص 79.

والتعرّف عليه عن كتب، والتعايش معه، وإن كان عبر خطين متوازيين، وما مدى تأثير هذا اللقاء في فكر ورؤية الأدباء العرب عن الآخر، الذي أصبح موضوعاً ثرياً لرواياتهم عبر شتى المراحل.

ويقدّم الدكتور نجم عبد الله كاظم تقسيماً آخر لروايات اللقاء بين الشرق والغرب، تستند إلى محفّزات و محرّكات¹، تعتمد الأحداث التاريخية الأولى وهي حسبه أربعة مراحل² أيضاً:

1-المرحلة الأولى: من القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الثانية (1834 – 1945)

2-المرحلة الثانية: من الحرب العالمية الثانية إلى حقبة التحرير والاستقلال في الخمسينات والستينات وامتداداً إلى نكسة حزيران (1946 – 1967).

3-المرحلة الثالثة: من بعد نكسة حزيران إلى ما قبل حرب الخليج الثانية (1968 – 1991)

4-المرحلة الرابعة: من بعد حرب الخليج الثانية إلى ما قبل اندلاع ثورات الربيع العربي (1991-2010).

وما يميّز الرواية العربية قبل سنة 1967 م، هو رصد العلاقة بالآخر في سفر أحد الطلاب (الأنا) إلى باريس أو لندن للدراسة، وكان الآخر، يأتي في صورة امرأة، وتقتصر العلاقة معه على تنميطها في علاقة الفحولة العربية والانتقام من الآخر، من خلال العلاقة الجسدية والعاطفية³. ولعلّ أهم روايات هذه المرحلة: >رواية(بديعة وفؤاد) 1914م لعفيفة كرم، (عودة الروح) 1933م و(عصفور من الشرق) 1938م لتوفيق الحكيم، و(أديب) 1935م لطفه حسين، و(الدكتور إبراهيم) 1939م، لذي النون أيوب، و(قدر يلهو) 1939م لشكيب الجابري، و(قنديل أم هاشم) 1944م ليحيى حقي⁴

¹ تتمثل في تاريخ الأمة وأحداثها ووقائعها، لاسيما المفصلية التي تترك أثرها في المجتمع ليتمرّ بتحوّلات مهمة مفصلية هي الأخرى، مسيرة العلاقات العربية الغربية ذاتها، مسيرة الرواية العربية وتطورها فنياً، وتناولاً للموضوعات المختلفة، تطور الآخر في هذه الروايات حضوراً وصوراً ورؤى وعلاقات بال(نحن) (ينظر: نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، ص 80)

² نجم الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، ص ص 80، 81 .

³ ينظر: شرين يونس، الأنا والغرب في الرواية العربية من النمطية إلى التعدد، أخبار-فن-جزيرة نت، موقع:

<http://www.aljazeera.net/news/pages/37efc007> تاريخ الزيارة: جمعة 2008/02/08.

⁴ نجم الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، ص 84.

وتلتها أعمال روائية أخرى بعد الحرب العالمية الثانية، مثل روايات: (الحي اللاتيني) 1953م لسهيل إدريس، و(الشوارع والعاصفة) 1954م لحنا مينة، و(بين القصرين) 1954م لنجيب محفوظ و(السيدة فيينا) 1959م ليوسف إدريس، و(تلك الرائحة) 1964م لصنع الله إبراهيم، و(موسم الهجرة إلى الشمال) 1966م للطيب صالح¹ وتتفاوت روايات هذه المرحلة من حيث قيمتها الفنية، كما أنّها تتطرق لموضوع الآخر، من منطلق الذات، إذ يقول عنها نبيل سليمان: أنّها متمحورة >> حول الذات الفردية و القومية ، فمن توفيق الحكيم إلى يحيى حقي إلى عباس محمود العقاد ، بدأ الكاتب ينظر إلى الآخر من خلال ذاته فيراه جنسا، إحداء، خيرا مطلقاً أو شراً مطلقاً، على نحو ما بدأ عليه الفكر الغربي خلال فترته المعروفة بالمركزية الأوروبية: متمحورا حول الذات، لا ينظر إلى الآخر، إلا عبر موشورها الأمر الذي عنى ألاّ يبصر في الآخر إلا صورته ذاته <<²، وهي بهذا تمثل الآخر فكراً ومنهجاً، وتصوّره من خلال حضور البطل العربي وسط بيئة الآخر، إذ يقول جورج طرابيشي أنّ أبطال هذه الروايات >> جميعاً وبلا استثناء هم من المثقفين الذين قدموا إلى حاضرتي الغرب طلباً للعلم أو الأدب أو الفن، وكل رواية هي بمثابة تجربة ذاتية، حتى وإن لم ترد بضمير الأنا <<³. وعموماً فإن هذه الروايات تلخص الصدمة بالغرب على مختلف المستويات وهي صدمة اللقاء والاكتشاف، أمّا عن الإطار المكاني الذي تعبّر به عن الآخر، فهو >> باريس ولندن، أي بالتحديد حاضرتي الدولتين المتروبوليتين السابقتين <<⁴، وهو ما يميّز هذه المرحلة التي اكتشف فيها العرب هاتين البيئتين، والتي توسّعت بعدها إلى أماكن أخرى.

وتبرز على الساحة الأدبية العربية روايات أخرى بعد هزيمة 1967م وما صاحبها من تغيير في المواقف الدولية الغربية تجاه القضايا العربية، وذلك على العديد من الأعمال، التي عاجلت موضوع الشرق والغرب⁵، من حيث الزيادة في العدد، وتنوّع الرؤى تجاه الآخر، إلى جانب اتّساع الفضاء المكاني

¹ ينظر: نجم الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة ، ص ص84، 85.

² نبيل سليمان، وعي الذات والعالم، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 1431هـ-2010م ، ص 08.

³ جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، دراسة في أزمة الجنس والحضارة، دار الطليعة، بيروت -لبنان، ط4، شباط(فبراير) 1997، ص12.

⁴ نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، ص91.

⁵ ينظر: المرجع نفسه، ص92.

الذي تدور الأحداث في إطاره، ليشمل البلجيكي والتشيكي و الروسي¹ واستمرت روايات هذه المرحلة في رصد موضوع الجنس بتقدم علاقات عاطفية أو جنسية ما بين أبطال رجال عرب، وبطلات نساء غربيات، غير أنها لم تعد محكومة بالصراع التاريخي² كما كانت في السابق، إلى جانب أنّ أبطال هذه الروايات أكثر إيجابية وأنضج وعيا ومعرفة لما يريدون في تعاملهم مع الغرب، إذ يتلمّس القارئ محاولة ترسيخ صور للغربي، وتحديدًا الأمريكي القبيح أو المعادي³، مع ميل عام إلى الاتّزان والثقة في التعامل بين العربي والآخر الغربي المتخيل أو المتمثل.

وأهمّ الروايات التي تعبّر عن هذه المرحلة⁴: (السفينة) 1971م لجبرا إبراهيم جبرا، و(الغربة) 1971م لعبد الله العروي، (أصوات) 1972م لسليمان فياض، و(نجمة أغسطس) 1974م لصنع الله إبراهيم، و(سباق المسافات الطويلة) 1979م لعبد الرحمن منيف، (الوطن في العينين) 1979م لحميدة ننع، (الربيع والحريف) 1984م لحنا منية، و(الحب في المنفي) 1985م لبهاء طاهر و(الميراث) 1990م لسخر خليفة، وغيرها من الروايات التي يتعذر ذكرها كلّها في هذا المقام.

ويتغيّر الآخر الذي يبني معه العربي علاقات وحوارات أدبية، في روايات لاحقة على مدار عشرين سنة تقريبا، رصدها نجم عبد الله كاظم، إذ يرى أنّ عودة الاحتلال الأجنبي وسط هيمنته ونفوذته على العرب، في هذه الفترة كان له حضور واسع على مستوى الأعمال الروائية، ويكاد يكون الآخر المعبرّ عنه في الروايات العربية العراقية خاصّة هو الأمريكي⁵، ومن أهمّ تلك الروايات:

(أمس كان غداً) 1992م لكاظم الأحمد، (أمريكا خبط لرق ... مذكرات طالبة بعثة) 1995م لهيفاء بيطار، و(الولع) 1995م لعالية ممدوح، و(طفل CNN) 1996م لإبراهيم أحمد، (إنها لندن يا عزيزي) 2000م لحنان الشيخ، (عمارة يعقوبيان) 2000م لعلاء الأسواني، و(بابا سارتر) 2001م لعلي

¹ ينظر: نبيل سليمان، وعي الذات والعالم، ص18.

² ينظر: نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، ص95.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص97.

⁴ ينظر: المرجع نفسه، ص93.

⁵ ينظر: المرجع نفسه، ص99.

بدر،(عابر سرير) 2002م لأحلام مستغانمي، (أمريكانللي) 2003م لصنع الله إبراهيم، (واحة الغروب) 2007م لبهاء طاهر، (ثلاثية شيكاغ) 2008م لمحمود سعيدة، (الحفيدة الأمريكية) 2008م لإنعام كجه جي، (ملائكة الجنوب) 2009م لنجم والي، (شاي العروس) 2010م لمسيلون هادي¹ ومن ميزات هذه النصوص الروائية، اتساع الأقطار التي تصنع اللقاء بين الشرق والغرب، كما تشهد تنوعاً في زوايا النظر بما يتوافق مع الأنماط والمواقف الثلاثة لرؤية العربي إلى الآخر.

ويتعدّد حضور المرأة العربية شخصية متخيلة وصاحبة تجربة للقاء بالآخر وإن قلّت فيها العاطفية والجنسية، التي هيمنت على علاقات البطل الرجل العربي مع المرأة العربية، إلى جانب حضور الغربي أكثر من قبل، مقيماً في الشرق أو زائراً له أو محتلاً²، كما نلمس انفتاح الروائي العربي وشخصياته المتخيلة المعبرة على بلدان الغرب ومدنه وعدم الاقتصار على حواضر الاستعمار التقليدي

وبذلك فإن الرواية العربية ومن خلال تتبع مسارها التاريخي، قد ساهمت³ في التعبير عن استيعاء الذات والعالم، عبر عقد ونيف، محكومة ببطولة المثقف العربي الذي يحيل إلى البرجوازية الصغيرة في ذروة أزمته البنيوية، وبكل ما يعنيه ذلك من المجافاة الغالية للكتلة الاجتماعية الأساسية المنتجة، وما يلمح من نشاز على هذه المجافاة، يظل في حدود الميل الشعاري، لا الانتماء ولا الفعل البنيوي⁴ والرواية بذلك تتمثل دوراً هاماً في التعبير والتصريح أو التلميح عن كلّ ما يدور في المجتمعات وبين الأفراد؛ ذلك أنّها⁵ ليست فنّ تسلية فحسب، بل هي حاملة قيم، وممرّ إيديولوجيا، ومحرّضة جماهير وناشرة للوعي الجمعي، ومنتقدة لوضع سائد، وهنا تكمن خطورتها التداولية، فبالنظر إلى انفتاح آفاقها، واتساعها لتشمل خطابات أخرى، وتحملها لمنطق التحليل والتعبير عن الموقف والرأي ومخاطبة القارئ وجدانياً⁶ والرواية الجزائرية ليست بمعزل عن الرواية العربية والعالمية، إذ تتجاوزها القضايا ذاتها، فتفتح على الآخر

¹ ينظر: نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، ص 99 (ويقدم الباحث دراسة مستفيضة عن صورة الآخر في هذه الروايات وغيرها عبر فصول الكتاب، كله إلى جانب ملحق يتضمن أهم روايات المرحلة الأخيرة، قبل 2010م)

² ينظر: نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، ص 98 وما بعدها.

³ نبيل سليمان، وعي الذات والعالم، ص 239، 240.

⁴ إبراهيم الحجري، المتخيل الروائي العربي الجسد-الهوية-الآخر: مقارنة سردية أنثروبولوجية، الناية للدراسات والنشر والتوزيع - سورية،

محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع - دمشق، الشركة الجزائرية السورية للنشر والتوزيع - الجزائر، ط 1، 2013، ص 188

تارة وتتوقع على الذات تارة أخرى، وفي الفصل الثاني دراسة وتحليل لمضامين الرواية الجزائرية منذ نشأتها
وعبر مراحل متباينة من تاريخها، لما لذلك الاستقصاء من أهمية في تحديد طبيعة الآخر، وكيفية اللقاء
معه.

الفصل الثاني:

تطور الرواية الجزائرية من 1950م إلى 2010م

- دراسة في المضامين -

المبحث الأول: في هوية الأدب الجزائري ومحدداته

المبحث الثاني: تطور مضامين الرواية الجزائرية

من سنة 1950م إلى سنة 2010م

الفصل الثاني: تطوّر الرواية الجزائرية من سنة 1950م إلى سنة 2010م

- دراسة في المضامين -

المبحث الأول: في هوية الأدب الجزائري ومحدداته

1/ في الهوية ومحدداتها:

يعدّ التّطرق لموضوع الهوية -على مستوى هذه الدراسة- من الأهمية بمكان على اعتباره محدّداً أساسياً ومهماً لثنائية الأنا والآخر، لاسيما الأنا الجماعية الـ (نحن) التي لا يمكن تمييزها أو فصلها عن غيرها إلّا من خلال محدّدات الهوية كمعايير متّفق عليها، تجتمع حولها الجماعة، وتختلف بها عن الآخرين، وتبعاً لذلك لا يمكن تحديد الآخر إلّا من خلال الأنا أوالـ (نحن)، كما أنّ البحث في صورة الآخر يشكل >> جزءاً لا يتجزأ من البحث في العلاقات بين الجماعات الإنسانية، فهذه الصورة تتشكل بفعل الاختلاف بين الجماعات في ميزات معيّنة والأهمية التي تعزوها كل جماعة لهذا الاختلاف¹ ذلك الذي لا يبني إلّا من خلال الهوية و>> يتميّز مفهوم الهوية بطابع الشمولية²، ويتحدّد >> بناء على الدلالة اللغوية والفلسفية والسوسيولوجية والتاريخية لهذا المصطلح³.

والهوية كما وردت في "موسوعة لالاند الفلسفية" بما يقابلها في الفرنسية Identité وفي الإنجليزية Identity، تعني >> ميزة فرد، أو كائن يمكن من هذا الوجه تشبيهه بفرد يقال عنه إنه متماه بالمعنى ب أو إنه "هو ذاته" في مختلف فترات وجوده "هوية الأنا"⁴، أما في "المعجم الفلسفي" فنجد العديد من المفاهيم، من بينها ما قدّمه الفارابي في قوله: >> هويّة الشيء، وعينيته وتشخصه، وخصوصيته ووجوده المنفرد له كلٌّ واحدٌ، وقولنا إنّه إشارة إلى هويته، وخصوصيته، ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه

¹ عزيز حيدر، الآخر العربي والآخر الفلسطيني والآخر الإسرائيلي في نظر الفلسطينيين في إسرائيل، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص700.

² علي أسعد وطفة، إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط1، نوفمبر 2013، ص158.

³ عفيف البوني، في الهوية القومية العربية، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص23.

⁴ أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، تعهده وأشرف عليه حصراً: أحمد عويدات، المجلد الأول A.G، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط1، 2001، ص607.

اشترك¹، وبالتالي فإنّ كلا المعنيين يشيران إلى أنّ هوية الشيء ما يميّزه عن غيره، و >هويّتي هي ما يكشف عن حقيقتي و يحدّد طبيعتي، بدلالة السمّات التي أعرف بها عن نفسي، ومن هو على شاكلي مثلما أنّ هويّة الآخر هي ما يكشف عن حقيقته ويحدّد طبيعته، بدلالة السمّات التي يعرّف بها عن نفسه، ومن هو على شاكلته²، فالهوية هي ما يسمح للذات من إدراك ذاتها و إدراك غيرها و >هوية الإنسان هي مغايرته للكائنات الأخرى، إنه إنسان وعقل، وهذا هو أول وأبسط مستوى توضع فيه الهوية الإنسانية³، والهوية ليست معطى ثابتا لا يتغير، وإنّما هي في حالة سيرورة شاملة، مع ما قد يبدو من ثبات ظاهري أحيانا⁴، كما أنّها ليست معطى نهائي بل هي شيء يتشكل⁵ شيء يصير، وفقا لمعطيات ومرتكزات معيّنة.

ومادامت الهوية تعني الأفراد والجماعات وتختص بتمييزهم عن غيرهم، فإنه >لا وجود لهوية خارج المجتمع والتاريخ، فالأمة وحدها تملك الهوية، سواء كانت جماعة (صغيرة أو كبيرة بشرط تماثل أفرادها وانصهارهم في الوجود المجتمعي الجماعي)، وأي فرد لا يستطيع أن يستقلّ عن الجماعة (الأمة) في هذا الإطار، أي أنه في حاجة إلى هوية تجمعهم مع آخرين، لأنه ليس بإمكانه أن تكون له هوية وحده، كما أنه ليس بإمكان أيّة قوة أن تفرض هوية ما على مجموعة من الناس من دون اختيار حرّ من طرفهم⁶، وبالتالي فإنه لا يمكن للفرد أن يعيش دون هويّة كما أنّها لا تُفرض عليه، و إنّما هي اختيار وانتماء يشعر به الفرد تجاه جماعة معيّنة، و >الانتماء إلى جماعة محدّدة يعني ضمينا وجود جماعات أخرى، (...) فالفرد يعرّف نفسه بطريقة تضعه داخل حدود جماعية معيّنة، وهو بذلك يعلن

¹ جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، 1982، ج2، ص530.

² علي عباس مراد، إشكالية الهوية في العراق.. الأصول والحلول، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر ص296.

³ فريدة النقاش، العرب وأسئلة الهوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2014، ص07.

⁴ ينظر: المرجع نفسه، ص08.

⁵ ينظر: محمد عابد الجابري، مسألة الهوية، العروبة والإسلام... والغرب، ص10.

⁶ عفيف البوني، في الهوية القومية العربية، ص24.

من "لا يكون" أي إلى أيّة جماعة لا ينتمي^{1<<}، من هنا فإنّ الهوية تنبني على المستوى الفردي، أي من شعور الشخص بالانتماء إلى الجماعة أو الإطار الإنساني الذي يشاركه منظومة القيم والمشاعر والاتجاهات، وكل من هو خارج حدود جماعية يعدّ آخرّاً بالنسبة للجماعة اللا(نحن)، وبالضرورة آخرّاً بالنسبة للفرد اللا(أنا).

والانتماء هو >> العلاقة المنطقية بين الفرد والصنف الذي هو أحد أفرادها^{2<<}، فإذا كانت الهوية هي ما يميّز الفرد عن غيره، فإن الانتماء هو تلك العلاقة التي يختار الفرد إقامتها مع جماعة معيّنة ويتحدّد الانتماء الاجتماعي للفرد وفقاً لمعيارين أساسيين متكاملين هما: >> العامل الثقافي الذاتي الذي يأخذ صورة الولاء لجماعة معيّنة أو عقيدة محدّدة، ثم العامل الموضوعي الذي يتمثل في معطيات الواقع الاجتماعي الذي يحيط بالفرد، أي الانتماء الفعلي للفرد أو الجماعة، فالولاء وهو الجانب الذاتي في مسألة الانتماء يعبر عن أقصى حدود المشاركة الوجدانية والشعورية بين الفرد وجماعة الانتماء^{3<<}. ويعدّ انتماء الفرد إلى جماعة معيّنة في إطار مجتمعي واحد أو أمة واحدة دليلاً على احتواء الأمة الواحدة على جماعات متعدّدة، وإن كانت هذه الأمة تجمع بين أفرادها هوية واحدة مشتركة، فإنه قد يوجد اختلاف داخلي بينها بسبب ما يُطلق عليه الهويات الجزئية⁴، أو الهويات الصغرى أو الهويات تحت قومية⁵، وهي إشارة إلى التوجهات السياسية والإيديولوجية، والطوائف الدينية وما يتفرّع عنها. والمناطق الجغرافية أو هوية (حضرية-ريفية) أو قبلية، وغيرها من العناصر التي قد تميّز أفراد المجتمع الواحد عن بعضهم في إطار جماعات وتشكيلات معيّنة⁶. وإلى جانب الانتماء الذي يختاره الفرد لجماعته هناك جملة من

¹عزيز حيدر، دور المقاومة الثقافية في صياغة الهوية الجماعية، دراسة في الهوية الجماعية للعرب في إسرائيل، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص401.

²جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص152.

³علي أسعد وطفة، إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص155.

⁴ينظر: سالم لبيض، الهوية: الاسلام، العروبة، التونسية، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص352.

⁵فريدة النقاش، العرب وأسئلة الهوية، ص10.

⁶ينظر: باقر سلمان النجار، الفئات والجماعات: صراع الهوية والمواطنة في الخليج العربي، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص318، 319.

المحددات التي تميّز هويّة فرد عن غيره، والتي >> لا تتشكّل فقط من تلك العناصر والبيانات المتضمنة فيما يسميه أمين معلوف "بطاقة الهوية" بل إنّها تمتدّ لتشتمل الدين والمذهب والطائفة والجنسية، واللغة والعائلة والجماعة الإثنية والجماعة القبلية، والمحيط الاجتماعي والمحيط السكاني، الحي أو القرية أو البادية أو المدينة (و قد يشتمل ذلك أحياناً الفريق الرياضي أو الجماعة المهنية أو الجماعة السياسية)¹ << غير أنّ ما يهمّ -في هذه الدراسة - هو تحديد الهوية الجماعية التي تتشكل من مجموع الانتماءات، الفئات والجماعات العرقية والدينية والسياسية والاجتماعية²، التي تندمج في النهاية في إطار هوية مشتركة واحدة تمثل مصالح الجماعة ككل.

ويعدّ الوعي بهذه العناصر المشكّلة للهوية ضروري لتحديد الفواصل والفوارق بين الأنا و الآخر من جهة، وللرّقي بها وتنميتها والمحافظة عليها من جهة أخرى، وهي تتراوح >> بين عناصر مادية فيزيائية تحمل قدرات اقتصادية، وتنظيمات مادية، وعناصر تاريخية تتضمن الأصول التاريخية المختلفة (الأسلاف القرابة، الأحداث التاريخية الهامة، العقائد، العادات والتقاليد و غيرها)، إضافة إلى عناصر ثقافية ونفسية تتضمن النظام الثقافي بما فيه من رموز ثقافية وأشكال تعبير أدبية وفنية خاصة، كذلك تضمّ إلى هذه العناصر مجموعة من الأسس الاجتماعية الخاصة، يضاف إليها نقاط التقاط ثقافية ومعايير جمعية تجمع العالم برمّنه³ << وتعدّ كل من اللغة الأم، والدين الرسمي، والأرض المشتركة أو الرقعة الجغرافية وغيرها من العناصر المهمة في تحديد هوية جماعة معيّنة وتدخّل العناصر السابقة أفراد المجتمعات في إطار دوائر >> تتداخل بعضها في بعض في أزمنة أو فترات الاسترخاء وتنفصل بعضها عن بعض في فترات الشدّة والصراع⁴.

¹ باقر سلمان النجار، الفئات والجماعات: صراع الهوية والمواطنة في الخليج العربي، ص 319.

² ينظر: علي أسعد وطفة، إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة، ص 159.

³ رزان محمود إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط 1، 2003، ص 215.

⁴ باقر سلمان النجار، الفئات والجماعات: صراع الهوية والمواطنة في الخليج العربي، ص 322.

وتقوم الهوية على مبدأ الوحدة التي لا تتجزأ، لأن الهوية ذات، والذات لا تتعدّد بينما يمكن أن تكون لها صفات¹، كما يمكن رصد أربع هويات رئيسية بدرجة متفاوتة من التأكيد لأعراض تحليلية، وهي²:

هوية قومية عربية، هوية دينية إسلامية، هوية وطنية قطرية، هوية شخصية مهنية.

حيث تتخذ الأولى من العروبة محددا لها، في حين تعتمد الثانية الدين الإسلامي معيارا للفصل بينها و بين غيرها، ومادامت الأمة العربية مجموعة من الأقطار التي تتخذ من أوطان أو رقعات جغرافية محدّات لها، فإن لها بذلك ما يميّزها عن غيرها، في حين تعدّ الهوية الشخصية المهنية ما يميّز الفرد عن غيره حتى لو كانوا من مجتمع واحد و أسرة واحدة.

2/ الهوية القومية العربية:

القومية بمفهومها الثقافي > تعني لغة واحدة وبيئة جغرافية متجاورة، وتاريخا مشتركا وغير ذلك مما يشكّل في النهاية مجموعة من الملامح الثقافية، تميّز إنسان المنطقة وتمثّل خلفية فكرية وراء ردود أفعاله³، وعند الحديث عن القومية العربية، نجد عبد الرحمن منيف، يعتبرها >> رابطة تاريخية تضمّ وتجمع وتوحد المجموعة السكانية القاطنة في هذه البقعة من العالم ، اعتماداً على اللغة والتاريخ والخصائص النفسية و المصالح المشتركة، وهي في مرحلتها الحالية، حركة تحرّر وطني وتغيير حضاري تهدف إلى توحيد الشعب والطاقت، وإلى تحرير الأرض والإنسان، وإلى بناء صيغة جديدة لعلاقات داخلية وخارجية، وتعتمد الحرية والمساواة والعدل، وتساهم في إقامة عالم أفضل⁴، فهو بذلك ينفي عنها العرقية، أي لا تعتمد العرق أو الدم أساسا لهذه الرابطة، كما أنها ليست تعصبية، إذ يعدّ الانتماء إرادة وولاء، وهي ليست عنصرية، لا تقرّ بتفوق لنفسها أو لغيرها، تستند إلى عوامل اللغة و الخصائص النفسية والمصالح المشتركة، وعن الهوية العربية يرى الدكتور محمد عابد الجابري: >> أنّ الأغلبية الساحقة

¹ ينظر: عفيف البوني، في الهوية القومية العربية، ص36.

² ينظر: سالم ساري، الذات العربية المتضخمة: إدراك الذات المركز والآخر الجواني ، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص379.

³ عبد الحميد إبراهيم، الأدب المقارن من منظور الأدب العربي: مقدمة وتطبيق، دار الشروق، بيروت- لبنان، ط1، 1418هـ- 1997، ص8.

⁴ عبد الرحمن منيف، القومية والهوية والثورة العربية، رياض زكي قاسم محرّرا، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر ص 68.

من سكان هذه المنطقة (من المحيط إلى الخليج، يعتبرون هذا الوصف [عربي] جزءا من هويتهم - فمن لم يكن عربيا بالعرق - وهل يمكن إثبات ذلك أو إثبات العكس- فهو يعتبر نفسه عربيا بالإسلام، كما هو الحال بالنسبة إلى شعوب شمال إفريقيا، التي لا ينفصل في وعيها الإسلام عن العروبة، ولا العروبة عن الإسلام، أما من لم يكن منهم مسلما كالمسيحيين في المشرق، فهم يعتبرون أنفسهم عربا باللغة والثقافة والتاريخ والأصل ... أما الباقي وهم الأغلبية، فهم يعتبرون أنفسهم عربا أو مستعربين، فضلا عن كونهم مسلمين، أما الحركات الأصولية التي ترفع شعار الإسلام، فهي ترفعه كشعار سياسي احتجاجي ضدّ الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية التي تربطها ب "علمانية" الدولة العربية الراهنة¹، فهو بهذا القول يشير إلى أنّ العروبة قبل أن تكون مكوّنا من مكونات الشخصية كاللغة أو العرق، هي شعور بالانتماء إلى هذه الرقعة من الأرض، والتي يطلق عليها الشرق كما أنّه يتعرّض لمسألة في غاية الأهمية، والتي تتمثل في العلاقة الوطيدة بين العروبة والإسلام، حتى يبدو كل منهما وجهان لعملة واحدة، ويعود ذلك إلى كون [>] العربية كلغة هي لغة الدين، بها جاء القرآن، وبها تؤدى الصلاة، وهي لغة الثقافة والتعامل (...). ولذلك انطبع الإسلام بطابع العروبة كثقافة وقيم، وكطريقة لفهم الحياة والعلاقات وأثرت العروبة في الإسلام أكثر مما أثرت في أية قومية أو في دين ^{<<2} حتى بدا وكأنّ العروبة هي الإسلام، والإسلام هو العروبة، وهي ميزة الشعوب القاطنة في الرقعة الجغرافية ^{>>} الممتدة من المحيط الأطلسي غربا إلى الخليج العربي شرقا، وبين البحر الأبيض المتوسط وتركيا شمالا، والصحراء الكبرى والمحيط الهندي جنوبا، هذه المنطقة يسكنها "أقوام يتكلمون اللغة العربية في الغالب، أو على الأقل يتخذونها لغة ثقافة، كما تدين الأغلبية العظمى منها بالإسلام^{<<3}. وما دامت المنطقة العربية واسعة تحوي أقواما شتى يميّز بينها تاريخ ثانوي، وتراث خاص وعادات وتقاليد شعبية متوارثة، كان لهذه القوميات الصغرى ما يميّزها عن غيرها، في وطن رسمت حدوده السياسية والجغرافية، ما أدى إلى بروز الهويات الوطنية القطرية.

¹ محمد عابد الجابري، مسألة الهوية: العروبة والإسلام... والغرب، ص ص 14، 15.

² عبد الرحمن منيف: القومية والهوية والثورة العربية، ص 74.

³ محمد عابد الجابري، مسألة الهوية والعروبة والإسلام... والغرب، ص ص 21، 22.

3/ الهوية الوطنية الجزائرية:

تعدّ الجزائر دولة ذات سيادة لها مقوماتها التي تميّز هوية أفرادها عن غيرهم، في رقعة جغرافية محدّدة، دينها الأصلي هو الإسلام، ولغتها الأم هي العربية، ولها تاريخ مشترك بين أفرادها منذ القدم كما لها تراث مادّي و لا مادّي تعتزّ به، وتُسهم في تنميته والمحافظة عليه، ولأفرادها ثقافة تمارس بأشكال متّفق عليها، ولها اهتمامات موحّدة في مواجهة المستقبل وتحدياته، وبذلك تتميّز بنوع من الخصوصية عن باقي الأقطار العربية وغير العربية، والجزائر بذلك جزء من الأمة العربية الإسلامية وهويتها جزء من الهوية العربية الإسلامية، تحدّدت معالمها في الدستور الجزائري من خلال المواد التالية: >> إن الجزائر أرض الإسلام وجزء لا يتجزأ من المغرب العربي الكبير، وأرض عربية وبلاد متوسطة وإفريقية، تعتزّ بإشعاع ثورتها¹ والمكوّنات >> الأساسية لهويتها: الإسلام والعروبة والأمازيغية² >> تعدّ اللغة العربية >> هي اللغة الوطنية الرسمية³، وورد في درس الهوية الوطنية: >> سكان الجزائر أصلهم أمازيغ لكن الإسلام عزّهم⁴.

وتاريخ المجتمع الجزائري عريق في القدم، إذ عرف >> قبل سنة 1832 نوعا من الانسجام بين الذوات نتيجة التفاعل المستمر بين الوافد الإسلامي في مضامينه المتعدّدة، العقائدية، والطقوسية، واللغوية وبين المحلّي الأمازيغي المركّب من اللغوي المنطوق والطقوسي الممارس في شكل تقاليد اجتماعية، واللذين شكلا معا مفهوم الذات المحليّة المنسجمة⁵، ولكن مع الاحتلال الفرنسي الذي حاول تشويه الهوية الجزائرية بفرض اللغة الفرنسية كلغة رسمية⁶ - وإن كان ذلك لفئة قليلة من أبناء الجزائر الأصليين - كما

¹ ديباجة الدستور الجزائري، دستور الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، الجريدة الرسمية رقم 76 المؤرخة في: 08 ديسمبر 1996،

معدل ب: القانون رقم 02-03 المؤرخ في 10 أبريل 2002، الجريدة الرسمية رقم 25 المؤرخة في 14 أبريل 2002

القانون رقم: 08-19 المؤرخ في: 15 نوفمبر 2008، الجريدة الرسمية رقم 63 المؤرخة في 16 نوفمبر 2008

² ديباجة الدستور الجزائري.

³ المادة 03 من الدستور الجزائري.

⁴ مادة التربية المدنية، قسم السنة الثالثة متوسط، منتديات خنشة التعليمية www.forum.educ.40.net

⁵ عروس الزبير، الذات الممزقة: بين الأنا والآخر، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص 660.

⁶ ينظر: جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ترجمة وتقديم: عمر مهيب، الدار العربية للعلوم ناشرون - منشورات الاختلاف، بيروت -

الجزائر، ط 1، 1429هـ - 2008م، ص 79.

حاول تشويه الدين الإسلامي بنشر نوع من الشبهات والبدع التي زادت الجزائريين جهلاً بدينهم، كما كان لمحاولة التنصير سعي حثيث من طرف رجال الدين الفرنسيين، فاعتبرت بذلك الجزائر أرضاً فرنسية¹، وأخضعت الشعب لإدارة متسلطة، محاولة نحو كلِّ مقومات هويته من جهة، وزرع التناحر بين أبناء الأمة الواحدة، بإحداث الفرقة بين العرب والبربر، وراحت تذكي هذه الصراعات الداخلية التي تحدث أزمات على مستوى الهوية الفردية والجماعية² إلى أن حدّد العلامة ابن باديس مقومات الهوية الجزائرية في قوله: <>الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا<<³، وسارت على هذه المقومات الدولة الجزائرية المستقلة، في الدستور الذي يحدّد المعالم الكبرى للدولة.

كما يعدّ مقوم "التاريخ" من الأسس المهمة التي تُبنى عليها الدولة، ذلك أن تاريخ الأمة الجزائرية من تاريخ الأمة الأمازيغية الضاربة في أعماق تاريخ منطقة شمال إفريقيا، ذلك التاريخ الذي صنعه الأجداد من ماسينيسا إلى يوغرطة، وخلقوا مجدداً مثله دولة النوميديين، وترجمه سانت أغوستين في مؤلفاته الفلسفية الكبرى⁴ فهذا البعد الأمازيغي في أصل المجتمع الجزائري، هو ما جعل البعض من الباحثين يثيرون إشكاليات حول هويته الحقيقية فيما إذا كانت أمازيغية أو عربية، وإن كان هناك من يرجع الهوية الأمازيغية إلى الأصول العربية⁵، وهو رأي لا يتفق معه الجميع، إذ يُردّ عليه بأن الجزائريين الجزائريين أسلمهم الإسلام، وليسوا أمازيغ عربهم الإسلام، لأنّ الظاهرة العرقية لا تستطيع أن تعوّض بظاهرة لغوية⁶، وبين الرأيين نقول أنه مادامت الهوية شعور وانتماء قبل أن تكون امتداداً عرقياً و تعصباً

¹ ينظر: علي بن محمد، مرجعيات الهوية الجزائرية في فكر الإمام ابن باديس، جريدة الشروق اليومي، الاثنين 21 ماي 2012 الموافق ل 29 جمادي ال ثانية 1433 هـ، العدد 3661، ص 19.

² ينظر: عمار بن طوبال، الهوية المأزومة في الخطاب الثقافي الجزائري موقع:

koutama18.blogspot.com/2009/04/blog-spot-22.html تاريخ الزيارة: 2015/04/15

³ ينظر: علي بن محمد، مرجعيات الهوية الجزائرية في فكر الإمام ابن باديس.

⁴ ينظر: محفوظ رموم، أشكلة الهوية في الجزائر بين الأمزجة والعروبة والعملة: رؤية تاريخية استشرافية لظاهرة العنف في الجزائر، موقع:

/ http://www.aranthropos.com

⁵ ينظر: الموقع الإلكتروني نفسه.

⁶ ينظر: الموقع الإلكتروني نفسه.

له. فإنّ خيارات الشعب الجزائري تكاد تُجمع على العروبة كإنتماء، في حين أنّ اللغة شيء آخر، إذ هي ما يُعتمد كوسيلة للتفاهم والتثاقف والتسجيل الأدبي والتاريخي، فهي لغة الشعب الجزائري الرسمية، وذلك لا ينفي وجود لهجات ثانوية، أو وجود تعدّد لغوي بغضّ النظر عن من يمارسه، ذلك أنّ اللغة الرسمية في الجزائر هي اللغة العربية، وتبقى اللغة الفرنسية لغة أجنبية أولى، يستعملها البعض من باب العولمة والتثاقف مع الآخرين، للفهم والإفهام، وإيصال الصور الذاتية إلى الآخر، وهي بذلك لا تمسّ مكانة اللغة الرسمية بأي شكل من الأشكال، ولا هوية الوطن، أو حتى هوية الأفراد. يقول جاك دريدا > لغة قوم ليست هي لسانهم بالضرورة، ولسان قوم ليس هو لهجتهم بداهة¹، فالهوية الجزائرية بتلك المقوّمات جزء من الهوية العربية المشرقية، تتميز عنها بأصلها الأمازيغي وإن كانت تشترك في ذلك مع بلدان شمال إفريقيا، ولكن مع هذا لها خصوصيتها التاريخية والثقافية والاجتماعية.

ومن هذه المحدّدات الخاصّة بالأنا الجزائرية، يمكن تحديد هوية الآخر بالنسبة إليها، إذ هو الأجنبي عنها: لغة، ودين وأصالة، وأرضاً وتاريخاً، ومادامت تشترك في كثير من مقوّماتها مع الأقطار العربية الأخرى، فلا يمكن اعتبارها آخرّاً بالنسبة إليها، من هنا فالآخر بالنسبة إليها معاً هو الأجنبي الغربي (أوروبياً كان أو أمريكياً، يابانياً أو صينياً).

وتندرج في إطار هذا الآخر أنواع فرعية. كالآخر الأوربي، الأمريكي، (من حيث الجنسية)، والآخر المسيحي، اليهودي، البوذي... (من حيث الديني)، والآخر المستعمر من حيث الحريات السياسية...

¹ جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية أو في الترميم الأصلي، ص32

4/ هوية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية:

يعتمد الأديب في إبداعه الأدبي على قاموس لغوي، بأصوات ومفردات وتراكيب يبلغ بها مقاصده، وينقل من خلالها خيالاته ومشاعره وأحاسيسه، وبذلك فإن اللغة هي > الوسيط الذي يجري من خلاله إضفاء طابع أدبي على بنية تراتبية للقوة، والوسيط الذي تصبح من خلاله مفاهيم " الحقيقة " و"النظام" و"الواقع" راسخة¹ << هذه اللغة التي ليست مجردة من القيم و المضامين، بل هي >> نتاج سياق اجتماعي في النهاية، وإنها أداة سابقة الصنع محملة سلفا بالكثير من الإيحاءات الاجتماعية والسياسية أو التاريخية الحضارية التي لا يمكن فصل كلماتها وتراكيبها عنها، فاللغة وعاء و أداة فكر فاعلة محملة بمضامين إيدولوجية في النهاية² <<، فتعكس بالضرورة على العمل الأدبي، وتضفي عليه من خصائصها ومميزاتها، فهي >> لا تقدم الفكرة، خلال عملياتها التعبيرية، بصفة حيادية مطلقة مماثلة لما يمكن أن تقدم بها في أية لغة أخرى، بل هي تلونها بخصوصياتها الذاتية، و تحاول أن تؤثر في موقف القارئ بصفة تتماشى مع عبقريتها الخاصة، وما تحقق لها من تجارب في مجالات الفكر والثقافة (...). إنها باختصار تحمل ملامح من شخصية الأمة التي تتكلمها، وتتصل بخلفياتها الحضارية والفكرية وما اكتسبته من أساليب النظر والتفكير والفهم، وتحاول أن تنعج بها ضمن عملياتها التعبيرية³ <<، ولعلّ هذا ما جعل الباحثين والمؤرخين يعتدّون باللغة في تحديد هوية الأمة وثقافتها.

وتعدّ اللغة العربية، اللغة الرسمية المحدّدة لهوية الأمة الجزائرية ومقومها من مقوماتها، غير أنّ بروز الكتابة الأدبية باللغة الفرنسية، طرح إشكالا عميقا بين النقاد والكتّاب، حول هوية هذا الأدب المكتوب بهذه اللغة.

¹ بيل اشكروفت، غارث غريفيت، هيلين، تيفن، الرّد بالكتابة النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، تر: شهرت العالم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص 25.

² جابر عصفور، تحديات الإبداع العربي، ضمن سليمان العسكري، تجارب في الإبداع العربي، وزارة الاعلام، مجلة العربي، ط1، يوليو 2009، الكويت، ص 27.

³ عبد العزيز العاشوري، اللغة العربية والهوية الثقافية وتجارب التعريب، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت- لبنان، ط1، 2013، ص 269.

وتحدر الإشارة إلى أنّ الإبداع الأدبي باللغة الفرنسية من طرف أدباء جزائريين، كان نتيجة حتمية لما مرّت به الجزائر من ظروف استعمار واضطهاد للغة الأصلية العربية، حيث >> شاءت الأقدار أن تتغلّب لغة الغزاة على هذه اللغة القومية منذ 1830م وليس هذا بمستغرب، إذ لا ينكر أحد بأن السيطرة الأجنبية المباشرة كانت شاملة فعملت حينما استتب لها الوضع على قلب الأنظمة لصالحها، أو على تحطّمها لكي تحلّ محلّها أنظمتها هي¹، وبالتالي غدت اللغة الفرنسية هي التي >> يتعلمها الجزائريون في المدارس، وكانت لغة السلطة والإدارة والمجتمع المتمدّن والتجارة²، وبالتالي كان كل ما يحيط بالجزائري فرنسيا في لغته وثقافته، ولعلّ ذلك ما مكّن الجزائريين من أن يجعلوا من الفرنسية >> لغة تساعد على التعبير عن قيمهم وأفكارهم وتقاليدهم، وبدلا من أن تكون أداة لتشويه تلك القيم والتقاليد، أصبحت لهم لغة قادرة على التعبير عن تلك الشخصية الجزائرية، وعن تلك القيم الجزائرية و التقاليد الجزائرية نفسها³. فكان ميلاد الأدب الجزائري باللغة الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية، بعدما سيطر الجزائريون على تلك اللغة وطوّعوها لنفل أحاسيسهم ومواقفهم التي تتضمّن موافق شعبهم تجاه الاستعمار الفرنسي للجزائر، رفضا ومقاومة من جهة، ونقلا لأوضاع هذا الشعب جرّاء الاستبداد والظلم الممارس في حقّهم من جهة أخرى.

ويعدّ محمد ديب، مولود فرعون، مولود معمري، مالك حدّاد، آسيا جبار، وكاتب ياسين وغيرهم من الأدباء السبّاقين إلى الكتابة باللغة الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية، وشهدت الفترة الممتدة >> من 1920 إلى 1930 خمسة أعمال أدبية، (...). مجموعة سالم القبيّ الشعرية، والسيرة الذاتية للقائد بن الشريف، وتضيف إليهما (زهراء امرأة المنجمي) Zohra , la femme de mineur لعبد القادر حاج حمّو، التي صدرت 1925م، ورواية (مأمون بدايات مثل أعلى) Mamoun l'ebauche d'un idéal لعبد القادر حاج حمّو التي صدرت 1928م ورواية (العلاج أسير ببروسيا) El-Euldj ,captif des

¹مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007م، ص 417.

² نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتجريح، دار العلم للملايين - بيروت، ص 275.

³سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1967م، ص 86.

barbaresques للكاتب نفسه، التي صدرت 1929م...¹، وإن كانت هذه الأعمال قد كتبت على عجل بمناسبة مرور تسعين عاماً من الاحتلال، كما أنها تنطوي على العديد من النقائص والعيوب² غير أنه في نهاية > سنوات الأربعينات بدأت الأسماء الجزائرية الحقيقية تلمع في الأفق، ولأول مرة يظهر تعبير الأدب العربي المكتوب بالفرنسية في الجزائر، وفي تلك السنوات كان الاستعمار الفرنسي يتعامل مع اللغة العربية الفصحى باعتبارها من التراث وكان يتمّ تعليمها في أضيق الحدود في فرنسا، وهكذا وجد الجيل الأول من الأدباء الجزائريين أنفسهم أمام اختيار واحد هو الكتابة باللغة الفرنسية التي يتقنونها³. وقد ظلّ هؤلاء الأدباء يكتبون بتلك اللغة، يعبرون عمّا يعيشونه من آلام، وما يطمحون إليه من آمال ينقلون أفكارهم ومواقفهم إلى العالم بأسره، يعرفون بقضيتهم ويستمدّون المساندة من الشعوب المؤمنة بالعدالة والتحرر.

غير أنه غداة الاستقلال ظهرت إشكالية الكتابة بلغة المستعمر، وغدت تشكّل عقدة للمبدعين بها، لاسيما بعد سياسية التعريب التي انتهجتها الجزائر المستقلة حديثاً، فأصبح الكتاب باللغة الفرنسية قيد الاتهام، من قبل النقاد والأدباء باللغة العربية، فقد > ظلّت مشكلة اللغة ومشكلة تعريب الجزائر ومستقبل الثقافة الجزائرية مدار مناقشات طريقة مفيدة، على صفحات الصحف والمجلات الفرنسية والمحلية، وقد شارك جميع كتّاب الجزائر في هذه المناقشات القيّمة عارضين وجهات النظر المختلفة حول هذا الموضوع⁴. فاتحين المجال لطرح العديد من المواقف المختلفة فيما بينها:

>> ومن النقاد اللذين اتّهموا جزائرية هذا الأدب في تلك الفترة (عبد الملك مرتاض) الذي يقول: >> وقد كان هؤلاء الكتاب الجزائريون في معظمهم بالفرنسية معجبين كلّ الإعجاب بالحضارة الفرنسية بوجه خاص، والحضارة الغربية بوجه عام، جاهلين بالتاريخ العربي، غير ملمين بمعالم الحضارة الإسلامية⁵.

¹ أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي: نشأته وتطوره وقضاياها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 4/ 2007، ص 95.

² ينظر: المرجع نفسه، ص 94.

³ محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1996، ص ص 104، 105.

⁴ سعد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص 90.

⁵ عبد الملك مرتاض، نخضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969، ص 20.

وهو بذلك يتّهمهم بالاستلاب والانبهار بالحضارة الغربية، وعدم الإلمام بالحضارة العربية الإسلامية، كما يتّهم أدبهم بالغربة عن الوطن وعدم المساهمة الفعالة في ثورة التحرير، بقوله: >إنّ رأيي في هذا الأدب سيئ جداً، وقد أكون مخطئاً فيما أرى، وقد أكون قاسياً في ما أحكم (...). إن هذا الأدب غريب في نفسه ومنفي عن موطنه الذي كتب فيه، ولم يستطع أن يلعب دوراً خطيراً في إذكاء نار الثورة<<¹ ولعلّ هذا الموقف القاسي من الناقد، يعود لتمسّكه الشديد بالعروبة²، إذ تُعدّ اللغة الفرنسية -حسبه- وسيلة المستعمر الذي حاول اغتيال اللغة العربية.

وفي مقابل ذلك نجد موقفاً آخر من الدكتور عبد الله الركيبي، إذ تحدّث عن عمق الإشكالية، واعتبر أن >اللغة إلى جانب أنها مادّة ووسيلة للتعبير، فهي تعكس روح الشعب، وروح الحضارة التي ينتمي إليها الفرد والأمة (...). وهي بهذا تمثّل جزءاً من التفكير لا وسيلة للتعبير عنه فحسب<<³، فهو بهذا يعي الأهمية التي يحتلّها الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، وأن للغة التي كتب بها مساهمة في طرح الإشكال المتعلّق بهويّة هذا الأدب، ممّا يشكّل أزمة حادّة عنيفة لدى الأدباء أنفسهم، اعتبرها البعض منهم مأساة لاسيما بعد الاستقلال، حيث أصبحت اللغة العربية تستعيد مكانتها كمقوم من مقومات الشخصية الجزائرية، من ثمة فهو يرى أنه لا بد أن يوضع هذا الأدب موضع الاتّهام، لأنّ الإحساس القومي الذي نما بين أفراد الشعب منذ مدّة طويلة قد بلغ القمة في الثورة، وصاحب ذلك رد عنيف ضدّ ما حمّله الاستعمار للجزائر من تقاليد وأفكار وثقافة وأدب⁴، فأصبح ذلك الأدب دخيلاً وأجنبياً على الأدب الجزائري القومي.

وعلى خلاف ذلك يقف محمد الطمار، من الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية موقف المساند والمتفهم، إذ حاول إيجاد المبررات للكتابة باللغة الفرنسية في فترة تعدّد استعمال غيرها لدى فئة معينة من الكتاب، حيث يعتبر أنهم: >عاشوا حقيقة الشعب و أرادوا التعبير عن ذلك الواقع، فلم

¹ عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ص 20، 21.

² نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتجريح، ص 281.

³ عبد الله خليفة الركيبي، القصة الجزائرية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط3، 1977م، ص 241.

⁴ ينظر: المرجع نفسه، ص 243.

يجدوا أداة لذلك التعبير ألا اللغة التي تعلّموها لتلك الظروف الاستثنائية ، فإن أدبهم يعدّ سلاحا من أسلحة المعركة المختلفة لبعث التقاليد ، والقيم المحافظة على كيان الأمة ووحدها بجانب الأدب العربي و بذلك فهو أدب وطني ، لقد انفتح ذلك الأدب على جميع الصلات الزاخرة القومية مع الأدب الفرنسي ، فالديباجة فرنسية و المضمون جزائري¹ ، وبذلك يخرج محمد الطمار من حدود الأدب المكتوب باللغة الفرنسية ، وهو يتفق في ذلك مع الدكتور جابر عصفور ، الذي يقول: > وعندما أعاد النظر في موضوع علاقة اللغة بالهوية الثقافية ، وأصلها بخرائط الإبداع، أجد نفسي أنفي عن اللغة كونها العامل الحاسم في تحديد الهوية الثقافية، وأعطي صفة العامل الحاسم للهموم والتحديات والأحلام والكوابيس التي تنطوي عليها الهوية الثقافية الواحدة² ، ويشترك في هذا الموقف العديد من النقاد والدارسين³ الذين يعتبرون الأدب المكتوب باللغة الفرنسية من قبل أدباء جزائريين أدبا قوميا جزائريا تبعا للروح التي كُتبت بها والحقائق المحلية التي عبّر عنها، ومن النقاد من يعتبره أدبا مزدوج الهوية ، مثلما هو الحال مع عز الدين المناصرة ، الذي يرى أنّ: > الأدب العربي المكتوب بالفرنسية ، هو أدب عربي فرنسي أي أنه من جهة أخرى ليس فرنسيا ، وليس عربيا خالصا ، لأنه مزدوج الهوية، أي أنه يؤسس لهوية ثالثة جديدة مختلطة، فهو أدب المهجرة اللغوية، وهو أدب عابر للأفكار، فهو حالة خاصة⁴. أي حالة ما بين الحالتين والأدبين.

¹ الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007/3، ص ص 275، 276.

² جابر عصفور، الهوية الثقافية واللغة، جريدة الأهرام، عدد 2009/04/03.

³ منهم: أحمد منور: الذي يثبت للأدب المكتوب باللغة الفرنسية جزائريته، في حين ينفي عنه أن يكون أدبا قوميا > وعليه فإن حقيقة كون هذا الأدب مكتوب باللغة الفرنسية، وهي لغة أجنبية في الجزائر من الناحية الرسمية، يمنعه من أن يكون أدبا قوميا < (أحمد منور الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياها، ص 182) .

ومنهم: عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، 1925، 1967، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 54. و: سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص 83.

⁴ عز الدين المناصرة، الهويات والتعددية اللغوية: قراءة في ضوء النقد الثقافي المقارن، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1425هـ - 2004م، ص 389.

ويستغرب مصطفى الأشراف من استعجال سياسية التعريب المنتهجة في الجزائر، ووضع كلٍّ من أخذ بها موضع الاتهام، إذ يقول: >>...لقد قيل بحق وصدق - بأن الاستعمار ظلّ طيلة قرن وربع يعمل من أجل القضاء على ثقافتنا، ولكن المستغرب بعد هذا أن نسمع، بعد حصول البلاد على الاستقلال مباشرة، من يدّعي بأنه يمكن بين عشية وضحاها، وبدون أي جهد عقلائي في الإعداد والتكوين، يمكن خلق جيل كامل من الأعوان والمعلمين والأساتذة المتخصّصين في مختلف علوم اللسان وفي مختلف فروع الثقافة، علما بأن اللسان العربي والثقافة القومية ظلّاً مدة طويلة من الزمان، محرومين من حرية التعبير، ومن مسايرة التقدم العلمي في أبسط صورة...^{1<<}، فهو بذلك يدعو إلى التريث في إنجاح عملية التعريب وإحلال اللغة الأصلية مكانتها اللاتقة عبر فترات زمنية مترتبة.

ولكن ما حصل في الواقع، رغم مرور الزمن وتبلور الوعي الفردي الجزائري بمكانة اللغة العربية ودورها في تحديد هويته القومية والثقافية، استمر مع ذلك في الكتابة باللغة الفرنسية، سواء من طرف بعض الأدباء السّباقيين² لذلك النوع من الكتابة، أو من قبل كتاب جدد، ترعرعوا في حضن الجزائر العربية- المستقلة- تعليماً وثقافة، وهو ما أدّى إلى اتّساع الهوة بين مؤيّد لهذا الأدب ورافض له، حيث يعتقد البعض أن مبررات الكتابة بهذه اللغة قد زالت، ولا داعي للاستمرار في الإبداع بها، بل لا بدّ من استبدالها باللغة العربية، اللغة الرسمية القومية للجزائر.

وبذلك نشهد تحوّلاً في الإشكال المطروح حول هويّة الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية إذ يكاد يتفق النقاد على أنّ أدب ما قبل الاستقلال أدب جزائري، لأنّه كتب في ظرف تاريخي، كان أكبر من مجرد الرّغبة في الكتابة باللغة العربية، في حين أنه >>يُعدّ الاستمرار في ممارسة هذا التجاوز

¹ مصطفى الأشراف، الجزائر: الأمة والمجتمع، ص 418.

² من بين الأدباء السّباقيين إلى الكتابة باللغة الفرنسية: محمد ديب وآسيا جبار اللذان استمرّا في الكتابة إلى أن وافتهما المنية، مالك حداد: اختار الصمت المطبق، كاتب ياسين: اختار الصمت لمدة ثلاثة عشر سنة، ثم تحوّل إلى الكتابة باللهجة العامية الجزائرية، مولود معمري: عاش أزمة التعبير، وقّلت أعماله الإبداعية بشكل محسوس، وتباعدت تواريخ صدورها... (ينظر: أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياها، ص 165، وما بعدها).

[الكتابة باللغة الفرنسية] خياراً شخصياً ينتج عنه ولع وانقياد نحو الآخر مهما حاول هؤلاء الكتاب أن يستمروا متعانقين مع مضامين عربية إسلامية وذلك أنّ ولعلمهم وانجذابهم نحو اللغة والثقافة الفرنسية قد أكرههم على إغنائها بما يسكنهم من تراث، وما يؤكد هذا التوجّه هو احتفال النقد وتاريخ الأدب الفرنسي في القرن العشرين بهؤلاء الكتاب، واعتبار أعمالهم من عيون الأدب الفرنسي¹ وبذلك يرى صاحب هذا الموقف-الطاهر روابنية-أنّه لا بدّ أن يكتب الجزائري باللغة العربية، ويترك الفرنسية لأهلها. فالكتّاب اللذين كتبوا بالفرنسية فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر، أو غداة الاستقلال نتيجة جهلهم للغة العربية-وإن عبّروا عن المأساة العميقة² التي أحسّوا بها لاسيما ملك حداد- كانت دوافعهم مبرّرة ومقبولة لدى أغلبية النقاد.

في حين وقف النقاد موقف النّدّ للكتّاب باللغة الفرنسية من الجيل الجديد ومن بينهم عبد الله الركيبي، الذي يعود ويقول: >قد تكون الأحكام السابقة خاضعة لظروف الكفاح الوطني التحرّري الذي كان في حاجة إلى كافة الأسلحة، ومنها القلم الوطني، والكلمة المناضلة الشريفة بأية لغة كتبت أما الآن فإنّ ما يُكتَب بهذه اللغة الأجنبية هو شذوذ عن القاعدة، وخروج عن الواقع الطبيعي المؤلف، بل تحدّد سافر للتاريخ والثوابت³ فالكتابة بهذه اللغة - في رأيه- تمسّ بالهوية الثقافية كونها تتعدّى على مقوّمات الهوية التي تشكّل اللغة العربية أحد ركائزها.

ويعتبرها البعض >ازدواجية لغوية ثقافية متحيّزة للغة الفرنسية وثقافتها تسهل عملية استعداد تلك الشعوب نفسياً، وثقافياً لقبول استمرار الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي بعد الاستقلال⁴ فهي

¹ حمزة بسو، إشكالية الهوية في الرواية الجزائرية بين ضفتي المتوسط (قراءة في كتاب: الرواية بين ضفتي المتوسط) أصوات الشمال، مجلة عربية ثقافية اجتماعية شاملة، موقع: <http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=31475> تاريخ الزيارة: 06/2015/01/

² المأساة العميقة تتمثل في الصراع بين حضارتين وثقافتين مختلفتين.

³ أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي: نشأته وتطوره وقضاياها، ص 180.

⁴ محمد الدّاودي، اللغة الفرنسية في المغرب العربي: غنيمّة حرب أم استلاب هوية، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص 348.

تمثل قابلية الجزائري لتبني اللغة الفرنسية في التعبير عن حاجاته، وهو ما يمثل قبول الفرنسي عموما حسب صاحب الرأي السابق.

ولكن في مقابل ذلك نجد العديد من الروائيين المعاصرين باللغة الفرنسية يدافعون عن خيارهم، دون أن تشكل الكتابة بهذه اللغة أي عقدة لهم، أو تمدهم بإحساس المأساة الذي عبر عنه في كثير من الأحيان الكتاب السابقون، بل على العكس من ذلك، إذ يُعدّ اعتزازهم بالانتماء للثقافة والحضارة العربية قويا، كما أنهم ينسبون ثقافتهم إلى كل ما هو عربي، ومن هؤلاء، نجد الروائي **ياسمينه خضرا**¹ الذي يعتبر أن كتابته باللغة الفرنسية تسمح له بالانتشار والتحول عبر العالم، كما يعتبر نفسه كاتباً مختلفاً عن الفرنسي، يكتب بروح البدوي ابن الصحراء، وبروح الجزائري والعربي، ولذلك تلقى رواياته قبولا من الفرنسيين وغيرهم في الغرب .

أما الروائي **أنور بن مالك** فإنه يتحسّر على عدم إتقانه الكتابة باللغة العربية، رغم تعلمه لها واستيعابه لخصوصيتها، إذ يقول: >أشعر بالخيبة وبالحرسة الكبيرة، لأنني لا أكتب باللغة العربية، صحيح أنني أقرأ اللغة العربية، ولكن لا يمكن لي أن أعبر بها كما أريد، رغم أنني درست اللغتين العربية والفرنسية بنفس النسبة، وفي هذا السياق أؤنب وبشدة الذين علمونا اللغة العربية بطريقة خاطئة، ففرضوا علينا تعليمها دون تحبيبها لنا (...). حقا لهي جريمة ارتكبت في حق اللغة العربية، وأتمنى من كل أعماقي أن نعطي للغة العربية مكانتها في البلد، فهي لغته ويجب أن تحتل مكانتها الأصلية، ليس بالقسر ولكن بالتحبيب...²، أما عن اللغة الفرنسية، فيقول أنها >لغة الاستعمار، ولكنها أيضا لغة بعض الحريات الفكرية³ فاللغة العربية - إذن - تشكل مرجعيته الثقافية والتاريخية، في حين تتيح له الفرنسية حرية التفكير والتعبير، وهو ما فسّر لجوء العديد من الأدباء للإبداع بها.

¹ ينظر: موقع الجزيرة. نت، برامج وثائقية، المشاء، وهران...مناورات ياسمينية خضرا، موقع:

<https://www.youtube.com/watch?v=LFrkKgZk628> تاريخ الزيارة: 2015/06/06.

² لطيفة دارين، حوار مع الأديب الفرانكفوني الجزائري أنور بن مالك، مجلة إتحاد الكتاب المغاربة، 30 أكتوبر 2011، موقع:

<http://wp.me/p1gn8M-1fo> تاريخ الزيارة: 2015/07/13

³ Anwar Benmalek , Entretien avec Yousef Merahi , vivre pour écrire , Editions Sedia, Algerie, 2006, p39

ولا تقتصر الكتابة باللغة الفرنسية على أحادي اللغة، ممّن لا يتقنون الإبداع بسواها، بل من الأدباء من يكتب بلغتين، ويخلق بجناحين، لطالما شكّلا طرفي معادلة متناقضين، إذ يجتمعان في جوف أديب واحد، ولعل من بين الأدباء المزدوجي اللغة الإبداعية؛ الأديب والروائي رشيد بوجدره[>] الذي ظهر مع نهاية الستينات، ولمع في سنوات السبعينات، يكرّس اللغة التي يريدّها، حسب الظروف التي تحكمه أو حسب الجمهور الذي يوجه إليه كتابته^{<<1}، ويُعتبر حينه وشوقه إلى العربية شديدا، كلّ ما ابتعد عنها ليكتب بغيرها، إذ يقول: ^{>>} «ما زالت اللغة الأم العربية بالنسبة لي، لغة العشق بالمعنى التّصوّفي ويربطني بها حنين قوي ومبهور بقوتها، لأنّني أتمكّن عبرها من خرق النص العربي عن طريق اللغة الشعبية، لأنّها لغة شعرية وجميلة...^{<<2} ومع هذا التعلّق الشديد باللغة العربية، إلّا أنّه لا يتوانى عن الكتابة بالفرنسية لأسباب عديدة، كعدم النشر لبعض الأعمال الروائية لاختلاف الرّؤى الإيديولوجية أو البحث عن الشهرة والعالمية³، وبالتالي فإن الكتابة بالفرنسية، لا تشكل بالنسبة إليه أي عائق أو عقدة، وإنما هي لغة ثانية تسمح له ببلوغ مراميّه ومقاصده من الكتابة بلغة أو بأخرى.

ولعلّ أمين الزاوي من أكثر الروائيين إنتاجا للأعمال الروائية، إن بالعربية أو الفرنسية، حيث يشكّل الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية - حسبه - ^{>>} نافذة على العالم من خلال كتابات الأدباء والروائيين الذي يسوقون صور بلدانهم وثقافتها إلى الآخر، لاسيما وأنهم يواكبون بشكل كبير حركة المجتمع المغربي^{<<4}، وهو بهذا يحمّل الروائيين باللغة الفرنسية - وهو واحد منهم - مسؤولية نقل صور مجتمعاتهم إلى الآخر، الذي لا يمكنه في كثير من الأحيان الاطلاع على هذا الأدب، إن كتب بلغة البلد الأصلية (العربية)، وهو يعتبر أنّ مثل هذه الكتابة، تُقدّم للعالم الغربي ^{>>} شهادة على وجودنا، وشهادة على رؤيتنا

¹ محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية، ص 132.

² رشيد بوجدره، الكاتب الحقيقي لا يكتب إلا رواية واحدة في حياته، حاورته فضيلة بودريش، رشيد بوجدره: هكذا تكلم... هكذا كتب، تقديم وإعداد: زهرة ديك، سلسلة أدباء جزائريون، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، 2013م، ص 25.

³ ينظر المرجع نفسه، ص 24.

⁴ أمين الزاوي، الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية لا يزال مستمرا، الخميس 13 تشرين الثاني (نوفمبر 2014) موقع:

[http:// local-host/ops-ouest/spip.php?article=31735](http://local-host/ops-ouest/spip.php?article=31735)

للعالم¹، كما أنه يرى في الكتابة باللغة الفرنسية >>جرأة نحو الحداثة نتيحة للمرجعيات والقراءات التي يعتمد عليها²، فهي تُعين الكاتب على تطبيق ما يأخذه من الآخر من ثقافة ولغة، كطريق مختصر لتمثّل الحداثة كما يفهمها الآخر ويمارسها في نصوصه الأدبية، وإن كان هذا الموقف يمثّل -وبتحفظ- عجز الكاتب على ترجمة أجدديات الحداثة الغربية إلى العربية، وتمثّلها في النصوص الإبداعية، فلم يكن أمامه إلا القفز إلى سلم الحداثة من خلال لغة الآخر بحثا عن الشهرة والعالمية، في حين لا يزال الأدب العربي والجزائري بالعربية يُتهم بالتعثر بين الرؤية الماضية والحداثة، أي أنه لا يزال يتخبط بين تيارَي التقليد والتجديد.

ومع ذلك فإن أمين الزاوي يكتب رواياته باللغة العربية أيضا، وهو >>المتكوّن داخل ألفية بن مالك وأشعار المعلقات وعاشق الشنفرى، وتأبط شراً³، فهو متكوّن في التراث العربي والإسلامي، يتمتّع بالكتابة باللغتين العربية والفرنسية في الوقت نفسه، لما يُضيفانه على بعضهما من مخيلات جديدة، كما يدعو إلى >>التفتّح على اللغات الأجنبية وعلى رأسها اللغة الفرنسية، ولكن شريطة أن تأخذ هذه اللغة موقعها كلفة أجنبية داخل القناعات السيكولوجية والسياسية والثقافية⁴، فكتابته باللغة الفرنسية - حسبه- لا تخرج عن إطار التفتّح على العالم وتلاقح الأفكار بين الشعوب والأمم، دون أن تمسّ الهوية القومية بأي شكل من الأشكال.

تعدّدت المواقف بين مؤيد ومعارض، بين مشكك - في هوية أدب كتب بلغة فرنسية من طرف أدباء جزائريين - ومثبت، بين أديب وناقد، وإن أخذت هذه الإشكالية أبعادا أعمق، من مرحلة الحرمان والاضطهاد من تعلّم اللغة العربية، إلى مرحلة التغريب والتعليم والتشبع بمبادئها وآدابها. وما يمكن قوله أنّه على الرغم من كلّ ما يقال حول هذا الأدب، إلّا أنّه لا أحد-ولو في قرارات نفسه- ينكر عليه

¹ أمين الزاوي: لا أريد قارنا مطمئنا للحياة، بل أريد مشوشا دائم الحيرة و الأسئلة القلقة موقع: ar.algerie360.com/ تاريخ

الزيارة: 2014/10/10

² الموقع الإلكتروني نفسه.

³ أمين الزاوي: متى يموت الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية؟ الكتاب الأبيض للثقافة في الجزائر 08-04-2009 موقع:

<http://www.ingdz.net/vb/showthread.php?t=47025> تاريخ الزيارة: 2014/10/10

⁴ الموقع الإلكتروني نفسه.

جزائريته أو جزائرية أصحابه، ذلك أنّ هذا الأدب كُتب الشطر الأول منه في فترة تعدّر استخدام غير الفرنسية لغة للإبداع والتعبير، تنبع منه الروح الجزائرية بآلام وآمال الشعب عاش أصحابه مأساة التمزّق بين ثقافتين وحضارتين، وإن لم تطفُ هذه الأزمة على السطح، إلاّ بعد الاستقلال واتّضح المعالم الكبرى، التي تسيّر وفقاً لها البلاد.

أمّا وقد استقلّت الجزائر، واختيرت اللغة العربية مجدّداً لغة رسمية لأهلها، فإنّ معالم الهوية قد تحدّدت، وبالتالي لا وجود للصراع ولا للنزاع حول اللغتين العربية والفرنسية، إذ العربية لغة الروح القومية واللغات الأجنبية ومن بينها اللغة الفرنسية، لغة التفتّح على العالم، ونقل الأفكار والرؤى، والتبادلات الثقافية المختلفة، والبحث عن الشهرة العالمية بين الأصوات الأدبية المختلفة في العالم، وهي كلّها أمور لا تمسّ الهوية الجزائرية في شيء، ولا تنقص من قناعات أصحابها.

فهذا الأدب جزائري جزائرية أصحابه، ماداموا مقرّنين بانتمائهم، معبرّين عن القومية الجزائرية والانتماء الجغرافي والتاريخي والحضاري والثقافي لهذا البلد، يحمل هموم الشعب، فهل يمكن أن نقصي الخطيب الجزائري من هويته القومية، إن استعمل الفرنسية لغة لخطاباته لأغراض معينة، والكل يعلم مدى اتّساع النخبة الجزائرية التي تعتمد تلك اللغة في الخطب والحوارات العامة؟! .!

المبحث الثاني: تطور مضامين الرواية الجزائرية من سنة 1950م إلى سنة 2010 م

تعدّ دراسة صورة الآخر على مستوى الرواية الجزائرية، خلال الفترة الممتدة من سنة 1950م إلى 2010م، من الأهمية بمكان، كونها تُسهم في تشكيل نظرة مجتمع بأكمله - ممثلا في روائيه باللغتين العربية والفرنسية خلال ستين سنة من الإبداع - للآخر، الذي تعدّدت اللقاءات بينه وبين الأنا (الذات)، في ظروف متباينة، وحقب متتالية.

ولعلّ السعي للوقوف على هذه الصورة يكون مرتبكا ومتذبذبا، إذا ما لم يتمّ تنظيم هذه الدراسة، بمحاولة الوقوف بالدرجة الأولى على تطوّر الرواية الجزائرية، لاسيما على مستوى المضامين ذلك أن الرواية > ذات دلالات شمولية تساهم في تجسيم وبلورة الوعي التاريخي للمرحلة الحضارية التي تنتمي إليها¹ فالروائي لا يعبرّ إلا عما يتشكّل في ذهنه من أفكار، يخرجها مبلورة في قالب روائي معيّن. ولطالما عبرت الرواية العربية - ومنها الجزائرية- عن > نبض الإيقاع الداخلي للحياة العربية في أبسط صورها وأعقد تجلياتها، فحملت بذلك أحاسيس الإنسان العربي، وانفعالاته وانشغالاته بقضاياها اليومية والمصيرية في مجالات السياسة والاجتماع، بكل ذلك حققت الرواية ارتباطا عميقا بمعاناة الإنسان ومكابداته وتطلّعاته² ومن ثمّة لا سبيل في معرفة توجه الأمة الفكري، والعقائدي ونظرته لغيره إلاّ من خلال روايات أدبائه، لاسيما تلك التي تصدر عن رؤى واقعية، وتعبرّ بصدق عن قضايا الأمة في تحولاتها الكبرى، ولحظاتها الحاسمة.> ولما كانت الخطابات تتنوّع بحسب رؤيات الكاتب للعالم ويختلف باختلاف تصوّرات الروائيين للواقع وللكتابة، في لحظة ما كان لزاما النظر في أنّ الخطابات تتطوّر بتطوّر الحقب والعصور، ومعنى ذلك أن التاريخ يلعب دورا هاما في تطوّر أساليب الرواية وتقنيات كتابتها، إذ في كل حقبة سردية يمكننا معاينة الفروقات التي تميّز حقبة عن أخرى³، والأمر نفسه

¹الطاهر روابنية، اتجاهات الرواية العربية في بلدان المغرب العربي "تونس، الجزائر، المغرب" 1945-1975، رسالة ماجستير مخطوط، جامعة الجزائر، 1985-1986، ص 224.

²سعيد يقطين، قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجوه والحدود، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، دار الأمان، الرباط منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1433هـ-2012م، ص 91.

³ المرجع نفسه، ص 93.

بالنسبة للمواقف العامة لأمة تجاه أمة أخرى، فهي تتباين حسب هذه الحقب نظراً للظروف المحيطة والإطار العام الذي تصدر عنه عموماً، وحتى الأديب نفسه تختلف نظرتة للحياة من حوله، وللآخر الذي تربطه به علاقة ما، من فترة إلى أخرى، فقد يصير الصديق عدواً، والعدو صديقاً، تبعاً لمتغيرات اجتماعية أو سياسية تتحكم في تلك العلاقة؛ ذلك >أنّ تطوّر الخطاب الروائي العربي رهين تحولات عدّة على مستوى المجتمع والفكر والفن، وأن تطورات الشكل الروائي تخضع بدورها إلى مجمل هذه التطورات والتحوّلات، وأنّ الروائيين ودراسي الرواية ليسوا بمنأى عن هذه التحوّلات، كما أنّ مواقفهم الإبداعية والنقدية ما هي سوى تجسيد لرؤيتهم الفكرية والاجتماعية إلى كلّ هذه التحوّلات^{1<<} فالروائي عموماً لا يقدّم عمله الروائي إلّا وهو يتضمّن إيديولوجية ورؤية ما تجاه ما يحيط به من ظروف وتغيّرات لواقعه أو للآخر أو العالم.

وبالعودة إلى الرواية الجزائرية، نجد أنّها مرّت - خلال الفترة المراد دراستها بعدّة تحوّلات على مستوى المضامين التي عبّرت عنها، تبعاً للتغيّرات التاريخية والاجتماعية والسياسية التي مرّ بها المجتمع الجزائري، وبذلك يمكننا اتّخاذ أهم المعالم البارزة في تاريخ الجزائر للتعبير عن مراحل متباينة، صدر عنها الأدباء في كلّ مرّة، بتوجّهات مغايرة وأفكار معبّرة عن الواقع الجديد ومتطلّباته المعاصرة. وإن كانت الفترة المدروسة تمتدّ على مدار ستين سنة، إلّا أنّها تحمل أحداثاً مهمة ساهمت بدرجة كبيرة في إحلال التغيير على مستوى التوجّه العام للدولة حكومة وشعباً، فهي أحداث تخرج عن الخصوصية المتعلقة بتوجّه أديب بعينه، وإنما هي تحوّلات تخصّ أمة بأكملها.

وتوجد دراسات سابقة تقسّم الأدب الجزائري إلى مراحل مختلفة، منها ما يجعلها ثلاث مراحل: قبل الثورة، أثناء الثورة، وبعد الثورة²، ومنها ما يقسمها إلى مرحلتين: مرحلة ما قبل الاستقلال ومرحلة بعد الاستقلال¹. ومن الباحثين من يقسّم مراحل الرواية حسب السنوات، إلى فترة ما قبل الاستقلال، ثم فترة الستينات، السبعينات، الثمانينات والتسعينات²، وهي تقسيمات تتقارب فيما بينها، بحكم أنّ

¹ سعيد يقطين، قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجوه والحدود، ص 94.

² جوغا شفييلي غالينا، ضمن كتاب عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2002، ص 9

الأولى عامة والأخيرة مضبوطة بعامل الزمن بالدرجة الأولى، وهي جميعها تقف على الرواية الجزائرية من حيث مواضيعها ومضامينها.

أما ونحن بصدد هذا البحث، ارتأينا تقسيم الفترة الزمنية الممتدة من سنة 1950م إلى 2010م إلى ثلاث مراحل، تتركز على الأحداث التاريخية المهمة التي مرّت بها الجزائر، وأثّرت في الحياة الاجتماعية والثقافية، كما تركز على نقاط اللقاء بين الأنا والآخر على مستوى الروايات، ومميزات هذا اللقاء من مرحلة لأخرى، وكيفية انعكاسه من الحياة الواقعية إلى المتن الروائي، وهذه المراحل هي كالآتي:

- المرحلة الأولى: من سنة 1950م إلى سنة 1962م.

- المرحلة الثانية: من سنة 1963م إلى 1989م.

- المرحلة الثالثة: من سنة 1990م إلى سنة 2010م.

وكلّ مرحلة من هذه المراحل تقودها أحداث رئيسية ساهمت في فصلها عن بعضها نظراً للتغيرات المهمة التي وقعت أثناءها، ومع هذا تتضمن (المرحلة) أحداثاً ثانوية أثّرت من قريب أو من بعيد في تغيير التوجّهات، وتوضيح الصورة، وتقريب الاحتكاك بالآخر أو الابتعاد عنه.

وتبعاً لذلك سنوضح فيما يلي المراحل الزمنية التي مرّت بها الرواية، مع إدراج أهم الوقائع السياسية والاجتماعية التي شكّلت المرحلة، ثم الروايات التي ظهرت في كلّ مرحلة، حسب الترتيب الزمني لها، وأهمّ المواضيع المطروحة على مستواها، مع الجمع بين الروايات العربية والفرنسية.

¹ عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967، ص72، وينظر أيضاً: نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتجريح، أيضاً: سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، سليم بتقية، الرواية الجزائرية: سرد الهوية ورهانات الكتابة، الروائي: مجلة تعني بشؤون الرواية موقع: <http://www.alrowaee.com/article.php?id=667> تاريخ: 09/06/2015 وأيضاً صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، دار الشروق، الجزائر، ط2، 2009، ص47.

² أحلام معمري، نشأة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، مجلة الاثر، العدد 20، جوان 2014، ص57.

أيضاً: شادية بن يحيى، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع، موقع ديوان العرب:

http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=37074 تاريخ الزيارة: 09/06/2015

1/ مضامين الرواية الجزائرية من سنة 1950 إلى سنة 1962م:

تشكل الفترة الممتدة من سنة 1950م إلى سنة 1962م مرحلة هامة في تاريخ الجزائر، حيث شهد أثناءها الشعب الجزائري ثورة مسلحة ضروس، اندلعت في الأول من نوفمبر 1954م، لتحرير الجزائر من ربة المستعمر الفرنسي الغاشم، والتي استمرت حوالي سبع سنوات ونصف من الكفاح المسلح والعمل السياسي¹، إذ تبلور الوعي بضرورة تفجير هذه الثورة بعد معاناة الجزائريين من الاحتلال الفرنسي منذ سنة 1830م، لاسيما بعد مجازر 08 ماي 1945م، والتي كانت نتيجة >> خروج الجزائريين للاحتفال بانتهاء الحرب والمناذاة بحرية واستقلال الجزائر، وإطلاق سراح المعتقلين حاملين العلم الوطني في عدة مدن²، حيث اتخذت فرنسا من الجزائريين غداة الحرب عدة موافق من بينها قمع الحركة الوطنية، فرض التجنيد الإجباري على عشرات الآلاف من الشباب، ودفعت بهم إلى ساحة القتال في شمال فرنسا، فقتل منهم الكثير³، إلى جانب استغلال طاقات الجزائر، حيث شرعت >> في نهب الثروات الطبيعية، وأقوات المواطنين، وتسخير الموارد البشرية لخدمة مجهودها الحربي، فضاعفت من وطأة الجفاف وضعف المحاصيل، ما تسبب في إفقار الشعب وتدمير طاقاته المادية، فافتقدت المواد الغذائية وانتشرت المجاعة، فشوهد أطفال عمرهم سنة واحدة يأكلون التراب، واقتاتت جماهير معدّبة شبه عارية من أعشاب الأرض، وجذور النبات، وشربت مياه آبار عفنة، كما انتشرت الأوبئة كالتيفوس الذي قتل نحو 233380 نسمة عام 1942م على سبيل المثال، والبطالة والتسوّل.. فعمّ الشقاء⁴، وتلك هي أوضاع الجزائر عشية اندلاع الثورة التحريرية.

وقد صحب تلك الأوضاع المزرية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية، محاربة للبنية الثقافية والعقائدية، بغية محو الشخصية الجزائرية، وتجهيل شعبها، ومحاولة تنصيره، من خلال الاستيلاء على

¹ ثورة التحرير الجزائرية، موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة: ar.wikipedia.org/wiki/ تاريخ الزيارة: 2015 /10/10

² بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر: 1930-1989، دار المعرفة، الجزائر، 2007، ص445.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص ص447،448.

⁴ المرجع نفسه ، ص449.

الأوقاف الإسلامية، باعتبارها الراعي والممّون الرئيسي للنشاطات الدينية والتعليمية¹ كما>> سلكت فرنسا في تعليمها للجزائريين منهج الفرنسية وتشويه تاريخ الجزائر، حتى تتمكن تدريجياً أولاً من إحلال اللغة الفرنسية محلّ اللغة العربية، وثانياً القضاء على تراثها العربي الإسلامي...²<<، فكانت القلّة القليلة من الشعب الجزائري التي تتابع دراستها في التعليم الثانوي والعالى، من الفئة التي يتاح لها التعليم بالفرنسية، أمّا التعليم باللغة العربية فلا يكاد يُذكر باستثناء ما كان يُؤخذ في المساجد والمدارس القرآنية. وبذلك كانت الطبقة المثقفة في الجزائر ذات تعليم فرنسي بالدرجة الأولى، وهو ما يفسّر وجود الروايات المكتوبة باللغة الفرنسية، في هذه الفترة (قبل الاستقلال)، وعددها كثير، مقارنة مع ما كُتب من روايات باللغة العربية.

ولعلّ أول نصّ روائي كُتب باللغة العربية، هو نصّ "غادة أم القرى" (لأحمد رضا حوحو) 1947م، وإن كان نصاً يقع بين القصة والرواية³، إلا أنّ العديد من الدارسين⁴ لا يعتمدون تصنيفه كرواية جزائرية أولى، وذلك من خلال تجاهله وعدم ذكره ضمن قائمة الروايات الجزائرية باللغة العربية في حين يعتبره البعض الآخر⁵ أول عمل روائي مكتوب بالعربية في الجزائر، ظهر كتعبير عن تبلور الوعي الجماهيري بالرغم من آفاقها المحدودة، ويعد النص رواية تتجلى فيها شخصية المرأة المضطهدة متمثلة في (زكية) بطلة الرواية، الفتاة الحسنة الجميلة>> التي تعيش بين عواطفها وبين طاعة والدها المحتكم إلى التقاليد، فيحتلّ توازنها وتنهار، وتكون نهايتها<<⁶. وبذلك فإن الرواية>> تعتمد إثارة التساؤل حول سيطرة التقاليد وغلبتها... والإشارة إلى إقبال عامة الناس على السحر والشعوذة، بحثاً عن العلاج<<⁷ ومع

¹ عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، دار ربحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2002، ص124.

² المرجع نفسه، ص126.

³ محمد خان: الأدب الإصلاحي في الجزائر، دراسة تحليلية لأدب حوحو(ج2)، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد الثاني، جوان2002، صص33،34.

⁴ عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، 1925-1967، ص61.

⁵ واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر (بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص18.

⁶ محمد خان، الأدب الإصلاحي في الجزائر، ص34

العلاج¹ ومع ذلك يعدّ النصّ ذا مستوى متدي²، وهو ما يفسّر عزوف الباحثين عن الإشارة إليه كمتن روائي مؤسس للكتابة باللغة العربية في الجزائر.

ويكاد يتفق الباحثون على أن نصّ "الطالب المنكوب" (عبد المجيد الشافعي) نصّ روائي، يعدّ الأول والوحيد في فترة ما قبل الاستقلال، -مثل ما هو الحال عند عايدة أديب بامية- ويقول عنه شريط أحمد شريط، أنه >> "طُبِعَ لأول مرة بمطبعة الشريف، دار الكتب العربية 12.. نهج المبزع لتونس (1370هـ-1951هـ)، لم يعتمد في هذه الرواية على السرد التواصلي، وإنما قسّمها إلى أجزاء يكاد يكون كلّ جزء يؤسس قصة قصيرة، إلا أنّ القارئ للنص من بدايته إلى نهايته، يدرك أنه نصّ له بداية وله نهاية، والرواية يمكن إدراجها ضمن مصطلح (السير-رواية)، وقد أقيمت على ركنين أساسين: الواقع والخيال، وهي قصة عاطفية قوية (...). وقد انتهت بزواج الطالب الفقير الذي قدم من الجزائر إلى تونس، من أجل الدراسة وطلب العلم، من إحدى الفتيات التونسيات الجميلات، تنتسب إلى عائلة بورجوازية، وجاء عنوانها الكامل على هذا النحو "الطالب المنكوب في قصة غرامية موضوعية" ولم يكن القصد من معناها سوى التعبير عن هاجسه الفكري إلى وحدة المغرب العربي وتربية الأجيال على الأخلاق والتمسك بالدين والعادات والكفاح من أجل الحياة الكريمة ورغد العيش (...). والدعوة إلى مقارعة أفكار المستعمر التي تدعو إلى التفرقة والبغضاء بين شعوب المغرب العربي³، ويعتبرها عبد الله الركيبي >> رواية رومانسية في أسلوبها وموضوعها، كما أنّها ساذجة في طريقة تعبيرها⁴، والملاحظ للنّصين الروائيين يجد أنّهما يتعدان عن البيئة الجزائرية، إذ تدور أحداث الأولى في الحجاز، والثانية في تونس، كما تكاد تغيب فيهما الأوضاع الاستعمارية المريرة التي كانت تعيشها الجزائر آنذاك.

¹ محمد بن عبد الله العوين، المرأة عند أحمد رضا حوحو: غادة أم القرى نموذجاً، النسخة الالكترونية من صحيفة الرياض اليومية، الخميس 03 ذي الحجة 1428هـ-13 ديسمبر 2007، العدد 14416.

² سليم بتقة، الرواية الجزائرية: سرد الهوية ورهانات الكتابة (موقع إلكتروني سابق).

³ أحمد رضا حوحو وعبد المجيد الشافعي، ج3، جريدة صوت الأحرار (10-10-2014م) موقع:

http://www.sawt-alahrar.net/ara/cultural/20591.html تاريخ الزيارة: 2015/06/09، 18:25.

⁴ تطور النثر الجزائري الحديث (1830-1974)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 8، 1967، ص179.

وفي سنة 1957م، نلتهمس ظهور نصّ روائي ثالث باللغة العربية، وهو رواية "الحريق" (لنور الدين بوجدرّة) حيث كُتِبَ النصّ بعد اندلاع الثورة التحريرية 1954م، الأمر الذي ينعكس على أبطاله إذ يلتحق الشاب (علاوة) من مدينة سكيكدة بالثورة، ويصعد للجبل بعد قتل الفرنسيين لوالديه، ولكي ينتقم لهما اضطر للتضحية بحبّه، تاركا ابنة عمّه وخطيبته (زهور)، والتي تلتحق به بعد فترة وجيزة، لكن تشاء الأقدار أن تصاب بمرض وتموت بين يديه، قبل أن تصل إلى تونس لتعالج من مرض القلب، فيجنّ جنونه، ويهاجم الجنود الفرنسيين ويستشهد بدوره في هذه المعركة ويدفن الحبيبان في (خندق واحد)¹. ويعكس هذا النصّ تأثر الكاتب بالأجواء السائدة آنذاك، وهي الثورة المسلحة، حيث جعل بطلاه يلتحقان بها، ويستشهدان في إحدى معاركها وهو على العموم (النص) >> "أكثر تطورا من سابقه"² اختمرت فيه الذهنية الوطنية، والشعور بالقومية، والاستجابة لنداء الثورة، هذا من ناحية المضمون أما من ناحية البناء الفني >> "فإنّه كان ينبغي أن يكون أكثر تمكّنا من التعامل مع البنيات السردية والفنية لعمله"³. ومع ذلك يمكن اعتبار هذه النصوص تأسيسية للرواية الجزائرية باللغة العربية، في مرحلة أولى تحت سياسة استعمارية تجهيلية مفرنسة، وهي تشكّل تحدّ خارق في التّحكم في اللغة العربية وتطويعها لإنتاج نصّ أدبي والتعبير عن أفكار وأحلام أصحابها (حتى لا نقول الشعب الجزائري ككل).

وفي مقابل ذلك نجد نصوصا روائية ترقى إلى مستوى الأدب الفرنسي في الجزائر آنذاك، أبدعتها أقلام جزائرية بلغة فرنسية لم يكن لها الخيار في التعبير بغيرها، في وقت كان لزاما على الأدباء أن ينقلوا أصوات شعبهم إلى الرأي الفرنسي والرأي العام الدولي.

وقد كانت البدايات الأولى للرواية الجزائرية باللغة الفرنسية مع مطلع سنة (1950م)، والتي تعتبر فترة المحاولات الأولى لإدراك وتقييم ما يحدث⁴، تبلور خلالها الوعي الوطني مع جماعة من الأدباء مثل: مولود فرعون، محمد ديب، مولود معمري، كاتب ياسين، مالك حداد، آسيا جبار، وغيرهم كثير

¹ ينظر: أحلام معمري، نشأة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، ص58.

² المرجع نفسه، ص59.

³ المرجع نفسه، ص59.

⁴ ينظر: عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، ص09.

تعبّر كتاباتهم عن >>وعي جديد ونفس غير معهود في الكتابة، يتغلغل إلى أعماق الشعب ويسجّل نبض الحياة اليومية في صفوف الجماهير، ويصوّر معاناة الفلاحين والحرفيين في القرى والأرياف خاصة وفي المدن، ويعبّر عن صراعاتهم اليومي مع شظف العيش وقسوة الطبيعة¹<<، وهي بذلك أقرب ما يكون إلى السّير الذاتية، التي تحكي معاناتهم ومآسيتهم، وتطرح تساؤلاتهم حول مجتمعهم، وما آل إليه، وعن الأسباب التي فرضت عليهم هذه الحياة القاسية، ومن المتسبّب فيها؟²

ومن أهمّ الإشكاليات المطروحة، تلك المتعلقة بالهوية والوطن والاستعمار فكانت النتيجة جملة من الأعمال الروائية، تتصدّرها رواية "ابن الفقير" **le fils du pauvre** (مولود فرعون)، والتي نُشرت سنة 1950م، >>وتعتبر إلى حدّ بعيد سيرة ذاتية، تصف طفولة الكاتب ومراهقته كما تُغطّي الرواية السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، لتصل حتّى نهاية العشرينات³<<، وهي تحكي >>قصة رجل لم يتوقف منذ طفولته المدرسية عن المصارعة، بغية الفرار من قدره الذي كان سيجعل منه راعيا (...). كما توجد في الرواية قطعاً محاكمة إثنية حقيقية للمجتمع القبائلي الجبلي، وهذه المحاكمة تُقرأ من خلال الأولوية المخصّصة لسرد حياة فورولو منراد، والتي تظهر بوضوح في التركيبة العائلية الصغيرة، والتركيبة الاجتماعية الكبيرة التي تشكّلها القرية الجبلية المتمثلة في الكينونة الجغرافية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية⁴<< وبذلك فإن مولود فرعون بهذا النص الروائي ينزع نحو جزائريته وأصوله القبائلية، يسجّل لنا مجتمعاً وتاريخاً وبيئة جزائرية خالصة، والظروف التي عاشها أبناء بلده في فترة من فترات الاستعمار الكالحة.

وفي سنة (1952) صدرت رواية "الهضبة المنسية" **La Colline Oubliée** (مولود معمري)

¹ أحمد منور ، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي: نشأته وتطوره وقضاياه، ص 94.

² Jean Dejeux, La littérature Algérienne contemporaine, 2^{ème} Edition, p62.

³ عابدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ص73.

⁴ مولود فرعون، ابن الفقير، تر: عبد الرزاق عبيد، تقديم: فريدة بوعليط، دار تلاتنيقيت للنشر والتوزيع، بجاية- الجزائر، 2012،

ص05 وما بعدها.

و>تبتدئ وقائعها في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية لتصوّر الوضع في الجزائر في ظلّ الاحتلال الفرنسي^{1<<}، وهي قصة تعكس >صورة حياة وعادات وتقاليد المجتمع البربري المحافظ (...). الذي يدين الحب ويقسو على العاقرات، ثم صور الأم ومعاناة ذلك المجتمع الذي مزّقه الاستعمار وحطّم كل ما فيه من جمال وقداسة، ثم صور الحرب التي تفرّق الأحباب وتشر الخراب الاقتصادي، وترهن الجماهير الكادحة، وتغرقها في البؤس والعوز، تلك الأسباب التي تشوّه مسيرة العواطف النبيلة وتعمّق المآسي والخلافات، وتفرّق الأحباب^{2<<}، فهذه الرواية تصوّر الواقع كما هو، في فترة من اليأس والقنوط ومن المآسي والآلام. حيث يقول عنها مولود معمري: >لقد بنيت هذه الرواية على التقاليد الاجتماعية التي كانت تسود قرية(تاسكا)، وهي قرية تقع في منطقة جبال البربر، وأبرزت الصدام العنيف بين الجيلين القديم والجديد، ثم الحرب العالمية الثانية وانعكاساتها على شمال إفريقيا، وقد استفدت من اشتراكي في الحرب العالمية الثانية، فائدة كبيرة، ولولا تلك الهزّة التي أصابت القرى والمدن الجزائرية وتجنيد شبابها وإلقائهم في ميادين غريبة تماما عنهم، ودفعهم إلى الدفاع عن أرض غير أرضهم، وإجبارهم على التضحية لما تفجّر كل مارآه العالم من الجزائريين^{3<<}، فكانت روايته بذلك صورة عما يعتمل في الجزائر آنذاك.

وفي السنة نفسها(1952م)، صدرت رواية "الدار الكبيرة" **La Grade maison** لـ (محمد ديب)

مع أنه كتبها في وقت مبكرّ جداً، إلا أنّ الظروف الاستعمارية، منعت من نشرها، كغيرها من أعمال الشباب آنذاك. وتعدّ الرواية >منعطفًا حاسمًا في تطور الأدب الروائي الجزائري المكتوب بالفرنسية على مستوى المضمون، فلاوّل مرة تتجاوز فيه هذه الرواية صالونات المثقفين ومناقشاتهم الفوقية (...). ووهم التعايش السلمي بين الأهالي والمعمرين (...). لتنزل إلى الطبقات الدنيا من المجتمع (...). ولأوّل مرّة

¹ عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ص73.

² سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص182.

³ محمد عاطف بريكي، فشلي في تعلّم لغة بلادي أثبت غبائي عن جدارة، حوار نادر مع الكاتب الجزائري مولود معمري، أجري

أكثر من 30 سنة، مجلة مسارب، يوم 23 فبراير 2012، موقع: <http://massareb.com/?p=857>

تتحدث عن النضال السياسي الجزائري¹، من خلال أبطالها الذين يتخذون "دار سبيطار" فضاء مكانيا تدور فيه الأحداث، وأبرزهم الطفل عمر الذي يسرد على لسانه الروائي وصعوبة الحياة في تلمسان، ويرسم صورة الفقر والعنف والجوع المترص بأهلها². وقد كان الطفل عمر رمزا للضمير الجزائري المتلهف على الاعتراف به³، مصراً على الحصول عليه مهما كانت الوسائل.

ويصادفنا (مولود فرعون) برواية أخرى سنة (1953م) بعنوان: "الأرض والدم" **La terre et le sang**، والتي يحلل فيها >موضوع اصطدام العالمين الشرقي والعربي، التقليدي والجديد، من جوانب مختلفة<⁴، هذا الاصطدام الذي وقع من خلال هجرة الجزائريين إلى فرنسا خاصة، إذ تناول الكاتب >أول مرحلة من عملية هجرة سكان المستعمرات الفرنسية للعمل بسبب الوضع الشاق للعمال والفلاحين في المستعمرات، والتي بدأت بشكل مكثف من العشرية الأولى من القرن العشرين<⁵، وترى سعاد محمد خضر، أن مولود فرعون اختار شخصيات باهتة لروايته، لاسيما نموذج المرأة الجزائرية التي تعدّ متمرّدة، حاقدة وخائنة لزوجها، عكس المرأة الفرنسية، التي صورها بالمرأة العاقلة، المحبّة، الرزينة والمخلصة⁶ من منظور (عامر) المهاجر العائد لأرضه والمصدوم بواقعه.

ومع اندلاع الثورة التحريرية سنة (1954م)، ظهرت أعمال روائية أخرى للأدباء أنفسهم ولأدباء آخرين، تميّزت بتوجّدها أكثر نحو التعبير عن الواقع الثوري، ووصف الكفاح، على لسان الأبطال في أسلوب مأساوي أكثر حدّة وعنفا ممّا كان عليه⁷، وكانت البداية مع رواية "الحريق"

¹ أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 106.

² Schopfel Mariannick, Les Ecrivains francophones du Maghreb , Ellipses –Editions marketing , Paris , 2000, p58.

³ ينظر: أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الآداب، الجزائر، ط2، 1997م، ص 105.

⁴ سفيطلانا براجوغينا، مولود فرعون وإبداعه، عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2002، ص 21.

⁵ نوال صالح، استشراق القطيعة في أدب مولود فرعون، نموذج "الأرض والدم" مجلة المخبر: أبحاث اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، العدد التاسع، 2013، ص 401.

⁶ سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص 187.

⁷ ينظر: عبد القادر توزان، الجزائر في أدب ألبير كامو، رسالة ماجستير مخطوط، جامعة بغداد، 1405هـ-1985م، ص 39.

L'incendie ل (محمد ديب)، والتي صدرت عشية اندلاع حرب التحرير، عرض من خلالها >> مشهد السياسة الاستعمارية في الريف الجزائري، ومعاناة الفلاحين والمزارعين ما بين سنتي 1939م و1940م¹ وعلاقتهم >> بالمعمرين الذين سلبوا أرضهم وحولوهم إلى عبيد يستغلونهم في فلاحية أرضهم المغتصبة²، وقد عبرّ الفلاحون عن رفضهم لهذا الاستغلال من خلال إضراب عام عن العمل أدى إلى حرق بعض الأكواخ وإلقاء القبض على مدبري الإضراب³، وبهذا فإن الرواية تعرض تبلور الوعي الوعي لدى الفلاحين، ومطالبتهم بحقوقهم، وتحسين ظروفهم، وهو ما يعكس وعي الجزائريين ككل، وبذلك تعدّ الرواية بمثابة إعلان عن الرفض للاحتلال عشية اندلاع ثورة التحرير الكبرى.

وكان لرواية "إغفاءة العادل" "La sommeil du juste" ل(مولود معمري) الصادرة سنة (1955م)، دور كبير في الكشف >> عن حالة التحلّف والفقر والاستغلال والحرمان، التي كانت تعاني منها، القرى القبائلية المنعزلة على رؤوس الجبال، تحت وطأة الجهل والتقاليد المتحكمة في حياة الناس⁴، إلى جانب تقديم >> وصف دقيق لموقف فرنسا من الجزائر، وموقف الجزائريين الموالين لها بعد أن تتكشف أمامهم حقيقة أوهامهم، وبعد أن تُزعزع الحقيقة، تلك الثقة الواهمة في حضارتها ومثلها ومغزى تلك الحرية التي تذكر على أسماع الشبيبة في معاهدها وجامعاتها⁵.

وفي سنة (1956م) صدرت رواية "نجمة" "Nedjma" ل(كاتب ياسين)، والتي قدّم من خلالها صورة عن >> الجزائر الوطن والأرض، والجزائر الغاضبة، والجزائر غير الموحدة⁶، وتعدّ بطلّة الرواية (نجمة) >> رمزاً للجزائر، فجعلها الأديب من أمّ فرنسية وأب جزائري غير معروف لتمثّل روح البلاد الممزقة، كما تمثّل نموذجاً من الأبناء التائهين بين هويتين وكأنهم لقطاء⁷، وهي تعرض >> حالة البطالة

¹Naget khadda ;L'œuvre romanesque de Mohammed Dib ; propositions pour l'analyse de deux romans ; Office publications universitaires ;Alger ; 1983 ;p13.

² يوسف الأطرش، المنظور الروائي عند محمد ديب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، 2004 ، ص88.

³ المرجع نفسه، ص88.

⁴ أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص107.

⁵ سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص175.

⁶ نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتجريح، ص426.

⁷ المرجع نفسه، ص445.

البطالة والفقير المدقع الذي يعيشه الجزائريون في المدن والاستغلال والمهانة التي يتعرّض لها العاملون في ورش المعمرين، وضياعهم الواقعة على أطراف المدن(...) كما تتناول جانبا من مظاهرات 08 ماي 1945م (...) وصوّر وقائع من القسوة والوحشية التي قمعت بها تلك المظاهرات¹، والتي كان شاهدا عليها ولم يتعدّ بعد السادسة عشر من عمره²، وترى عايدة أديب بامية³ أنّ هذه الرواية تحكي قصّة الجزائر منذ وصول الفرنسيين إليها، إلى اليقظة الوطنية الجزائرية وجهود الجزائريين لتحرير بلدهم بالكفاح المسلّح الذي يتعرّض له، كأعظم شيء قام به الأحفاد لإرضاء الأسلاف، واستطاعتهم ردّ الدين الملقى على عاتقهم.

وفي سنة (1957م)، ظهرت رواية أخرى ل(مولود فرعون) بعنوان "الدروب الوعرة" "Les Chemins qui montent"، وهي ثالث رواية له، بثّ من خلالها صوته الجماعي لمساندة أبناء منطقتهم (القبائل)، تجسّد تبلور الوعي الجماهيري لحقيقة أوضاعه، في ظلّ حرب مشتتة ضدّ استعمار مغتصب⁴، وهو يتابع من خلال هذا المتن الروائي ما كان قد بدأه في رواية "الأرض والدم" عن موضوع موضوع الهجرة، وأوضاع الجزائريين في فرنسا آنذاك⁵، كما تمثّل بداية الثورة ونهاية صدام الحضارات، وتعتبر الرواية بمثابة بوتقة تذوب فيها خيبة أمل الإنسان الجزائري وسخطه وعدم رضاه⁶، وهي تحكي قصة حب بين (عامر) و(ذهبية) كشف من خلالها صدام ثقافتين: الثقافة التقليدية للقربة الجزائرية، وثقافة المهاجر العائد إلى الدروب الوعرة⁷، ومعاناة أهلها من قهر وعنصرية.

ورواية "النول" أو "مهنة النسيج" "Le métier à tisser" ل(محمد ديب) صدرت سنة (1957م) لتكّمل ثلاثية الجزائر إلى جانب روايتي "الدار الكبيرة" و"الحريق"، انتقل فيها (محمد ديب)

¹ أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 107.

² ينظر: سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص 200.

³ تطور الأدب القصصي الجزائري، ص 152.

⁴ ينظر: سفيطلانا براجوغينا، مولود فرعون وإبداعه، عبد العزيز بويكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، ص 23.

⁵ ينظر: المرجع نفسه، ص 21.

⁶ ينظر: عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ص 73.

⁷ Mouloud Feraoun, Les Chemins qui montent, Présentation : Christiane Achour, ENAG Editions, Alger, 2011, P IX.

إلى مدينة تلمسان، ليصف حالة العمال في معمل النسيج، الذين كانت تتملكهم الحيرة إثر البؤس الذي يعيشونه، وتخوفهم من مستقبل مجهول¹ لا يعلمون مصيرهم فيه، والاحتلال الفرنسي يترتب بهم من كل ناحية وصوب. تدور أحداث الرواية ما بين يناير 1942م وربيع 1943م، إذ أصاب القرية كساد اقتصادي بسبب الحرب، أدى إلى تدهور أوضاع الناس بها، وهو ما أدى ب(عمر) الشاب إلى العمل في مصنع النسيج رفقة عدد كبير من العمال الجزائريين، الذين كان يحتقرهم صاحب العمل (ماحي بو عنان)²، ويشعر في الوقت نفسه بعدم حبهم له، شعور بالذلل والازدراء والاستبداد من طرف المحتل الفرنسي، وفوارق طبقية بينهم وبين الفئات البرجوازية الجزائرية من التجار والملاك، اللذين يتعاونون مع المحتل الفرنسي.

والرواية الثالثة التي ظهرت في السنة نفسها (1957م) هي رواية "العطش" "La Soif" ل(آسيا جبار) وهي أول رواية لها، اختارت من خلالها³ محيط البورجوازية الصغيرة في المدينة، وهي وإن كانت قد تعرّضت أحيانا لنماذج من أوساط أخرى، فإنما لتوضّح الصورة التي اختارتها لفتاتها، وقد برعت آسيا جبار في عرض نموذج الفتاة البورجوازية بمشاعرها وأحاسيسها وثورتها الكاذبة على التقاليد، والتي لا تعدّى مجرد التفوّه ببعض الاعتراضات على مواقف معيّنة يملئها الأب أو الأم (...). ضمن أسرة تعيش في دائرة حياتها الخاصة و متاعبها وعواطفها الذاتية، كأنها لا تحسّ بما يدور حولها من أحداث تمرّ بها الجزائر³ في فترة كانت الثورة فيها مشتعلة والحرب قائمة، وهو ما جعلها عرضة للؤم والنقد من قبل بعض الدارسين⁴، اللذين يعتبرونها- في هذا العمل- بعيدة بأفكارها عن واقعها ومجتمعها كونها لم تعكس تعكس الجوّ السائد آنذاك، وربما لها ما يبرّز موقفها، إذ ترى أنه لا يجب أن تعكس الرواية ما يحدث في

¹ ينظر: يوسف الأطراش، المنظور الروائي عند محمد ديب، ص 88.

² Rabah soukehal , Le Roman algérien de langue Française (1950-1990) thématique, Edition publisud , Paris , p329.

³ سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص 213.

⁴ عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ص 76، وأيضاً: سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص 213

الواقع لاسيما في الوقت الذي تكتب فيه¹، فهي ليست رواية واقعية تسجيلية ملتزمة، وإن غيرت من فكرها هذا في أعمالها اللاحقة.

وتعدّ رواية "الجازعون" "Les Impatiens" الرواية الثانية ل(آسيا جبار)، حيث صدرت سنة (1958م)، غير أنّها لا تحمل تغييرًا كبيرًا في مواقفها تجاه الأوضاع في بلدها - بحكم تقارب الزمن بين الرواية الثانية والأولى، من حيث تعاطف شخصياتها الروائية مع أحداث الحرب التي تعرفها الجزائر آنذاك، ومع هذا >تحاول دليلاً في هذا القصة أن تعمل شيئاً، تقول الكاتبة: "لقد أردت أن أظهر مدى وعي البطلة، وهي فتاة جزائرية تثور على التقاليد وعلى وسطها وعلى أسرتها، لقد أردت أن أدلّل كيف أنّه في عالم هادئ حيث لا يوجد موضوعياً ما يعكّره، تتطوّر عملية تركّ القارئ ليحدث الاضطرابات المستقبلية، ونحن نحسّ مع تطوّر أحداث هذه القصة بتغيّر لموقف الكاتبة الذي نراه يميل إلى بعض الالتزام².

وفي السنة نفسها (1958م)، نصادف روايات من نوع آخر مع الروائي (مالك حداد)، وأولها "الانطباع الأخير" "La Dernière Impression" وقد اعتبرها النقاد رواية تعرض >صورة مهزوزة مشوّهة يقدّمها الكاتب للعمال الجزائريين في فرنسا³، ولعلّ ذلك نتيجة اختلاف روايته هذه وما تلاها عمّا قدّمه الروائيون السابقون، أمثال مولود معمري، ومحمد ديب خاصة، من نقل أحاسيس الشعب الجزائري ومعاناته، ذلك أنّ مؤلفاته >تنقل واقعا جديدا (...). كرسّت (...). للعالم الداخلي للبطل-المثقف، أو لذلك الإنسان الذي إن لم يكن مماثلاً للمؤلف، فهو على أيّة حال شديد الشبه به روحياً⁴، وموضوع القصة يدور حول المهندس (سعيد)، الذي يصف الروائي مشاعره عند إخباره >بأنّ الجسر الذي بناه يجب أن يقوِّض لكي يمنع تحرّكات القوات المعادية (...). لقد كان الجسر أعزّ وأحبّ

¹ ينظر: عائدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ص 76.

² سعّاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص 214.

³ المرجع نفسه، ص 204.

⁴ عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، ص 71.

لديه من سلامة المجاهدين، فعندما قرأ نبأ تدميره في الصحافة، شعر كأنه قرأ نبأ نعيه هو شخصيا، ولقد رفض أن يقَرَّ الحقيقة بالرغم من انخراطه في المقاومة¹.

ورواية (مالك حدّاد) الثانية جاءت بعنوان "سأهبك غزالة" " Je t'offrirai une "

"gazelle" صدرت سنة (1959م)، ويعتبر الأديب في هذه الرواية أيضا بعيدا بأفكاره وتصوّراته عن الحرب والمأساة التي يعيشها الشعب الجزائري، إذ اتَّخذ >موقف المتفرِّج اليأس وأبطاله نماذج شاذة تمثّل اليأس والعجز والاستسلام للواقع²، ويتحدّث الكاتب في هذه الرواية عن الغزال، وآلة الهرمونيكا والنبيد والأمير، وهي أمور وشخصيات تبتعد كل البعد عن المجتمع الجزائري الذي كان يعاني آنذاك، وهو ما جعل بعض الاعتراضات والتساؤلات تُثار حول موضوع روايته، ولكنه يُجيب: >بأنّ الأصدقاء اللذين يعتقدون أنّ بعض شخصيات روايتي دخيلة وأنّ قصص الغزلان لا تهتمّ شعبا مقاتلا، هم على حق وربما هم مخطئون لأنّ الإنسان في نهاية الأمر، يحارب من أجل الغزلان وآلات الهرمونيكا³ ذلك أنّ الأديب لم يهرب من جوّ الحرب أو اتَّخذ موقفا معاديا لها، وإنما يسعى إلى الهروب بالقارئ إلى جوّ من الرومانسية والعواطف والعوالم الداخلية للتخفيف من وطأة الآلام والمآسي التي يعيشها.

وفي سنة (1959م) دائما، قدم الأديب (محمد ديب) رواية جديدة بعنوان "صيف افريقي" " Un été africain"، وهي رواية تواكب شخصياتها أحداث الثورة الجزائرية، وتشارك في وقائعها، حيث اختار (ديب) شخصياتها من مختلف فئات الشعب الجزائري: من فلاحين وحرفيين وأشراف ومتقنين وموظفين والأحداث التي يعيشها⁴، وقد عكست الرواية مرحلة مهمة من مراحل تاريخ الجزائر⁵، سطعت فيها شمس الحرية التي أنارت الطريق أمام كل الجزائريين في الخلاص من معاناتهم جراء الاحتلال الفرنسي لوطنهم واستبداده بحقوقهم. وفي سنة (1960م) يقدّم (مالك حداد) روايته الثالثة: "التلميذ

¹عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ص 179.

²سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص 201.

³عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ص 179.

⁴ينظر: يوسف الأطرش، المنظور الروائي عند محمد ديب، ص 90.

⁵ينظر: المرجع نفسه، ص 91.

والدرس "L'élève et la leçon" والتي بدأ القارئ يتلمس فيها نوعاً من أجواء الحرب، إذ تنضمُّ البطلة إلى صفوف المقاومة، كما أنها تعرض نوعاً من الصراع بين جيلين إذ يضع الأديب الابنة في مواجهة والدها، وتعتبر الرواية من الناحية الفنية أكثر روايات (حدّاد) تماسكاً ومحتوى، كما أنها ذات حيوية أكثر من الروايات السابقة¹، وإن استمرّ فيها الاهتمام بالمواقف والعواطف وأجواء القلق والتوتر أكثر من الأحداث والوقائع².

أما رواية "رصيف الأزهار" لا يجب "Le Quai aux fleurs ne répond pas" فقد صدرت سنة (1961م)، يبرز فيها (مالك حداد) منطلقاً مختلفاً رغم أنها ليست تقييماً أفضل للحرب³ ولكنها تعرض > صورة اليأس والانحيار والاستسلام وعدم الإيمان، والذي يدفع البطل (خالد) في النهاية إلى الانتحار <<⁴، فالبطل (خالد بن طوبال) يحبّ زوجته حباً أكثر من وطنه، رغم أنها خائنة له ولوطنها وأطفالها، وعندما تموت يشعر (خالد) بالخيبة واليأس من الحياة ويفقد كل ما يربطه بها، وهو مثل يضربه الكاتب بقسوة ليدلّل على عبث الواقع والأحلام وأنّ الحرب والبطولة مجرد أوهام لا طائل وراءها... <<⁵. وبذلك تبقى روايات (مالك حداد) بعيدة وغريبة عن حرب التحرير.

تلك هي إذن نماذج من الرواية الجزائرية باللغتين العربية والفرنسية... وإن كانت الأولى منهما بسيطة من حيث موضوعها وطريقة بناؤها. في بداياتها الأولى، تعدّدت فيها أصوات الأدباء وتنوّعت سايرت وقائع الشعب الجريح المنتهكة حقوقه، المستبدة ممتلكاته، فنقلت بذلك صورة عن الأوضاع السائدة، تضمّنت مواقف ورؤى متباينة تجاه الأنا وتجاه الآخر، رواية بعد أخرى راح يتطور الوعي الجماهيري بضرورة الالتفاف حول القضية الوطنية، والسعي لنقلها إلى الرأي العام الدولي والعالمي. وقد كان اللقاء والتصادم بين المجتمعين الجزائري والفرنسي في أوجّه في هذه المرحلة، حيث عاشا جنباً إلى

¹ ينظر: عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ص 180

² أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 110.

³ ينظر: عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ص 180.

⁴ سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص 206.

⁵ المرجع نفسه، ص 206.

جنب، في الجزائر أو في فرنسا¹، فكانت الروايات محملة بأمثلة من هذا التقابل بين الأنا والآخر، تعكس صورة الآخر الفرنسي بالدرجة الأولى كما يتمثل عند أديب بعينه وفي رواية بعينها.

2/مضامين الرواية الجزائرية من سنة 1963م إلى 1989م

الظروف العامة للمرحلة:

نالت الجزائر استقلالها وتحوّرت من ربة الاستعمار الفرنسي سنة 1962م، إذ كتم على أنفاس الجزائريين ما يزيد عن قرن وربع القرن، ونبيل الحرّية السياسية والسيادية، أصبحت الدولة الجزائرية تنظر في المخلفات الكارثية التي ورثها الفرنسيون للجزائريين، أوضاع اقتصادية واجتماعية وثقافية مزرية، بحوالي 2مليون جزائري عاطل عن العمل، نقص في المجال الصحي (الأطباء والمرضون) بالإضافة إلى قلة المرافق الاجتماعية الصحية وفي مجال السكن آلاف القرى والمدامر دُمرت، ونزوح ريفي وعودة للآجئين إلى الجزائر (300 ألف)، وعدد كبير جداً من الأرامل واليتامى والمعطوبين.

وعلى المستوى الثقافي كانت نسبة الأمية مرتفعة وتقدّر بأكثر من 90% بالإضافة إلى نقص الإطارات من معلمين وأساتذة، أما النسبة القليلة المتعلمة من أبناء الجزائر فمعظمهم مثقفون باللغة الفرنسية، بالإضافة إلى أنّ الإدارة في الجزائر كانت مفرنسة بنسبة 100%، بسبب سياسة الاستعمار التي حاولت القضاء على العربية لغة وثقافة².

كل هذه الأوضاع استدعت من الجزائر سياسة وحكومة إيجاد الحلول المثلى للخروج من تلك الأزمات الحادة، وذلك من خلال إيجاد مناصب عمل للعاطلين وطلب إرسال المعلمين والأطباء من الدول الشقيقة والصديقة، وبذلك ركّزت سياسة البلاد عقب الاستقلال مباشرة على التخفيف من حدّة الوضعين الاجتماعي والثقافي خاصة.

¹ في الجزائر: حيث عاش المستوطنون مع الشعب الجزائري، وفي فرنسا: حيث عاش المهاجرون الجزائريون مع الشعب الفرنسي.

² ينظر: تاريخ تطور الجزائر من الاستقلال 1962م إلى 2004م، منتدى النقابة الوطنية لعمالة التربية بتيسمسيلت، موقع:

<http://snte38.3oloum.org/t3-topic>

وقد تولّى الحكم في الجزائر بعد الاستقلال مباشرة الرئيسي أحمد بن بلة، إذ >> كوّن حكومته وانتخب يوم 29 سبتمبر 1962م رئيساً للجمهورية الجزائرية في ظلّ الحزب الواحد، والنظام الاشتراكي والحكم المطلق، وبادر إلى إقصاء معارضيه وقمعهم ولم ينج منه حتى حليفه خيضر <<¹، وقد انتهج بن بلة سياسة جديدة: حاول من خلالها إخراج الجزائر ممّا هي غارقة فيه من أزمات، وقد كان لميثاق طرابلس المنعقد في شهر جوان 1962م الدور الكبير في تحديد السياسة المنتهجة والتوجه العام للبلاد وذلك بتبني >> النظام الاشتراكي القائم على التخطيط والتأميم والهادف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية التي حُرّم منها الشعب الجزائري طوال سنوات الاستعمار <<²، فقد كان أحمد بن بلة مهووساً بالفكر الاشتراكي اليساري، متحمّساً لبعض التجارب التي كانت سائدة في البلاد الاشتراكية، فاستعان ببعض تلك الدول، وقد أولى بذلك القطاعين الاقتصادي والتربوي أهمية خاصة، إذ نهجت الجزائر نهج الاقتصاد الموجّه والمسير مع اقتصاد الدولة آنذاك للمؤسسات الدستورية، إلّا أنّها كانت تكتفي بالتلويح دوماً بالشرعية الثورية³، استمرت حكومة بن بلة في البناء والتشييد لإخراج الجزائر ممّا هي فيه، إلى >> أن قام نائبه وزير الدفاع هواري بومدين بانقلاب عسكري ضده يوم 19 جوان 1965م، سُمي بالتصحيح الثوري <<⁴ على اعتبار أنّها حركة تصحيحية لجرى ما بعد الثورة، وكان بومدين >> يسير البلاد بمفرده ويبد من فولاذ، بدون برلمان ولا دستور مدّة اثنتي عشرة سنة، واتبع سياسة التدرج في حكمه <<⁵ ومع بداية السبعينات بدأ هواري بومدين في تحقيق مشاريعه الكبرى، إذ أصدر في >> يوم 08 نوفمبر 1971م مرسوم الثورة الزراعية الذي يهدف إلى تأميم أراضي الملاك الكبرى لتوزيعها على صغار الفلاحين لاستغلالها بشكل جماعي <<⁶، إلى جانب >> مشروع ألف قرية نموذجية، والصناعة المصنّعة والتسيير

¹ عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، ص 211.

² تاريخ تطور الجزائر من الاستقلال 1962م إلى 2004م، (موقع إلكتروني سابق).

³ ينظر: جزائر ما بعد الاستقلال، ويكيبيديا الموسوعة الحرة: <http://ar.wikipedia.org/wiki> تاريخ الزيارة: 12/

2014/12/م.

⁴ عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر ص 211.

⁵ المرجع نفسه ص 211.

⁶ تاريخ تطور الجزائر من الاستقلال 1962م إلى 2004م، (موقع إلكتروني سابق).

الاشتراكي للمؤسسات، وديمقراطية التعليم والطب المجاني والسّد الأخضر لإيقاف تصحّر الأرض الفلاحية، وتأميم المحروقات يوم 24 فيفري 1974م، وبذل جهودات كبيرة لمحاربة الأمية ببناء المدارس والجامعات (...). فأصبحت الجزائر ورشة كبيرة حققت خلالها مكتسبات هامة على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في كنف الجدّ والعدل والمساواة¹، وبذلك توجّهت السياسة الجزائرية في عقد السبعينات لتحسّن مستوى معيشة السكان بتوفير التعليم والخدمات الصحية المجانية وتحسّن الخدمات الاجتماعية الأخرى.

ولعلّ أهمّ ما يميّز هذه المرحلة على الصعيد السياسي وجود >خلافات سياسية وإيديولوجية ظهرت بصورة واضحة عقب صدور مراسيم التسيير الذاتي إذ انقسمت السلطة نفسها إلى قسمين: اتّجاه يميني واتّجاه يساري، وقد مثّل اتّجاه اليمين مصالح العناصر البورجوازية التي عملت على إفشال مشاريع الحكومة، واستهدفت التعامل مع فرنسا، وهذا الاتّجاه لم يكن له وجود قوي وقت الاستعمار لأن الاقتصاد كان في معظمه بيد المستوطنين الفرنسيين، أمّا الجناح اليساري فتمثل في الحزب الشيوعي الجزائري الذي ساند منجزات الحكومة، ولكنه ظلّ متحفظاً على احتكار جبهة التحرير الوطني للتاريخ الثوري، وللواقع المعيش²، وقد ساهم هذا الأخير (اتّجاه اليسار) في تحقيق أحلام الطبقات الشعبية المحرومة، بما وفره لهم من حرّية في العمل، ودخول للمدارس، والطب المجاني، والتأمينات، وبالمقابل فقدّ عرفت البورجوازية شعوراً بالتشاؤم من خلال فقدان السيطرة على الوضع، وظلّت تعمل سرّاً وعلانية على إقامة مثل هذه المشاريع الطموحة³ وهو ما مهّد للصراع بين أبناء الشعب الواحد فيما بعد.

وبعد وفاة الرئيس هواري بومدين نهاية السبعينات (27 ديسمبر 1978م) تمّ اختيار الشاذلي بن جديد من طرف الجيش كرئيس للجمهورية سنة 1979م، فزكاه حزب جبهة التحرير الوطني، غير أنّ سياسته كانت تسير عكس الاتّجاه الذي سلكه الرئيس الذي سبقه، إذ بادر إلى محوها، >وما عدا إلغاء رخصة الخروج إلى الخارج وتحسين الطرق وبناء الجسور، لم تعرف الجزائر أي تقدّم بل بالعكس تراجعت

¹ عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، ص 212.

² صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 2009. ص 51.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص 52.

إلى الوراء، ففقدت سمعتها العالمية، واعتمدت على الرّيع البترولي وما نتج عنه من تبذير للأموال وخلق أزمات مفتعلة (الطماطم والزيت والقهوة)، وسياسة المحسوبة وبن عميس في توزيع الرّيع والسكن وتولّي المسؤوليات وتهميش الإطارات الجامعية النظيفة طبقاً للمادة 120 لحزب جبهة التحرير التي تنصّ " على أن لا يتولّى الوظائف العليا في القطاع العام، إلاّ الأعضاء المنخرطون في الحزب"، وإسكات الشعب بالبنان والجبن والعمل الصعبة، بينما وجدت الرشوة ضالّتها في هذا الجوّ المتعفن الذي سمح للعديد من الانتهازين الاغتناء على حساب الدولة والشعب¹.

ولعلّ أهمّ تغيير طرأ في مرحلة الشاذلي بن جديد هو إرجاع الأراضي المؤمّمة إلى أصحابها، وفتح المجال للقطاع الخاص، وتلك كانت المؤشرات على بداية تطبيق المسار الاشتراكي المنتهج منذ استقلال الجزائر، وهو ما سمح بالتحوّل من الاقتصاد الموجه إلى الاقتصاد الحرّ، ومن مظاهره ازدياد البطالة وأزمة السكن، وتدنّي القدرة الشرائية، ممّا أدّى إلى بروز مظاهر الفقر والبؤس والأمراض الاجتماعية². وتولّدت أزمات حادة عن تلك الظروف المزرية، أدّت إلى انتفاضة الشعب³ فيما يعرف >> بالربيع الأمازيغي، وصعود التيار الإسلامي، وانفتاح سياسي جارف، ولد تعدّدية وعنف لم يخمد جرائمه حتى اليوم⁴، وذلك من خلال >> مصادقة الشعب على الدستور الجديد ل عام 1989م، والذي أعفي بموجبه الجيش الوطني الشعبي من صفوف حزب جبهة التحرير الوطني، وفتح باب الديمقراطية

¹ عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر ص 212.

² ينظر: تاريخ تطور الجزائر من الاستقلال 1962م إلى 2004م، (موقع إلكتروني سابق).

³ وتتمثل في انتفاضة أكتوبر 1988م، أو ما يسمّى بخريف الغضب الجزائري، في احتجاجات الشعب بخروجه في أحياء العاصمة بأكملها للقيام بأعمال التخريب والحرق ومحاولة اقتحام عدد من منازل الشخصيات التي كانت ترمز لنظام الحكم في الجزائر آنذاك واستمرّت الاحتجاجات بعد الخامس من أكتوبر إلى الأيام الموالية، وحاول بعض قادة التيار السلفي في الجزائر قيادة مسيرة في شوارع باب الوادي، ودعوا المصلين إلى التعقّل، غير أنهم لم يستجيبوا لنداءاتهم، واستمرّت حالة إعلان الحصار وفرض حظر التحوّل ليلا في العاصمة وضواحيها، وانتشرت قوات الجيش عبر كامل أحياء العاصمة حفاظا على ما تبقى مما حرّبه المتظاهرون، إلى أن ظهر الشاذلي بن جديد يوم 10 أكتوبر على التلفزيون، ودعا المواطنين للتعقّل ووعدهم بغد أفضل، وبإصلاحات في جميع المجالات السياسية والاقتصادية، وكان الهدوء قد عاد إلى كل أحياء العاصمة وما جاورها. ينظر: تاريخ الجزائر-ويكيبيديا الموسوعة الحرة:

[http:// ar.wikipedia.org/wiki](http://ar.wikipedia.org/wiki) تاريخ الزيارة: 2015/01/15

⁴ جزائر ما بعد الاستقلال، ويكيبيديا الموسوعة الحرة: <http://ar.wikipedia.org/wiki> تاريخ الزيارة: 2015/01/15

على مصراعيه للصحافة المكتوبة والجمعيات والتعددية النقابية والحزبية في ظلّ حرّية عرجاء لا تسمن ولا تُغني من جوع¹.

تلك هي أوضاع الجزائر عبر ثلاثة عقود: من الستينات مرحلة التصحيح وإعادة مسار الثورة المسلحة، إلى السبعينات مرحلة البناء والتشييد. وصولا إلى الثمانينات مرحلة التغييرات وتولّد الأزمات وانتفاضة مختلف فئات الشعب الجزائري، التي كانت خاتمتها جملة من الإصلاحات السياسة والتعددية الحزبية، أدخلت الجزائر في متاهات معقّدة، تسببت في إراقة دم الأبرياء من الجزائريين.

ولم تكن الرواية الجزائرية بمنأى عن تلك الأوضاع التي عاشها الشعب الجزائري على مختلف الأصعدة، وعبر جميع المراحل، على اعتبار أنّ الرواية > ذات دلالات شمولية تساهم في تجسيم وبلورة الوعي التاريخي للمرحلة الحضارية التي تنتمي إليها، ومادام الكاتب الروائي ليس صحفيا، فإنه لا يتعامل مع الأحداث كما تبدو لنا، وإنما يركّز على ما يدور في أعماقنا، انطلاقا من منظور استدراسي² وبهذا فإن الرواية على الرغم من كونها شاهدة على المرحلة التي تنتمي إليها، إلاّ أنّه لا يمكن محاسبتها انطلاقا ممّا هو كائن في الواقع وما وصل من حقائق تاريخية، إذ الروائي > يستورد مادة خاما، ويقوم بعملية تصنيع بل عملية خلق فنية، ينقل الواقعي، يقوم بتركيب شيء، فيه من الخيال الشيء المعترف...³ غير أنّه لا يغفل عن الأحداث الكبرى والحقائق المصيرية التي ساهمت في البناء والتشييد، أو الهدم والتحطيم كما أنّه يعبر عن موقف معيّن، ويتبنّى إيديولوجية محدّدة، تتكشف من خلاله أحداث روايته والشخصيات التي تحركها، ذلك أنّ عمله الروائي يضمن > الإيديولوجية السائدة في المجتمع، سواء أكان الكاتب نفسه يتبنّى هذه الإيديولوجية، أو يتعارض معها، فإذا كان يتبنّى الأفكار السائدة فإن العمل الروائي يتضمن إيديولوجية واحدة، أمّا إذا كان موقفه مخالفا، فإنه يقدم إيديولوجية المجتمع بصورة

¹ عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر ص 213

² الطاهر رواينية: اتجاهات الرواية العربية في بلدان المغرب العربي "تونس-الجزائر-المغرب" 1945-1975، رسالة ماجستير مخطوط، جامعة الجزائر، 1985-1986، ص 224.

³ صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، ص 54.

وصفية، ويقدم موقفه أو الموقف المعارض بصورة ضمنية غير مباشرة، تفهم من خلال العمل ككل¹<< ذلك أن الإيديولوجيا >> في أبسط تعريفاتها نسق من الأفكار والتصورات الدينية والأخلاقية والجمالية بصرف النظر عن طبيعتها فإنها تشكّل رؤيا للعالم بتعبير (غولدمان) وهي سابقة عن عملية الإنتاج²<< أو الإبداع الأدبي لاسيما من خلال الخطاب الروائي والذي مهما كان مضمونه >> لا يتعد عن الإيديولوجية نظراً لاتساع فضاءه النصي، وقربة من الحياة الاجتماعية وما تتوفر عليه شخصياته من مواقف إيديولوجية (...). شخصيات العمل الروائي تحمل في وعيها بعداً إيديولوجياً وتحمسه في عاداتها وأخلاقها، وعليه فالخطاب الأدبي هو تعبير عن رؤية للعالم بصورة أو بأخرى، لذا على المبدع إبراز تلك الرؤيا وبلورتها في أفضل صورة ممكنة ومتكاملة لها، أي تحويل الأبعاد الإيديولوجية والاجتماعية إلى فن³<< في قالب روائي.

والرواية الجزائرية لم تتصل من هذا الدور المهم، في التعبير عمّا يجول في الواقع من إيديولوجية إذ >> تعيد صياغة المجتمع بوصفه كيانا موضوعيا يتميز بوجوده المستقل عن الذات، لكن هذا الوجود ليس مفصّلا تماما عن الذات المبدعة أو تحركه حتمية ميكانيكية، وإنما هي علاقة مؤسسة على صلة جدلية وثقى بين الأدب والواقع، صلة تعترف بدور الأدب في عملية التغيير، وإنه لا قيمة لنص أدبي لا يحركه هاجس التغيير⁴<<، تغيير الواقع من خلال النص الأدبي وما يريد المبدع إبلاغه للقارئ من خلال ما يضيفه على الحقائق الموجودة فعلا، من خيالات وهواجس وأحلام.

¹ صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، ص 53.

² مخلوف عامر، حداثة الكتابة الروائية في رواية "أعوذ بالله" للسعيد بوتاجين، موقع: <http://massareb.com/?p=5064> تاريخ الزيارة: 19/06/2015م.

³ شادية بن يحيى، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع، موقع:

http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=37074 تاريخ الزيارة: 09/06/2015

⁴ مخلوف عامر، الرواية والتحويلات في الجزائر (دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص 108

فكان للرواية الجزائرية أن احتضنت >> عدّة اتجاهات، كلّها ملتصقة بالواقع، وتحوم حول الواقع وأقلها تلمس جوهر الحركة في هذا الواقع^{1<<}، ممّا يعني أنّ هذه الروايات-لاسيما في هذه المرحلة- تسبح في فلك واحد هو التعبير عمّا يعيشه الجزائري من أوضاع اجتماعية واقتصادية وثقافية، وإن كانت تختلف من حيث وجهة نظر الأديب إلى تلك الأوضاع وتقبله لما تسير نحوه البلاد، أو رفضه ونقده لما هو راهن من سياسة التسيير والبناء لاختلاف إيديولوجيته الخاصة مع الإيديولوجية المتبناة من طرف السلطة الحاكمة، ذلك لأنّ معظم الأدباء >> لم يخرجوا من دائرة الخطاب الرسمي المسيطر، سواء أكانوا ينتقدون أم يرفعون شعار الجماهيرية بشكل عفوي، وهم في هذه الحدود لا يتمكنون من طيّ مظلة الخطاب السائد بل يبقون يتحركون تحت مظلته ولا يستطيعون منها فكاكا، إن هم لم يعانقوا خطابا آخر ينقضه <<2>>، ويثبت عكس ما يتبناه.

وتبعاً لذلك، وللوقوف على أهم روايات المرحلة باللغتين العربية والفرنسية وتحديد توجهاتها والموضوعات العامة التي تدور في فلكها، نحاول من خلال ما يلي: تتبع أهم المواضيع التي عاجلتها الروايات مع مراعاة التتبع التاريخي لها، ولهذا ارتأينا تناول الرواية الجزائرية باللغة العربية عبر المرحلة الزمنية ككل أي من 1963م إلى 1989م، ثم التّطرق للرواية الجزائرية باللغة الفرنسية. وذلك ليس من باب الفصل بينهما، وإنما لاختلافهما البيّن من حيث التطور الفني في شكل الكتابة وطريقة الطرح للموضوع من أساليب فنية راقية بالنسبة للرواية المكتوبة باللغة الفرنسية، والتي كانت قد قطعت شوطاً مهماً في المرحلة السابقة من التجريب والتأسيس لفن الرواية عموماً، لم تشهده الرواية المكتوبة باللغة العربية إلاّ في مرحلة السبعينات³ فتباينت بذلك المواضيع المتطرق إليها، وما تقدّمنا لمواضيع الرواية الجزائرية باللغة العربية أوّلاً، إلاّ من باب اعتبار العربية اللغة الأولى في الجزائر، وما اللغة الفرنسية إلاّ لغة أجنبية تمّ اعتمادها في الإبداع من قبل الروائيين لغايات متباينة فيما بينهم.

¹ مخلوف عامر، الرواية والتحوّلات في الجزائر (دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، ص 108.

² المرجع نفسه، ص 109.

³ ينظر: عمار بن طوبال، جيل السبعينات وميلاد الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية-نشر في موقع الرواية الجزائرية:

http://koutama18.blogspot.com/2010/09/blog-post_11.html تاريخ الزيارة 3015/06/13

❖ الرواية الجزائرية باللغة العربية:

لا يكاد المتبع لتطور الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية يعثر - بعد الاستقلال مباشرة - إلا على رواية واحدة - وإن كانت لا تحمل معالم الرواية الفنية الحقيقية¹ - هي رواية "صوت الغرام" ل (محمد منيع) سنة (1967م)، وذلك لأن الظروف (العامة والذاتية) لم تكن مهيأة لكتابة نصوص روائية حديثة، وذلك لهيمنة النزعة المحافظة على كل مظاهر الحياة الثقافية، إلى جانب الفقر الثقافي العام وحالة الاغتراب اللغوي الذي يحسّه المثقفون باللغة العربية داخل مناخ تسيطر عليه اللغة الفرنسية² من جانب والعامية من جانب آخر،³ والبرامج المدرسية لا توفر لهم فرصة الاطلاع على النصوص الأدبية الراقية ولا على المعارك النقدية الحديثة⁴، ولم تعرف الرواية الجزائرية باللغة العربية حضوراً على الساحة الأدبية إلا مع بداية السبعينات.

1- موضوع تمجيد الثورة ومهادنة السلطة:

تعدّ الرواية الجزائرية باللغة العربية، في مرحلة التأسيس والبدايات شديدة التعلّق بالماضي القريب والمتمثل في الثورة المجيدة،⁵ حيث ركّزت على تسجيل بطولات الأمة الجزائرية ومآثرها من أجل نقلها للأجيال اللاحقة، وقد كان الهدف من وراء ذلك تعميق الوعي بالهوية الوطنية⁶، فكانت العودة إلى الخلفية التاريخية مفتاحاً مهماً لمقاربة الموضوع⁷ الثوري في النصوص الروائية، فكانت بذلك حرب التحرير هي النبع⁸ الذي يستقي منه الأدباء أحداث رواياتهم، وشخصياتها، وكذا فضاءاتها الزمنية والمكانية، إلى جانب التمجيد والتنزيه لأبطالها، واتهام الحركي والخونة لها، وترى آمنة بلعلي⁹ أن الحديث عن موضوع

¹ ينظر: سليم بنقمة، الرواية الجزائرية: سرد الهوية ورهانات الكتابة، مجلّة الروائي، (موقع إلكتروني سابق).

² ينظر: أحلام معمري، نشأة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، مجلة الأثر، العدد 20، جوان 2014، ص 60.

³ مخلوف عامر، الرواية والتحويلات في الجزائر، ص 12.

⁴ وذنانى بوداود، تجليات ثورة التحرير الجزائرية في الرواية الجزائرية (مقارنة في بعض النصوص) موقع: mamifeste.univ-ouargla.dz/index.php/seminaires/archive/faculté-des-lettres-et-des-langues/38

⁵ ينظر: محمد بن زيان، الرواية الجزائرية-هواجس وتمثالات، موقع: <https://fbcdn-sphotos-d-a.akamaihd.net>

تاريخ الزيارة: 2013/09/04.

⁶ بن سعدة هشام، بنية الخطاب السردي في رواية "شعلة المائدة" لمحمد مفلح، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، مخطوط، جامعة

تلمسان، 2013-2014. ص 49.

الثورة في رواية السبعينات لا يتم إلا من خلال ثلاثية هي الثورة، التاريخ أو الذاكرة، والثورة الأسطورية، وبينهما الواقع الذي يتغذى منهما¹ ومن أهم النصوص الروائية التي تجسد ذلك: رواية "مالا تذرروه الرياح" ل(محمد العالي عرعار) 1972م، حيث >>تقدم لنا شخصية "البشير" كنموذج لطبقة من الجزائريين الخونة (الحركي) إبان الثورة الجزائرية التحريرية، والذين باعوا وطنهم الجزائر وانضموا إلى المستعمر الفرنسي ضدّ بني جلدتهم²، إلى جانب رواية "نار ونور" ل(عبد الملك مرتاض) 1975م، >> والتي حاولت أن تكون في مستوى الثورة أو على الأقل تساير منجزاتها³، كما قدّم (مرزاق بقطاش) روايته "طيور في الظهيرة" سنة 1976م، والتي حاول من خلالها >>أن يرسم بريشة دقيقة معاناة الطبقة المسحوقة إبان الاستعمار الفرنسي، والمموم الكبيرة التي يعيشها الأطفال⁴ كما عالج من خلال روايته روايته "البزاة" سنة 1981م >>الواقع المأساوي الذي يعيشه الإنسان الجزائري تحت وطأة السيطرة الاستعمارية، الجوع، الفقر، الاستغلال، الإهانة، التعذيب، التشرذم...⁵

وتعدّ رواية "الأكواخ تحترق" ل(محمد زيتلي) سنة 1982م، من روايات الثورة إذ تتناول >>مرحلة من تاريخ وحياة ابن شهيد المدعو "مسعود" الذي استشهد والده وهو يدافع عن وطنه الجزائر محاولا تخليص وطنه من بين براثن العدو الفرنسي لترمي الأقدار ب "مسعود" في مصيدة إقطاعي يمتلك أراضي زراعية واسعة، حيث يصبح بطل الرواية عاملا بهذه المزرعة⁶، على أنّ الرواية تنتقل بين جوانب عدّة من الثورة المسلحة، إلى الهجرة إلى فرنسا، والانحراف الاجتماعي والأرض الزراعية (أو القرية الفلاحية).

¹أمنة بلعلي، المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2011، ص51

²عبد القادر شريف بموسى، المنهج النفسي وتطبيقاته على الرواية الجزائرية، السادية في علاقة الشرق بالغرب في الرواية الجزائرية، مجلة طنجة الأدبية، العدد51، 2013، ص14.

³واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية، ص93.

⁴المرجع نفسه ص90.

⁵مخلف عامر، الرواية والتحويلات في الجزائر، ص32.

⁶ينظر: أكواخ تحترق، آخر روايات محمد زيتلي، موقع: essalamonline.com/ara/permalink/21811.html. تاريخ الزيارة 22/06/2015م.

وفي روايتي (محمد ساري) "على جبال الظهرة" سنة 1983م، و"السعير" سنة 1986م، يبدو الروائي متمسكا بالإطار العام الذي ميّز الثورة المسلحة من تضحيات جسيمة في سبيل استقلال الجزائر وإن كان في الأولى >>أميل إلى الموضوعات الاجتماعية التي ميّزت فترة السبعينات من خلال الواقعية الاشتراكية<<¹ أما في الرواية الثانية "السعير" فيبدو تابعا >> يواكب القرار الفوقي ويسارع إلى صياغته أدبيا، وكأنّ الثورة قرار تصدره السلطة وما وظيفة الأديب سوى البحث عن الشكل الأدبي الملائم لصياغة القرار<<².

ويقدم (محمد العالي عرعار) رواية أخرى سنة 1984م "زمن القلب" ويتحدث فيها عن العمليات الفدائية التي كان يقوم بها جنود جيش التحرير في مدن الأوراس، ويسترجع من خلال عودة >> الراوي (الطيب) كل المواقف التي مرّوا بها قبل ذلك، أي التحضيرات المختلفة والأحداث قبل الهجوم على هذا المركز<<³ وغيرها من الأحداث الثورية التي تحكي عن المجازفات التي كانت تواجه الجنود ومعاناتهم النفسية.

ول(محمد مفلح) خلال هذه المرحلة ست روايات، تحتفل بموضوع الثورة وتمجّده، و>> قد تحققّ الاستقلال من منظور ذاتي، ضخم هذه الثورة وعظّمها إلى حدّ اعتبارها أسطورة، ونزّه الرجال الذين قاموا بها من كلّ المذلات والأخطاء إلى حدّ العصمة<<⁴. وهذه الروايات هي على الترتيب: رواية "الانفجار" (1984م)، "هموم الزمن الفلاقي" (1986م)، "زمن العشق والأخطار" (1986م) "بيت الحمراء" (1986م)، "الانهيار" (1986م)، ورواية "خيرة والجبال" (1988م)، فعلى سبيل المثال نجد أنّ رواية: هموم الزمن الفلاقي (1986م) هي إحدى القصص التي تحاول الرجوع إلى ثورة التحرير الجزائرية، إذ تحكي قصة بطلها حماد الفلاقي الرجل البسيط الفقير الذي غيرته حياته البائسة

¹ بشير مفتي، "الغيث" رواية للكاتب محمد ساري: تحولات العنف الجزائري ماضيا وواقعا، موقع:

daharchives.alhayat.com/issue-archive/hayat%20INT/2007/6/24 تاريخ الزيارة: 2015/06/14

² مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر، ص25.

³ بوراس منصور، البناء الروائي في أعمال محمد العالي عرعار الروائية: الطموح، البحث عن الوجه الاخر، زمن القلب: مقارنة بينوية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، مخطوط، إشراف محمد العيد تاورته: جامعة فرحات عباس، سطيف، 2009-2010، ص25.

⁴ شادية بن يحيى، الرواية الجزائرية ومتغيّرات الواقع، (موقع إلكتروني سابق).

فانتفض لمواجهة فرنسا أعتى القوى المستعمرة في ذلك الزمان ليستشهد في نهاية المطاف¹، أما رواية "زمن العشق والأخطار" (1986م) فهي تحدّد زمن الثورة الجزائرية الذي امتدّ من الفاتح من تشرين الثاني عام 1954م ولغاية الخامس من تموز 1962م، بأنه-زمن العشق- وهو عشق خاص وناضح جداً ومليء بالأخطار²، وهو خيار كل جزائري كواه الاحتلال بنااره وأهلب روحه بظلمه.

وبذلك اتخذت بعض الروايات الجزائرية الثورة في جانبها المشرف ومجدته، وأبرزت بطولات المجاهدين والشهداء الفدائيين كما تعرّضت للحنونة الذين باعوا أنفسهم وأهلهم للفرنسي المستعمر. وهو موضوع لا بدّ منه لاسيما في المرحلة الأولى التي تلت استقلال البلاد، للتذكير بمناقب هذه الثورة وتاريخها حتى لا تمحى من ذاكرة الشعب الجزائري وماضيه.

2- روايات تبنت الخطاب الرسمي للبلاد:

لقد عكست الروايات الجزائرية في هذه المرحلة - في جانب منها- الصراع القائم في الواقع بين قادة الثورة وممثلي التوجّه الماركسي، الذي ساد بصفة كبيرة مع بداية الاستقلال وحتى نهاية الثمانيات، >>مما جعل النصوص الروائية التأسيسية تغرق في الهمّ الاجتماعي والصراعات الإيديولوجية التي عرفتها الثورة بين التيار الوطني المتمسك بالقيم العربية الإسلامية، والتيار المشبّع بالفكر الماركسي³. فكانت روايات المرحلة مشبّعة بالخطاب الرسمي، و>>التسيّس طاغيا والنزعة الإيديولوجية اليسارية حاکمة على النصّ بحمولته وتيهاته وحبكته⁴، ولعلّ أهمّ ما يتجلّى في النصوص الأولى هو تناول >>ثورة التحرير قبل الاستقلال وبعده ومن منظور نقدي⁵، إذ لم >>تبق في حدود التعاطف والوصف، بل تجاوزت ذلك إلى النقد⁶، إذ كانت تبحث >>في الخلافات الداخلية التي ولدت مع الحرب مع السعي إلى إبراز دور

¹ ناصيرة زوزو، صورة الثورة في رواية هموم زمن الفلاقي لمحمد مفلح، مجلة المخير، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة.

² محمد مفلح، زمن العشق والأخطار، الأعمال الكاملة، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2012م

³ وذناي بوداود: تجليات ثورة التحرير الجزائرية في الرواية الجزائرية (مقاربة في بعض النصوص)، (موقع إلكتروني سابق)

⁴ محمد بن زيان: الرواية الجزائرية... هواجس وتمثلات، (موقع إلكتروني سابق).

⁵ شادية بن يحيى، الرواية الجزائرية ومتغيّرات الواقع، (موقع إلكتروني سابق).

⁶ مخلوف عامر: الرواية والتحوّلات في الجزائر، ص 14.

دور الشيوعيين في دعم الثورة، ثم مآلم التراجيدي عبر التصفية الجسدية¹. ولعلّ أهم الروايات التي عبرت عن هذا التوجّه رواية "ريح الجنوب" ل(عبد الحميد بن هدوقة) 1971م، وتعدّ هذه الرواية بحق الرواية الفنية المكتملة التي يؤرّخ بها لمرحلة ما بعد الثورة، وقد عكست >الصراع الطبقي في الريف الجزائري غداة إجراء الإصلاح الزراعي، وقد ظهرت الرواية في حينها، ووقف المؤلف في رسم صورة حيّة للغاية ومقنعة لأطراف هذا الصراع²، كما تعتبر من خلال الطرح الذي قدّمه بن هدوقة >مساندة للخطاب السياسي الذي كان يلوح بآمال واسعة لفك العزلة عن الريف الجزائري والخروج به إلى حياة أكثر تقدماً وازدهاراً ورفع البؤس والشقاء عن الفلاح ومناهضة كل أشكال الاستغلال عن الإنسان³، وبذلك فقد >صوّر المؤلف تصويراً صادقا من الناحية النفسية للفلاحين البسطاء، الذين لزموا موقفاً حذراً من الثورة الزراعية المقبلة، خوفاً من أن تحرمهم من أهم ثروة يملكونها وهي الأرض، وقدّمت في الرواية صور ساخرة لأدعياء العلم من شيوخ و دراويش يعيشون متطفلين على جهل الشعب البسيط⁴، البسيط⁴، فقدّمت طرحاً لاهتمامات الفلاح الجزائري في تلك المرحلة من تاريخ الجزائر.

أما رواية "اللاز" ل(الطاهر وطار) سنة 1972م، فكانت تسعى إلى >تسليط الضوء على المسكوت عنه في الثورة الجزائرية، وإمالة اللثام عن الصراع الذي حدث في جيش التحرير الوطني إبان الثورة، كما تجسّد وعي المبدع واستيعابه قضايا مجتمعه وعرضها في قالب فني إبداعي من خلال رؤية واقعية ناضجة⁵، ذلك أنّه جعل مهمته في هذه الرواية >البحث عن بذور الأسباب التي عرقلت مسيرة الثورة بعد الاستقلال مستغلاً شخصيات الرواية في دفع الأحداث وتقديم رؤاه الاجتماعية والنضالية والثورية والإيديولوجية، فقدّ حفلت بالنقد للأوضاع والأفكار والشخصيات والمواقف التي يراها

¹ بن سعدة هشام، بنية الخطاب السردية في رواية "شعلة المائدة" لمحمد مفلح، ص50.

² ل. ستيبانوف، عبد الحميد بن هدوقة: الكاتب الكلاسيكي، عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2002، ص85.

³ شادية بن يحيى، الرواية الجزائرية ومتغيّرات الواقع، (موقع إلكتروني سابق) ..

⁴ ل. ستيبانوف، عبد الحميد بن هدوقة: الكاتب الكلاسيكي، ص85

⁵ نجوى منصور، المورث السردية في الرواية الجزائرية-روايات الطاهر وطار وواسيني الأعرج أنموذجاً، مقارنة تحليلية تأويلية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012، ص52.

الكاتب من وجهة نظره غير سوية^{1<<}. ويظلّ الطّاهر وطار وفيما لمنظوره الخاص في بثّ حيثيات الصراع القائم في البلاد، إذ يصف في رواية "الزلازل" سنة 1974م الصراع بين مؤيدي الثورة الزراعية والبورجوازيين الذين يريدون إفشالها فبطلها[>] إنسان عاقر يرفض الثورة الزراعية، سلاحه في ذلك الشرعية الدينية، لقد عايش بو لأرواح انهيار عالم وقيام آخر جديد، فيشعر بزلازل نفسي عنيف إثر الصراع الذي يستجد بينه وبين قوى معارضة له، (...) إنّ خطاب الزلازل يقرّ بنهاية طبقة وملاك الأراضي، فهي عقيمة لا يمكنها أن تستمرّ مع الأجيال الصاعدة المبشرة بوعي جديد^{2<<}، فهو بهذا النصّ يؤيد خيار الحكومة الجزائرية في تبني السياسة الاشتراكية، وخدمة الأرض من طرف الجميع وبتساو دون استثناء واستغلال.

وتعدّ الرواية الثانية ل (عبد الحميد بن هدوقة) "نهاية الأمس" والتي صدرت سنة 1975م مجسّدة لمبادئ الثورة الزراعية، إذ تجري أحداثها[>] في قرية نائية غداة انتهاء حرب التحرير الوطني وبطلها معلم من المدينة يأتي إلى قرية خربتتها الحرب من أجل مساعدة الفلاحين على بناء حياة جديدة، وخلافاً لأسلافه الذين نزحوا نحو المدن خوفاً من المصاعب يستقرّ في هذه القرية^{3<<}، فالرواية بمثابة نداء لتمسّك الفلاح بأرضه وخدمتها.

وتعد رواية "عرس بغل" ل(الطاهر وطار) سنة 1978م رصداً لجملة التحولات والتطورات التي عرفها الواقع الجزائري، إذ يتعامل فيها الروائي[>] مع التاريخ بوصفة جزءاً من وعي الشخصيات ولاسيما شخصية "الحاج كيان" التي مرّر الكاتب من خلالها ما يريد قوله بشأن الماضي عموماً، والتاريخ بشكل خاص^{4<<}، إذ ييسط على مستواها العالم بكل تفاصيله، ويكشف عن التناقضات والانشطارات

¹ شادية بن يحيى، الرواية الجزائرية ومتغيّرات الواقع، (موقع إلكتروني سابق).

² نورة بعيو، روايات الطاهر وطار بين قيود الأدلجة وحدثية الكتابة، موقع إلكتروني:

تاريخ الزيارة: 2015/06/15- mamifest.univ-ourgla.dz/index.php/seminaires/archive/faculté-des-lettres-et-des-langues/24.

³ ل. ستيانوف، عبد الحميد بن هدوقة: الكاتب الكلاسيكي، ص 86.

⁴ محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2002، ص 129.

الأخلاقية التي طفت على المجتمع الجزائري، الذي أصبح يقبل بفتح مواخير يُباع فيها شرف المرأة في حين أنه يعيش في مجتمع مسلم¹

وفي رواية "بان الصباح" الصادرة سنة 1980م، ينقلنا (عبد الحميد بن هدوقة) من أجواء الريف والقرية إلى العاصمة حيث يبرز >> النقاشات الساخنة حول مشروع الميثاق الوطني، الوثيقة الهامة للثورة الجزائرية التي حدّدت طريق التطور اللارأسمالي للبلاد (...). ويتمحور هذا العمل الفني حول أسرة "علاوة" الكبيرة التي يحمل أفرادها قناعات سياسة مختلفة من محافظة متطرفة إلى ديمقراطية ثورية (...). يعكس من خلال البنية الجزئية لأسرة واحدة البنية الكلية للمجتمع الجزائري² وهو بذلك يعكس حقيقة الصراع الواقع في جزائر السبعينات.

ونجد الموضوع نفسه مطروح في رواية (الطاهر وطار) الصادرة في السنة نفسها (1980) بعنوان "العشق والموت في الزمن الحراشي"، والتي يواصل من خلالها الأديب تجربته في تحديث الكتابة الروائية حاملة الرؤية التي بدأها في نص اللاز/ الكتاب الأول وذلك عندما يتطرق إلى وضعية الثورة بعد الاستقلال من خلال بروز الحركة الطلابية ذات القناعة الأيديولوجية ممثلة بـ "جميلة" الطالبة الشيوعية و"ثريا" اليسارية المتطرفة، مقابل الفكر الديني المتعصب الذي حاول أن يجهض مبادئ الثورة الزراعية التي استلهمت أسسها الإيديولوجية من الفكر الاشتراكي³ وبذلك فقد رصدت الرواية وقائع سائدة في عصرها، وهي صدى لما كان يسمع من المنابر السياسية وأنواع الاتجاهات السائدة آنذاك⁴، وثية الطاهر وطار في الكشف والفضح للواقع السياسي في الجزائر برزت أيضا من خلال روايته "الحوات والقصر" سنة 1980م أيضا، حيث كشف فيها عن سمعة السلطة القمعية والوصولية والانتهازية التي

¹ ينظر: حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية: الطاهر وطار (مقاربة سوسيو ثقافية) دار الغرب للنشر والتوزيع وهران، ص14.

² ل-ستيبانوف، عبد الحميد بن هدوقة: الكاتب الكلاسيكي، ص87.

³ نورة بعيو، روايات الطاهر وطار بين قيود الأدلجة وحدائية الكتابة، (موقع إلكتروني سابق).

⁴ ينظر: مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر، ص ص 90-91.

تحكم جزائر الاستقلال، وفي الرواية رحلة علي الحوات، > رحلة الوعي بالثورة، للثورة على الظلم والجور الوعي بالطريق الذي يقود إلى افتكاك السلطة ليعمّ الخير، فالخير يستدعي الثورة، وبالثورة يسود الخير¹ وفي رواية "ما تبقى من سيرة لحضر حمروش" الصادرة سنة (1983م)، يهدر (واسيني الأعرج) الروائي دم الشيوعي "لخضر"، وهو من الشخصيات السياسية الأساسية في الرواية، كان شيوعياً، ونقذ الحكم فيه بالذبح المجاهد البسيط "عيسى" زمن الثورة وبذلك مثلت الرواية النظرة النقدية للتاريخ الرسمي الجزائري² وهي نظرة نقدية لطالما وجدت في روايات واسيني الأعرج، كما نجدتها في رواية "الجازية والدرأويش" ل(عبد الحميد هدوقة) سنة 1983م، والذي عرض إشكاليات الثورة زمن الاستقلال، وما ينم عنها من صراعات وتناقضات وشخص إخفاق العديد من اختياراتها وانحراف ممارستها عن الأسس والمبادئ الأصلية³ التي تبنتها زمن حرب التحرير.

ومن الروايات الجزائرية التي لم تستطع الخروج عن الخطاب الرسمي السائد آنذاك، سواء بتبنيها وعرض صراعاته، أم بنقده والتهجم عليه، رواية "زمن النمرود" لكتبتها (الحبيب السايح) التي ظهرت سنة 1985م، إذ > لم تكن انقيادا للخطاب السياسي السائد بقدر ما كانت وعياً به، وهي بذلك تتجاوز أعمالاً أدبية عديدة اتخذت منحى إصلاحياً⁴، فقد جسدت الصراع القائم بين طرف يعيش باسم الماضي والشرعية الثورية، ويعيث في الأرض فساداً وتجبراً، وطرف مناصر للعمال والفلاحين ويناضل من أجل التوزيع العادل للإنتاج.

وبذلك فإنّ أغلب الروايات التي ظهرت منذ السبعينات كانت تدور في فلك الإيديولوجيات السائدة آنذاك، تعبر عنها، وتبرز صراعاتها. ومنها ما انتصرت لإيديولوجية معينة ودعمتها من خلال خطاب وحبكة روائيتين تنضحان بالموالاة والانقياد للسلطة الحاكمة-خاصة-ومنها ما اكتفت بالتلميح دون التصريح.

¹ مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر، ص73.

² ينظر: شادية بن يحيى، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع، (موقع إلكتروني سابق).

³ ينظر: الموقع الإلكتروني نفسه.

⁴ مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر، ص43.

3- روايات ابتعدت عن الايدولوجيا وكرّست موضوع الواقع الاجتماعي:

ومنذ منتصف الثمانينات بدأت تبرز روايات تبتعد عمّا هو سائد من خطابات إيديولوجية، تفضح وتكشف الصراع بين القوى السياسية، وتركّز على ما يعيشه الإنسان الجزائري، في الحاضر وعبر ماضيه القريب ومن النصوص الروائية التي عبّرت عن ذلك رواية "صهيل الجسد" لأمين الزواي سنة 1985م والتي تحاول >> صياغة الماضي وفق منظور يخالف بل ينقض ما يكرّسه الخطاب السائد تاريخيا وإيديولوجيا وسياسيا <<¹ كما تعدّ رواية "الخنازير" (لعبد الملك مرتاض) الصادرة سنة 1985م محمّلة بأفكار غير واضحة، وإن كانت نابعة بحق من المجتمع الجزائري التي تشغل يوميات أبطاله² كما تعالج بعضا >> من المشاكل الحتمية الناجمة عن طبيعة المرحلة التاريخية التي تعيشها الجماهير الشعبية بعمق، وعن طبيعة التطور التاريخي لمختلف المجتمعات <<³، وقد كان عنصر التاريخ حاضراً دوماً في هذه الروايات حيث يقدم الجيلالي خلاص نصوصا تتباين فيها طريقة الطرح والمعالجة للمواضيع، وإن كان في روايته "رائحة الكلب" 1985م يبتّ فكرته ورسائله وصراعه من أجل تحقيق ذاته وأفكاره وسط بيئة تسعى جاهدة للحدّ من طاقاته وإخمادها، فنذكر أن إشكالية البطل هي إشكالية وجود، بمعنى أنه يسعى إلى تحقيق قيم مفقودة، فالبطل >> نموذج للمثقف الذي يحاول تغيير الواقع، ويبحث في أسباب اضطرابه يتأمل ويحلّل، لكنّه يعجز لوجود من يحاول عرقلة أحلامه والقضاء عليها، فهذا الاصطدام الذي يعيشه البطل الذي قدم من بعيد ليواجه واقعا منافيا لما رسمه في ذهنه <<⁴ فهو بذلك يرى أن الكتابة هي المتنفس الوحيد لكل ما يعيشه من هموم.

¹ مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر، ص 44.

² ينظر: يوسف بن يزة، الفضيلة في الرواية الجزائرية، المدرسة النقدية الجزائرية، موقع:

http://youcefbenyazza.blogspot.com/2011/04/blog-post_7502.html تاريخ الزيارة: 2015/06/16.

³ واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 108.

⁴ ليندة حفصي، مستويات البناء النصي في "رائحة الكلب، حمام الشفق، عواصف جزيرة الطيور، وزهور الأزمنة المتوحشة" ل:

جيلالي خلاص، مذكرة لينل شهادة الماجستير، جامعة قسنطينة، 2009-2010، ص 493.

وتجسّد رواية "معركة الزقاق" ل(رشيد بوجدرّة) سنة 1986م،[>] معركة طارق المراهق في مواجهة المحيط بكل ما يحمله من تناقضات ومواجهة المنظومة التربوية وهي تحشو ذهن المتعلم بركام من المعلومات المختلطة، وهي أخيراً معركة رشيد بوجدرّة في استحضار المتخيل وتجسيده إياه في حروف وكلمات وصور وفي نقله المتخيل من فضاء الذهن إلى فضاء الحبر^{<<1}، وإن كان هذا المتخيل لا يتعد عمّا يعيشه أو أصبح يعيشه الجزائري من تناقضات.

ومع تأزم الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الجزائر، وتحوّل الصّراع من السياسي الإيديولوجي إلى صراع المصالح بين أصحاب النفوذ والطبقة المغلوب على أمرها الساعية للعيش بكرامة وعدل في بلد آمن، أخذ الروائيون على عاتقهم مهمة تصوير هذا الواقع الذي أصبح يعاني فيه الفرد أكثر فأكثر ومن الروايات المعبّرة عن ذلك رواية "حمام الشفق" ل(جيلالي خلاص) سنة 1986م حيث يصور[>] صراعا تاريخيا دائما ومستمرّاً بين قوى ذات مصالح متضاربة، في الماضي كان بين قوى غازية خارجية قدمت من وراء البحار، طمعا في الاستيلاء على المدينة، لكن أبناءها دافعوا عنها بكل شجاعة واستماتة، لتحوّل النزاعات فيما بعد إلى تناحرات مصرائية وأحشائية، تغذّيها فتتان، واحدة تحاول الحفاظ على الأوضاع كما هي لأن الاضطراب يخدم مصالحها، أمّا الثانية فترفض الواقع المزري الذي تعيش فيه، تشعر بالظلم المسلّط عليها وترغب في التخلص منه^{<<2}، أمّا رواية "عواصف جزيرة الطيور" ل(جيلالي خلاص) - دائما- والصادرة سنة 1988م، فقد ركّزت^{>>} على سلسلة الأحداث السياسية التي تعمّق فكرة الاستقرار والاضطراب في رحلة بين حاضر القصّ وماضيه، ومحاولة للربط بين ما يحدث اليوم وما حدث أمس^{<<3} لاسيما وأنّ الاستقرار لم يبق له مكان ومعنى في جزائر سنة 1988م، بعد الأحداث والفوضى التي عمّت معظم المدن الجزائرية آنذاك وقد برزت روايتان سنة 1989م تحاولان التّطرق للوضع المتأزم بالجزائر وهما رواية "عزوز الكابران" ل(مرزاق بقطاش)

¹ مخلوف عامر: الرواية والتحوّلات في الجزائر، ص 84.

² ليندة حفصي، مستويات البناء النصي في "رائحة الكلب، حمام الشفق، عواصف جزيرة الطيور، وزهور الأزمنة المتوحشة" ل: جيلالي خلاص، ص 496.

³ المرجع نفسه، ص 499.

و "خط الاستواء" ل(الأزهر عطية)، حيث يرصد مرزاق بقطاش في نصّه ففتين، فئة ممثلة بالمسؤولين وأصحاب السلطة والنفوذ، وفئة أخرى يمثلها المثقفون، على أنه يصف الفئة الأولى بالاستبداد والاستغلال وتزييف الحقائق والممارسة السياسية المتعجرفة وإبعاد المثقفين، وكلّ من لهم رأي في سبيل الرقي بأهل البلد، والسير بهم نحو ما يصلح أحوالهم، وذلك من خلال منعهم من الاطلاع على الأمور السياسية، وحتى لا يتدخل أحد في شؤونهم ويزعزع مواقفهم¹، وهو بذلك يسعى إلى تمرير الصراعات القائمة بين رجال السلطة والمثقفين والمحسوبين على التيار الإسلامي.

في حين أن الأزهر عطية في روايته "خط الاستواء"² يعرض قصة الجزائر البيضاء في الماضي والحاضر، يحكي عن المعاناة اليومية لشخصها، ممثلة في الشاب علّال الذي يقف أمام الأحداث البائسة التي تمرّ بها مدينته والأجواء الكثيبة التي تغطّيها، يبحث عن الخلاص من كلّ ما يعيشه، وهو بين الفينة والأخرى يستذكر ماضي الجزائر المجيد، ويعرض بعض محطاتها البطولية، ويتنبأ في الأخير بسقوط الأمطار التي تزيل كلّ الأجواء الغامضة والمغشاة بدخان السجائر، وهو بذلك يرمز إلى قدوم مرحلة من السلام والهدوء تسبقها ثورة تُذهب كل ما يعيشه شعبها من بأس وشقاء، فالكل ينتظر مرحلة التغيير والتي لا بدّ على الجميع أن يناضلوا من أجلها. وبذلك فإن هاتين الروايتين كانتا من الروايات الأولى التي أبرزت حيثيات الصراع والاستقرار في جزائر كان ما هو قادم أكبر من عنف ودم وخراب مع بداية التسعينات.

وبعيدا عن النصوص الروائية ذات النظرة البسيطة، الراصدة لما في الواقع بصورة مباشرة وساذجة ظهر نصّ روائي مخالف ومضاد لما كان مألوفاً، حيث قدّم (احميدة عياشي)، روايته "ذاكرة الجنون والانتحار" سنة 1986م، والتي خرج بها عن رتابة الخطاب الروائي وموضوعاته المستهلكة، إذ يعدّ عملاً أدبياً > يصعب تصنيفه، فهو عمل يبلغ حدود السخرية، ويغامر في فضاءات التجربة والحلم -على حدّ تعبير الناشر- وقد أدرجت هذه الرواية ضمن خانة الرواية المحدّدة، لما تحمله من إحالات إلى القرآن

¹ مرزاق بقطاش، عزوز الكابان، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1989م.

² الأزهر عطية، خط الاستواء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

الكريم، وألف ليلة وليلة، وعوالم صمويل بيكيت¹، وهو بذلك قد ساهم في إخراج الرواية من تأثيرات الإيديولوجية الرسمية على الوجه الصحيح، لتصبح مرادفة للعمل الفني المستقل عن الخطاب الرسمي المدجّن. ولعلّ أحداث الرواية هي التي تبيّن الفرق بينها وبين غيرها من الأعمال في تلك الفترة من حيث طرح المشاكل الاجتماعية والنفسية التي يعاني منها الفرد الجزائري، إذ >> يظهر القمع في قفص الاتهام منذ مرحلة الدراسة الأولى مع المعلم "حرشاوي" مروراً بالواقع الذي يدفع إلى التشرّد وتعاطي المخدرات والانحراف نحو كلّ أنواع الآفات المعرفية وصولاً إلى الضابط الذي يختطف من "ديدوح" أعز من عنده وهو أنيسة الجميلة²، وبذلك يعدّ هذا النص فاتحة النصوص الروائية المتفتحة للذات وهواجسها وأحلامها.

❖ الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية

1- الاتجاه الملتزم بقضايا الثورة وحيثياتها:

شهدت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية تطوراً ملحوظاً بعد الاستقلال بعدما التزم الكتاب بالقضية الوطنية طيلة حرب التحرير، وهو >> التزام الأمة الجزائرية العميق³، ومع استقلال الجزائر وطنية فترة الستينات تقريباً، انطوت الروايات تحت غطاء >> الاتجاه الملتزم والمنحاز إلى الثورة، وقد اتخذت لها كإطار عام أحداث ووقائع الثورة المسلحة⁴، إذ >> عاد الروائيون بنظراتهم وتأمّلاتهم إلى سنوات الحرب الماضية، وانتقوا من أحداثها مواضيعٍ لكتبهم ورواياتهم، لأنّ البعض منهم كان يشعر بضرورة انتظار نهاية الحرب ليتمكّنوا من الكتابة، إذ أنّ انفعالهم العاطفي مع الأحداث كان يُعجزهم عن التأليف خلال سنوات الثورة⁵، ويصادفنا في ذلك عدد من الروايات من بينها: رواية "أطفال العالم الجديد"

Les Enfants du nouveau monde ل(آسيا جبار) 1962م، حيث تقع أحداث الرواية

¹احميّة عياشي، ديوان العرب موقع: http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=1868 تاريخ الزيارة: 22/06/2013.

² مخلوف عامر، الرواية والتحوّلات في الجزائر، ص 28.

³ عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصص الجزائري (1925-1967)، ص 72.

⁴ أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي-نشأته وتطوره وقضاياها، ص 111.

⁵ عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصص الجزائري (1925-1967)، ص 72.

>> في قلب المعركة، وتعطي القصة نماذج لمختلف النساء الجزائريات أمام أحداث البلاد¹، وقد اعتمدت في تصويرها لأجواء المعركة على ما كان يقوم به المجاهدون من عمليات المقاومة الفدائية في المدن²، حيث تدور أحداث الرواية خلال السنوات الأولى للثورة الجزائرية في مدينة لم تعطها الكاتبة اسماً، لكنها حدّتها في شكل يدفع إلى الافتراض أنّها "مدينة"، في هذه المدينة الصغيرة يعيش الناس الحرب يوماً بيوم، والخطر ماثل في كل لحظة، والجبال تقصف في كل حين، والبيوت تُحرق الرجال في الجبال حيث يقاومون وينظّمون صفوفهم لمحاربة المحتل، والنساء والشيوخ والأطفال يسعون في كل لحظة إلى الهرب تجنباً للموت في أيديهم الفلاحية المدمرة.

كما تصوّر رواية " الأفيون والعصا " L'Opium et le bâton لـ(مولود معمري) سنة 1965م >> ضرب القرى والمداشر والمدافع والطائرات وتهدم المنازل على رؤوس سكانها³ حيث استطاع من خلالها معمري أن يُترجم فترة تاريخية حاسمة في عمر الثورة التحريرية، وما اقتطفه الاستعمار من جرائم بشعة في حق الشعب الجزائري سواء في المدن أو القرى.

وقدّمت (آسيا جبار) روايتها الرابعة "العبرات الساذجة" Les Alouettes Naïves سنة 1967م، وهي بها أكثر تعمّقا في أجواء الحرب وسبر أغوارها، والبحث عن المشاعر النفسية المتولّدة عن الخوف والجزع الذين كانت تعاني منهما المرأة الجزائرية على الخصوص، ذلك أنّها في هذه الرواية تضع نفسها مكان النساء الجزائريات وتحدّث >> القراء عن كل ما يدور في هذا القسم من المجتمع الجزائري الذي عاش بعمق وتأثّر بأحداث الحرب، رغم عدم مشاركته مباشرة في الحرب، من خلال عدد من المجاهدات المشاركات في المعركة⁴، وبذلك انتقلت من الاهتمام بأحاسيس المرأة البرجوازية في أعمالها الأولى، إلى المرأة الجزائرية المجاهدة أو زوجة المجاهد، وآلامها النفسية، لتبسّط للقارئ بعد الاستقلال تلك الأجواء التي عاشتها المرأة في ظلّ الاحتلال الغاشم وتضاف إلى تلك الروايات

¹ سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص 214.

² ينظر: أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 111.

³ المرجع نفسه، ص 111.

⁴ عائدة أديب بامية، تطور الأدب القصص الجزائري (1925-1967)، ص 171.

رواية "أصابع النهار" ل(حسين بوزاهر) سنة 1967م، ورواية "أسلاك الحياة الشائكة" ل(صالح فلاح) سنة 1969م،[>] ويمكن وصف هذه الأعمال بأنها كانت تصوّر كلّها بطش الاستعمار وبشاعة أعماله من جهة وتشيد من جهة أخرى بكفاح الشعب، وتتغنى بمجاده ومآثره القديمة والحديثة، وتعمّق الإحساس بالوعي الوطني ووحدة الأمة^{<1} على أنّ هذه المواضيع استمرت في فترة السبعينات والثمانينات، وإن غدت تبدو تقليدية لتصورها أحداث الثورة التحريرية، حيث نجد رواية "المغارة المتفجرة" **La Grotte éclatée** ل(آمنة مشاركة)² والتي صدرت سنة 1979م تدور أحداثها بين نوفمبر 1954م و05 جويلية 1962م، إذ تحكي عن الثورة التحريرية وثقلها على الجزائريين ومعاناتهم النفسية، حيث قدّمت الروائية إدراكا جديدا للنظرة النسوية لحرب التحرير، وعبرت عن ذلك على لسان راوية في شخصية ممرضة تعيش عن قرب، المعاناة الخصوصية، الجروح الجسدية والنفسية الموت وتعفن الجسد لرفقائها في الجهاد الذين احتموا بمغادرة هذه الأخيرة التي ترمز إلى الانغلاق وكذا إلى التقارب الإنساني، لأنها تمثّل المسكن القديم للإنسانية

وتحت الموضوع نفسه تندرج روايات أخرى مثل رواية "التمزق" ل(محمد شايب) سنة 1980م وروايته: "الامتحان الأخير" الصادرة سنة 1983م كما قدّم عز الدين بونمور رواية "عصابة الأطلس" Les bandits de L'Atlas ورواية "أسود الليل" سنة 1985م ورواية "الأطلس يحترق" L'Atlas en feu سنة 1987م، وهي - على العموم - لم تخرج موضوع الثورة والالتزام بسرد أحداثها ووقائعها وانعكاسها على نفسية الشعب الجزائري آنذاك، وكيف ساهم كلّ منهم في إنجاحها.

2/ موضوع النقد والاحتجاج:

وموازاة مع مواضيع الموالاتة لما هو قائم في السلطة الجديدة بعد الاستقلال ومهادنتها، والرجوع إلى التاريخ القريب المتمثل في الثورة الجزائرية، ظهر ضمن أدب الجزائريين المكتوب باللغة الفرنسية توجّه جديد، غلبت عليه النزعة السياسية الانتقادية، وسمي بأدب النزعة الاحتجاجية، الاجتماعية والسياسية

¹ أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص111.

² آمنة مشاركة، المغارة المتفجرة، تر: عائدة أديب بامية، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1989م.

ونشر معظمه في فرنسا¹. ولعلّ >> الفشل المزعوم للثورة في السنوات التي تلت الاستقلال، أفسح المجال لأدب معادي لها، فقد انتقد بعض الكتاب عيوب الثورة مشيرين في كتاباتهم إلى الوعود التي لم تُحجز وإلى الأخطاء التي وقع فيها النظام الحاكم بعد الاستقلال مباشرة²، ومن هذه الروايات "رقصة الملك" **La dance du roi** لـ (محمد ديب) سنة 1968م، حيث عاد من خلالها إلى الحديث عن الوطن، وعن الإشكاليات القومية بعد استقلال الجزائر ومصائر أهلها، إذ >> يطرح الأديب على مستواها بحث المجتمع الجزائري عن هويته بالرغم من حصوله على الاستقلال، فالحصول على الاستقلال السياسي غير كاف لإثبات هويته، مادام لم يعترف بعد للذين قادوا المعركة ضد الاستعمار لم يحدّد مصيرهم، يمثلهم ديب مشردين يبحثون عن هوية³، هي رواية تبرز نظرة محمد ديب المتشائمة إلى الحياة في الجزائر المستقلة، إذ كان يرى أنّ العيش في جزائر تغيب فيها العدالة أمر مؤلم لا يطاق لا شيء أكثر إيلا ما من شعور المرء غريبا مهمّشا في وطنه وهو الذي حلم بالاستقلال وبنجاح ثورته وسعى بكل ما أوتي من سبل لتحرير بلده.

وقد بلغت النزعة الاحتجاجية ذروتها مع رواية "التطليق" **La Repudiation** لـ (رشيد بوجدره) التي صدرت سنة 1969م، حيث كانت مرآة لتلك التناقضات التي وسمت تلك الفترة الزمنية الصعبة وهي تعكس في الكثير من جوانبها آراء وأمزجة قسم معين من الميول الراديكالية في الأوساط الجزائرية وتحوي في الوقت ذاته علامات بادية للعيان عن الوعي المتمرد العاجز عن فهم القوانين التاريخية الحتمية للكثير من العمليات المواكبة لإقامة السيادة الوطنية⁴، وذلك رغم عفوية وفوضوية ذلك الوعي الذي يكمن ضعفه في تضخيمه للشر وقوته وفي عدم استسلامه له.

¹ ينظر: أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 121.

² عائدة أديب بامية، تطور الأدب القصص الجزائري (1925-1967)، ص 72.

³ يوسف الأطرش، المنظور الروائي عند محمد ديب، ص ص 94، 95.

⁴ سفيطلانا براجوغينا، رشيد بوجدره أو تطليق الماضي، عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، ص 128.

وفي رواية "إله في بلاد البربر" **Dieu en Barbarie** ل (محمد ديب) سنة 1970م تعرّض الكاتب >> مباشرة للواقع السياسي والاجتماعي والنفسي لوطنه بعد ثلاث سنوات من استقلاله¹ حيث بدأ يظهر نوع من التطور في الحياة الاقتصادية خاصة، إذ بدأت تُقام بعض المؤسسات الاقتصادية²، والدعوة إلى نهوض البلاد من التخلف الذي كانت غارقة فيه، كما تبرز في الرواية جملة من الأفكار لمختلف الشخصيات تعكس مواقف فئات معينة من الشعب الجزائري، وبعض الشخصيات الفرنسية.

أما (رشيد بوجدره) من خلال روايته "الرّعن" **L'Insolation** سنة 1972م فقد أراد >> أن يتخلّص من فخّ العادات البدائية والاتفاقات الاجتماعية، وهذه المحاولة تجعله يعيش في الماضي ويستحضر الطفولة مصدر كل كتابة تريد بلوغ أقصى ما لديها³، ونلتمس في الرواية ظهور >> معجزة الشفاء واسترجاع اللغة الأصلية كخلاص من زنزانة العبودية والأسر الاستعماري، ومثل إمكانية لخروج مكشوف وبلا خوف إلى العالم وكاستعادة لصلة الإنسان بالحياة، والتاريخ وكاسترداد للأنا المفقودة والهوية وتحقيق ذات الإنسان والشعب⁴ وبذلك فإنّ انتقاد رشيد بوجدره للواقع عبر جميع مستوياته كان من خلال الرقّص له والفضح لمظاهره على لسان شخصية مريض تهذي بآلام يعيشها هو ذاته كواحد من أفراد هذا المجتمع.

وتتواصل نزعة محمد ديب في التشاؤم من الواقع ونقده وفضح صراعاته القائمة، من خلال رواية جديدة "معلم الصيد" **Le maitre de chasse** سنة 1973م حيث يتحدّث فيها عن كل فئات الشعب التي تريد أن تبحث عن ذاتها الضائعة في خضمّ الفوضى القائمة، يستمرّ فيها الصراع بين حقيقتين، تتمثل الأولى في النظام البيروقراطي القائم في المدينة، وتتمثل الثانية في الواقع الريفي الذي يخدمه هذا النظام، على أن الفلاحين والريف والأرض هم الأصل⁵ فالرواية بذلك فضاء لنقل الصراعات

¹ Jacqueline Arnaud , La littérature maghrébine de langue française , p233.

² ينظر: يوسف الأطرش، المنظور الروائي عند محمد ديب، ص 99.

³ رامي فليبي ، رشيد بوجدره في "الرّعن" استحضار طفولة، زهرة ديك، رشيد بوجدره: هكذا تكلم... هكذا كتب، دار الهدى، الجزائر، 2013، ص 192.

⁴ سفيطلانا براجوغنيا، رشيد بوجدره أو تطليق الماضي، عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، ص 141.

⁵ ينظر: يوسف الأطرش، المنظور الروائي عند محمد ديب، ص ص 79، 108، 109.

الإيديولوجية بين فئات الشعب الجزائري المختلفة بعد الاستقلال، وتساؤلات حول مصير الجزائر في ظل تلك الأوضاع المشحونة.

وبذلك فقد اشتركت تلك الروايات[>] في النقد الشديد للّهجة للأوضاع السياسية والاجتماعية في الجزائر، حتى وإن ركزت على هذا الجانب أو ذاك، وإن اختلفت الطرق الفنيّة التي تعبّر بها^{1<} ولم تتوقّف هذه النزعة عند هذا الحدّ، وإنما شملت نقد الأوضاع السياسية والاجتماعية وما يعانيه المواطن من أزمات نفسية حادّة، حيث ظهرت في بداية الثمانينات مع الطاهر جاووت ورشيد ميموني، اللذين أضافا شحنة من السخرية للكتابة عن التاريخ المزيّف، من خلال شخصيات مختلفة، مثل مجاهدين قدامى ينتحرون سنوات بعد الاستقلال أو الذين لم يعودوا يتعرّفون على البلد الذي حرّروه، وهذه الروايات وفق الترتيب الزمني لظهورها هي:

رواية "منزوع الملكية" **L'exproprié** ل(الطاهر جاووت) سنة 1981، يعاني فيها البطل من أزمة هوية حادة نتيجة تجريده من وسيلة التعبير الأساسية التي هي اللغة، ويوظّف الكاتب الرمز في هذا العمل على نطاق واسع، ويعطي لنفسه حرية كبيرة في خلط الأساليب السردية، ليرسم لبطله وضعا مأساويا مؤثراً²، أمّا رواية "النهر المحوّل" **Le fleuve détourné** ل(رشيد ميموني) سنة 1982م، فتحكّي عن[>] تحوّل الثورة على يد العسكر عن مسارها النضالي ذي الطابع الشعبي وعن أهدافها الاجتماعية الطموحة^{3<}، وتحمل روايته التالية "طومبيزا" **Tombèza** الصادرة سنة 1984م[>] مرارة أكبر، وتنتقد الأوضاع الاجتماعية بحدّة أقوى، حيث يتعلّق الأمر بحرمان مزدوج بالنسبة للبطل الذي يعاني من الفقر والاعتلال الصحي من جهة، ومن النبذ الاجتماعي من جهة أخرى^{4<} وتعتبر رواية "اختراع الصحراء" **L'invention du désert** الصادرة سنة 1987 العمل الأكثر كمالاً للطاهر جاووت، وهي عبارة عن تساؤل كبيرة حول تاريخ الإسلام في القرون الوسطى

¹ أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص121.

² ينظر: المرجع نفسه، ص122.

³ المرجع نفسه، ص121.

⁴ المرجع نفسه، ص121.

كما استعمل الكاتب خياله مختاراً مواضيع الطفولة، الطيور، والبحر كرموز وحركية للحرية، في حين ترصد رواية "شرف القبيلة" **L'honneur de La Tribu** (رشيد ميموني) سنة 1989 م >> السلوكيات التي كان يقوم بها مسئولو وإطارات ومناضلو الحزب الواحد، التي كانت تتميز حسب ما تصوّرها الرواية، بالنفاق وتشجّع على انتشار الانتهازية والرشوة والجهوية، كل ذلك في شكل كاريكاتوري ساخر¹، وبذلك وجّهت الرواية نقداً مزدوجاً لما كان قبل الاستقلال ولما بعده على السواء، فقد عبّرت الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية صراحة عمّا آلت إليه الجزائر المستقلة وانتقت بشدّة الأوضاع المزرية والمسئولين عنها.

3- موضوع الاغتراب في اللغة والوطن:

بدأت تظهر في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات موضوعات تتعلّق بنوع الاغتراب الذي يعيشه الأديب في لغته ووطنه، وقد برز هذا الشعور- عند الأدباء المغتربين عن الجزائر، ومن ثمّ جسّدوا ذلك على مستوى كتاباتهم الروائية، كما هو الحال عند محمد ديب من خلال روايات عديدة، ولعلّ أولها في هذا الصدد رواية "هاويل" **Habel** الصادرة سنة 1977م، حيث انتقل من خلالها إلى البحث عن ذاته في غربة اعتبرها منف عالم رأسمالي لا يلتفت و >> لا يعطي أي اعتبار أو أية قيمة للإنسان، فهو يشيئه وبجوفه، ويحاول تفرّغه من كل روح الجمال² بتحويله لكل ما هو معنوي إلى مادّي لا حياة فيه. وبذلك تتضح في الرواية رؤية محمد ديب للمنفى الذي يهاجر إليه هروبا من أوضاع لم يتحمّلها دون وعي منه في الحل والخلاص، هل يكمن في البقاء في بلده الذي تغيّرت أهدافه، أو في الهجرة إلى بلد أجنبي يتصارع فيه مع ذاته ومع الآخرين، وبذلك يعرض الكثير من الحقائق حول علاقة الأنا بالآخر.

وتعدّ رواية "سطوح أورسول" **Les Terrasses D'Orsol** 1985 م أول أجزاء الثلاثية الثانية: ثلاثية الشمال **La trilogie Nordique** وقد كتبها في فترة إقامته بدول الشمال الأوروبي، وبالتحديد

¹ أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص122.

² محمد ديب، هاويل، تر: أمين الزاوي، المكتبة الوطنية الجزائرية، 2007م، مقدمة الرواية.

فنلندا، حيث بدأ مع >> هذه المرحلة في اكتشاف الآخر ومعرفة الذات <<¹، وهي >> تساؤلات عن أرض الآخر وعن العزلة <<²، وفراق الوطن الأم.

أما الجزء الثاني من الثلاثية "غفوة حواء" **La sommeil d'Eve** 1989 م، فيواصل من خلاله محمد ديب البحث عن الذات التائهة في البلد الأجنبي فنلندا >> بطاها مختلفان من حيث الثقافة، والبلد الذي ينتميان إليه <<³، وتعدّ الرواية مسرحا لتبادل المعاناة والآلام الداخلية، وتبرز من خلالها مصائر الغرباء في البلدان الأجنبية، يقون فيها غرباء، يحسون بالعزلة والغموض من حولهم، مهما حاولوا الاندماج في الحياة الأجنبية وإقامة علاقات مع أهلها.

ويتطرق محمد ديب من خلال روايته "ثلج من رخام" **Neiges de marles** سنة 1990م لمشاكل الزواج المختلط من حيث جنسية وثقافة ورؤية طرفيه للعالم حتى لو كان بينهما حب عميق⁴ إذ تتواصل رحلة محمد ديب غير المحدود في آلام الحب بين امرأة من الشمال تدعى روسيا Roussia ورجل من الجنوب، والذي قد يكون من الجزائر، بينهما فتاة صغيرة تدعى ليل⁵ Lyyl. فتبين الرواية آلام الابتعاد عن الوطن والأهل من غربة وحنين.

ومن الروائيين الذين اهتموا بموضوع الاغتراب وآلامه الروائية (ليلي صبار)، من خلال جملة من الأعمال التي قدّمتها بداية من سنة 1980م مع رواية **Pédophile et la maman**، ورواية "شهرزاد" **Shéhrazade** 1982 م، رواية "تكلّم يا ولدي" **parles fiston** 1984م، وكذا رواية "شيء يبحث عن شقيقة روحه" **J.H cherche âme sœur** 1987م، وقد أدرج (خميس خياطي) ضمن مجلة اليوم السابع الصادرة في أكتوبر 1987م مقالا يتحدّث فيه عن الروائية ليلي صبار، والتي يراها تبحث >> عن مخرج يمزج بين ثقافتين، وذلك حال جيل من الأطفال العرب، ولد بأكمله في فرنسا، ولكنه لا يعتبر نفسه فرنسيا، وُلد بعيدا عن وطنه الأصلي، ولكن لا يعرف عن هذا الوطن إلا

¹ Tahar Berki ,Une lecture de la trilogie nordique de Mohamed Dib, Horizons maghrébins le droit à La mémoire ; p30.

²Rabah souhekal , Le Roman algérien de Langue française , p99.

³Naget Khadda , Mohamed Dib cette intempestive voix recluse , p106.

⁴Rabah souhekal ; Le Roman algérien de langue française, p380

⁵ Ibid, p 380.

الخرافات. وفي رواياتها هناك دائماً الأطفال والنساء الذين يعيشون بين عالمين متناقضين، وهناك مسافات في حياة هؤلاء النساء سواء مسافات زمنية أم مكانية ¹<<، وبذلك طغى على روايات الكاتبة ثقل البحث عن هوية تُوازن بين أصولها الجزائرية، وأجواء ثقافتها الغربية والتي انعكست بصورة واضحة فيما قدّمته لاسيما على مستوى فنيّات الكتابة واللغة المستعملة.

وهناك موضوع آخر برز بالخصوص مع الروائية المغتربة (فريدة بلغول)، حيث قدّمت جملة من الروايات التي تكافح فيها العنصرية من جهة وتدافع عن المرأة في مختلف المجتمعات، لاسيما المجتمع الفرنسي، وذلك من خلال روايتها "جيورجيت" **Georgette** الصادرة سنة 1986م. ورواية "السيدة فرنسا" **Madame La France** ورواية "أفغانستان الحبيبة" **Afghanistan mon amour** التي تحكي فيها عن كفاح المرأة الأفغانية. ورواية "ذهاب أب" **Le départ du père**.

وبذلك فإنّ الروائيين الجزائريين الذين يعيشون في الغربة تتركّز مواضيعهم بالدرجة الأولى على البحث عن الهوية الضائعة بين وطن أصلي بعيد، وموطن غريب حاضر بثقافة مختلفة، على أنّ الأزمة تبلغ ذروتها عند الأدباء الذين غادروا الوطن منذ الصغر واتخذوا فرنسا -بالدرجة الأولى- موطناً جديداً لهم.

تعدّدت بذلك المواضيع المطروحة على مستوى الروايات الجزائرية الصادرة باللغتين العربية والفرنسية منذ بدايات الاستقلال وإلى غاية نهاية الثمانينات. حملت إيديولوجيات المرحلة، ونقلت الصراعات بين أبناء البلد الواحد. كما التزمت بعضها في جانب منها بسياسات البلد المنتهجة وظلّ موضوع الثورة حاضراً سواء من التمجيد والاستدكار للمناقب والبطولات، أو من خلال النقد والاحتجاج لما آلت إليه الوضعية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للجزائر المستقلة، والتي كانت -حسب زعم البعض- نتيجة فشل الثورة في تحقيق آمال الشعب من جهة، وفشل القيادات الجديدة في السّير بها نحو الطريق الصحيح من جهة أخرى.

¹ محمود قاسم، الأطفال العرب في أدب المهجر، فرنسا كنموذج، مجلة الطفولة والتنمية، العدد 11، مجلد 3، خريف 2003، موقع:

http://www.arabccd.org/page/282. تاريخ الزيارة: 2015/06/14.

3/ مضامين الرواية الجزائرية من سنة 1990م إلى 2010م

استمرّ "الشاذلي بن جديد" في رئاسة الجزائر إلى غاية 11 جانفي 1992م، حيث عرفت الفترة الممتدة بين أكتوبر 1988 و1992م أحداث سياسية جمّة، إذ بعد اندلاع الاحتجاجات الشبابية ضدّ الوضعية السائدة من سياسة التقشف وانتشار الاضطرابات الهائلة، قامت تغييرات على مستوى السياسة من الانتقال من سياسة الحزب الواحد إلى الديمقراطية والسماح بالتعددية الحزبية والتعددية الإعلامية والتي نجمت عنها اضطرابات أخرى أدت إلى نشوء حرب أهلية جزائرية سميت بال عشرية السوداء، والتي تمثّلت في الصراع المسلح بين النظام الجزائري وفصائل متعدّدة تتبّى أفكارا موالية¹. وقد عرفت الجزائر تغييرات على مستوى الرئاسة تنقلّ عبرها "محمد بوضياف" ثم "علي كافي" كرئيسين للجمهورية الجزائرية، إلى أن سلّمت الرئاسة ل"اليامين زروال" يوم 30 جانفي 1994م. حيث كانت الجزائر خلال هذه الفترة تعيش وضعا اقتصاديا خانقا للغاية²، انعكس على الوضعية الاجتماعية للشعب الجزائري من انتشار البطالة والانتحار، لاسيما مع التصعيد الأمني الخطير الذي شمل كافة ولايات القطر الجزائري³. وفي أبريل 1999م تولّى عبد العزيز بوتفليقة رئاسة الجمهورية، الذي اتّسمت فترة حكومته بجملة من الإصلاحات التي شملت جميع المجالات. كما تم عرض ميثاق جديد عُرف- بميثاق السلم والمصالحة الوطنية، والذي صادق عليه الشعب الجزائري بالأغلبية، ممّا ساهم في استقرار الوضع الأمني تدريجيا⁴. وبذلك شهدت الحياة في الجزائر بعد عشرية الدم والقتل والعنف انتعاشا على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

انعكس الواقع الجزائري بسلبياته وإيجابياته على مستوى المتن الجزائري باللغتين العربية والفرنسية وقد كانت الرواية التسعينية بالخصوص حاملة لجميع ما اعتمل في الجزائر من أوضاع ومشاكل

¹ ينظر: العشرية السوداء في الجزائر، موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة: https://ar.wikipedia.org/wiki/العشرية_السوداء_في_الجزائر تاريخ الزيارة: 2015/11/30

² يحي أبو زكريا، الجزائر من أحمد بن بلة وإلى عبد العزيز بوتفليقة، ناشري (النشر الإلكتروني)، 2003، ص 117.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص 117.

⁴ استفتاء المصالحة الوطنية الجزائرية عام 2005، موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة: https://ar.wikipedia.org/wiki/استفتاء_المصالحة_الوطنية_الجزائرية_عام_2005 تاريخ الزيارة: 2015/11/30.

وتصدّعات وصراعات، إذ سعى الروائيون إلى نقل القارئ إلى كل ما هو حيني وظرفي، بتحويل التجربة الواقعية المرّة إلى تجربة إبداعية فنيّة، فراحت الكتابة الروائية تواكب الأزمة وتتبع مسارها خطوة خطوة مساءلة المحنة، والأطراف المتسببة فيها¹. وإن كانت طريقة العرض تعتمد الخطاب المباشر، فباتت >>الكتابات أقرب إلى التقارير الصحفية منها إلى الأعمال الروائية الناضجة<<²، فظهر إثر ذلك ما يعرف بالأدب الاستعجالي، وإن كانت كلمة "الاستعجالي" صفة يراد منها الانتقاص من قيمة هذه الكتابات لأنها كثرت، أو لأن أصحابها يكتبون على عجل³، ومع ذلك فقد ساهمت هذه الرواية >>كثيراً في رصد عديد من الظواهر الاجتماعية التي أفرزتها الأزمة أثناء العشرية السوداء وحاولت تسجيل انطباعات كتّابها وحديثهم النفسي وآرائهم ومواقفهم تجاه ما يقع في الجزائر<<⁴، من منظورات عدّة إذ عالج بعض منهم خلفيات الأزمة، وتشكّل الصراع بين أطرافها، ومنهم من عرض مظاهرها من قتل وعنف وحرائق بالجملة، واهتمّ بعضهم الآخر بنتائجها على نفسية الشعب من جهة، وما انتهت إليه في آخر المطاف.

ولكن ومع بداية عشرية الأمن والاستقرار، عرفت الرواية مواضيع أخرى عادت فيها إلى دواخل الذات وكوامنها، ومنها ما اهتمّت بطرح الواقع الاجتماعي الجزائري الجديد وصراعه مع ذاته ومع المحيطين به في سبيل تحقيق قوته، أو إثبات فكرته أو الانتصار لحبّه وهواجسه. كما كانت هناك مواضيع تجاوزت الإطار المحليّ إلى موضوعات عربية وأخرى عالمية، كتب عنها الروائيون لقرّهم ممّا يجري في العالم من أحداث ووقائع.

¹ ينظر: غنية بوحرة، المثقف والصراع الإيديولوجي في رواية الأزمة الجزائرية: متاهات ليل الفنية ل: احيدة عياشي أنموذجا، مذكرة ماجستير، إشراف: محمد منصوري، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012-2011.

² مخلوف عامر، تطور النص السردي في الجزائر، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، العدد الرابع، ص 121.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص 121.

⁴ عبد اللطيف حتيّ، الرواية الجزائرية بين الأزمة وفاعلية الكتابة، موقع إلكتروني-http://dr-cheikha.blogspot.com/2012/05/normal-0-false-false-false_29.html تاريخ الزيارة:

2015/06/14

ونسعى من خلال هذا الطرح التعرف على أهم الروايات الصادرة في هذه المرحلة، وأهم المضامين التي احتوتها وعبرت عنها ، وإن كان الإلمام بها جميعا في هذا البحث من الأمر المتعذر لكثرتها من جهة ولطبيعة موضوع البحث من جهة أخرى، ولذا تم الاقتصار على الأشهر منها لتشابه بعض الروايات فيما بينها. على أنّ التصنيف في هذه المرحلة لم يفصل بين الروايات العربية والفرنسية المندرجة ضمن الموضوع الواحد، على أنّ البداية مع الرواية المكتوبة بالعربية وتليها المكتوبة بالفرنسية. مع مراعاة الترتيب الزمني وفقا لصدورها.

1- موضوع الصراع السياسي بين أطراف الأزمة في الرواية الجزائرية:

ظهرت روايات عديدة في هذه المرحلة تصف وتبحث عن جذور الصراع السياسي القائم بين أفراد المجتمع الواحد، وتنش عن الأسباب الرئيسية التي أدت إلى الانشقاق والانشطار وبروز الخلاف والعنف. ومن هذا الروايات: رواية "الشمعة والدهاليز" ل(لطاهر وطار) الصادرة سنة 1995م، حيث يحاول الكاتب الابتعاد عن الخطاب السياسي إلا أنه يظلّ مشدوداً إليه، إذ يسعى إلى تفسير ظاهرة الإرهاب، ولولا ذلك الاتصال الروحي بين الشخصيات لكانت الرواية أقرب إلى تقرير سياسي مباشر¹ ذلك أنّ وقوع أحداثها كان² قبل انتخابات 1992 التي خلّفت ظروفًا أخرى لا تعني الرواية في هدفها الذي هو التعرف على أسباب الأزمة وليس على وقائعها، وإن كانت وقد خلّفت بعضها³، وبذلك تعدّ من الروايات الأولى التي تركت الأزمة خلفها من حيث مظاهرها، واهتمت بأسبابها. ومن بين الروايات نجد رواية "سيدة المقام...مراثي الجمعة الحزينة" ل(واسيني الأعرج) سنة 1995م، والتي بثّت هي الأخرى الأبعاد الإيديولوجية والتاريخية والسياسية لظاهرة الإرهاب في الجزائر³، والمعاناة التي تعيشها مريم الفنانة، فيرصد الروائي مالا يصل إلى مسامع الناس، إلى الأحاديث وراء الأبواب المغلقة إلى ملامح الوجوه التي تبدّلت، إلى شروخ الأبنية العتيقة... إلى حراس النويا الذين تحوّلت المدينة على

¹ ينظر: مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر، ص 100.

² شادية بن يحيى، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع، (موقع إلكتروني سابق).

³ ينظر: مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر، ص 102.

يدهم إلى تجارة ومحظورات وجمعيات خيرية، تأكل جمال المدينة، وتآكلت معها قلوب الناس وأرواحهم¹ وكلّ ذلك يعود حسبه إلى النظام والتيار المظلم المعادي لكلّ مظاهر التقدم والتحضّر.

وتعدّ رواية "سادة المصير" ل(سفيان زدادقة) سنة 2000 م واحدة من الروايات التي بحثت في الأصول الأولى لظهور الأزمة الجزائرية في التسعينات²، ذلك أنّه ينقل الجانب السياسي لجزائر الثمانينات وامتداداته الحربية والانتخابات الرئاسية والتشريعية، وما صاحبها من تزوير، وبثّ لأجواء الصراع بين ممثلي الأحزاب، وصولاً إلى المسيرات والمظاهرات والاعتقالات وإطلاق النار، وكيف وردت أفكار التمرد والصعود إلى الجبال والقيام بعمليات الاختطاف والنهب والقتل. كما عرّج على الحياة الداخلية لأصحاب الحزب الإسلامي وما كان يعتري أجواءه من اختلاف في التفكير والمذاهب، فهي رواية تصوّر الجزائر بأحداثها السياسية وصراعاتها الدامية.

كما تعود رواية "صمت الفراغ" ل(إبراهيم سعدي) الصادرة سنة 2006م، إلى فتح ملف العشرية السوداء³ والكشف عن جذور الصراع بين الإسلاميين والشيوعيين قبل أن يصل إلى حمل السلاح وإن بقي الروائي فيها سجين النظرة الفوقية في تشريح الأزمة الجزائرية من خلال حصر الأحداث بين الصحفيين والمتقنين³ وهو في ذلك يسير وفقاً للاتجاه نفسه لرواياته "فتاوى زمن الموت" 1999م و"بوح الرجل القادم من الظلام" 2002م، و"بحثاً عن آمال الغبريني" 2004م.

وفي سنة 2007م يتطرق (محمد ساري) من خلال روايته "الغيث" إلى ظاهرة الإيديولوجية الإسلامية التي برزت في الثمانينات، وما صاحبها من انهيار في المفاهيم والإيديولوجيات الوطنية والاشتراكية التي سادت في العشريتين الأولى بعد الاستقلال، وكيف اندماج بطل الرواية في الجماعات الإسلامية⁴ فهي من وجهة ما تحاول إعطاء أبعاد سياسية لظاهرة حمل السلاح في الجزائر.

¹ ينظر: شادية بن يحيى، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع، (موقع إلكتروني سابق)

² سفيان زدادقة، سادة المصير، الدار العربية للعلوم - منشورات الاختلاف، لبنان - الجزائر، ط2، 2006.

³ زهية منصر، في رواية "صمت الفراغ" إبراهيم سعدي يكرّر الاشتغال على تجربة العشرية السوداء، موقع <http://www.echoroukonline.com/ara/index.php?news=10111> تاريخ الزيارة: 2015/06/22.

⁴ رواية الغيث: قراءة في التحولات التي شهدتها المجتمع الجزائري والنتائج السلبية للخطاب الديني المتطرف ، موقع: <http://www.alapn.com/ar/news.php?cat=3&id=9098> تاريخ الزيارة: 2015/06/16.

ولم تكن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية بعيدة عن هذا الوصف لمظاهر الصراع الإيديولوجي بين المتسببين في نشوء الأزمة السياسية بالجزائر، وخير دليل على ذلك، الروايات الأولى لياسمينه خضرا(محمد مولسهول)، والتي اهتمت بظاهرة الإرهاب في الجزائر، لاسيما روايته "خرفان المولى" **Les Agneaux du seigneur** الصادرة سنة 1998 م، والتي بينت >> كيف استطاعت الحركة الجهادية الإسلامية في الجزائر السيطرة على الوضع في مرحلة معينة باستغلالها للمقهورين والمهمشين والمتعسفين من المجتمع، وأظهرت أيضا أن الصراع عقائدي وثقافي أكثر مما هو حرب معلنة ضدّ المواطن والدولة كما ضدّ المدينة والمجتمع¹ << أما روايته الثانية: فجاءت بعنوان "بم تحلم الذئاب" **À quoi rêvent Les Loups** سنة 1999م، وتعدّ نصاً مخصّصاً أساساً لدراسة وتحليل ظاهرة الإرهاب الديني المسلح في الجزائر²، ومحاولة تغيير خصوصية الصراع القائم وتجلياته في المجتمع الذي أصبح أكثر تفكّكا وتشردماً.

2- موضوع العنف وأجواء الخوف في الرواية الجزائرية:

توجّهت بعض روايات المرحلة إلى وصف مظاهر العنف والدمار الشامل الذي لحق بالهياكل العمومية والخاصة، ومسّ حتى الأفراد في أجواء من الخوف والعذاب النفسي والقتل والعنف. ومن النصوص الروائية المعبرة عن ذلك رواية "ذاكرة الماء: محنة الجنون العاري" ل (واسيني الأعرج) الصادرة سنة 1997م، والتي أجهد الكاتب فيها نفسه للإجابة عن بعض المستحيلات دون أن تخسر الكتابة شرفها >> كتب داخل اليأس والظلمة بالجزائر ومدن أخرى على مدار سنتين من الخوف والفجيعة: بدءاً من شتاء 1993م، أي منذ ذلك اليوم الممطر جداً العالق في الحلق كغصّة الموت والذي لم تستطع الذاكرة نسيانه ولا محوه بين دهاليزها ورمادها، وأنهى بالجزائر بين سنة 1995م ذات

¹ أحمد قريش، الإرهاب في الرواية الجزائرية: رواية "خرفان المولى" لياسمينه خضرا أمودجاً، عود الند، المجلة الثقافية الشهرية، العدد 74 موقع: <http://www.oudnad.net/spip.php?article1425> تاريخ الزيارة: 2015/05/10

² ياسمينه خضرا، بم تحلم الذئاب، تر: أمين الزاوي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، مقدمة ص 09.

يوم شتوي عاصف على واجهة بحر خال¹ تحمل بين طياتها كل الآلام والمآسي التي عاشها الشعب طيلة هذه الفترة.

وفي سنة 1998م قدّم محمد مفلح روايته "الانزلاق" وقد تميّزت بالمعطى الفجائعي، إذ تصوّر مكامن الخوف والرعب الذين عاشهما الجزائريون² وجمع متفشي بين خلايا المجتمع، بعضها قاتل وبعضها مقتول، أفراد مطاردون وآخرون مؤجّلة مطاردتهم إلى حين، فئات غادرت الوطن وأخرى عانقت نصفه المدحرجة رأسه في مكان ما... وسط شعاب وفيافي هذا الوطن²، ولعلّ العنوان خير دليل على المنزلق والمنحدر الذي هوى بفئات مختلفة من الشعب الجزائري إلى مصادر مجهولة.

وتنقل رواية "الجنّازة" ل(رشيد بوجدرّة) الصادرة سنة 2001م جوانب من الحياة العامة في الجزائر آنذاك، وهي تمتلئ ببعض الأحداث المؤسفة والمؤلمة من قتل واختطاف، إذ يحاول بوجدرّة أن يؤرّخ لمسيرة العنف التي عصفت بالبلاد، وهو في هذا السياق أشدّ بأساً وأقوى حزناً³، فهي تنقل كل معاني الخراب والفساد والدم والقتل المعاش آنذاك.

أمّا رواية "دم الغزال" لمرزاق بقطاش 2002م، فإنّها تطرح مسألة العنف وتشير إشارة واضحة وصريحة إلى تسلّط السّلطة وممارستها القهرية، وظلمها وتعسفها باستخدامها شتى الوسائل التي تملكها وقد أعلن صراحة عن بغضه للسّلطة والسياسة، حيث يفرغ من خلال روايته جميع مكبوتاته، لاسيما وأنه تناول تيمم الموت⁴ في الفصلين الثاني والثالث، حيث يتحدّث عن محاولة اغتيال الرئيس محمد بوضياف ومن ثم محاولة اغتياله هو شخصياً ضمن هذه الرواية فكانت بذلك الروايات الجزائرية في جزء منها تنقل تيمة الموت، وتصف مظاهر العنف والخراب.

¹ واسيني الأعرج، ذاكرة الماء: مخنة الجنون العاري، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، ط4، 2008

² محمد بشير بويجّة، ملامسة أوجاع الإخفاق في عشية الانزلاق، نبش في جذور رواية الانزلاق لمحمد مفلح، الحوار، الاثنين 03 جوان 2013، الموافق ل24 رجب 1434هـ، ص09.

³ ينظر: عبد الحفيظ النمري، رشيد بوجدرّة... يضيء عممة الحياة في الجنّازة، زهرة ديك، رشيد بوجدرّة هكذا تكلم... هكذا كتب، ص142.

⁴ ينظر: غنية بوحرة، المثقف والصراع الإيديولوجي في رواية الأزمة الجزائرية، ص62.

3- موضوع المثقف وصراعه مع السلطة في الرواية الجزائرية:

حاولت روايات المرحلة الممتدة بين 1990م و 2010م تصوير معاناة المثقف الجزائري ومحنه كرواية "المراسيم والجنائز" لبشير مفتي سنة 1998م، حيث يعاني المثقف على مستوى الرواية جزاء أعمال العنف والخراب السائدة¹ والتي أدت به إلى الكتابة التي باتت هاجسا يؤرقه. كما تطرح رواية "تماسخت... دم النسيان" ل (الحبيب السايح) سنة 2002م، جانبا من قضية المثقف الجزائري وعلاقته² بالحنّة الوطنية من جهة، وبينه وبين السلطة الحاكمة آنذاك من جهة ثانية، ولطبيعة قوى الإرهاب وتعامله مع الطرفين من جهة أخرى كما تعرض إلى الفاتورة البشرية المحزنة التي دفعته شرائح مختلفة من المواطنين على العموم، وفئة المثقفين والفنانين بالخصوص³ كما طرح (احميدة عياشي) سنة 2003م نصا روائيا جديداً "متاهات... ليل الفتنة" تمكّن فيه من تجسيد الصراع الإيديولوجي القائم بين أطراف وجماعات مختلفة ورصد تحبّط المثقف ومعاناته ووقوعه بين مطرقة السلطة وسندان الإرهاب وسقوط الآخر في شرك الإيديولوجية الإسلامية⁴. وفي السنة نفسها قدّم (محمد ساري) روايته "الورم"، والتي سجّلت هي الأخرى⁵ أحداث الموت الذي حصد أرواح الكثيرين دون تمييز بين المذنب والبريء بخاصة المثقف الذي وقع ضحية إيديولوجيتين ووجد نفسه أسيراً بين نارين، نار السلطة وجحيم الإرهاب⁶، فهي رواية تصوّر مظاهر الخراب والدمار وانعكاسه على نفسية المثقف التّواق إلى معرفة الحقيقة والوقوف على الواقع.

وتسرد (ياسمينه صالح) في رواية "وطن من زجاج" سنة 2006م، قصة صحفي تُلخّص مأساة الإنسان الجزائري في ظروف مقدّرة عليه حيناً ومن صنعه حيناً آخر، في زمن مُنع فيه الصحفي أن يُعلن

¹ ينظر: مخلوف عامر: الرواية والتحوّلات في الجزائر، ص 89.

² الجيلالي شرادة، قراءة جديدة في رواية "تماسخت.. دم النسيان" للروائي الحبيب السايح، موقع:

www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=47000 تاريخ الزيارة: 14 /06/ 2015.

³ غنية بوحرة، المثقف والصراع الإيديولوجي في رواية الأزمة الجزائرية: "متاهات" ل: احميدة عياشي أمودجا، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، مركز جيل البحث العلمي، العدد 03، 2014، ص 175.

⁴ غنية بوحرة، المثقف والصراع الإيديولوجي في رواية الأزمة الجزائرية: متاهات ليل الفنية ل: احميدة عياشي أمودجا، مذكرة ماجستير، ص 63.

عن نفسه أمام الناس، وتُرثُص الحراس الجدد للدين والأخلاق، مع نقلها لجو الأوضاع المأساوية وأحداث الانفجارات وسط الشوارع¹. وتحدّث أيضا إبراهيم سعدي في روايته "صمت الفراغ"² الصادرة سنة 2006 عن أوضاع الصحفيين بعد مجيء أصحاب الدعوة الجديدة، كما تحكي عن حياة مطارّد محكوم عليه بالموت، يدعى عبد الحميد بوط.

وبهذا نجد أنّ معظم الروايات التي صوّرت معاناة المثقف، كان الصراع فيها بين السلطة أو الطرف الثاني ممّن ساهم في تشكيل الأزمة السياسية بالجزائر، على أنّ المثقف ممنوع من الظهور والإعلان عن نفسه، خشية القصاص من أحد الطرفين المعاديين. كما أنّ المثقف - غالبا - هو كاتب أديب أو صحفي يعلن عن مواقفه وأفكاره من خلال الصحف والمجالات.

4- روايات تبرز الواقع المأساوي من خلال شخصية معيّنة:

سعت بعض الروايات لبثّ مواقف أطراف وشخصيات معيّنة تجاه الأزمة ومدى المساهمة في كشف المستور أو غير الظاهر من أساليب خفيّة تميّز أحد الطرفين، لاسيما الطرف الإسلاموي الذي كان في الواقع يجبّي خلفه العديد من الأسرار والأفعال والتي إن ظهرت قد تحلّ بصورته المشرقة التي يندعج بها بعض الفئات من المجتمع، ومن بين تلك الروايات نجد رواية "خطوات في الاتجاه الآخر"³ للخفناوي زاغر سنة 2004م، حيث قدم للقارئ شخصية دبلوماسية تلاحقها الجماعة الإرهابية، وتترصد كلّ تحركاتها ليكون مرشحها في الانتخابات، مع أنّه يقود سلسلة رحلات وأسفار متعدّدة بين دول عربية كثيرة للمشاركة في مؤتمرات مكافحة الإرهاب.

وفي الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، نجد رواية "قسمة الميت" **La part du mort** ل(ياسمينه خضرا) سنة 2004م، تتناول شخصية محافظ شرطة منع العدالة من العفو عن مجرم سيكوباتي، ولم يكن يدّر أنّه أخذ في دوامة رهيبية، ذلك أنّ تسريح القاتل ليس إلا المرحلة الأولى

¹ ينظر: ياسمينه صالح، وطن من زجاج، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، الجزائر- لبنان، ط1، 2006م.

² ينظر: سامية داودي، صوت المرأة في رواية إبراهيم سعدي، رسالة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة مولود معمري، تيبزي وزو، ص259.

³ الخفناوي زاغر، خطوات في الاتجاه الآخر، دار الحكمة، الجزائر، 2009.

في مكيدة مرعبة دبّها بعض سادة الحكم الجزائري للتخلّص من واحد منهم¹. أمّا رواية "الصلاة الأخيرة" La dernière prière (حميد قرين) سنة 2006م، فتحكي عن قصة ليبرالي يتنازعه الإيمان والشبق، حوّاس عاشق الصلاة، النّبي الذي ينهل من مناهل أخرى غير مباحة وغير مشروعة، فليس عنده من لذة غير مسموع بها، وممزق ومتشعب ومركب يقاوم على طريقته كل الأصوليات في جزائر تنغرز في العتمة والليل، في سعيه وراء الحقيقة حاول أن يرفع زاوية النقاب الأسود². أمّا أمين الزاوي فإن روايته "غرفة العذراء المدنّسة" La chambre de La vierge impure سنة 2009م، تكشف عن الوجه المخفي والمناقض لما هو معروف عن التنظيم الإرهابي الذي يقنن شبابا مراهقا إلى مركزه، حيث يكشف هذا الشاب ما يعيشه هؤلاء في الظلام، من شذوذ جنسي من مثلية وسحاق، وتناول للمخدرات وزراعتها داخل المركز³، وبذلك فإنّ هذه الروايات أخذت على عاتقها نقل الحقائق والوقائع التي تُخفى على الكثيرين، من التناقض الذي يعيشه هؤلاء في أوساطهم.

5- موضوع الهروب أثناء العشرية السوداء في الرواية الجزائرية:

حاكت الروايات الجزائرية الواقع الأليم للعشرية السوداء، ونقلت نفسية الشعب -بكلّ فئاته- المتدهورة والمنهارة، ولكن قلقة وقنوطه من الوضع السائد أدّى به إلى الهروب إلى مكان آخر، بعيدا عن جوّ العنف والقتل. فكانت وجهة الكثيرين منه نحو خارج الوطن. وقد عبّرت رواية واسيني الأعرج "شرفات بحر الشمال" سنة 2001م عن ذلك، حيث تعرّض معاناة الجزائريين في "أمستردام" التي تعتبر المثلوى الأخير لمئات منهم ومن العرب الآخرين المشردين في بلدانهم والذين ماتوا في أرض بعيدة وصمت وغربة. كما تعبّر عن ذلك رواية "ليل الغريب" ل(مراد بوكرزازة) سنة 2010م، إذ ترصد قضية المنفى الاختياري والهروب من تهديدات الجماعات الإرهابية للصحفيين والمثقفين والفنانين⁴. كما لم

¹ ياسمينه خضراء، قسمة الميت، تر: عبد القادر بوزيدة، دار سيديا، الجزائر، ديسمبر 2013م.

² حميد قرين، الصلاة الأخيرة، تر: ميرنا صعب، مراجعة وتدقيق: غازي بّو، دار سيديا، الجزائر، جويلية 2012م.

³ أمين الزاوي، غرفة العذراء المدنّسة، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، الجزائر- لبنان، ط1، 1430هـ- 2009م.

⁴ مراد بوكرزازة، ليل الغريب، جمعية البيت للثقافة والفنون، الجزائر، 2010م.

تبتعد الروائية (نعيمة معمري) من خلال روايتها "أعشاب القلب ليست سوداء"¹ سنة 2010م عن قضية الهروب من الوطن والذي أضحى يمثل مقبرة، وموتا وخرابا، وكانت الوجهة هي "لندن"، ولم يعد المهاجر إلى الوطن إلا بعد عودة الوثائم والأمن إليه، وفي الرواية صورة للآخر البريطاني (لندن). ومن الروايات من اختارت شخصياتها التوجّه نحو الجنوب الجزائري هروبا من جوّ التهديد والقتل ومن بينها رواية "تيممون" ل(رشيد بوجدرّة) سنة 1993م، حيث اختار الروائي ولاية تيممون فضاء مكانيا للهروب من حقيقة الواقع الدموي، إذ بقيت أخبار الموت والقتل تلاحقه من مكان لآخر². والأمر نفسه بالنسبة ل(إبراهيم سعدي) الذي نقل شخصية المهدي المغراني - في روايته "بحثا عن آمال العبريني" الصادرة سنة 2004- من الشمال إلى الجنوب هروبا بعد تلقّيه تهديداً بالقتل من قبل أناس مجهولين³، يقضي حياة لا معني لها في الفندق، تسمح له بالاستمرار في العيش، أي أنه يجد رأسه كل يوم في مكانه على رقبتة ليس أكثر.

6- موضوع ما بعد العشرية السوداء في الرواية الجزائرية:

بعد استتاب الأمن الذي عرفه الشعب الجزائري بزوال العنف والقتل، ظهرت روايات جديدة تحكي عن مخلفات العشرية السوداء على نفسية الجزائريين حيث نجد رواية (الحبيب السايح) "مذنبون... لون دمهم في كفي" سنة 2008، تحكي عن ما أفرزته العشرية المؤلمة، لاسيما ما عرف بقانون العفو الشامل، وموقف الذين قُتل ونُكّلَ بأهاليهم، حيث يسعى (رشيد) إلى الانتقام بنفسه من المدعو (حول ولد فلّة) ليلة عودته من الجبل، إذ قتله ونكّل بجثته، وكأن هذه الرواية تطالب بتحكيم التاريخ قبل العفو عن الإرهابيين الذين أذنبوا⁴. كما أنّ رواية (سميرة قبلي) "بعد أن صمت الرصاص" سنة 2008، هي

¹ نعيمة معمري، أعشاب القلب ليست سوداء، فيسيرا للنشر، الجزائر، 2010م.

² رشيد بوجدرّة، تيممون، منشورات ANEP، الجزائر، ط2، 2002.

³ ينظر: سامية داودي، صوت المرأة في روايات إبراهيم سعدي، ص258.

⁴ ينظر: محمد فايد، الرواية والذاكرة الوطنية: حوار الأدب والتاريخ: قراءة في نماذج روائية جزائرية، موقع:

http://saadboulaoued.blogspot.com/2012/12/blog-post_3974.html تاريخ الزيارة 2015/07/02.

الأخرى تتناول مرحلة الإرهاب وقضية المصالحة الوطنية¹، حيث جاءت في قالب تراجمي بين أحداث الماضي والحاضر، تبحث عن موقف المثقف من المصالحة.

في حين ينقلنا (عبد الله خمّار) في رواية "كنز الأحلام"² سنة 2009م، إلى حكاية أحد رجال المال والأعمال والصراع الأبدي بين النزاهة والفساد، إذ يكشف بطريق الصدفة كنزاً من الأموال والمجوهرات والتحف خبأته الجماعات الإسلامية المسلّحة (JIA) بعد أن نخبته من المواطنين والتجار والصائغين والبنوك ومراكز البريد والمتاحف، وكان على وشك الإفلاس بعد أن اختلس مُحاسب المؤسسة كل رصيدها ومعظمه من أموال المواطنين المكتتبين في السكن الذي تبنيه المؤسسة والتي دفعت تسبقاً للحصول عليه فماذا يفعل إزاء ذلك؟ هل يستعمل هذا المال الذي وجده ليستردّ سمعته ومكانته، أم يعتبره مالا مسروقاً لا يجوز استعماله، ولو في سبيل الخير.

قدّمت النماذج الروائية الثلاث مدى اهتمام الكتاب بكلّ المستجدّات في الجزائر، والسعي إلى خلق حبكة روائية لبثّ هذه القضايا وإبداء المواقف منها.

7- موضوع الثورة المجيدة في الرواية الجزائرية:

من الروايات الجزائرية - في الفترة الممتدة من 1990م إلى 2010م - ما بقيت متمسّكة بموضوع الثورة التحريرية الكبرى، تمجّدها وتفاخر ببطولات فدائيتها وتحكي عن تاريخ الجزائر بالانتصارات، وفي هذه الروايات تبرز صورة المستعمر الفرنسي جليّة، كما هو الحال في رواية "عقاب السنين"³ ل(عبد الجليل مرتاض) والتي صدرت سنة 1990م كما تعدّ رواية "أحلام الغد"⁴ ل(العربي حاج صحراوي) سنة 1991م من بين الروايات التي تحكي عن التاريخ البطولي، إذ تدور أحداثها بين الثورة المسلحة وما بعدها. وتعدّ معرضاً للعديد من القضايا زمن الاستعمار كالإخلاق والتفاني

¹ سميرة قبلي، بعد أن صمت الرصاص، دار القصة للنشر، الجزائر، 2008.

² عبد الله خمّار، كنز الأحلام، دار القصة للنشر، الجزائر، مارس 2009.

³ عبد الجليل مرتاض، عقاب السنين، رابطة الأدب، الحديث، القاهرة، ط1، 1990.

⁴ العربي حاج صحراوي، أحلام الغد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991.

والاستشهاد والجهاد، كما نعرض خطط الخونة ومسألة الحركى في ذلك الزمن وتستمرّ الأحداث إلى ما بعد الاستقلال لتعرض بعض الملامح عن أحوال التعليم والأجواء في المدينة والريف.

وفي رواية "لونجة والغول"¹ ل(زهور ونيسي) سنة 1993م، حكاية عن تاريخ الثورة المشرق إذ تتحدّث الروائية عن عظمة ثورة الجزائر وتعتبرها أكبر الثورات في العصر الحديث، مع ما يكيّد به لها الأعداء من محاولة التزييف والتقليل من قيمتها بضرّها بأبنائها المنزلقين- للأسف- بوعي ودون وعي منهم في متاهات لا يدركون حقيقتها.

في حين يلتفت (محمد المعراجي) من خلال روايته "شوك الأسي"² سنة 2004م -في رواية من النوع الطويل- إلى المنسيين في التاريخ، وهم الذين قاموا بتنفيذ العمليات وإبصال الأخبار وتخزين الأسلحة والذخيرة في المدن.

ويسلط (أحمد حمدي) الضوء في روايته "حومة الطالبان"³ سنة 2010م على فيزيولوجيا المجتمع الجزائري، إبان حرب التحرير، تنطلق أحداثها من بحث في كواليس الحركة الوطنية وثورة التحرير والعلاقات المتشابكة بين الأقدام السوداء والجزائريين ابتداء من الروائي الشهير ألبير كامو إلى الجنرال السفاح أوساريس قاتل العربي بن مهيدي.

وعن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية نجد رواية (ميساء باي) "أسمعون صوت الأحرار" **Entendez- vous dans les montagnes** سنة 2002م، التي تتناول مسألة التعذيب الذي تعرّض له المجاهدون الجزائريون استناداً إلى قصة واقعية، هي قصة والدها الذي اختطفه الجنود الفرنسيون فاختمى ولم يعد إلى أسرته. كما تقصّ رواية "فضل الليل على النهار"⁴ **Ce que le jour doit à la**

¹ زهور ونيسي، لونجة والغول، مطبعة دحلب، الجزائر، 1993، مقدمة، ص ص 6، 7.

² محمد المعراجي، شوك الأسي، منشورات ANEP، ط1، 2004.

³ ينظر: أحمد حمدي يكتب عن فيزيولوجيا المجتمع الجزائري في "حومة الطالبان"، موقع:

<http://www.al-fadjr.com/ar/index.php?news=173404?print> تاريخ الزيارة: 2015/06/14

⁴ ياسمين خضرا، فضل الليل على النهار، تر: محمد ساري، سيديا، الجزائر، ديسمبر 2013م.

nuit سنة 2008م جزءا من تاريخ الجزائر المستعمرة، حيث تتشابك قصص الحب والصدافة والحقد والضغائن.

فكانت الرواية الجزائرية في جانب منها تسرد تاريخا مشرفا للثورة الجزائرية تشيد به بين الأمم الأخرى، وحتى لأبناء الجيل الجديد من الشعب الجزائري، وإن كانت هناك روايات تتعرض بالنقد ليس للثورة بحد ذاتها وإنما للذين جعلوا أنفسهم ورثتها في الوطن بعد الاستقلال.

8- موضوع النقد والاحتجاج في الرواية الجزائرية:

لم تتوقف روايات النقد والاحتجاج على مختلف الأوضاع والظروف عند المرحلة الثانية (من سنة 1963م إلى سنة 1989م)، وإنما استمرت وامتدت جذورها إلى المرحلة التي تلتها، وإن تميزت فيها بالنقد الشامل لجميع مظاهر الحياة بما فيها السياسية والاجتماعية والثقافية، بل وحتى التاريخية، إذ لم تسلم مرحلة الاستقلال وواقع الجزائر الجديد من النقد.

ظهرت روايات جديدة تُدين وتنتقد الصراعات القائمة حول السلطة، مباشرة بعد الاستقلال وترى أنّ كل الشعارات تحوّلت عن هدفها المنشود زمن ثورة التحرير، إذ باع الإخوة حلفاءهم، وتشبّثوا بالكراسي والمال والنفوذ ولعلّ أهم الروايات التي طرحت هذه الصراعات وقدمت النقد لها روايات (أحلام مستغانمي) والمتمثلة في ثلاثيتها المشهورة: "ذاكرة الجسد" 1993م "فوضى الحواس" 1997م و"عابر سرير" 2003م، حيث ترى الكاتبة أنّ¹ الاستقلال لم يحقق العدالة ولا الحرية ولا الديمقراطية، ولا الرفاه الاقتصادي، وغيرها من أحلام وأماني الشعب (...). ويعكس هذا الطرح شجاعة من مستغانمي تفتقدها دراسات التاريخ وغيرها، حين كرّست إنجازات بسيطة للإشادة بتلك المرحلة ورجاها حين تحولوا إلى رموز¹، فهي لم تتوان في نقد المرحلة الجديدة وأصحابها. وتبرز على مستواها صورة المرأة الفرنسية.

كما تعدّ رواية "بحر الصمت" ل(ياسمينه صالح) 2002م، واحدة من الروايات التي تناولت الصراع الدائر بين جيل الثورة وجيل الاستقلال، صراع على المبادئ، وصراع تاريخي تجسّده شخصية

¹ حواد الديوان، ثلاثية مستغانمي شجاعة تفتقدها دراسات التاريخ، زهرة ديك، أحلام مستغانمي: هكذا تكلمت... هكذا كتبت، ص147.

"السي سعيد" كواحد من الإقطاعيين الانتهازيين، إذ رحل الشهداء واستشهدوا إبان اشتعال أوزار الحرب، في حين أنه أصبح اليوم يتقلد المناصب وينهب من خيرات البلاد على نخب ذاكرتهم المجروحة . وقد عمّت هذه الظاهرة في الجزائر المستقلة، فترصد لها الأدباء وعبروا عنها بكل حرّية، كما نجدها في رواية "بوح الرجل القادم من الظلام" ل(إبراهيم سعدي) سنة 2002 م، إذ قدّم خطاباً تاريخياً له خصوصية الانتماء إلى الجزائر والشهادة على الأحداث التي عرفها البلد من الثورة إلى الخذلان من التحلّي عن المبادئ واحتضان الفساد إلى البحث عن الديمقراطية وفشل الخيار وانقلابه إلى نفي للإنسان وسفك لدمائه¹، وقد أرجع (عز الدين جلاوجي) - أيضاً - ما حصل في الجزائر من انزلاقات يعود إلى مخلفات الثورة المسلحة، حيث تمتدّ روايته "راس المحنة" 2003م زمنياً منذ الثورة، وتطرح أسئلة عن السلطة ومأزق الإسلام السياسي والإرهاب والذي تعود أسبابه إلى عدم انتهاج الطريق الصحيح في مرحلة ما بعد الاستقلال²، ولا يختلف (عبد الملك مرتاض) مع هؤلاء ضمن روايته "وادي الظلام" الصادرة سنة 2005، حيث يقدم نقداً للمرحلة التالية للثورة التحريرية³، إذ يسترجع الذكريات من زمن الثورة ويسير بها إلى ما بعد الاستقلال، من خيار اشتراكي وتعددية واضطرابات سياسية، أدت إلى تأزم الوضع في التسعينات، معتبراً ذلك امتداداً وتواصلاً للماضي المشحون بمختلف الصراعات والاختلافات الكثيرة والسقيمة التي لم تحقّق غير الانقسام والشتات.

كما يقدم (أمين الزاوي) ضمن روايته "شارع إبليس" 2009م، نقداً شديداً بالتآمر والخيانة بين الإخوة في الكفاح زمن الثورة وبعدها.

وغير بعيد عن ذلك نجد روايتين ل(رشيد بوجدره) كلتاهما باللغة الفرنسية ينقد من خلالهما التاريخ الرسمي الذي وصلنا أو الذي أعلنت عنه المصادر الحكومية، لاسيما ما تعلق بالمجاهدين والفدائيين

¹ ينظر: يوسف ناوري، البناء الروائي في رواية "بوح الرجل القادم من الظلام"، ضمن: جمال أبو طيب، الرواية الجزائرية= الذات والتاريخ والحلم، موقع: <http://maakom.com/site/article/176>

² أحسن ثليلاني، عز الدين جلاوجي في رواية (راس المحنة) أو الجزائر في خرائب الفتنة، موقع: www.aswat.com، تاريخ الزيارة: 16 جوان 2015.

³ عبد الملك مرتاض، وادي الظلام، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م.

زمن الثورة التحريرية، إذ نجد في رواية "فندق سان جورج" Hôtel Saint-Georges 2007 م يدمر أسطورة الأسلاف، ويفضح أكاذيب التاريخ المتوارثة، ساعيا إلى كشف تهاافت الرواية الرسمية على معركة التحرير، والتي لا تنقل شيئا من الحقائق التي عاصرها من تصفية للحسابات الداخلية بين زعماء الثورة وجنودها¹. والأمر نفسه بالنسبة لروايته "الصبان" Les Figuiers de barbarie سنة 2010، والتي يقول عنها أنها > واقعية وشخصها موجودة فعلا، فهي جواب على البلبلة التي تمكنت منّا كجزائريين بالنسبة للتاريخ وقراءة التاريخ (...). فأردت أن أطرح هذه القضية، قضية الريبة والشك التي بدأت تنخر النخاع الشوكي للناس والوطن²، ففي الرواية إحياء للعديد من القضايا التاريخية التي كانت من المسكوت عنها، فهي تتطرق إلى جرائم الاستعمار منذ بدايته الأولى في 1830 (على طريقة بوجدره) تتخللها مراسلات لقادة الاحتلال يفخرون فيها بعدد من قتلوهم من الأهالي (...). لكن فضائح حرب الإخوة الأعداء حاضرة فيها أيضا كلّ الحضور: إعدام أحد أبرز قادة الثورة رمضان عبان، على يد رفاق السلاح، الاغتيالات التي طالت مئات الطلبة ممن نجحت الاستخبارات الاستعمارية في تصويرهم لبعض كبار ضباط جبهة التحرير كجواسيس مندسّين³. وبذلك يعدّ رشيد بوجدره من خلال رواياته صاحب الاتجاه النقدي والاحتجاجي على كلّ ما أمّلته السلطة الحاكمة من حقائق تاريخية رسمية، لكونه يرى عكسها، وأنّ هذا من قبيل ستر العيوب وإخفائها.

ومن الروايات الجزائرية ما اختصّت بموضوع النقد السياسي، أي نقد الأنظمة السياسية في البلاد ومسيّريها من حكّام بيدهم الحق في اتخاذ القرارات وتوجيه مصير الشعب، ومن بينها رواية "حارسة الظلال... دون كيشوت في الجزائر" الصادرة سنة 1996 ل(واسيني الأعرج)، والتي > تعدّ رواية سياسية اجتماعية تنقد الوضع الجزائري من الداخل، وتعري الأمراض الحكومية بالدرجة الأولى،

¹ ينظر: ياسين تملالي، رشيد بوجدره... يفكك التاريخ الرسمي لثورة التحرير(الصبان) أدمت نفسها وهي تدمي يد الاستعمار، زهرة ديك، رشيد بوجدره: هكذا تكلم... هكذا كتب، دار الهدى، الجزائر، 2015م، ص134.

² سليم بوفنداسة، حوار مع رشيد بوجدره، زهرة ديك، رشيد بوجدره: هكذا تكلم... هكذا كتب، ص17 وما بعدها.

³ ينظر: ياسين تملالي، رشيد بوجدره... يفكك التاريخ الرسمي لثورة التحرير(الصبان) أدمت نفسها وهي تدمي يد الاستعمار، زهرة ديك، رشيد بوجدره: هكذا تكلم... هكذا كتب، ص135.

ومن ثمّ العاهات الثقافية المتسيّسة¹، أما رواية "زعيم الأقلية الساحقة" ل(عبد العزيز غرمول) الصّادرة سنة 2005م، فاهتمت بالغوص في نفسية أولئك الذين سيطروا على المال والعباد، هؤلاء الذين يسيّرون الشعب من وراء جدران، ويخيطون كل شيء في الخفاء، ويبيدهم الحل والربط²، فتعريّ الرواية الواقع السياسي المؤلم وتشرحه بدقّة متناهية، وبأسلوب بسيط وماكر، تحدّد موطن الداء الخبيث الذي يقبع في جسد المجتمع.

في حين يرثي (حميد عبد القادر) من خلال روايته "توابل المدينة" حال البرجوازية الجزائرية التي عرفت مصيراً مخيفاً بعد استقلال البلد، فقد اتهمت بالخيانة من قبل نظام الحزب الواحد الذي احتكر الوطنية واعتنق الإيديولوجية الاشتراكية، ودافع عن الانتماء العروبي³، رغم أنّها شاركت في حرب التحرير وقدمت لنفسها نقداً ذاتياً مكنها من التّخلي عن أوهام الاندماج في المنظومة الاستعمارية التي راودتها خلال مطلع القرن العشرين.

كما أنّ (الطاهر وطار) وهو على فراش الموت قدّم نقداً لاذعاً للمثقفين المتسيّسين، أي أولئك الذين يلهثون وراء المناصب السياسية ووراء السلطات إلى درجة التّدلل، وقد ركّز على بعض الشعراء الذين أصبحوا مدرءاً للثقافة حيث لم يعد يهتمهم الإبداع بقدر سعيهم خلف المناصب، وذلك من خلال روايته "قصيد في التّدلل" والتي كانت خاتمة مشواره الإبداعي، سنة 2010م.

ومع ذلك فإنّ الروايات التي انتقدت الوضع الاجتماعي كانت أكثر، إذ سردت أدق التفاصيل عنه، وحاولت إبراز الأسباب التي أدت إلى تصدّعه وتحليل العطب فيه، ولعلّ أهمّ النصوص في ذلك روايات (أمين الزاوي) خاصة، حيث تقدّم قراءات لما يعتمل في هذا المجتمع من تناقضات لا سيما من خلال روايته "الرّعشة" التي قدمها سنة 1999م⁴، حيث تعدّ نصّاً في فقه الخطيئة مؤسس داخل

¹ واسيني الأعرج، حارسة الظلال... دون كيشوت في الجزائر، الأعمال الكاملة: المجلد الرابع، منشورات السهل، الجزائر العاصمة، 2009

² عبد العزيز غرمول، زعيم الأقلية الساحقة، دار القصبية للنشر، الجزائر، 2005م.

³ ينظر: الخير شوار، الروائي حميد عبد القادر: تحيّر لقيم البرجوازية التي أظهرها أدب السبعينات كأنها الشر المطلق، موقع:

chouar.blogspot.com/2014/1/blog-post.html تاريخ الزيارة: 2015/06/19.

⁴ أمين الزاوي، الرّعشة، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005م.

تقاليد الثقافة الشفوية العربية والبربرية، يشتبك فيها العجائبي بالتاريخي لوضع الأصبع على الجرح الذي يثقل كاهل المجتمع.

وقد لامست رواية "لاروكاد" ل(عيسى شريط) سنة 2004، أكثر الواقع الجزائري في العمق بعيداً عن الأطروحات الاستمولوجية المسبقة، والخلفيات الإيديولوجية الموجهة¹، إذ حاول الروائي تسليط الضوء على أحد أخطر الآفات الاجتماعية والمتمثلة في تراجع القيم الجمالية والمبادئ الأخلاقية، أمام غطرسة الأنا وسلطة المادة.

كما عرضت رواية "الإعصار الهادئ" ل(بوفاتح سبتاق) 2007م، ضمن ملحمة أدبية إنسانية، كلّ هموم الإنسان وكشفت زيف الكثير من الحقائق المتداولة يمكن إدراجها ضمن الأسلوب الواقعي²، إذ تعكس يوميات شاب بطّال اسمه "صالح"، فهي تهتمّ بظاهرة البطالة بين خريجي الجامعة ووضعية الشباب في المدن الداخلية، والجنوب على العموم، واستغلال المناصب والنفوذ، والإرهاب وأسبابه ونتائجه، وكذا الخيانة الزوجية وغيرها من القضايا.

وتهدف (جميلة طلباوي) من خلال رواية "أوجاع الذاكرة" الصادرة سنة 2008م، إلى >> الغوص في فسيفساء العلاقات الاجتماعية والبنى النفسية في البيئات الجزائرية المحافظة، والتي تمارس الحياة بقوة دفع تاريخها وموارثها ومعتقداتها الغيبية والدينية والشعبية التي تراكمت منذ آمام ضاربة في القدم³ وشرحت (زهرة ديك) في روايتها "قليل من العيب يكفي" الصادرة سنة 2009م الحياة في الجزائر حيث لم تترك لا كبيرة ولا صغيرة فيها، إلاّ وتطرقت لها بدءاً من عشرية الدمار التي فعلت فعلتها في عقلية الجزائري، مروراً بمشكلات الحياة اليومية والعلاقات الإنسانية فيما بين الجزائريين، وأكثر من ذلك

¹ عيسى شريط، لاروكاد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2004.

² ينظر: عبد القادر بن عوالي، رواية الإعصار الهادئ للكاتب بوفاتح سبتاق... موسم جديد للهجرة إلى الجنوب، موقع: <http://montada.echouroukonline.com/showthread.php?t=67671> تاريخ الزيارة: 2015/06/19

³ قراءة في رواية أوجاع الذاكرة للكاتبة جميلة طلباوي موقع: www.alnoor.se/article.asp?id=66614 تاريخ الزيارة: 2015/06/19

امتدّت الرواية حتى إلى المسلسلات التركية التي بات الجزائري على غرار باقي الشعوب العربية يستمدّ شيئاً من الحلم والرومانسية منها بعدما تعدّر عليه تحقيق ذلك في الحياة الفعلية.

أمّا (بشير مفتي) فنجدّه من خلال روايته "خرائط لشهوة الليل" 2008م يتناول جزائر المفارقات، جزائر الهواجس والذكريات الأليمة، وما أصبح يعيشه الفرد من البحث عن الاستقرار والثبات، في جوّ من تدايعيات الانتقام والرذيلة والتّيّه¹، ويتعرّض أكثر إلى العلاقات الاجتماعية ضمن روايته "دمية النار" سنة 2010م، فيفسّرهما ويشرّحها في أدقّ مراحلها وتفصيلها، بنقله لأشدّ الحالات الإنسانية بؤسا من مرحلة العشرية السوداء²، والتي لم يتمكّن الأدباء-مهما حاولوا-الابتعاد عن نتائجها على المجتمع بكلّ فئاته دون استثناء.

ومن الروايات المكتوبة باللغة الفرنسية والتي اهتمّت بنقد الواقع الاجتماعي بكلّ تفاصيله وصراعاته، رواية "وردة الهاوية" Rose D'Abime ل(عيسى خلادي) سنة 1998م، وهي تحكي قصة الفتاة وردة، الرياضية في العدو الريفي والتي تبحث عن الهروب من مصير وضعيتها كأمراة في مجتمع محافظ وذلك من خلال ممارسة الرياضة، فالرواية تصور المجتمع الجزائري بكلّ تناقضاته المتشابكة، أراد الكاتب أن يتمرد ويقاوم ضدّ القدر المأساوي الذي يريد محاصرة الجزائر وإغراقها في دوامة العنف الذي يتحول فيه الاستقلال من أمل مضيء إلى واقع دموي يرغم الجزائريين على الهجرة بلا رجوع³. والهجرة غير الشرعية أو الحرقة هي موضوع رواية "حرّاقة" Hrraga ل(بوعلام صنصال) سنة 2005، وهي رواية واقعية من بدايتها إلى نهايتها، الأشخاص والأسماء والتواريخ والأماكن ولذلك فهي لا تعرّي إلاّ بؤس عالم فقد إيمانه وغابت فيه القيم ولم يبق إلاّ التبجح بمجونه وبكفره. وفي الرواية عرض موجز لصورة اليهودي.

¹ بشير مفتي، خرائط لشهوة الليل، الدار العربية للعلوم ناشرون- منشورات الاختلاف، لبنان- الجزائر، ط1، 2010م.

² بشير مفتي، دمية النار، الدار العربية للعلوم ناشرون- منشورات الاختلاف، لبنان- الجزائر، ط1، 2010م.

³ عيسى خلادي، وردة الهاوية، تر: محمد يحياتين، منشورات مرسى، الجزائر، 2002.

⁴ بوعلام صنصال، حرّاقة، تر: عياش سلمان، الفارابي-سيديا، بيروت- الجزائر، ط1، 2007، ص7.

ومن الروائيين من اهتمّ بنقد الواقع الذهني والعقائدي للمجتمع الجزائري ومن هؤلاء الروائي (حفناوي زاغر) من خلال روايته "الزائر" الصادرة سنة 1992م، حيث تعرّض لقصة امرأة تمثّل الكبرياء والأنفة، رغم معاناتها من جميع المحيطين بها، وهي تسعى للهروب بعيداً رفقة ابنيها للتخلص من جميع هذه المظاهر، مستجيرة بالله حيناً وبالأجداد الصالحين حيناً آخر¹، وهي بذلك تبرز الخلفية العقائدية للجزائريين في استنجادهم بالصالحين والأولياء ذوي الكرامات. وفي روايتي (عبد الوهاب بن منصور) "قضاة الشرف" و"فصوص التيه" كشف عن جيل مرتزقة الزوايا بحثاً عن مكانة روحية تأهلهم للعيش في لذة السّلطة الدينية ومن ورائها السّلطة الدنيوية، فهو يبرز عالم التصوّف وفعل الكرامات، كما يجمع في الرواية الثانية- بالخصوص- حكايات التصوّف ومغامرات المتصوّفين²، أمّا رواية "حروف الضباب" ل(الخير شوار) الصادرة سنة 2008م، فيها هالة خرافية أسطورية تحكم النص من بدايته إلى نهايته، تبين أن قرية "عين المعقال" معادل رمزي لمجتمع يزرّح تحت وطأة عادات وتقاليد بالية، ولم يخرج من حرف الضباب الذي يحجب الرؤية الصحيحة³، إذ تُحيل الرواية بذلك على زمن مضى مازالت ذهنياته الرجعية حاضرة إلى اليوم في بعض المناطق.

9- موضوع التاريخ في الرواية الجزائرية (الرواية التاريخية) :

اتخذت بعض الروايات الجزائرية من الإطار التاريخي لبعض الحكايات القديمة موضوعاً لها من حيث اعتماد حبكة روائية لقصة تاريخية ما، بشخصيات وأطر مكانية وزمانية قد تكون حقيقية أو متخيّلة، ولعلّ أكثر الروائيين الجزائريين اهتماماً بهذا النوع من الروايات: (واسني الأعرج)، حيث نُلفيه في عدد مهمّ منها، يسرد قصص تاريخية جزائرية وعربية وإسلامية ويعزّزها بما تحتاجه الكتابة الروائية، ومن بينها رواية "فاجعة الليلة السابعة بعد الألف" بجزأيتها: "رمل المائة" 1990م، و"المخطوطة الشرقية" سنة 1993م، حيث أحضر المدينة الروائية (نوميديا- أمدوكال) من الرواية السابقة (رمل المائة)

¹ حفناوي زاغر، الزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992

² ينظر: خليل حشلاف، الشخصية المفهومية في الرواية الجزائرية الجديدة موقع:

<http://aswat-elchamel.com/ar/?p:98&c=4&a=13545>

³ ينظر: مخلوف عامر، "جدير أن يقرأ... حروف الضباب ل: الخيرشوار، موقع

تاريخ الزيارة 2015/06/19 <https://facebook.com/notes/5612413779535>

وقد أتت عليها في الألف الثالثة من الزمن الميت، لبدأ زمن بلا عيون ولا ذاكرة يرمح بنا إلى المستقبل خمسين سنة، كما يرمح خلفاً إلى أزمنة الأندلس وعاصفة الصحراء¹، أمّا السرد في رواية "رمل المائة" فيتطّلع إلى >>القيام بمهمة إعادة سرد حادث التاريخ من جديد، بسبب ما تعرّض له التاريخ من تزييف على أيدي الحكام والسلاطين الذين سخّروا أقلام المؤرخين لكتابة التاريخ بالطريقة التي تناسب ومصالحهم، ويهاجم السرد الوراقين وهم مؤرخو الحكام والملوك ويظهر كذبهم وتزييفهم للحقيقية طمعا بالمال، وخوفا من الموت والتعذيب ويستبدل القوالين بهم²<<، ومن روايات واسني الأعرج التي تسرد جزءا من وقائع تاريخية جزائرية، رواية "الأمير- مسالك أبواب الحديد" 2006، حيث لا يروي من خلالها التاريخ، وإنما ما سكت عنه التاريخ، وهو درس في حوار الحضارات ومحاورة كبيرة بين المسيحية والإسلام، بين الأمير من جهة ومونسينور ديوش ونابليون الثالث من جهة ثانية التي تقضي إعادة تشكيل وعي كلّ الذين انقسموا في حروب القرن التاسع عشر³، وتعدّ بذلك أول رواية ضربت قصب السبق في الكشف عن مناطق الظل والنسيان في تاريخ الأمير عبد القادر ودوره الفعال في الحوار الحضاري والتقريب بين الأديان.

في حين تروي روايته "البيت الأندلسي" 2010م، قصة بيت أندلسي عاش فيه العشاق والقتلة والملائكة والشياطين، النبلاء والسفلة، الشهداء والخونة، تريد السلطات تهديمه لاستغلال مساحته الأرضية لبناء برج عظيم، برج الأندلس فالكاتب يروي قصة هذا البيت التي تعود للقرن السادس عشر وكيف تحول في فترة الاحتلال الفرنسي إلى أول دار بلدية في الجزائر المستعمرة، وبعد الاستقلال يتحول إلى كاباره ثم إلى ماخور مقنّع⁴، ومركز لعقد صفقات تهريب المخدرات والأسلحة وغيرها.

¹ ينظر: نبيل سليمان، أسرار التخيل الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص32.

² محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة..دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002، ص124.

³ واسني الأعرج، كتاب الأمير- مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر، الجزائر العاصمة، ط1، 2004.

⁴ واسني الأعرج، البيت الأندلسي، منشورات الجمل، بيروت- لبنان، ط1، 2010م.

وفي سنة 2010م أيضا-أصدر (محمد مفلح) روايته "شعلة المائدة" التي تؤرخ لمرحلة تاريخية وطنية امتزجت فيها المعرفة بالجهاد لتحرير الأرض الجزائرية من الاحتلال الإسباني، ويستلهم منها الكاتب مادته التاريخية بما يسمح بنمو السرد وتطوره عبر أشكال وبناءات تصويرية شديدة الخصوصية¹. وبخصوص الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، والتي تستند على الوقائع التاريخية، نجد رواية "بعيدا عن المدينة" "Loi de Médine" ل(آسيا جبار) الصادرة سنة 1991م، التي حاولت أن تقدم من خلالها قراءة للأوضاع السياسية التي تمرّ بها الجزائر، مستعينة في ذلك بالتاريخ الإسلامي منطلقا من حدث وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وما تبع ذلك من فتن أدّت إلى استباحة دماء المسلمين²، ويعتبرها محمد ساري³ أروع رواية حفرت في كتب التاريخ العربي الإسلامي ليعيد الحياة لنماذج نسائية لعبن دورا مرموقا سواء مع الدعوة المحمدية أم ضدها.

وقد برزت الكتابة عن التاريخ الإسلامي أيضا في رواية "نهاية عالم" la Fin d'un monde ل(أنيسة بومدين) 1991م، التي تنطلق من قصة حقيقية، قصة انفعال خارقة للعادة، والتي تتحمّل أعباء الزمان بشبه الجزيرة بطلاها شاعران مشهوران⁴، لكن عبّر هذه الرواية معرض لكلّ تاريخ القرن السابع العربي الإسلامي الثري بأحداثه التي سيقّت إلينا بكل نزاهة، إذ اتصلت مباشرة بالمنابع القديمة المكتوبة باللغة العربية، فدخلت بذلك في سياق بحث جدّ عميق، جامعة بهذه الطريقة حجما كثيفا من المعلومات التي مرّ بها العديد من الكتاب العرب مرّ الكرام

وتعدّ رواية "ابن الشعب العتيق" Le Fils du peuple encien ل(أنور بن مالك) الصادرة سنة 2000م رواية^{>>} يجتمع فيها الحب بالمغامرات الخاطفة للأنفاس، فتقود القارئ إلى مشارف إنسانية

¹ ينظر: بن سعدة هشام، بنية الخطاب السردية في رواية "شعلة المائدة" لمحمد مفلح، مذكرة ماجستير، جامعة تلمسان، 2013م-2015م، ص100.

² ينظر: شهرة بلغول، مستويات الخرق في رواية بعيدا عن المدينة للروائية آسيا جبار، موقع: <http://aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=32896> الزيارة: 2015/06/19

³ ينظر: أمين الزاوي، ثلاثون كاتباً و مترجماً وناقداً يتحدثون عن التحرية الإبداعية لآسيا جبار، موقع: www.nizwa.com تاريخ الزيارة: 2015/06/04.

⁴ أنيسة بومدين، نهاية عالم، تر: بشير عليّة، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

ضاربة في القدم (...). تحكي عن مغامرات وقعت في العام 1870م بين قادر وزوجته ليسلي الباريسية الألزاسية المنبت، تحكي الثورات التي شنتها القبائل الصحراوية ضد المستعمرين الفرنسيين، وترحيل المواطنين إلى كاليدونيا الجديدة، ومغامرات أخرى رافقتها¹ في أستراليا وغيرها من البلدان.

يجتهد الروائيون - إذن - في هذا الصنف من الروايات في صياغة وبلورة كتابات تعتمد قصصا تاريخية أو شذرات منها، لتوصل أهدافا وتُبَلِّغ مقاصدا مأمولة في تنوير الذهنيات لاكتشاف الدروس والعبر. وتوجد روايات أخرى تستوحي حكايات من الخيال عن الزمن الغابر، أي أنّ الإطار الروائي خيالي، ولكنها تدور في أزمنة ولّت من إنشاء الأدباء وخيالاتهم الخاصة.

10- مواضيع مستوحاة من الخيال عن الزمن الغابر:

اتّخذت الرواية الجزائرية بطريقة رمزية بعض المواضيع والقصص المستوحاة من الخيال، يعود فيها الزمن إلى الماضي البعيد، وتؤلّف على مستواها حكاية لها أحداث وشخصيات تديرها، ولعلّ أهمّ تلك الروايات رواية "المملكة الرابعة" ل(الأزهر عطية) سنة 1990م، البطل فيها رحالة يعيش السفر منذ الصّغر حتّى أصبح ضليعا في أدب الرحلة، وفي إحدى الأيام رأى حلما يتعلّق برؤية مدن وقرى أجناس من عوالم عجائبية فقرّر أن يرحل إليها ممتطيا حماره الأشهب وبدأ رحلته التي أوصلته إلى عاصمة المملكة، واسمها الخامسة، وتقدم الرواية شخصيات المملكة الرابعة ضلالا دلالية يمكن أن نجد لكل واحدة منها معادلا موضوعا في واقعنا العربي الراهن الذي يسوده الظلم وتفشّي الاستحواذ على كرسي الحكم وغياب العدالة²، وبهذا يعدّ نصّا خالداً ومفتوحاً أمام القراء والنقاد .

كما تقدم رواية " أرخبيل الباشاوات " ل(عبد العزيز غرمول) قصة عجيبة جرت في نهاية القرن الخامس عشر في شمال إفريقية لتأريخ ميلاد أول جمهورية في التاريخ من رحم أكذوبة، على مدى خمسمائة سنة، ظلت ذاكرة إفريقية الشمالية بصيغة الجمع تحتفظ بها في مكان بارز فيها، قصة تحكي عن ولادة طفل من بطن بغلة وأنّ ابن البغلة أصبح شخصية مهمة وكان له في تأسيس أول دولة في ذلك

¹ أنور بن مالك، ابن الشعب العتيق، تر: رلى ذبيان، الفارابي - سيديا، الجزائر، ط1، 2007 .

² ينظر: عبد الحق منصور بوناب، دلالة الشخصيات في رواية المملكة الرابعة للأزهر عطية، موقع:

الشمال الإفريقي الموزع دمه بين القبائل والحروب والخرافات التي لا تصدق. وتعدّ رواية "عندما يختفي القمر" ل(الحفناوي زاغر) سنة 2009م، وهي تحكي عن قصة وقعت في إحدى زوايا الكون الرحيب بين أقوام كثيرة تنحدر من قبائل عربية، وهي حكاية أقرب إلى الأسطورة منها إلى التاريخ¹. ورواية "جلدة الظل" ل(عبد الرزاق بوكبة) الصادرة سنة 2009م، تتحدث هي الأخرى عن قصة قرية أولاد جحيش التي تعود وقائعها إلى منتصف القرن التاسع عشر، وهي قصة متخيّلة، الغرض منها الإشارة إلى بعض الوقائع التي تقع اليوم في المجتمع الجزائري أو المجتمعات العربية على العموم.

وفي رواية "سيدّ الخراب" ل(كمال قرور) الصادرة سنة 2010م، والرواية بعنوانها الكامل: "سيد الخراب، ما جاء في جمهورية الخراب للعلامة بن خشد، ولم تذكره كتب التاريخ والسير والجرائد الصفراء"²، وهي رواية تدخل في خانة الأعمال الجادّة التي يتخندق فيها كاتبها مع مجتمعه كما أنّها تكتشف عن وعي حضاري وتاريخي.

11- موضوع السيرة الذاتية في الرواية الجزائرية أو الرواية السّير ذاتية:

وهي روايات نلتبس فيها جوانب من السيرة الذاتية للروائيين تندمج فيها قضايا ووقائع معاشة من طرف المجتمع ككل من جهة، ومنها ما يتعلّق بهواجس ويوميات الكتاب الخاصة من جهة أخرى. ومن أهم الروايات في ذلك رواية "يوميّات مدرّسة حرّة" ل(زهور وتّيسي)³، وهو كتاب معلّمة في إحدى المدارس الحرة التي قاومتها الإدارة الاستعمارية على الدوام، وبذلك فإنّ شهادتها صادرة عن معلّمة متفانية مقابل أجر زهيد، في تعليم تلاميذها اللغة الوطنية، والإيمان بالدين الحنيف وحبّ الوطن.

ورواية (عبد الملك مرتاض) "الحفر في تجاعيد الذاكرة"⁴ سنة 2003م هي لوحة من سيرة الذات زمن الصبا تسرد سيرة ذاتية أبدع فيها الكاتب، وتعدّ نموذجا لرجل مكافح صبر على المحن

¹ الحفناوي زاغر، عندما يختفي القمر، منشورات الحكمة، الجزائر، 2009م.

² كمال قرور، سيد الخراب، فيسيرا للنشر، الجزائر، 2010م.

³ زهور وتّيسي، يوميّات مدرّسة حرّة، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 09.

⁴ عبد الملك مرتاض، الحفر في تجاعيد الذاكرة، دار الغرب للنشر، وهران، 2004.

واستطاع بإرادته الفذة أن يتجاوز العقبات التي صادفته، ليصنع بعد ذلك حضوراً متميزاً وسط كل تلك المعاناة.

ويقول (عز الدين ميهوبي) أنّ روايته "التوايت- ما حدث للصحفي" سنة 2003م، تجمع بين السيرة الذاتية والتعبير بالشعر والرواية والأسطورة، > وهي عبارة عن شهادة ضد النسيان، أردت أن ترفع لأرواح الشهداء من الكتاب والمبدعين الذين اغتيلوا في سنوات الجمر والفجيرة¹. وتعدّ رواية "رحلة طائر المواسم" ل(العبد بن عروس)² سنة 2008م - هي الأخرى- سيرة ذاتية فيها نوع من المسح ابتداءً من ظهور أول مبشّر بثورة نوفمبر في قريته، وعرف أنه رجل غريب جاء إلى الدوار. كما تشمل رواية "يوم رائع للموت" ل(سمير قسيمي)³ سنة 2009م جانباً من سيرته الذاتية يروي سيرة صحفي يخطّط للانتحار بطريقة الرمي بنفسه من فوق مبنى، وترجع هذه الرواية إلى ماضي البطل وإلى تجارب المتعة الجسدية ومشاكل الحب.

وفي الروايات الجزائرية المكتوبة بالفرنسية نلتمس عدداً من الروايات التي تعتمد السيرة الذاتية إطاراً عاماً للحكي والنسج الروائي، ومنها رواية "باب القنطرة" Bab el kantara⁴ سنة 2006م ل(نجية عبير) والتي تحكي عن سيرتها الذاتية المتعلقة بالحياة اليومية والثقافية ونظيراتها من الطالبات في مدرسة المعلّمات باب القنطرة الشهيرة في قسنطينة في الأيام الأولى للاستقلال، وهي المرة الأولى التي تفتح فيها إحدى أوائل خريجات المدرسة في الجزائر المستقلة. أمّا رواية (مليكة مقدّم) "رجالي" Mes hommes⁵ 2005م، فتحكي عن أجزاء من شخصية الكاتبة وسيرتها الذاتية، تمرّد وكره للتقاليد والعادات التي تعتبرها بالية لا مجال لها من المصادقية في حياتها الخاصة، ورجال مليكة مقدّم في الرواية هم الأب والإخوة، الذكور وكل من التقت بهم في مسيرة حياتها في الجزائر وفرنسا، فهي رواية اللقاء بالآخر.

¹ عز الدين ميهوبي، المثقف هو من يقدم قيمة مضافة للمجتمع، الموقع الرسمي: azzedinemihoubi.com/cobtent/ تاريخ الزيارة: 2013/09/04

² العبد بن عروس، رحلة طائر المواسم، دار الهدى، الجزائر، 2008.

³ سمير قسيمي، يوم رائع للموت، الدار العربية للعلوم- منشورات الاختلاف، لبنان-الجزائر، ط1، 1430هـ-2009م.

⁴ نجية عبير، باب القنطرة، تر: آسيا علي موسى، مراجعة: إنعام بيوض، منشورات أبيك، مطبعة متيجة، أفريل 2007.

⁵ مليكة مقدّم، رجالي، تر: نحلة بيضون، منشورات سيديا- الفارابي، الجزائر- بيروت، ط1، 2007.

ول(آسيا جبّار) رواية "لا مكان في بيت أبي" ¹ **Nulle part dans la maison de mon**

2007 père تحكي على مستواها الكاتبة قصة ذاتية تعكس في الحقيقة قصة شعبها، بين عالمين: عالم أب معلم وأم راقية تكشف لها سحر الأعراس النسائية، نشأت فتاة تحمل وتكشف في الوقت ذاته عالم الآخرين من خلال شغفها بالكتب وما سرّت لها به صديقاتها الأجنبيات في الداخلية.

12- مواضيع الاغتراب والبحث عن الهوية:

امتدّ موضوع الغربة عن الوطن، وتعمّق الإحساس به في هذه المرحلة، حيث قدّمت الروائية (حسيبة موساوي)، رواية "حلم على الضفاف" سنة 2003م، تعالج واقع هروب العربي من عروبته وأصالته، ويتحمّل الذلّ والهوان من أجل إرضاء الجسد الهزيل الذي أتعبه التفكير، فتارة يعاني من الضياع والتمزق والانسلاخ²، فكتبتها حول فكرة تجسّد الصراعات على الهوية الوطنية وتشرد الانتماء الروحي، وهذا ما تشهده الأوطان العربية. وتعدّ رواية "عودة برج إيفل لآية عجيبة" ل(ضاوية كربوس)، محاولة لتكسير نسق الاتجاه العام الموضوعاتي للرواية الجزائرية الذي يرتكز سجلات الهوية ويتعامل معها وفق شروطيات معرفية حدائية، تخدم خطابه الأدبي والفكري وتتجاوز الخصوصية الجزائرية كقاعدة أسست للجدل الحاصل بخصوص هوية التأسيس³، عمدت بها الكاتبة إلى الارتحال المكاني للتعبير عن الأزمة من الداخل إلى الخارج، في مساءلة مكانية استثنائية للهوية.

وتغوص رواية (سمير قسيمي) "هلا بيل" الصادرة سنة 2010م في الجذور الهويةانية للمجتمع المغربي وبخاصة في بعدها الديني الروحاني الباطني المتحدّر في الحالة المرابطية المفتوحة على التسامح وقبول الآخر⁴، ولم تتوقّف مواضيع البحث عن الهوية وتجليّاتها ومفهومها في معتقد الجزائريين، وإنما نلتمس

¹ آسيا جبّار، لا مكان في بيت أبي، تر: محمد يحياتين، سيديا، الجزائر، أفريل، 2014م.

² ينظر: عبد الرؤوف زوجي، إضاءة حول حلم على الضفاف للأديبة المبدعة حسيبة موساوي، موقع:

<http://www.dzroman.com/?p=5065> تاريخ الزيارة: 2015/06/20.

³ كاتب جزائري، سؤال الأنا الجمعي في عتمات الهوية المؤدجلة "عودة برج إيفل لآية عجيبة" للجزائرية ضاوية كربوس، الموقع:

www.alquds.co.uk/?p=337127 تاريخ الزيارة: 2015/06/18.

⁴ سميّر قسيمي، هلا بيل، الدار العربية للعلوم ناشرون-منشورات الاختلاف، لبنان-الجزائر، ط1، 1431هـ-2010م.

مواضيع قريبة منها، تلك التي تتحدّث عن حياة الجزائري المهاجر في الهجرة والمنفى، ومنها رواية محمد ديب التي تتراوح بين حياة الجزائري المهاجر في الجزائر وبلد آخر أجنبي.

إلى جانب رواية (عمارة لخصوص) "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك" 2003م حيث تعدّ >نصاً مختلفاً تحكي سيرة المنفى وواقع المهاجر في إيطاليا، وهي رواية الهروب من الذاكرة الجريحة ومأساة العيش دونها بين أحضان الذئبة الضاربة روما¹، إضافة إلى رواية أخرى له، صدرت سنة 2010م بعنوان "القاهرة الصغيرة" حيث يندسّ كريستيان الإيطالي بين المهاجرين العرب والمسلمين في حي ماركوبي بروما لكشف عملية إرهابية مرتقبة، بيئة جديدة دينا وثقافة ولغة، يسكنها العرب والمسلمون كمهاجرين، كوميديا على الطريقة الإيطالية تتدخل فيها العديد من المتناقضات²، وغيرها من الروايات التي تتناول واقع الإنسان الجزائري والعربي عموماً في بلد الآخر الغربي، حيث كلّ معاني الغربة والتأزم حاضرة.

وتعدّ روايات محمد ديب الصادرة بين سنتي 1990م و2003م (تاريخ وفاته) موجهة لقضايا الغربة والمنفى حيث تعدّ روايته "الأميرة الموريسكية" L'infante maure 1994م، استمراراً لسرد قصص المنفى التي بلغت عنده الذروة، حيث لم يبتعد عن بلدان الشمال³ أراد من خلالها الروائي ترجمة أفكاره الناتجة عن زيارته للعديد من الدول، حيث اكتشف من خلالها أن مناطق المنفى والاعتراب تعدّ أماكن سراب وتشرّد، ولكن أيضاً تمثل الهوية المفقودة. ويمكن إدراج رواية "إن شاء إبليس"⁴ "Si Diable veut" 1998م ضمن موضوع الاعتراب وألم الصراع بين بلدين، حيث يحكي عن صراع نفسي عانى من ويلاته، إذ عاش غربياً في بلاد الآخر، وعاد غربياً إلى وطنه، فقد حكم القدر عليه أن

¹ عمارة لخصوص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك، منشورات الاختلاف-الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر-بيروت، ط2، 1431هـ-2006م.

² عمارة لخصوص، القاهرة الصغيرة، منشورات الاختلاف-الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر-بيروت، ط1، 1431هـ-2010م.

³ Mohammed Dib , L'infante maure ,Dahlal , Alger , 1994 .

⁴ محمد ديب، إن شاء إبليس، تر: جوزيف بورزق، منشورات ANEP، الجزائر، 2007.

يعيش غريبا، أفكار عميقة عن الغربة وعن الحقيقة بطلها المغترب عمران، والذي يعود إلى بلده بعد وصية أمه التي فارقت الحياة ودُفنت في أرض غير أرضها .

وفي رواية "الشجرة تحكي" ¹ L'arbre à dire سنة 1999 م، يقدم (محمد ديب) قصة على لسان طفل يكشف من خلالها معاناة الفرد الذي يعيش بعيداً عن وطنه في منفاه، يبحث عن إشكاليات عديدة، عن الهوية والاسم واللغة الأم وعن النظام الأساسي الذي يخضع له في منفاه، يحكي عن الغريب وعن المهاجر وعن سعيه للحرية وبخثه عن الذات.

كما ظلت (ليلي صبار) وفيّة لمواضيع المنفى والاعتراب من خلال روايتها "رسائل باريسية.. حكايات منفى" "Lettres parisiennes: autopsie de l'exil" 1999م وروايتها "أنا لا أتحدث لغة أبي" "Je ne parle pas la langue de mon père" 2003م، والتي تتناول فيها منفى اللغة، وتعود الكاتبة عبر عملية المد والجزر التي تقوم بها الذاكرة إلى الماضي، إلى الجزائر الوطن، الوطن الممثل في الأب²، فقد أصبح الأب وفقاً لمتطلبات الذاكرة الممثل الأوحده للوطن.

13- موضوع المرأة في الرواية الجزائرية:

حظيت المرأة بمكانة معتبرة ضمن الإبداع الروائي الجزائري، لاسيما التسوي منه، حيث تعدّ كتابات آسيا جبار باللغة الفرنسية مجسّدة لحثيات حياة المرأة الجزائرية خاصة البرجوازية منها، كما قدّمت (فضيلة الفاروق) في روايتها "تاء الخجل" الصادرة سنة 2003م صورة للمرأة الجزائرية، حيث تصوّر حياة صحفية جزائرية في شرق البلاد، تحقّق في عملية انتحار فتاة اغتُصبت من طرف الأيدي الآثمة، وكان الانتحار رغبة والدها، إذ تسرد جانبا من عمليات الاغتصابات الجماعية في جزائر التسعينات ومعاناة المرأة آنذاك³. أما في روايتها "اكتشاف الشهوة" التي صدرت سنة 2005م، ترفع (فضيلة الفروق) لرفع الغبن عن المرأة، وتدافع بكل أسلحتها الإبداعية عن حق المرأة في إنسانيتها

¹Mohammed Dib ,L'arbre à dire, Dahleb, Alger, 2009.

² نهي أبو سديرة، ليلي صبار... الوطن والذاكرة الجريحة، عن مجلة العربي الكويتية، موقع: www.startimes.com/?t=15833011 تاريخ الزيارة : 2015/06/14.

³ ينظر: شادية بن يحيى، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع، (موقع إلكتروني سابق).

في نديتها للرجل، في رفع علامة (قف) أمام غطرسته وتجبره. وفي روايتها "أقاليم الخوف" 2010م، تروي الكاتبة عن المرأة ما تعيشه من خوف بصفة عامة¹ لكونها أنثى أولاً، وعن المجتمع الذي يسجنها والدين الذي يقيدها، بلباس وسلوك ثانياً.

كما تعدّ روايات (هدى درويش) موجهة للمرأة بالدرجة الأولى، وتتحدث عن المرأة وعن معاناتها لاسيما المرأة الفلسطينية في روايتها "آمال... حب يبحث عن وطن"، إذ تُصوّر المرأة الفلسطينية كما لم تُصوّر من قبل، حياة شاعرة وموسيقارة فلسطينية، شابة مضطهدة بين دروب الإبداع والسياسة والجوسسة، وما تتعرض له إثر هجرتها لقطاع غزة، نحو مدينة عكا شمال فلسطين المحتلة، وتبرز في الرواية قيم اجتماعية ودينية عديدة كالوحدة الفلسطينية والتعايش الذي بين المسلمين والمسيحيين²، وتعود في روايتها "نساء بلا ذاكرة" إلى تجاربها الشخصية³، متناولة قضية المرأة في الجزائر خاصة، وفي الوطن العربي عامة متغلغلة في خبايا النفس البشرية وسلوكها وأهوائها وعلى تجارب الآخرين متناولة المجتمع بالنقد والتحليل.

وتقدّم (سليمة غزالي) روايتها باللغة الفرنسية "عشاق شهرزاد" **Les Amants de Shahrzade** 1999م وترمز بشهرزاد للوالدة والزوجة العاشقة⁴، فشهرزاد هي رمز الجزائر التي عرفت النصر والأمل الزائف، وعرفت المجازر فحاولت حماية ذويها بقوتها وعقلها لتجعلنا نعتقد في مستقبل موحد وآمن لكافة أبناء الجزائر، وقد اهتمت (ميساء باي) في رواياتها أيضاً بالمرأة كرواية "تلك الفتاة" 2001 cette fille-la.

¹ ينظر : منجي جبرار، عن رواية أقاليم الخوف، موقع: <http://www.fobyaa.com/2010/06/> تاريخ الزيارة: 2015/06/20

² إصدار جديد للكاتبة الجزائرية هدى درويش، آمال... حب يبحث عن وطن، موقع: <http://elraed.com/ara/news/22619> تاريخ الزيارة: 2015/06/23

³ عبد المجيد جابر، تحليل رواية " نساء بلا ذاكرة" للقاصة هدى درويش، موقع:

<http://www.mnaabr.com/vb/showthread.php?t=14742> تاريخ الزيارة 2015/06/23.

⁴ سليمة غزالي، عشاق شهرزاد، تر: عبد الرزاق عبيد، مرسى، المتبعة للطباعة، الجزائر، 2002م، ص111.

ومن الكاتبات باللغة الفرنسية -أيضا- (مليكة مقدّم) التي تجعل من المرأة الجزائرية التي عاشت احتلال فرنسا للجزائر وحملت أحلام محيطها في جزائر حرة، بذاكرة مجروحة وروح تخزن حبا كبيرا لذلك البلد، فهي تبحث عن الحرية دوما، جعلت من تلك المرأة موضوعا بارزا لرواياتها، كرواية "المتمردة" التي تكتب فيها عن رغبتها في التمرد والخلاص من السيطرة إلى أفق حرية الإنسان في مجتمع فقد قدرته على الحلم بالقيام، وأخضع المرأة فيه بتشكيل خاص لمجموعة القيود نزع عنها أبسط الحقوق الإنسانية.

14- موضوع الأحلام والهواجس الداخلية والمعاناة النفسية في الرواية الجزائرية:

وجّه الكتاب رواياتهم في جانب مهم منها - لاسيما تلك التي تراوحت بين 2000 و2010م لهواجسهم الداخلية وأحلامهم وآمالهم، فالتفتوا بذلك إلى ذواتهم بعد التزامهم بمعاناة واقعهم المحيط بهم ولعلّ من بين النصوص الروائية المستندة لذلك، رواية "كراف الخطايا" ل(عيسى لحيلج)، والتي تتقاطع فيها > النصوص والذاكرة والكتابة مع الواقع، ويتفاعل فيها العقائدي والفلسفي والأدبي، حيث استند إلى التوسل بالمحكيات النفسية المعينة على سبر أغوار الفرد الجزائري، لتتلخص رواية التسعينات من ريقه المحاكاة والتقليد عبر النزوع إلى جماليات منطلقها، تجريب يقتضي المناجاة والاستعارات ومتاهة العجائبية بفعل العبث واللامعقول¹، أمّا (محمد العالي عرعار) فيتابع معاناة أسرة، يقوم وجودها على ما يصنعه أفرادها من آمال، حتى يتمكنون من العيش والتغلب على الصعاب، رغم إدراكهم أنّ هذه الآمال مجرد أوهام، إذ يتحطّم جلّها، فيذهب بعضها مع الطوفان، ويزول بعضها الآخر مع الزلزال²، وذلك من خلال روايته "الآمال الزائفة".

وفي رواية "أشجار القيامة"³ ل(بشير مفتي) 2005م، يعيش البطل في نوع من الهوس والإرهاق والهذيان، يحكي عن لحظات الغياب عن الوعي ولحظات الصحوة والإدراك، إذ يعيش نوعا من الألم

¹ سماح بن خروف، الاغتراب في رواية كراف الخطايا لعبد الله عيسى لحيلج، مذكرة لنيل شهادة الماجستير جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012، مقدمة، ص(ب)

² محمد العالي عرعار، الآمال الزائفة، دار القصة للنشر، الجزائر، نوفمبر، 2012.

³ بشير مفتي، أشجار القيامة، الدار العربية للعلوم ناشرون-منشورات الاختلاف، لبنان-الجزائر، ط1، 2005.

الداخلي بسبب حبه لزهرة التي تحب ساعد والتي لم تكن في يوم ما له. يجعله يبحث عن لحظات الهديان التي يتصور فيها نفسه ميتًا.

وتأتي رواية "هوس" ل(حميدة عياشي) 2008م، لتنقل كل الخليط الذي يعتري الكاتب من رأسه إلى قدميه بدون تحفظ، وبكل تفاصيله المشوشة، صراع بين الأنا والآخر، بين السياسة والحب، بين السقوط والنهوض، بين الموت والحياة، فيختلط الراوي بالبطل والواقع بالخرافة. ليقدّم روايته المحملة بمواجسه الذاتية المختلطة.

وإلى جانب اهتمام (أمين الزاوي) بالقضايا الاجتماعية وتناقضات الواقع، إلا أننا نجد يدخل إلى أغوار النفس؛ يحاول تحليلها ونقل هواجسها وصراعاتها، حيث يذهب في رواية "السماء الثامنة" 1993 إلى استبطان دواخل شخصية الروائية في لحظة غثيانها الوجودي ومنجاتها الداخلية وهوسها¹، ولعلّ رواياته الأخرى تطرح في جوانب منها هذه النفس وما تعانیه من كبت وحرمان. وفي رواية (ياسمينه خضرا) "القريبة كاف" **cousine K** سنة 2003م، حكاية عن المشاعر الإنسانية، عن الحب والعدائية عن ألم العشق والانتقام، استعار فيها الكاتب تقنية الغموض من تضادات مسرح العبث. حيث يعيش البطل عجزا في استعادة علاقة التواصل مع ذوات الآخرين². كما تلجأ الروائية (نينا بوراوي) في رواياتها إلى هواجس النفس البشرية مثلما هو واضح في روايتها "تخيلائي الشريرة" **Mes mauvaises pensées** 2005م، حيث تطرح أفكارها وتعرض هواجسها، كما تعرض هذيانها وخيالاتها عن كلّ ما يُريبها ويخيفها.

15- موضوع الواقع العربي والعالم في الرواية الجزائرية:

أصبحت الرواية الجزائرية تتخطى حدود المحلية، والتعبير عن الواقع الجزائري بكل إشكالياتها، إلى ما يعني الإنسان العربي عموما، فتطرح ما يعانیه من صراعات مع ذاته ومع غيره، ومن بين تلك الروايات:

¹ ينظر: بشير مفتي، السماء الثامنة لأمين الزاوي: الراوي الجزائري يقع في خطية السرد، الحياة: 2008/4/3، الجزائر، العدد 16435، ص15.

² ياسمينه خضرا، القريبة كاف، تر: نحلة بيضون، سيديا، الجزائر، 2014م.

رواية "امرأة بلا ملامح"¹ ل(كمال بركاني) 2007م، التي يتعرّض فيها لقضايا الوطن العربي وما يعاينه الفلسطينيون وأهل العراق وبغداد، من خلال عيون جزائرية، أي ألم الجزائريين بسبب ما يعاينه إخوانهم العرب. ويطالب (سفيان زداقة) في روايته "كواليس القداسة" 2002 >> بإعادة صياغة سؤال الذات العربية في الزمن الراهن، بشكل مختلف في جذريته، فهو خطاب الحداثة الذي يرفض كل مقدّس أو يقين ويدعو إلى تجسيد خطاب الاختلاف/ المدنس/ الشك/ التّية/ اللايقين²، وفي ذلك دعوة إلى رفض الواقع العربي في جانبه الضعيف والمرتاب.

أمّا رواية (حبيب مونسي) "جلالته الأب الأعظم- الخطر القادم من المستقبل" 2002م يقدم من خلالها الكاتب عالماً يستشرفه من المستقبل، حيث تذوب الدول وتنتهي الحدود، وهو العالم الذي يحكمه الرجل المسخ أو ما يعرف ب (جلالته الأب الأعظم) وهو قادر على قراءة أفكار الآخرين وإخضاعهم، وبذلك يبدو النصّ حالماً بالعالم المثالي والمدينة الفاضلة، حيث يتمكن الهامشيون والمبتدلون من التجمع والاستعداد للبحث بقيادة موسى الذي كان موعوداً لخلافة الأب الأعظم³. وتعبّر (سارة حيدر) في روايتها "لعاب المحبرة" 2006م عن الواقع العربي وعن سقوطه أمام هجمة الأمريكيين بنظرة تتجاوز كثيراً ما يحصل اليوم، وتتخيل ملحمة من الصراع على طريقة الحروب البوذية بين روما وقرطاجة، أو حرب طروادة، أو أي من الحروب الطاحنة التي تجتمع فيها قوة طاغية وماحقة ضدّ فئة غير قوية. ولكن الخلفية الثقافية الناضجة عند الكاتبة، وكلّ الرموز الجامدة التي حطّمتها لم توصلها إلى تجاوز بعض التعابير أو الأفكار في هذه الناحية السياسية، علاقة الأمريكيين بالعرب⁴، بل ظلت تستعمل تعبير الحروب الصليبية الجديدة وتتحدث وكأنّ الأمريكيين يستهدفون العرب تحديداً لهدف ما.

¹ كمال بركاني، امرأة بلا ملامح، منشورات الاختلاف- الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر لبنان، ط1، 2007.

² عبد الغني بارة، التأويل ومتخيل النص-قراءة تفكيكية في رواية "كواليس القداسة"، لسفيان زداقة، موقع:

www.startimes.com/f.aspx?t=10344170. تاريخ الزيارة: 2015/06/22.

³ حبيب مونسي، جلالته الأب الأعظم، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2002م.

⁴ الروائية الجزائرية سارة حيدر تحرب من الواقع إلى الكتابة، موقع: www.albawaba.com/ar/ تاريخ الزيارة: 2015/06/22

ويعدّ (واسني الأعرج) من خلال رواياته الأخيرة أقرب إلى الواقع العربي أكثر من أي وقت آخر، والتي نجد من بينها رواية "كريما توربوم-سوناتا لأشباح القدس" 2007م، حيث تروي قصة "مي" الفنانة الفلسطينية التي غادرت القدس سنة 1948، في ظرف قاهر، تقيم في أمريكا وتصبح شخصية مرموقة في الوسط الفني الأمريكي، عندما ينتابها الموت، تفكّر في العودة إلى أرضها الأولى¹. تطرح الرواية قضية الفلسطيني المهاجر، المغترب، الذي يعيش دون حياة كريمة، يحلم بالعودة إلى الديار الأولى وما فائدتها بعد انقضاء العمر كلّها خارجها.

ويقول (عز الدين ميهوبي) عن روايته "اعترافات أسكرام" الصادرة سنة 2009م أنها >> رواية معولة، لأن أبطالها أشخاص وفدوا من جهات الأرض، فلا منفى منعزل بل أتصور خلال الثلاثين أو الأربعين سنة القادمة، ستعاد صياغة المنطقة العربية بشكل مختلف، لأن تحولات العالم ودخوله مرحلة (حروب المعرفة)، وما يطلق عليه مفهوم التاريخ، وما نصنعه مستقبلا وليس ما صنعناه في الماضي، يجعل كل التركيز على هذه المنطقة لأنها قلب العالم، ولأنها كانت عبر التاريخ مجالا للصراع، ففيها تتركز الأديان وصراع اللغات والمصالح² << "اعترافات أسكرام" إذن رواية يجتمع فيها العربي والعالمي، لغة وثقافة وديانة.

وتتحول رؤية (إبراهيم سعدي) في روايته "الأعظم" 2010م، إلى ظاهرة الطاغية السائدة في الواقع السياسي العربي³، إذ تدور حول حاكم يحتكر السلطة منذ أربعين سنة، في بلد عربي متخيل اسمه المنارة قبل أن يرثه ابنه من بعده في الحكم.

والقضية الفلسطينية حاضرة بقوة في رواية (ياسمينه خضرا) "الصدمة" L'attentat⁴ سنة 2005م حيث تستمدّ الرواية وقائع أحداثها من قصة طبيب جراح فلسطيني، الدكتور أمين جعفري،

¹ واسني الأعرج، كريما توربوم-سوناتا لأشباح القدس، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، ط1، 2008.

² عز الدين ميهوبي، التاريخ هو ما نصنعه مستقبلا، في حوار مع غالبية خوجة، مجلة دبي الثقافية، موقع:

azzedinemihouli.com/content تاريخ الزيارة: 2015/06/22

³ ينظر عمر أزرراج، رواية "الأعظم" عمل سردي في يشرح شخصية الطاغية إبراهيم سعدي، موقع:

www.wato.cc/formus/showthread.php?90316 تاريخ الزيارة: 2015/06/22

⁴ ياسمينه خضرا، الصدمة، تر: نحلة بيضون، الفارابي-سيديا، لبنان-الجزائر، ط1، 2007م

يعيش مع زوجته الفلسطينية سهام في تل أبيب، ولكنه يحمل الجنسية الإسرائيلية، ويشغل في مستشفى المدينة. تقوم امرأة شابة بتفجير نفسها في مطعم بتل أبيب وسط عشرات الزبائن، يتفانى الطبيب في إجراء العمليات الجراحية الواحدة تلو الأخرى. إلى أن يُستدعى للتعرف على الجثة الممزقة للمرأة الانتحارية والتي يكتشف أنها زوجته، فيمضي في البحث عن أهم ما كان يجهله عن زوجته من ماضيها الفلسطيني، وتبرز في الرواية شخصيات يهودية كثيرة بصفات وصور عديدة.

ويتطرق (ياسمينه خضرا) إلى الواقع العربي والإسلامي في روايته "سنونوات كابول" Les **Hirondelles de Kaboul** سنة 2005 م، حيث يتمكن من الكشف بجلاء عن تعقيد السلوك في المجتمعات الإسلامية الممزقة بين التراث والحداثة، عن مدينة كابول الواقعة بين خراب النكبة وخراب العقول، يبحث رجالان وامرأتان عن معنى لحياتهم وسط تنفيذ للإعدامات العمومية، الحروب، استبداد وطغيان طالبان¹، وغيرها من القضايا التي تنخر هذا المجتمع.

وتدور أحداث رواية (سليم باشي) "اقتلوهم جميعا" 2006م في مدينة أمريكية (بورتلاند) وتحكي الساعات الأخيرة من حياة سيف الإسلام قبل أن يلقي بنفسه على برج التجارة محولا أكبر رموز العنجهية الحديثة إلى ركام. وما قام به هذا الشاب في الرواية لم يكن بسبب التغير به، أو باعتبار نفسه المجاهد النقي السريرة المقبل على الاستشهاد دون أسف على العالم، وإنما مضى في مشروعه التفجيري إلى منتهاه انتقاما شخصا من هذا الغرب المتسلط الذي ما حاول مسلم الاندماج فيه إلا وذكره بأن لا مكانة للمهزومين في صفوف المنتصرين². كما عالج هذه القضية العالمية أيضا واسيني الأعرج من خلال روايته "رماد الشرق" في جزأها: "خريف نيويورك الأخير" و"الذئب الذي نبت في البراري"، الصادرة عن دار الجمل سنة 2012.

في هذه المرحلة انعكس الواقع الجزائري بسلبياته وإيجابياته على مستوى المتن الجزائري باللغتين العربية والفرنسية، وقد كانت الرواية التسعينية بالخصوص حاملة لجميع ما اعتل في الجزائر من أوضاع

¹ ياسمينه خضرا، سنونوات كابول، تر: محمد ساري، دار الفارابي - سيديا، لبنان-الجزائر، ط1، 2007 .

² ينظر: ياسين تملالي، اقتلوهم جميعا لسليم باشي، موقع:

اقتلوهم - جميعا/2007/6/24www.aljazeera.net/knowledgegate/books/2007/6/24 تاريخ الزيارة: 2015 /06/22.

ومشاكل وتصدّعات وصراعات، إذ سعى الروائيون إلى نقل القارئ إلى كل ما هو حيني وظرني، بتحويل التجربة الواقعية المُرّة إلى تجربة إبداعية فنيّة، فراحت الكتابة الروائية تواكب الأزمة وتتبع مسارها خطوة خطوة مساءلة المحنة، والأطراف المتسببة فيها، فظهرت تبعا لذلك جملة من المواضيع حول العشرية السوداء، وحافظ العديد من الروائيين على موضوع الثورة المجيدة في هذه المرحلة باستحضار وقائعها وأوضاعها، واستمرّ موضوع النقد والاحتجاج عند بعض الكتّاب بإدانة وانتقاد الأوضاع السياسية والصّراع على السّلطة بعد الاستقلال، أو انتقاد الأوضاع الاجتماعية والذهنية والعقائدية للمجتمع الجزائري. واستمرّ موضوع الاغتراب عن الوطن ونقل هواجس الغربة والحنين ضمنها في بعض الروايات الجزائرية باللغتين العربية والفرنسية. وأصبحت الروايات في هذه المرحلة تتخطى حدود المحلية، والتعبير عن الواقع الجزائري بكلّ إشكالاته، إلى ما يمسّ الفرد العربي والمسلم في بقية الأقطار العربية الأخرى وإلى ما يواجهه من تحدّيات، فبرزت على مستوى بعض الروايات القضية الفلسطينية ضد اليهود الصهاينة، وقضية الإرهاب العالمي، والقوى العالمية الكبرى. وبذلك فإنّ انفتاح الرواية الجزائرية في هذه المرحلة يعدّ واسعا على العالم بأكمله، واتسّعت تبعا له دائرة الآخر المنظور إليه في الرواية، فلم يبق الآخر هو المستعمر الفرنسي فقط، ولا الفرنسي كما هو في بلده بعد الهجرة إليه والاطلاع على حياته عن قرب، بمشاعر الغربة والحنين، وإنما أصبح الآخر يشمل ذلك وأكثر، من يهود الجزائر ويهود فلسطين، الأجنبي بمختلف أقطاره الجغرافية، بما فيها الأوروبية والأمريكية.

الفصل الثالث:

صورة المستعمر في الرواية الجزائرية

المبحث الأول: صورة رجال السلطة الفرنسية في الرواية الجزائرية

المبحث الثاني: صورة المستوطنين الفرنسيين في الرواية الجزائرية

المبحث الثالث: صورة المرأة المستوطنة الفرنسية في الرواية الجزائرية

الفصل الثالث: صورة المستعمر في الرواية الجزائرية

تمهيد:

تركز هذه الدراسة على صورة المستعمر الفرنسي الذي عانت من ولاياته الجزائر ما يزيد عن القرن وربع القرن، عبّرت عنه الروايات الجزائرية في كلّ مراحل تطوّرها، من خلال معاشته في المرحلة الاستعمارية للجزائر، ومن خلال استحضار ذكريات البطولات الثورية بعد الاستقلال. ولتقصّي طبيعة صورته في بعض الروايات، من المراحل الزمنية المختلفة، ارتأينا تقديم لمحة تاريخية عن طبيعة الاحتلال الفرنسي للجزائر، ومعاناة الأهالي واضطهادهم إثره، حتى تتبيّن مقارنة الصور الأدبية التي سيتمّ رصدها من خلال مجموعة من الروايات الجزائرية، باللغتين العربية والفرنسية، وخلال الفترة الزمنية الممتدة من 1950م إلى 2010م.

تعدّ فرنسا من الدول الأوروبية التي انتعشت سياسيا واجتماعيا واقتصاديا بفعل النهضة الأوروبية؛ في القرن التاسع عشر، وتطور اقتصادها من خلال الثورة الصناعية التي عرفت تزايدا مستمرا في المنتجات الصناعية، فاحتاجت إلى الموارد الأولية بكثرة وإلى الأسواق لترويج منتجاتها الصناعية¹، ولم تجد لذلك حلا سوى انتهاج السياسة الاستعمارية والكشوفات الجغرافية²، التي قادتها ودعمتها البرجوازية الحاكمة، ولم يكن الهدف من تلك السياسة إقامة مستعمرات اقتصادية لأهداف صناعية فحسب، وإنما لتعزيز دعوات التعصب القومي، متسترا وراء واجهات سياسية وعسكرية وإستراتيجية وحضارية ودينية للسيطرة على الشعوب³ إذ برّرت الدول الاستعمارية سياستها بادّعائها بتخلّف أهالي البلاد المستعمرة

¹ أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006، ص 35.

² عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، مصر، 1419هـ - 1999م، ص 53.

³ محمد علي داهش، دراسات في الحركة الوطنية والاتجاهات الوحدوية في المغرب العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص

وتردّدهم في عالم الجهل، وإن كانت في الواقع ترغّب في الإمساك بمفاتيح ومخازن الشرق والغرب لجني الثمار المادية للتوسع الامبريالي¹ فتقاسمت الدول الأوروبية مستعمراتها، وبسطت نفوذها الكامل عليها.

وقد كانت مساعي نابليون في فرنسا تتمثل في تشكيل إمبراطورية استعمارية >> عظيمة مترامية الأطراف، تمتدّ من البحر الأحمر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا وهي إمبراطورية لا تبتعد كثيرا عن الوطن الأم، حيث يسهل تسييرها والسهر عليها والدفاع عنها إذا ما لزم الأمر²<< فكانت الجزائر من بين المستعمرات الغنيّة بالثروات الطبيعية التي أخضعتها فرنسا، معتبرة إياها جزءا من الدولة الفرنسية³ ابتداء من أول يوم احتلتها فيه (الخامس من جويلية عام ألف وثمانمائة وثلاثين 05 جويلية 1830)، حيث استلزمت الحملة على الجزائر مجهودا حربيا وبحريا، إذ تمّ نقل حوالي عشرين ألف رجل على متن ستمائة و ستة وسبعين 676 سفينة⁴، وكان الدور المنوط بالقوات الحربية لا يقلّ عن القوات البرية في هذه الأعمال الحربية الاستعمارية.

وقد اعتمدت سلطة الاحتلال الفرنسية سياسة استيطانية في الجزائر بهدف إخضاع الشعب والدولة التي >> تمّ الاعتماد على سيادتها والاستيلاء على خزائنها وانتهاب ما فيها من أموال ومجوهرات وعلى أملاك الجيش، من ثكنات وقلاع وأسلحة وسفن حربية وتجارية وذخائر وثروات⁵<<، إذ كان استيطانها واسع النطاق، شمل كل عناصر الدولة.

¹عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، ص ص 53، 54.

²إبراهيم مياسي، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2007، ص 21.

³عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر- أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، ص 308.

⁴مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر- من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الأولى (1789-1914)، ج3، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط1، 2004، ص 862.

⁵أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 1426هـ- 2005 م، ص 20.

وغدت تصدر المراسيم، لتغطي جرائمها بالقوانين ، فأصدرت >> يوم 22 جويلية عام 1834 مرسوما نصّ على إلحاق الجزائر جزءا من التراب الفرنسي، يديرها حاكم عام يتبع رأسا لوزير الحربية في باريس، ويساعده مجلس استشاري من كبار الشخصيات المدنية والعسكرية¹، وتمّ تقسيم البلاد >> إلى منطقتين أساسيتين: الجزائر الشمالية وأخضعت للحكم المدني وقسمت إلى ثلاث مقاطعات، والجزائر الجنوبية وأخضعت للحكم العسكري²، وذلك بإتباع خطة محكمة، لتشمل تقسيماتهم كل مناطق الجزائر الواسعة.

وقد اندرجت تلك الأوضاع الاستعمارية على مستوى الروايات الجزائرية، وبرزت فيها صورة المستعمر الفرنسي التي يمكن إدراجها ضمن ثلاثة أنماط، تخصّ تصوير كل من رجال السلطة الفرنسية، والمعمّرين، وصورة المرأة الفرنسية المستوطنة في الجزائر.

¹ يحيى بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية، 1830-1945، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 2007، ص8.

² المرجع نفسه، ص 13.

المبحث الأول: صورة رجال السلطة الفرنسية في الرواية الجزائرية

كان عمل السلطة الفرنسية الاستعمارية في الجزائر من خلال هياكل مجهزة ومنظمة، تشرّع القوانين وتسنّ المراسيم للتّحكم في الشعب الجزائري، وضبط تحركاته والاستعلام عن كلّ نشاطاته، وجنّدت لذلك العديد من الضباط والجنود ورجالات الشرطة، من محافظين ومحققين، وقد اختلفت الرواية الجزائرية في تصويرها لهؤلاء، من عساكر مستبدين مخادعين، وآخرين ظالمين عنيفين، ومنهم المتمرّدين على سلطتهم، أو المتأزمين المعقّدين.

1- صورة رجل السلطة الفرنسية الاستعمارية الظالم والمستبد:

تبرز في الرواية الجزائرية، صورة المستعمر المستبدّ والعنيف، الذي يُتقن تعذيب الجزائريين، ويتفنّن في القسوة عليهم، لاسيما من خلال الأوامر الظالمة التي تجبرهم على التحوّل عن مسار حياتهم العادية. وفي رواية "الحريق" L'Incendie (محمد ديب) صورا متعدّدة عن رجال الشرطة الفرنسية الذين يتشابهون في زيّهم العسكري الذي يرتدونه، وأحذيتهم الحديدية النعال، بوجوه جافّة حاقدة¹، وملامح فظة عنيفة، تصرفاتهم قاسية مع الفلاحين، يهدّدون كلّ من يرغب في مساعدتهم بدعوى الإجمام والخروج عن القانون²، تُعاقبهم الشرطة إمّا بالرصاص أو بالضرب أو السجن، أو بالكلام الجارح أو بالتجويع³ حسب كومنذار في الرواية.

أمّا مصير السجناء فهو عسير لدى الشرطة، لما يلقونه من تعذيب وتنكيل، حيث اعتُقل حميد سراج في رواية "الحريق"، من قبل جماعة من الشرطة، سمّى حميد أحدهم "بالرقم" الذي كان كثير الثرثرة، حيث >> رفع "الرقم" يده وهوى بها على وجه حميد في صفة قوية، اهترّ رأس حميد ولكنّه لم يطرف بعينه. صاح "الرقم":

- هذا واحد من هؤلاء القدرين.

¹ ينظر: محمد ديب، الحريق، تر: فارس غصوب، منشورات ANEP، الجزائر، 2007، ص ص 151، 152.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 197.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 199.

سمعه حميد هذه المرة، وتفّرّس فيه، فأدرك أن "الرّقم" لم يحتمل نظرتة، لاحظ أنّ عنده انحناء من يثني ركبتيه، امتصّت الحديقة الحائرة الإهانة، هوى "الرّقم" بقبضة يده على وجه سراج، فأحدث تشظية في وجهه، راح عدد من رجال الشرطة يضربون (...). وازدادوا إحاطة به، وتحلّقوا حوله، كأنهم مادة جامدة، وتلقّى حميد ضربة أقوى من الأولى، فقال حميد بتأثير الصدمة، واتّقد وجهه بعد أن ظلّ إلى ذلك الحين شاحبا.

- لم تفعلون هذا؟

وانهمرت الضربات عليه انهمار المطر، ترنّح حميد، وانقذف إلى جانب، فعاد وجهه شاحبا، قال:
- قذارة.

وفي هذه اللحظة سقط على الأرض، تركهم يضربونه (...). كانت الضربات تدوي في رأسه، في جسمه. فاستولى عليه حذر، أصبح لا يحسّ وجود أنفه، ولا عينيه، غير أنه يشعر بأذنيه تحترقان احتراقا، وكان دمه يسيل رطبا حاراً، (...). أصبح الآن لا يرى شيئا، الدم يقطر في عينيه¹
قدّم محمد ديب من خلال هذا المشهد صورة معبّرة عن قساوة ميّرت الشرطة الفرنسية في تعذيبهم للجزائريين، واستنطاقهم بالضرب والسبّ والشتم، آلام شديدة، دماء تتقاطر، رعب وسخط واشتمزاز، صورة توضح الرعب الذي زرعه الفرنسيون في نفوس الجزائريين، والمعاملة العنيفة المنعدمة الرحمة والشفقة.

وفي رواية "على جبال الظهرة" ل(محمد ساري) صورة للعساكر داخل المعسكر، حيث يدورون >> دون توقّف أو انقطاع، يُسيئون معاملة السجّناء لأبسط الأفعال، وهم يقهقهون بضحكات هستيرية، غير مُبالين بالنتائج الوقحة التي تبدو واضحة في نظرات هؤلاء الضحايا، المملوءة بالحقد والشجون والثورة النفسية المكبوتة²، وهي صورة لوقاحة وقساوة العساكر، الذين تنعدم في قلوبهم الرحمة، إذ يهدّد

¹ محمد ديب، الحريق، ص ص 150، 151.

² محمد ساري، على جبال الظهرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 18.

أحدهم: >> حذار لمن يريد أن يلعب دور الأبطال، فنحن لا نرحمه¹<<، وذلك لتخويفهم وإمساكهم عن القيام بأية حركة مضادة لهم.

وقد كان العساكر الفرنسيين في رواية "على جبال الظهر" يستهزئون ويعيرون الجزائريين ويصفونهم بالرعاة وعن ذلك نجد محمد ساري يقدم مشهدا لعسكري حقيير، إذ يقول أحد العساكر للعجوز الذي جاء للبحث عن ابنه:

>> -ماذا تريد هنا، أيها الراعي؟

تلقظ بها الحارس الثاني، ذو الأنف الأفتس، وغرق في ضحك مضجر، وعيناه تلمعان وتحذقان في المرأتين كأنما يريد أن يستشف ما وراء اللحاف من هيئة ولون...²<<. وبذلك يظهر العساكر في رواية "على جبال الظهر" بصورة سلبية فيها من البشاعة والسوء ما يثير الاشمئزاز، من سوء معاملة وضحكات هستيرية، وانعدام الرحمة، وتخويف وإذلال للأهالي، إلى جانب الوقاحة والسداجة في التطلع على العورات وكشف المستور.

وقد كان جنود الاحتلال الفرنسي يسيئون معاملة الأهالي خاصة عند القيام بعمليات التفتيش للبيوت، وما يتلقاه هؤلاء من تعنيف، وهي صورة جليّة واضحة، من خلال رواية "شوك الأسي" ل(محمد المعراجي)، إذ يعطي النقيب >> الأمر لبداية عملية التفتيش على الثامنة بالضبط، على أن تتم بعد منتصف النهار، ومّرت سيارة من نوع "جيت" في شوارع المدينة، وكان فيها رجل يتكلم في بوق معلناً للسكان ألا يغادروا منازلهم، لأنّ عملية التفتيش، ستبدأ بعد حين، وأن كل من يوجد خارج منزله سيُعتقل، هكذا بدأ جنود الاحتلال يدقون الأبواب بعنف ويدخلون المنازل في تهوّر واضح، ورشاشاتهم في أيديهم، فأخذ الفرع مأخذه من سكان المدينة، حيث أُغلق كل شيء، ومُنعت التجول مدة العملية، وكان جنود الاحتلال لا يعرفون الشفقة، فيعتفون الأهالي ويكسرون الخزانات، إذا صُعب فتحها

¹ محمد ساري، على جبال الظهر، ص 19.

² المصدر نفسه، ص 19.

أو تعطل قليلاً¹ فكانت بذلك صورة جنود الاحتلال في الرواية، كلّها عنف و تهوّر وانعدام للشفقة والرحمة، بهدف إفزاز الأهالي وتخويفهم وزرع الرعب في نفوسهم.

وقد بلغت شدّة قسوة العسكري الفرنسي أوجّها، حين تحوّلت لتعنيف الأوروبي المعمّر الذي يساند الأهالي ويتعايش معهم، حيث يقدّم (أنور بن مالك) في رواية "العاشقان المنفصلان" Les Amants d'esunis صورة عن العسكري الفرنسي الذي يُهين المرأة السويسرية "آنا" والتي تزوجت من الجزائري "نصر الدين"، وأنجبت منه طفلين، إذ تناول العسكري >> جواز سفرها السويسري ودفترها العائلي الجديد للمراقبة، بصق على الأرض بازدراء: " يا سيّدة، إنك تخونين عرقك! " في هذه اللحظة، كرهت "آنا" العالم كلّ، كرهت هؤلاء العساكر الدّمويين الذين يسحقون بازدرائهم كلّ من لا يحمل سلاحاً²، فالفرنسي المستعمر كان يكره الجزائري وكل من يسانده، حتى ولو كان من جنسه ومن بني جلدته، ويرى في ذلك خيانة للعرق والأصل.

وقد كان يرافق العساكر واشون بأبناء الوطن، أشار أحدهم في الرواية -نفسها- إلى رجلين اثنين فأخرجهما >> من الصّف وساقهما نحو شاحنة برفسات في الآليتين، التفت الرجل بهيئة نحاس مزدهر ماسكا عصا غليظة، يريد الاحتجاج، نزع له أحد المظليّين العصا، وضربه بها على الوجه، رنّ صوت العظم المكسور بوضوح، مباشرة انفجر الدّم، ولطّخ الغندورة الجميلة³ دون أن يُعيّر أي اهتمام لآلامه، أو مظهره.

وتّم تعذيب نصر الدين الجزائري زوج "آنا" اعتقاداً منهم أنّه عضو فعّال في حزب الأفلان. يحاول إبعاد الشّبّهات عن نفسه بزواجه من أوروبية، حيث بلغ بهم المكر كلّ مبلغ، وعدّبوه عذاباً مؤلماً، متّبعين في ذلك مراحل متتالية لاستنطاقه فاستخدموا معه الكهرباء، ثم الزجاجة في الأست وأخيراً الخرقة المبلّلة بالبول، وسائل الكريزيل، مورس عليه التّعذيب بشكل روتيني إلى درجة الرّتابه، ولكن بكيفية معدّة سلفاً، بحيث ابتداءً صاحب السّوط، ثم تلاه مستخدم الكهرباء، وأخيراً المختص في المغطس والحرق، بالفعل إنّها

¹ محمد المعراجي، شوك الآسى، منشورات ANEP، الجزائر، ط1، 2004، ص354.

² أنور بن مالك، العاشقان المنفصلان، ص16.

³ المصدر نفسه، ص17.

طريقة منظّمة، تجنّب الزلة الحمقاء تلك التي تجعل السّجين يلفظ أنفاسه قبل الاعتراف¹، وهو ما أدّى بنصر الدين إلى الهلوسة وفقد الوعي ممّا جعله يتلقّف بأسماء من يعرفهم من الجيران والأصحاب، ذكر أسماءهم دون أن يكون عالماً بنشاطهم، وذلك لإنقاذ نفسه، والتخلّص من التعذيب، ولكن من سوء حظّه وحظّ من ذكرهم، كونهم بالفعل مساهمين في حزب الأقالان وفي بعض النشاطات الثورية، وهو ما جعلهم يحقدون عليه، ويحرقون بيته، ويقتلون والدته وابنيه.

2- صورة رجل الشرطة المخادع والمراوغ:

استعمل رجال الشرطة الفرنسية عدّة وسائل كالمخادع والمراوغة لاستنطاق المتّهمين والإيقاع بهم، وقد وردت صور عديدة عن تلك النماذج من الشخصيات في الرواية الجزائرية، يقدّم (محمد ديب) في رواية "الحريق" صورة مدير الشرطة الفرنسية المخادع، الذي تحاور يوماً مع "قرّة علي" لما جاء لزيارة دار الحكومة، وقد كان المدير يدعو للتعاون مع فرنسا لمصلحة البلاد،² فالسلطة الفرنسية لن تستطيع العمل إلّا إذا وضع الجزائري يده في يد الفرنسي، يتعاونان على بناء البلد²، حيث يقول الشرطي: >> لا بد لكل بناء من أساس، ونحن نريد لبنائنا أساساً أخلاقياً هو الاتحاد، إنّنا لا نستطيع أن نعمل إلّا إذا تعاونا يداً بيد، بل قلباً بقلب (...)

- لا شك أن هنالك لفيفا من الانفصاليين الخطيرين أو من الحاملين الأغبياء، يعملون ما استطاعوا لتشويش عقول الشرفاء من الناس، وهذا أمر قبيح خال من الشرف. قال المدير ذلك ثم نهض، وشكر لقره ما يقدّمه للسلطات من معونة³ فهذا المدير-حتى وإن كان مقتنعاً في قرارة نفسه أنّ العمالة ليس من شرف المرء ولا من مكارم الأخلاق-إلّا أنّه يخادع هذا الجزائري حتى لا يتاوى في مساعدتهم والوشاية بأهله وشعب وطنه.

وفي رواية "الأفيون والعصا" L'Opium et le Bâton ل(مولود معمري) صورة لمحافظ الشرطة الفرنسي الذي قام باستجواب الدكتور بشير الأزرق، إذ كان لهذه الأخير عيادة طبية، ولكنه اختفى عن

¹ أنور بن مالك، العاشقان المنفصلان، ص16.

² عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص ص208، 209.

³ محمد ديب، الحريق، ص146.

الأنظار لمدة طويلة، وهو ما آثار شكوك المحافظ حوله، الذي استعمل معه أسلوب المراوغة لاستجوابه واستنطاقه.

وقد كان هذا المحافظ رجلاً جاداً، أنيقاً ومؤدّباً¹ يُتقن مهنته ويحسن الإطاحة بالمتهمين، وهو يدرك نزاهة الطبيب، وثقافته، ما حدا به إلى اختيار الكلمات، والحجج الدامغة لإقناعه، بكثير من التزانة والموضوعية²، لاسيما في الجلسة الأولى. في حين أنه في الجلسة الثانية مع ما اعتراه فيها من هدوء وحسن معاملة ومحاولة لإضفاء جوٍّ من الصفاء يسوده تبادل الثقة، إلا أنّ بداية المراوغة كانت من خلال جملة من الأسئلة المتعلقة بمهنته الشريفة، وما تقتضيه من صاحبها. إلى جانب استفساره عن نوعية المرضى، والأمراض المنتشرة، دون أن يتجاوز التساؤل عن الثورة والجهاز الصحي وكيفية رعايته والقيام به³.

وفي كلّ ذلك يستعمل الحيلة والدهاء للوقوع على ما يُريبه وما يشكّ فيه نحوه. خاصة مشاركته في الثورة وطبيعة مهمّته، غير أنّ فشله في إلباسه التّهمة جعله يقترح عليه أحد الأمرين، بعد خروجه سالماً من الثكنة، وهو أن لا يتحدث بالسوء عن المحقّقين، والاختفاء حيث لا يقع بين يديه مرّة أخرى، ويكون ذلك إمّا بالتّخفي في صفوف الثورة، وأنّ الوقوع ثانية سيكون بحجة مثبتة وعندها لا يرحمه أحد، لأنّ عداؤه لفرنسا سيكون واضحاً جلياً. أمّا الخيار الثاني، فهو اختيار صف فرنسا، إمّا بالهجرة إلى فرنسا لمتابعة الدراسة، أو الانضمام إلى صف المحافظ والوقوف ضدّ الثورة⁴. وهو في كل ذلك يدفع به إلى اختيار واحد من الاقتراحات التي لا رابع لها، فهو لذكائه ودهائه سيوجّه "الدكتور بشير" إلى أحد الأمور المعروضة عليه والمتوقّعة منه. فيظهر محافظ الشرطة مخادعاً، مراوغاً وذكياً، مؤدّباً ولبقاً، يتعامل بثقافة واسعة للمقدرة على الإحاطة بزمام الأمور، وتوجيهها.

وتظهر في رواية (محمد مفلّاح) "زمن العشق والأخطار" صورة النقيب الفرنسي، ذي سنّ الأربعين، بعينه الزرقاوين، وعضلاته المفتولة، يبدو كثور هائج. يُدعى هذا النقيب "جورج" وقد كان قاسياً في تعامله مع الأهالي، خاصّة مع معلم الأطفال، الذي يتحدّث في الرواية عن غطرسته ومكره

¹ Mouloud Mammeri, L'Opium et le Bâton, Aures Pocket nouvelle éd, Paris,1970 , p154 .

² Ibid, pp155, 156

³ Ibid p158

⁴ Ibid pp174.

- ومراوغته: >> استقبلني النقيب جورج بابتسامة واسعة... كان عمره لا يتجاوز الأربعين، لون عينيه أزرق باهت... بدا لي بعضلاته المفتولة كالثور الهائج، امتصّ غليونه وقال لي:
- أتريد سيجارة؟
 - (...)
 - لماذا تسببنا؟
 - (...)
- لاحت على شفثيه ابتسامة وقحة، وقال لي:
- لا... إنك تحرض علينا سكان القرية... منذ الآن أمنعك من ممارسة هذا النشاط.
 - حاولت أن أردّ عليه ولكنه رفع يده في وجهي وأمرني أن أسكت، ثم أردف قائلاً:
 - أغلق باب الجامع ولا تفكر في تعليم أطفال القرية.
 - وارتكز بمرفقيه على المكتب، ووضع رأسه بين راحتي يديه، ثم قال لي:
 - هذا آخر إنذار لك...
 - ونهض ثم خطا خطوات صغيرة واقترب مني وهو يقول لي بسخط:
 - جئنا لإنقاذكم من التخلف والفضى ولكن لا يمكن أن نحقق أهدافنا إلا إذا قتلناكم...^{1<<}
- يُبرز هذا المشهد الحوارى صورة النقيب الفرنسى الحاقد المتعطرس والمآكر المخادع، من خلال استفزازه لمعلم الأطفال، وطلبه لغلق باب الجامع. بسخط وعنف، يتمنى قتل كلّ الأهالى الذين ادّعت فرنسا تحضيرهم ذات يوم، ولم تزدتهم إلا تخلفا.
- وفي رواية " على جبال الظهرة" ل(محمد ساري) صورة النقيب الفرنسى المتعالي على المساجين، المدعى للرسالة الحضارية ونبهها في الجزائر المستعمرة، حيث >> خرج نقيب من المكتب ووقف على كتب من الباب، ابن الأربعين، لا يهتم كثيراً بالمساجين أو لا يريد إظهار اهتمامه بهم لمكانته العالية، ألقى نحوهم نظرة عابرة، توحى بالاستياء، قال بهدوء في فرنسية تطغى عليها اللهجة المحليّة:

¹ محمد مفلّاح، زمن العشق والأخطار، ضمن الأعمال غير الكاملة، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2012م، ص ص360، 361.

- أنتم هنا بلا عمل منذ أيام عديدة... تأكلون وتشربون وتنامون، وهذا بفضلنا... سجنّاكم لأنّكم تساعدون أعداءنا، الخارجين عن القانون، جئنا إلى هذه الأرض المتخلّفة لنشر الحضارة، لكي يرتقي الرجل الأندليجيه إلى رجل متحضّر... لكنكم لا تفقهون هذا المغزى، كونكم تستمعون إلى هراء العصابات المنتشرة على الجبال مثل الذئاب¹.

يبدو التّقيب الفرنسي ذي الأربعين سنة، متكبراً متعالياً على المساجين، يرى في سجنهم أكلا ونوما وانعداماً للعمل، وكأنّه يرى أنّ السجن نفسه كثير عليهم، إذ لا يستحقونه لما تنعم به فرنسا من مأكّل ومشرب وراحة، ومن جهة أخرى يرى فيهم التّخلف، والانحطاط، لعدم استيعابهم للحضارة التي جاءت فرنسا لإهدائهم إيّاها.

3- صورة رجل السلطة المتمرد والعاصي:

لم تقتصر الرواية الجزائرية على تصوير رجل السلطة الفرنسية المستعمرة للجزائر، بالرجل العدواني العنيف، أو الماكر المخادع والمراوغ، إذ تبرز صورة مهمّة في رواية "رجالي" Mes Hommes ل(مليكة مقدّم)، عن العسكري المتمرد والعاصي لأوامر السلطة المستعمرة، متمثّلة في شخصية العسكري "جان دوبرنار"، الذي أدى خدمته العسكرية في الجزائر على مقربة من الحدود التونسية، أصبح صاحب مكتبة في فرنسا. التّقت به الكاتبة، ولما عرف أصلها الجزائري حكى لها قصته العسكرية التي تمرد فيها بقول "لا" في الجيش وعصيان أوامر الصامت الأكبر، حيث يقول: >>كنتُ مكلفاً بحملة تفتيش في دوار يدعى لاكروا في بيتين من بيوته، عثر رجالي على بندق تعود للحرب العالمية الثانية، كانت ملفوفة بقطعة من القماش مع أوسمة فرنسية كاد الجنود يطلقون النار على أصحابها، أتخيّلين! فصرخت كالمجنون، وأوقفت رجالي بالصفّ، وأرغمتهم على أداء التّحية العسكرية لقدامى المحاربين أولئك، حين عُدت إلى الثكنة، أفشى أحدهم بما جرى للقائد الذي أمرني بإحراق هذا الدوار بحجة أنّه يمثّل خطراً محتملاً، كان مجرد تلفيق فلم يكن في ذلك المكان سوى نساء وأطفال وشيوخ، قلت لا! لن أفعل ذلك أبداً! (...)

أخليت الدوار خلسة، مع بعض الأعوان وساعدت هؤلاء المساكين على عبور الحدود التونسية القريبة،

¹ محمد ساري، على جبال الظهرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988م، ص33.

أراد القائد أن يحاكمني، أمام محكمة عسكرية، كانت قضية أثارت ضجة عارمة، عرضت أمام الجنرال كلّ حججى بهدوء، كان رجلا مستقيما، شارك في حرب 1940، وكان بعض الجزائريين يأتمرون بأوامره. لقد أنقذني ذلك الرجل حتى في أسوأ الظروف، بوسع المرء على الدوام أن يختار عدم التلّطخ بالعار والبقاء مرفوع الجبين، وقد تعلّمت ذلك حينها¹، يوضّح هذا السرد لقصة العسكري صورة للمتمردّ على الجيش الفرنسي العاصي لأوامره، لتعارضها مع القيم الإنسانية النبيلة، بمثل رفض الطغيان والظلم والاستبداد، حتى ولو كان ذلك على حساب محاكمته وإدانته.

4- صورة العسكري المتأزم والمريض نفسيا:

يقدم الروائيون الجزائريون صورا متعدّدة عن العسكري أو الضابط الفرنسي المتأزم، والمريض نفسيا، على غرار الصورة التي قدّمها الطاهر وطار في روايته "اللاز"، يشبه ضابط الشرطة من خلال تصرّفاته الغريبة، يبدو كالمرأة أو كالمختنّة²، أو كعاهرة وقحة يتحدث عن الصداقة والحبّ³. كشفه "اللاز" وفضح أفعاله ونواياه الحقيرة، إذ كان يتخذ من اللاّز وسيلة لإشباع شذوذه الجنسي، ويتحدّث عنه أمام جماعة من الجنود[>] في نشوة الظافر المنتصر، وبسمة انتقام تتراقص خلف زجاج نظارته، وسيجارة أمريكية تترنّح بين شفّتيه الرقيقتين الحمراءين... تعرّفت عليه في اليوم الثاني من حلولي بهذه القرية اللّينة... لعبت معه الورق، وسقيته طيلة أربع ساعات، وسكرت قبله... أغلقت عليه الباب وأخرجت الغدارة وأمرته بنزع ثيابه... كان مشدوها لا يدري لماذا... عندما تعرّى أجبرته على احتساء قارورة كاملة، وسبقته إلى الفراش عاريا... كان يهوي عليّ بالضرب كلّما فرغ من مهمّته⁴، في حين أنّ "اللاّز" كان يستغل تلك العلاقة الحقيرة، في مساعدة إخوانه الجزائريين، وتهربهم من السجن، وتسريب المعلومات من الثكنة، وهذا ما فجّر مكانم الغضب لدى الضباط الذي قال[>] لم يكن في ذلك أيّة إهانة، لو ظلّ اللاّز لازا

¹ مليكة مقدم، رجالي، تر: نهلة بيضون، الفارابي-سيديا، لبنان-الجزائر، ط1، 2007م، ص ص 179، 180.

² ينظر: الطاهر وطار، اللاّز، موقع للنشر، الجزائر، 2007م، ص 62.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 62.

⁴ المصدر نفسه، ص 67.

فحسب... أما وأنه فلاق يستغلّ مرضى واستسلامي له كالعاهرة البذيئة ليؤدّي دوره، ويقدم الخدمات لإخوانه، فهذه هي الإهانة بعينها...¹.

تعدّ صورة الضابط الفرنسي سلبية إلى أقصى حدّ، لكونها تتنازع بين صفات الحقارة والدناءة وصفات المرض النفسي الذي حوّله إلى عاهرة حقيرة، إلى جانب شكله مظهره، بشفتيه الرقيقتين الحماويين، وشوقه الدائم لإشباع شذوذ جنسي يعيه، ويعي حجم استسلامه له، وهو ما استثار غضبه لأنّه يعتبر ذلك استغلالاً وإهانة، بسبب تصرّفات "اللاز" النبيلة تجاه أهله وأبناء شعبه.

ويعدّ اكتشاف الضابط لخيانة "اللاز" له، بسبب "بعطوش" الذي وشى به، وبأفعاله تجاه إخوانه المجاهدين، وكان ذلك لرغبة من بعطوش في التّقرب من مصالح الأمن الفرنسي، ونيل الخطوة عندهم، حيث تمّ تقليده مرتبة سارجان في صفوف الجيش الفرنسي، ومع ذلك فإنّ الضباط لم يطمئن ل"بعطوش" وبقي حذراً منه، مخاطباً نفسه >ثمّ هذا الشاب القروي الذي تلّفه البذلة الفرنسية الشريفة.. بالأمس قدّم خدمة كبيرة لوطني، وصباح اليوم أمضيتُ قرار ترقّيته... القدر لو كان واعياً، لكبّث مع إخوانه، الانتهازي القدر، لا يدرك تماماً أنه ليس فرنسياً، ومع ذلك يأتي أعمالاً لا يأتيها إلا فرنسي مخلص، الخائن القدر، قد يستيقظ ضميره ذات يوم ويهوي عليّ بخنجر، أو يضع في مكّتي قبلة، ثمّ يفرّ نحو الغابة²، فالضابط الفرنسي على الرغم من وقاحته وعهره، إلّا أنّه يعرف معنى خيانة الشعب والأمة، وأنّ الذي يُقدّم عليها لا يمكن الاطمئنان إليه، أو ائتمانه، فالخائن سيبقى خائناً، وهو ما جعله يخاف على نفسه منه، وذلك بدفعه إلى القيام بأبشع الجرائم وأسوأ الأفعال تجاه أهله، انتقاماً منه ومن اللاز.

لقد بلغت درجة مرض الضابط الفرنسي التّفسية، إلى أمر بعطوش بقتل بقرة حالته، التي كانت تتوجّع من شدة ألم المخاض، وقد بلغت شدة حقه على اللاز بأن تحيل الرصاصات التي اخترقت البقرة، قد اخترقت صدر اللاز³ وحقارة الضابط دفعته إلى الطلب من حيزية وزوجها التّعري أمام بعطوش

¹ الطاهر وطار، اللاز، ص 68.

² المصدر نفسه، ص 105.

³ المصدر نفسه، ص 109.

والشامبيط وباقي الجنود، حيث^{>>} لم يديا حراكا، تأخر خطوات وأشار إلى الجنود بحركة من رأسه...تقدّم بعطوش نحو عمّه مع جندي آخر، بينما تقدّم آخران نحو حيزية التي فقدت كلّ وعيها، وبقيت تحدّق باهتة...وما إن فرغوا من تجريدتها من كلّ ثيابهما، حتى كان الشامبيط يبربر في مدخل الباب، وهو ير كل مريانة- سارجان بعطوش، أرح الوجود منها.

ودون تردّد نفذ بعطوش الأمر، تقيّات رشاشته سيلا من الرصاصات، سقطت مريانة دون أن تلفظ أي صوت (...). سارجان بعطوش، أريد أن تضع جنينا في بطن هذه المرأة، هنا أمامي، هيا أسرع^{1<<} وكان يقصد المرأة، حالته حيزية.

لقد بلغت درجة حقارة الضابط إلى حبّ رؤية العري، والاعتصاب أمام عينيه، وهو من زنا المحارم، إلى جانب القتل للبشر والحيوان، وهي قمة المرض والفسق والقهر. وقد راح يسرد قصة بعطوش مع حالته، متمتعا مسليا لمن يستمع إليه، قائلا: >>يقنيا إنّ مضاجعة المحرّمات ألذّ شيء على الإطلاق...وارتفعت القهقهات صاحبة رنّانة...بينما راح الضابط ينظر إلى سراويلهم، ويعلن في نفسه...لقد أثارت شهوتهم هذه الحكاية...لأوسّع في التفاصيل^{2<<}، لإثارتهم أكثر.

تحوّل بعطوش على إثر تلك الأفعال الشنيعة إلى شخص متأزم، مريض متألّم، انغلق على نفسه، وراح الضابط يزوره^{>>} بين ساعة وأخرى، أحيانا يكتفي بمراقبته من النافذة، وأحيانا يدخل الغرفة التي خصّصها له، فيواسيه بكلمات، ثم يملأ له قدحاً من الكحول ويأمره بتجرّعها، معلنا أن الدواء الوحيد في مثل هذه الحالات هو النسيان، وأنه لا أحسن من السكر لنسيان الآلام الروحية^{3<<} فمصيبة بعطوش بما قام به كبيرة، لأنّ حالته أقدمت على الانتحار بعدما فعله بها بعطوش بأمر من الضابط، وهو اليوم يريد تحويله إلى عرييد مدمن على الخمر بدعوى أنها الأنجح في مداواة الإنسان وإجباره على النسيان.

أراد الضابط- فيما بعد- أن يعوّض نفسه ببعطوش عن اللاز الذي ألفه، ثم هرب وخانه، ولكن بعطوش راح يتأمل في هذا الضابط الذي يبدو في حدود الأربعين، متوسّط القامة...أيض

¹ الطاهر وطار، اللاز، صص110، 111.

² المصدر نفسه، ص152.

³ المصدر نفسه، ص186.

البشرة... نحيف الجسم... على عينيه الزرقاوين نظارات جميلة، في اطار ذهبي، ملامحه نسوية... في عنقه صليب ذهبي يتدلي من سلسلة رفيعة... أنامله جدّ قصيرة...¹، غير أنّ نهاية هذا التأمل والتدقيق في الضابط كانت وخيمة، حيث رفض بعطوش أن يكون له كما كان اللاز، وانتهى به الأمر إلى قتله، إذ غدر به وطعنه، ثم فجرّ الشكنة وهرب²، فكانت النهاية الضابط السفية، المريض والحقير على يد بعطوش، الذي أراد تصحيح خيانتة لقومه بإراحة أهل القرية منه ومن خبثه وجرائمه. فأنهى بذلك الصراع الداخلي والألم الدفين الذي رافقه طيلة فترة خيانتة.

ويقدّم (محمد ديب) في رواية "الحريق" صورة أخرى عن الشرطي المتأزّم والمتألّم من جرّاء ما يقوم به من إجرام، حيث يوضّح حميد سراج صورة شرطي التقى به ذات ليلة في (لونا برك) سأله حميد سراج عمّا إذا كان يرُقب موتاه لكنّه أنكر أنّ له موتى، ولما كذّبه حميد بأن أكثر الأموات هم له، وأنه إلى جانب ذلك يجمع الأطفال الجزائريين من السوق ويقودهم إلى السجن بدعوى الإجرام لم يجد الشرطي إلا الاعتراف أمامه، متأسفاً ونادماً، قائلاً له:

>> -أظنّ أنّي تألّمت الآن تألماً كافياً.

فزار الصوت يقول:

- ماذا؟

فقال الشرطي في أنين:

- بلغت من الألم درجة كافية، أودّ لو ألعب مع الأطفال.

- إنك لمهزّج وقح، أتقول هذا الآن؟ أنت تعرف كيف تخرج من المأزق، أنت الزيف نفسه.

وعاد صوت الشرطي وجلاً ملتمساً يدمدم مرّة أخرى:

- هيه.

(...)

¹الطاهر وطار، اللاز، ص210.

² ينظر: المصدر نفسه، ص211.

- وجدت رجالا مكبلين كالعبيد، فطعنتم.

(...)

- أنظر ألا تراني أبكي؟ إلى أين تذهب.

(...)

صرخ الشرطي:

- لا أريد... لا أين أنت؟

لا شيء، لا جواب، واستمرّ الشرطي يصرخ.

إنّ الأمور التي تُنس لا تكون أبداً في مثل هذا الهول. كان المطر يسيل على خديه كالدموع، وكان يحسّ ركضهم وراءه، أبسط شيء ألا ينظر إليهم...¹.

لقد حاول محمد ديب أن يبرز من خلال هذا الحوار بين حميد سراج والشرطي، توضيح المعاناة النفسية البليغة التي يحسّ بها هذا الأخير، الذي يعذب الأبرياء وينتزع منهم الأرواح، لم يجد إلاّ البكاء والندم على كلّ ما اقترفه في حقّ كل جزائري صار ميّتا على يديه، شعوره بالوحدة، جعله يطلب من الصوت الذي يخاطبه (صوت حميد سراج) البقاء بجانبه ليستأنس به. وفي هذا دليل على كون الشرطي عبداً مأمور من قبل سلطة استعمارية غاشمة، تسعى لبسط النفوذ والسيطرة على الشعوب من خلال رجال يعملون لصالحها ضمانا لمستقبلها الآمن في الجزائر.

من خلال ما سبق يتّضح أنّ صورة رجال السلطة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، برزت على مستوى المتن الروائي الجزائري ضمن أربع صور أساسية (محرورية)، وهي صورة رجل السلطة الظالم والمستبد، صورة رجل السلطة المراوغ والمخادع، صورة رجل السلطة المتمرد على أوامر سلطته، وصورة رجل السلطة المريض والمعقد والمتأزم، وقدّم لذلك الروائيون الجزائريون من خلال ذلك شخصيات متباينة، تتضح صفاتهم، إمّا عن طريق السرد المباشر والوصف، أو من خلال الحوار بين عدّة شخصيات، تظهر أهم

¹ محمد ديب، الحريق، ص ص165، 166.

السمات وأبرز الأفعال التي تميّز كل صورة على حدة، ولا ندّعي في ذلك الكمال والإحاطة بما كل ما هو وارد، وإنما هو على حسب النصوص الروائية الجزائرية. التي تم تحليلها واستنتاج الصورة، من خلالها.

المبحث الثاني: صورة المستوطنين الفرنسيين في الرواية الجزائرية:

يمثلّ المستوطنون الفرنسيون الفئة السكانية الأوروبية التي تحمل الجنسية الفرنسية، والتي تمّ تهجيرها من مختلف الأقطار الأوروبية، مقابل إغراءات وتشجيعات وذلك بمنحهم >> مميزات اقتصادية وسياسية كبيرة لترسيخ الفكرة القائلة بأنهم يقومون في سلوكهم هذا بعمل وطني ويؤدون رسالة قومية¹، حيث أرسلت إليهم مذكرات عديدة، من بينها: >> على الأشخاص الراغبين في الإقامة بالجزائر بصفتهم معمرين مستفيدين ضمن المراكز السكنية والقرى الفلاحية التي تشيّدتها الحكومة، توجيه طلباتهم مباشرة، أو عن طريق الولاية، وهذا أفضل إلى وزارة الحربية²، وقد تمّ تهجير الأوروبيين إلى الجزائر >> ومنحهم الجنسية الفرنسية فقدّمت إليهم الإدارة الفرنسية بالجزائر المساعدات، ووفّرت لهم الخدمات ومنحتهم الأراضي، وخفّضت الضرائب لكل أوروبي يرغب في الاستقرار بالجزائر³، وقد كانت هذه الفئات المهجرة >> تنحدر من أصول هاشمية في الهيكلة الاجتماعية الأوروبية⁴ حيث كانوا >> أناسا ذوي سيرة سيّئة وماض غير شريف مملوء بالسوابق، ينتمون إلى فئة المتشرّدين وشذّاذ الآفاق⁵. وهو ما يفسّر طغيان بعضهم واستبداده، في اغتصاب وانتهاك أراضي الجزائريين.

وفيما يخصّ الأملاك التي منحتهم إياها السلطة الفرنسية، فهي أملاك السكان الأصليين للجزائر التي انتزعت منهم عنوة، من خلال قرارات جائرة، حيث تمتّ مصادرة الأراضي والاستيلاء عليها، ومن

¹ حسينة حماميد، المستوطنون الأوروبيون والثورة الجزائرية، 1954-1962، منشورات الحبر، الجزائر، ط1، 2007م، ص21.

² عبد الحميد بوزوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، 1930-1900، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص149.

³ ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 2000م، ص31.

⁴ شريط أحمد شريط، دراسات ومقالات في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، الجزائر، 2003م، ص73.

⁵ يحي بوعزيز، سياسية التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية، 1830-1945، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص33.

تلك الأساليب ما عُرف بسياسة الأراضي المحروقة أو طريق الفتح بالسيف والمحراث¹، واتخذت بعض تلك الأراضي ملكا لها، حيث >>اعتبرت الأراضي التي كانت تابعة للسلطة الجزائرية قبل الاحتلال ملكا للإدارة الفرنسية باعتبارها وريثة السلطة التركية بالجزائر مع مصادرة الأراضي غير المستثمرة في مناطق محدّدة²، ونتيجة هذه المصادر طرد الجزائريون من أراضيهم، وهمشت وضعياتهم، إذ يعترف نابليون الثالث في رسالة بقوله: >>لقد طرد السكان من أراضيهم، واضطروا إلى اكتراء الأراضي المحتجزة التي هي ملك لهم منذ عهد سحيق، كما أبعدوا من السهول، فالتجأوا إلى الجبال حيث منعهم إدارة الغابات استغلال هذه الأماكن التي اتخذوها فيما سلف مراع لمواشيهم³ وكلما طالت المدّة التي أقام فيها الاحتلال في الجزائر، زاد توافد المستوطنين وهجرتهم إليه، وارتفعت تبعا لذلك مساحة الأراضي الزراعية التي أصبحوا يملكونها، واستعبدوا ملاكها من الأهالي وحولوهم إلى عمّال بالأجرة اليومية وخمسين موسمين⁴ بأجور زهيدة لا تعبّر عن الجهد المبذول ولا تلبّي أبسط حاجات أسرهم. ونتيجة استبداد وطغيان السلطة الاستعمارية، واجه الشعب الجزائري عامة والفلاحون خاصة ظروفًا قاسية وحياة مريرة تفشى من خلالها الجهل والمرض والفقر.

وقد تمّ نقل مشاهد من الحياة العامة، عن المستوطنين، وطبيعة تعاملهم مع الجزائريين، على مستوى الرواية الجزائرية، وتبعا لذلك تقضيّا عدداً من الروايات لتوضيح صورة المستوطن الأوروبي بمختلف المظاهر التي وردت بها، ضمن العناصر التالية:

1- صورة المستوطن المغتصب في الرواية الجزائرية:

تعدّ الصورة الطاغية للمستوطن الأوروبي في الجزائر، هي صورة المغتصب، وكما يفسّرنا ألبير مامي، كون المعمر هو من >>قدم غريبا إلى بلد بصدف التاريخ، وتوصلّ ليس فقط إلى إنهاض وضع

¹ ينظر: ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، ص23.

² المرجع نفسه، ص25.

³ عبد الحميد بوزوزو، نصوص ووثائق من تاريخ الجزائر ال معاصر 1830-1900، مقتطف من رسالة نابليون الثالث الطويلة إلى ماكما هون، بتاريخ: 20/06/1865م، ص163.

⁴ ينظر: يحيى بوعزيز، سياسية التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية، 1830-1945، ص33.

مريح له، بل إلى احتلال موقع ابن البلد، وإلى منح ذاته امتيازات مثيرة على حساب أصحاب الحق، وهذا الوضع ليس نتيجة قوانين محلية تُشرع بكيفية ما بعض تقاليد اللامساواة، بل يعود إلى قلب القواعد المعتمدة وإلى استبدالها بقواعده الخاصة، وبهذه الصيغة فهو مزدوج الظلم، أي أنه صاحب امتياز، كما أنّ امتياز غير مشروع، وبالتالي فهو مغتصب ليس فقط في نظر ابن المستعمرة، بل وفي نظره الذات¹، وفي الرواية الجزائرية عدّة نماذج من شخصيات المعمّر المغتصب.

تبرز في رواية "عقاب السنن" لعبد الجليل مرتاض، صورا عديدة عن المعمّرين الفرنسيين، لاسيما عند قدومهم إلى الجزائر، حيث يقول عنهم، أنّهم >> بعدما أغروا من فرنسا بشتّى الوعود المادية والأمنية والتسهيلات الخيالية، غادروا أهاليهم وبلداتهم، رغم ما فيها من مصانع وفرص مواتية للعمل، ثم انقضوا كالوحوش الضارية على أراضي أجدادنا الذين أفنتهم الثورات...²، وقد كانت حالة المعمّرين عند قدومهم إلى الجزائر، وفق ما يصورهم به محمد ديب في رواية "الحريق"، إذ أنّهم وصلوا إلى هذه البلاد بأحذية مثقوبة نعاهما، إنّ الناس هناك لا يزالون يذكرون الحالة التي كانوا عليها حين توافدوا إلى هذه البلاد، وهاهم الآن يملكون مساحات من الأراضي لا تُعدّ ولا تُحصى، وسكان بني بوبلان في أثناء ذلك تقطر أجسامهم عرقا ودما من أجل أن يزرعوا قطعة صغيرة من الأرض جيلا بعد جيل³ فاستمرّ بذلك شقاء الأهالي مقابل ترف المعمّرين واستغنائهم.

ومّا صور به (محمد مفلح) المعمّر المغتصب في روايته "زمن العشق والأخطار" المعمّر "ماسو" يحكي معلم القرية أن والده أخبره عنه أنه دخل قرية "العين" بحقيبة مهترئة وقبّعة سوداء⁴، ولكنه تغير حاله على غرار باقي المعمّرين، إذ ورث عواد النيلي- في الرواية- عن أبيه هكتارين، >> استولى "ماسو" على القطعة الخصبية المحاذية لوادي المر... غضب والدي مرّة مطالبًا بأرض ابن أخيه الوحيد، فقال له

¹ ألبير ماقّي، صورة المستعمر، تر: ميشال سَطّوف، منشورات ANEP، الجزائر، 2007م، ص13.

² عبد الجليل مرتاض، عقاب السنن، رابطة الأدب الحديث، القاهرة، ط1، 1990م، 1410هـ.

³ محمد ديب، الحريق، ص62.

⁴ ينظر: محمد مفلح، زمن العشق والأخطار، ص314.

ماسو بأنه اشترى هكتاراً واحداً من أخيه المتوفى... ولما طالبه والدي بعقد البيع، ضرب المعمر ماسو صدره قائلاً:

- أو تُكذّبي؟ هيا بنا إلى الثكنة.

وانحاز النقيب ل "ماسو"، واستسلم والدي... ولكنّ عواد النيلي، لم يرضخ للأمر الواقع... لا يمرّ شهر دون أن يلتقي بالمعمر "ماسو"، أو يقصده في ضيعته ليطالبه بالهكتار المغتصب¹.
إذ أنّ المعمر ماسو نموذج عن المعمر المغتصب الذي يلجأ إلى القانون ليحميه، ويزور الأوراق، ويخادع ويراوغ، همّه الوحيد كسب المزيد من الأراضي الخصبة، ولا اعتبار عنده لمن يطالب بحقه أو يسعى لاسترداده.

وفي رواية "على جبال الظهرة" ل(محمد ساري) صورة المعمر ربّ العمل أو الباترون، الذي كان يملك مزرعة جميلة وبنائات عصرية كبيرة،² وتلك الأراضي الخصبة التي تنتج قمحا ذهبيا، وفواكه لذيدة، قال لنا يوما بأنه اشتراها... ابن الكلب... لكنني عرفت من سي أحمد بأنه اغتصبها اغتصابا اشتراها بوسائل خسيصة... تهديد... طرد... وقمع بمساعدة العساكر²، وهي وسائل المعمرين في اغتصاب الأراضي الفلاحية والمزارع الغنّاء.

ويروي "علي" في رواية "شوك الأسي" ل(محمد المعراجي)، أنهم³ أصحاب أرض انتزعت منهم بدون شفقة ولا رحمة³، إذ كان يملك والده أرضا، ولكنه لم يقدر على تسديد الضريبة، التي بقيت دينا عليه، وأخذ من الشركة الفلاحية البذور ليزرعها على أن يدفع للشركة بعد انتهاء الموسم الفلاحي ما عليه من الدين، ولمصلحة الضرائب وما عليه من ضريبة، ولكن كان يسكن إلى جوار والده معمر فرنسي كان يرغب في الحصول على أرضه الخصبة، فوضع له الملح في الماء الذي سيقى به، إلى أن جفت أرضه ولم تنتج شيئا، فانتزعت منه الأرض بسب قحطها وعجزه عن دفع ديونه، واشترتها المعمر الذي كان إلى

¹ محمد مفلح، زمن العشق والأخطار، ص 323.

² محمد ساري، على جبال الظهرة، ص 26، 27.

³ محمد المعراجي، شوك الأسي، منشورات ANEP، الجزائر، ط 1، 2004م، ص 41، ما بعدها.

جواره، أو حصل عليها من الشركة التي صادرتها، إذ >قامت فرنسا بتوطين الفرنسيين في بلادنا في كل المناطق، وفي كل شبر يغتصب بالقوة، أو بالتحايل، وكان الوافدون إلى الجزائر من قدماء المحاربين أو من المنفيين السياسيين أو المساجين المجرمين، حتى لا يخطر ببالهم الرجوع إلى فرنسا مرة أخرى، وكان التوطين يقع باغتصاب الأراضي من الأهالي أو بشرائها، أو بانتزاعها عنوة بعد إغراق صاحبها في الديون <<1.

تلك هي الصورة التي طغت وسادت عن المعمّر، لأنّ همّه الوحيد اغتصاب الأراضي وامتلاكها، وتلك حقيقة واضحة، يعرفها الجميع، في ذلك الوقت، وبعد الاستقلال.

وفي الرواية نفسها "شوك الأسي" صورة المعمّر "أنطوان" الذي اغتصب أرض والد "سعيد"، يحكي "سعيد" ل "فاطمة" خادمة "أنطوان" وزوجته "أوجيني" عن كيفية اغتصاب أرض والده، إذ يذكرها قائلاً: >>أراك تنسين ما حدث لأبي منذ أكثر من عشرين سنة، ألم تقولي أنّ أنطوان هو الذي أخرج أبي من هذه الأرض، بعد محاكمات دامت خمس سنين، وحكم على أبي بالتخلي عن أرضه مقابل الديون التي كانت عليه لأنطوان، وأن هذا الأخير تركه في خدمته حتى لا يموت من الجوع، وحتى لا تضيع عائلته <<2. التي أصبحت خادمة في ملكها.

كما يحكي السيّد منصور ل "علي" عن المعمّر "أنطوان" قائلاً: >>إنّ القصة طويلة يا علي حدّثني في أمره معمرّ آخر، وقال لي بأنّه شرير نُفي من فرنسا، بعد أن سُجن بها عدّة أعوام، والصحيح أنه قام بجريمة هنالك فصار غير مرغوب فيه على أرض فرنسا، فخيّر بين البقاء في السجن طول حياته أو الذهاب إلى الجزائر ليستوطن بها، فاختار الهجاء إلى بلادنا، وباشر العمل عند معمرّ في ناحيتنا هذه (...). وعندما وقرّ مبلغاً من المال، توجه للبنك الفلاحي ليساعده على شراء ضيعة، فاشترى قطعة من الأرض فقط، ولم يبن فيها شيئاً لأنها كانت متاخمة لضيعتين أخريين، وبقي في سكن المعمّر الذي كان عاملاً عنده، والذي زوجته بنته أوجيني، وبعد ذلك اشترى إحدى الضيعتين المتاخمتين لأرضه، وهي للسيّد العربي الذي أفلس بعدما تكاثرت ديونه، ولم يستطع تسديدها، لأصحابها في أوانها، فحكم عليه

¹ محمد المعراجي، شوك الأسي، ص 27.

² المصدر نفسه، ص 23.

بالتخلي عن ضيعته، وهكذا صار أنطوان بعد هذه المناورات وبعد التأني الطويل والصبر العنيد سيّد هذه المزرعة، التي تعمل بها أنت¹.

لم يكن همّ المعمّرين في الجزائر سوى امتلاك الثروات مساكن وأراضٍ ومزارع وكان دفاعهم عنها شديداً. إذ ساد الخوف نفوسهم بقيام الثوار بعمليات الحرق لمزارعهم، وقتل العديد منهم، ممّا استدعى الأمر منهم إلى تشكيل منظمات سرّية لمحاربة المجاهدين الجزائريين، وذلك بعد مطالبتهم الجيش بالمساعدة في الحماية من هؤلاء، حفاظاً على مصالحهم وأراضيهم ومنتجاتهم، وممّا طالبوا به العقيد- في رواية شوك الأسي- التجنيد والتسليح، واعتقاداً منهم أنّه غير قادر هو وجيشيه على توفير الحماية والأمن لهم.

لقد سعى المعمّر أنطوان وجماعة المعمّرين من حوله إلى تشكيل منظمة سرّية سميت بـ **اليد الحمراء**، والتي عرض خطّتها أمامهم قائلاً: >أصدقائي نستطيع أن نكوّن منظمة سرّية تحافظ على مكتسباتنا وأموالنا، كما تحافظ على فرنسية الجزائر، وبالتالي تضمن مستقبلنا في هذه البلاد، نستغل الفرصة التي أتاحت لنا، فنقاوم المتمرّدين عن طريق الشعب، فنقوم في الليل مثلهم ونتوجّه إلى الريف، فنضرب مزارع الأعراب، ونقتل ثم نعود إلى بيوتنا، وبعد هذا نبثّ الدعاية أنّ جماعة من المتمرّدين قد هجموا على الفلاحين في المكان الفلاني، وهكذا نحمل المتمرّدين جرائم أخرى فنزرع الرعب في الريف، ونرغم العقيد على مواجهة المتمرّدين والبحث عنهم، وبهذا نعجّل بالقضاء على هذه الحركة التي صارت تهدّد وجودنا ومستقبلنا (...). على كل حال فالخطة بسيطة، المهم فيها أن يبق هذا السر بيننا، ولا دخل لجنود الوطن "الأم" فيه²، تحوّلت يد المعمّرين إلى يد حمراء للبطش والقتل وإثارة الفتن والرعب بين أوساط الأهالي، تريد حماية الممتلكات بنفسها، مستغنية عن الجنود والعساكر الذين بدأت تفقد الثقة في مقدرتهم على حماية المصالح وهدفها الأساسي في ذلك هو اضطهاد الشعب في الأرياف والمدن باسم المجاهدين ليثور الشعب على جبهة التحرير الوطني- آنذاك- ويصمّم الوشاية بها إلى جنود الاستعمار، وهو ما أخبرت به فاطمة سعيداً³، كونها خادمة المعمّر أنطوان وقد سمعت ما دار بين المعمّرين أثناء

¹ محمد المعراجي، شوك الأسي، ص35.

² المصدر نفسه، ص249.

³ المصدر نفسه، ص253.

اجتماعهم، وهو ما سهّل بكشف الخطة الدنيئة إلى أعلى قمة من المجاهدين والمسؤولين عن الثورة المسلحة.

وقد وردت في رواية "الحريق" ل(محمد ديب) مجموعة من شخصيات المعمّرين، ملاك أراض ووكلاء، وأصحاب مزارع-تبرز جشع المعمّر، ورغبته في استغلال طاقات الفلاحين الجزائريين، واستعبادهم والقسوة عليهم، إذ تنعدم في قلوبهم الرحمة والشفقة-ومن بينهم "مسيو أوغست" الذي يعدّ واحداً من المستوطنين الفرنسيين، يعمل لديه العديد من الفلاحين، يخضعون لأوامره، ويمثلون لقراراته. وهو رجل في الخمسين من عمره، وجهه وجه رجل حسن التغذية، يلعب شعره الوردية، وعلى ساقيه القويتين، يجثم جذع عريض، إن كرشه يطفح فوق حزامه.¹ وتلك الصورة دلالة على الشعب والترف، عكس الفلاحين الذين تبدو وجوههم مثقبة، وأيديهم خشنة، وعيونهم حزينة.

أما "مسيو ماركوس" فهو المالك الأصلي للمزرعة، في حين أنّ "مسيو أوغست" ما هو إلا وكيل لديه، لا يراه الفلاحون إلا نادراً، بوصوله إلى جمع الفلاحين يصمت وكيله، وقد حدث مرّة وتهدّمت عظام أحد الفلاحين إثر عمله بألة الحصاد، إذ علق بها ولم يتمكّن من التملّص من مفاصلها الفولاذية.² استدعت الحادثة حضور السيد "ماركوس"، الذي راح يطالب الفلاحين بالإسراع إلى العمل باللغة العربية، فلا شيء يهّمه سوى استمرار العمل، أما حزن الفلاحين على أخيهم-في رأيه-مجرد هراء³، ولكنه في إبعادهم كان ينوي عدم شرحهم للدرك ما حصل لذلك الفلاح، وحتى يتمكّن من تلفيق الحادثة كما يشاء، فهو كاذب مخادع مزيف للحقائق بإبعاد الشهود عن الدرك.

وتبدو صورته في الرواية من خلال وصف الكاتب، إذ يعدّ ذا ساقين قصيرتين عجيبتين، وذا خدين صغيرين⁴، وهو سيّد من كبار السادة، فهو نبيل سليل أسرة من المستعمرين، إنّه بالدم والثراء ابن عم عدد من السادة المشهورين¹ هم أصحاب مساحات شاسعة من الأراضي وورثتها.

¹ ينظر: محمد ديب، الحريق، ص106.

² ينظر: المصدر نفسه، ص105.

³ ينظر: عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ص258.

⁴ ينظر: محمد ديب، الحريق، ص107.

صورة "مسيو ماركوس" تبرز صورة المعمّر الثّري، المالك للمساحات والأراضي، غير المبالي بالفلاحين الجزائريين، لا بتعبهم ولا بموتهم، إضافة إلى كذبه وتزييفه للحقائق وتلفيق الأمور، لإبعاد الدرك عن تحقيقهم.

ويعد "مسيو فيار" صاحب المزرعة التي كان يعمل بها "باديدوش"، حيث يصوّره هذا الأخير، ويبرز كل سمات القسوة والظلم التي تميّز بها، إذ رمى به إلى الخارج هو وزوجته وأولاده، وكلّ ما يملكون من أمتعة، كانت ابنته الكبرى ريم، ذات السادسة عشر ربيعاً، تعمل في منزله، لقاء إطعامها فحسب وظلّت تعمل في منازلهم ستّ سنين، ثم مرضت، فما كان من "مسيو فيار" إلاّ أنّ طردها، غير مكثف بأنه أرهقها بالعمل، وماتت بعد ذلك بقليل، وسأله هل عنده ابنة أخرى، يقدّمها إليه. أمّا باديدوش رفض أن يعهد إليه بأيّ عمل²، يقول له قد هرمت.

انعدمت الرحمة في قلب "مسيو فيار"، باستغلاله لكل ما هو حي جاد ومفيد، ولا اعتبار له لكل من فقد قوّته أو هرم، لا يقدّم أيّ تعويض أو مقابل جراء نهاية الخدمة، وإثماً الطرد والقسوة هي مكافأته، فهو إلى جانب اغتصاب الأراضي والأملاك، يغتصب الأرواح والنفوس والجهد والعمر.

2- صورة المستوطن العنصري في الرواية الجزائرية:

يعاني كثير من الأشخاص من حبّ النفس والجنس الذي ينتمون إليه، أو حبّ العرق والدين وحتى المعتقد، ولا يعيرون أية قيمة، لمن يخالفهم أو ينتمي إلى فئة غير التي ينتمون إليها، والعنصرية الكولونيالية التي ميّزت بعض المعمّرين الأوروبيين في الجزائر المستعمرة، تعدّ من قبيل >مجموعة سلوكيات وردود أفعال مكتسبة، تتكرّر من الطفولة الأولى. ثابتة ومعزّزة بالتربية، تنغرس عفويا في الحركات والكلمات حتى الأكثر بساطة، إلى أن تبدو واحدة من أكثر البنى الاستدمارية صلابة، وهي بتكرار تدخلاتها وحدّتها في العلاقات الكولونيالية، ستبدو مذهلة إذا لم نقدر إلى أيّ درجة تساعده عنصريته هذه على

¹ ينظر: محمد ديب، الحريق، ص 108.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 176، 177.

الحياة، وتسمح باندماجه الاجتماعي^{1<<}، فكأثما صفة العنصرية لا مناص من اتّصاف المعمر بها، لأنها جزء ومكوّن مهم من مكوّنات شخصية الاستعمارية.

تواجهت صورة المعمر العنصري على مستوى العديد من الروايات الجزائرية اقتصرنا على بعضها، لتوضيح عناصر هذه الصورة، وكيفية توظيف الروائي لها. وتعدّ شخصية روني المالطي في رواية "طيور في الظهيرة" ل(مرزاق بقطاش) واحدة من صورة المعمرين العنصريين، إذ يعدّ روني حقوداً على فتیان الحي² يحاول استفزازهم ويلتجئ إلى الشرطة أو إلى السلطات العسكرية³ للتبليغ عنهم، إذا كانت هنالك مشكلة قد وقعوا فيها أو تسبّبوا في إثارتها. يقول عنه مراد أحد شبّان الحي: >المالطي القدر، لقد قدّم هو الآخر مساعدته للشرطة لكي تلقي القبض على الفتیان الأربعة، إنه يعمل على حماية الفرنسيين، مع أنه ليس فرنسا، فهو مالطي كمعظم العائلات الأوروبية الأخرى التي تسكن الحي^{4<<}. يصفه العرب بالقدر والكافر[>] روني مالطي، وهذا يعني أنه واحد من الكفار، كما قال له شيخ المسجد ذات يوم، فليس غريبا إذن أن يتعامل مع بني جلدته^{5<<} فهو حقود وقدر وكافر- حسب ما ورد في الرواية- ويأكل الخنزير.⁶ ولا يختلف في ذلك روني مع والده، الذي يعدّ بدوره إنسانا عنصريا وحقوداً، لا يسمح للأطفال باللعب، حيث خرج ذات يوم وانتهرهم أثناء لعبهم[>] ثم هدّد بإطلاق سراح كلبه الأسود الضخم، إن هم لم يبتعدوا عن الزقاق، ووجد الأطفال أنفسهم مضطّرين إلى التوقف عن تقاذف الكرة، فركنوا إلى مدخل دار جوزي دون أن ييدر أيّ تعليق من أحدهم^{7<<}، إذ لا يرغب ولا يشعر بالراحة تجاه الأطفال وهم فرحين منتشين يلعبون، كما أن في تخويفهم بالكلب الأسود دلالة على قسوة قلبه وحقده.

¹ ألبير ماتي، صورة المستعمر، تر: ميشال سطّوف، ص74.

² ينظر: مرزاق بقطاش، طيور في الظهيرة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص24.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص25.

⁴ المصدر نفسه، ص21.

⁵ المصدر نفسه، ص25.

⁶ ينظر: المصدر نفسه، ص36.

⁷ المصدر نفسه، ص33.

وقد كان والد روني يموت غيرة عندما يرى واحداً من أطفال الحيّ، قد ارتدى بذلة جديدة، لعلّه الآن يموت حقدًا، وهو يشاهد العشرات من الأطفال، يخرجون من ديارهم وعليهم ألبسة جديدة، يستقبلون بها العالم الدّراسي، لو استطاع أن يحرق الحيّ كلّه، لفعل الآن دون تردّد ولن يجد من الشرطة إلاّ نصراً ومؤيداً¹، وفي ذلك صورة عن عنصرية المالطي وحقده على الأطفال خاصة، ومع هذا فإن لديه حظوة عن الشرطة، وكأنها تشجعه على مثل هذه العداوة والبغضاء، والتي تبرز خاصة حيال جاره "نوربير" الإسباني، الذي وإن كان صريحاً، إلاّ أنه هو الآخر مغترّ وحقود،² لا يجب العرب، والخطأ ليس يعود إليه، فلعلّ زوجته تلك العنصرية هي التي أورثته حقدًا على العرب، إنَّها لا تكاد تُغيّر اعتباراً لهم، والويل لمن اقترب من دارها، فالكلاب ستكون في انتظاره، إن هي لم تلحق به³.

وقد كان هذا الإسباني مغترّاً⁴ يمزّ في الزقاق مع ابنه "كلود" وابنته "بوليت" كان يبدو عليه الزهو، رأسه يهتزّ بعصبيّة كعادته دائماً، كانت بينه وبين والد روني عداوة، فمنذ أن صدم "نوربير" بشاحنته جدار دار "روني" والعداوة تزداد يوماً بعد يوم، لأن "نوربير" لم يرد أن يقدم تعويضات عن الخسارة التي تسبّب فيها وابتسم مراد في قرارة نفسه وهو يشهد المنظر، نوربير أمامه يزداد امتلاءً وتفنجاً، ووالد روني ينكمش على نفسه غيرة وكمدًا، ثم يبصق على الأرض، فيبادر نوربير ويبصق ناحيته (...). ولم يطل الانتظار بمراد حتّى كان والد روني يصرخ بأعلى صوته واصفاً نوربير بأنه خنزير كبير، ويبادر هذا بجواب فاحش يجعله ينكمش على نفسه⁵. يوضّح هذا المشهد صورة المعمّرين الأوروبيين في أحياء المدينة، إذ أنّ كلّ عائلة منهم تنتمي إلى عرق معين، وهي قادمة من مختلف الأقطار في أوروبا، وهو ما أدّى إلى الانغلاق والانطواء على أنفسهم، وكرههم للعرب، وغيرتهم من بعضهم، وهي قمة العنصرية والحقد، حيث اندهش الطفل مراد من هذا المنظر أمامه، الذي لم يكن يتوقّع أن الأوروبيين تسود بينهم

¹ مرزاق بقطاش، طيور في الظهيرة، ص 54.

² المصدر نفسه، ص 55، 56...

³ المصدر نفسه، ص 54، 55.

مثل هذه الصراعات والنزاعات على خلاف ما تعلموه في المدارس¹ من أخلاق الأوروبيين، وكيف يتعيّن على العرب أن يقتدوا بهم، ويجذوا حذوهم.

وفي رواية "الانطباع الأخير" La Dernière impression ل(مالك حدّاد) نجد صورة المدير السيّد ريفير الذي يبدو رجلاً قصيراً، بعادات مستهجنة، ممتلئاً ذا نظرة مائلة، وله طريقة في حكّ أعلى فخذه، ويداه مختبّتان في جيوب سرواله، كانت من خواتم المضحكات وأحدث الفواحش، بحيث يمكن التكهّن بأنّ هناك ثقباً في البطانة.

ومّا يميّز به الدروس الوعظية التي كان يلقيها، وهو مرفوق باستمرار بكليته، أرستقراطي ألماني، يعتقد أنّ أحد أجداده هو الأستاذ نامبوس، وكان يتحوّل في الأروقة بمظهر غامض، وهناك انطباع دائم بأن السيّد ريفير يقوم بتحقيق في قضية ما، نذل وهو ليس بالذكي لا يهاب أحداً، وكونه لا يهاب أحداً ربما استنتج مسؤوله بأنه ذكي، لم يكن يخفي عنصريته.

وكان النظام هو حجّته العليا لإنسانيته الضامرة، إذ أنه في رمضان بحجة رفض أي عمل إضافي على مستخدمي قاعة الطعام، يمنع على الداخلين وجبة السّحور، الأمر الذي يجعل الصيام أكثر صعوبة.² وكان هذا المدعو الأدميرال ندلاً غير محبوب لا من الفرنسيين ولا من المسلمين لسوء تصرّفاته وعنصريته مع المعلمين والطلبة.

وفي رواية "فضل الليل على النهار" Ce que le jour doit à la nuit ل(ياسمينه حضرا)، صورة المعرّ العنصري الحقود "آندري" الملقّب بدادي، وهو صديق يونس الجزائري الملقّب هو لآخر من قبل زوجة عمّه الفرنسية بجوناس.

وكان والد آندري، السيّد "جيم جيميناز صوزا" مالكا لأهم مزرعة في المنطقة، ويعدّ آندري > نوعاً من الطاغية العادي، مستبدّاً مع عمّاله، ولكنّه لطيف مع جميع أصدقائه، طفل مدلّل، عادة ما يتلقّف ببذاءات لا يقدر أبعادها. بقي لومي له خفيفاً برغم الأقوال الجارحة التي يُصرّح بها اتجاه العرب. ولكنّ

¹ ينظر: مرزاك بقطاش، طيور في الظهيرة، ص 59.

² ينظر: مالك حدّاد، الانطباع الأخير، تر: السعيد بوطاجين، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت منشورات الاختلاف-الجزائر، ط1، 1429هـ، 2008م، ص 35، 36.

تعامله معي كان حذرا، يدعوني إلى بيته في كلّ المرّات التي يدعو فيها أصدقائي، دون أي تمييز غير أنّه لا يتردّد في توبيخ المسلمين العرب في حضوري، كما لو أنّها ممارسات طبيعية، كان أبوه يُقيم الدنيا ويقعدها في مزرعته، حيث يحشر كما البهائم العائلات الكثيرة المسلمة إلى تكدّ عنده. كان جيم جيميناز صوزا أوّل من يستيقظ وآخر من ينام، الخوذة الاستعمارية لاصقة على جمجمته، والسّوط يتدلّى على جزمة الفروسية، يشغلّ سجناءه إلى غاية الإرهاق، والويل للمتراضين، يعامل كرومه بتبجيل مطلق ويعتبر كل دخول غير مأذون إلى حقوله تدنيسا لا يغتفر، يُحكى أنه قتل معزة تجرّأت على الرعي في داليتيه، وأطلق النار على الراعية الطائشة، التي حاولت استرجاعها¹ يعامل آندري خادمه العربي بطريقة مزعجة ليونس وصديقه فابريس ويجد في ذلك لذة ماكرة في إزعاجهما، إذ >> بمجرّد أن عاد جلّول كلّفه بالعودة للمرة الرابعة، إلى القرية ليحلب له مفتاح العلب، دار الخادم، مراهق نُخيف على أعقابيه، وصعد الترعّة اللاهبة في وقت بداية الظهيرة، قال قريبه جوزي بلهجة احتجاج:

- داري، خفّف عنه قليلا...

ردّ آندري وهو يشبك يديه خلف رقبته:

- إنّها الطريقة الوحيدة لإبقائه يقظا، ترخي الحبل لحظة وتسمع شخيره في الدقيقة الموالية.

تدخل فابريس مدافعا:

- تصل الحرارة إلى 37 درجة، المسكين من لحم ودم مثلك ومثلي، سيصاب بضربة شمس.

وقف جوزي، مستعداً لإرجاع جلّول، أمسكه آندري من المعصم، وأجبره على الجلوس.

- لا تتدخل، جوزي، أنت لا تملك خدما، ولا تعرف طبيعتهم... إن العرب مثل الأخطبوط، يجب أن

تضربه كي يتمدّد...². وبذلك يبدو المعمّر الفرنسي (الأوروبي الذي يحمل الجنسية الفرنسية في الجزائر

المستعمرة) نفسه أفضل بكثير من العربي، فهو الذي يحتل مكانه، ويسيطر على أملاكه ومع ذلك يحقد

عليه، ويرى فيه أسوء المخلوقات، يشبّهه بالحيوانات المتوحشة، لا يستحقّ الراحة ولا الأمان، بل يجب

¹ ياسمينه خضرا، فضل الليل على النهار، تر: محمد ساري، دار سيديا، الجزائر، 2013م، ص ص 186، 187.

² المصدر نفسه، ص ص 188، 189.

ضربه واحتقاره وإهانته، وإثارة الفزع والخوف في نفسه حتى يبقى دائما في الخدمة، لا يدافع عن نفسه ولا يدفع عنها الأمل أو الإهانة.

3- صورة المستوطن المتمرد على بلده المتعايش مع الأهالي في الرواية الجزائرية:

لم يكن المستوطنون الفرنسيون في الجزائر المستعمرة، كلهم ظالمون مستبدون، أو قساة عنصريين حقودين، وإنما كان منهم المتسامحون والمتعاطفون مع الأهالي، متمردون بذلك على فرنسا المستعمرة، وعلى قوانينها، وقد برزت صور لنماذج من هؤلاء على مستوى الرواية الجزائرية، نلمس فيها نوعا من التعاطف والمساندة.

يعدّ المعمّر الفرنسي جاك روبير في رواية "عقاب السنين" لعبد الجليل مرتاض شخصية مثقفة رؤوفة، متعاطفة مع الأهالي الجزائريين، حيث يقول عنه "سي محمد" الطبيب، أنه >> فرنسي حرّ، يحتجّ على إهمال فرنسا لهذا الشعب، في هذه الخريطة المنسية من العالم¹<<، إذ التقيت به عائلة من تلمسان، كانت تبحث عن سيارة لإقالة ابنتهم المريضة إلى مستشفى بوهران، فكان لهذا المعمّر الأنيق أن ينقلها بسيارته الفاخرة، وقد بدا إثر ذلك فرنسيا شهما، في غاية الإنسانية والإيثار والشهامة²، غير أنّ تلك الفتاة قد توفيت، لتدهور حالتها الصحية، وهو ما أثار في نفسه، وحزّ في قلبه، فكتب إثر ذلك >> مقالة مؤثرة وحزينة ومزعجة للنظام، تحت عنوان قوم يموتون بلا حياة نشرها في جريدة (التلمساني الصغير) التي كان أحد ممونيهما، يتحدّث فيها عن الوضعية المزرية لسكان هذه المنطقة، التي وصفها بالجزء الجنوبي من فرنسا، والتي قال أنّ كلّ فرنسي حرّ لن يرضاها خوفا من انتشارها³.

وهو مع ذلك يرى أنّ فرنسا لا بدّ أنّ تحمي مستعمرتها هذه >> لأنّ الناس في هذه الجهة المحرومة والمنسية في مثل شعبي لهم "النار تحت التبن"، يجب على فرنسا أن تشقّ الطرقات، لأن بقاء البدو معزولين في غاباتهم، يحيون على طبعهم ليس من مصلحة فرنسا، ولا الفرنسيين في شيء، وعليها أن تبني المدارس

¹ عبد الجليل مرتاض، عقاب السنين، ص 64.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 64.

³ المصدر نفسه، ص 66.

لتعلّم القوم تاريخ فرنسا ودين المسح، وأن تُقيم الكنائس (...). إنّ أبرع بدوي في الفرنسية لا يعرف أكثر من "وي" أو "نو" إلاّ من تغرّب إلى فرنسا... تكوّنت لدى هؤلاء لغة فرنسية تباينت غير قليل عن فرنسيتنا النظيفة، عجباً! أوصل الضعف بالحكومة والإهمال إلى درجة عجزها ووهنها عن حماية وصيانة لغتها في هذا البلد رغم مضيّ أزيد من قرن على استعمارها؟ (...). إنّ شيخاً واحداً يتظاهر بالتودّد إلى القائد أو الحاكم يسوق رقاب قرية بكاملها وهو عبد ممقوت لديهم إلى حدّ لا يتصور، فاليهودي أو النصراني - كما يقولون - أحبّ عندهم منه، ويشيرون إليه جميعاً بأصابع الخيانة والكفر والاتهام...

إنّ المتصلّفين أو ممّن يعيشون في بروج عاجية ويسيّرون هذه المستعمرة العزيزة بالبرقيات والهاتف... لن يعجبهم مثل هذا القول، ولكن هذه المقالة من فرنسي غيور مثلي، ما هي إلاّ جزء قليل ممّا هو مطموس من حقائق كلّها معاناة، وإهمال وقساوة وعذاب... فإنّ ما حدث لهذه الفتاة وسواها من القرويين المهملين في هذا الجزء المنسي من خريطة العالم، يجعلني أميل إلى القول بأنّ في هذه المستعمرة الحبيبة، مستعمرة الضياء والهواء والشمس والخير... قوما يموتون بلا حياة¹.

وبذلك تُظهر صورة السيد روبر كل معاني العطف والرأفة بالأهالي الجزائريين، وهو إنسان مثقف إذ يعدّ أحد ممّوني المجلة، ومن جهة أخرى رفع قلمه للوقوف في وجه من يدّعون أن المستعمرة، بخير وكلّ ما فيها يدعو إلى تحضّر الشعب المتخلّف، في حين أنه وجد وكشف أنّ الواقع عكس ما هو رائج لاسيما ما يصل إلى السلطات الفرنسية بفرنسا.

ويرى أن الناس محرومة، ولا انفتاح على المدن، عزلة قاتلة في البدو وجاهل، بكل القيم الفرنسية ولغتها ودينها، وهو ما يتنافى مع ادّعاء الرسالة الحضارية في هذا البلد، وبذلك يتّهم الحكومة بالضعف والإهمال، والعجز والوهن عن تسيير مستعمرة، يعيش أهاليها على الحافة ويموتون دون حياة.

وهو بذلك يمثّل المواطن الغيور على وطنه وعلى تاريخه وقيمه ومبادئه. ولكنه بالنسبة للكثيرين مواطن متمرّد عاصٍ، خارج عن القانون، يقدم مساعدته للأهالي الذين تسعى السلطة الاستعمارية إلى إبادتهم بشتى الطرق وإخضاعهم بكلّ السُّبل.

¹ عبد الجليل مرتاض، عقاب السنين، ص 66، وما بعدها.

ومن المواقف الإنسانية التي قام بها السيد "جاك رويير"، والذي اكتُشف فيما بعد أنه أصبح مديراً لأحد السجون الفرنسية بتلمسان، إذ تمّ إيقاف عبد القادر بن إبراهيم وسجنه، ولكنّ السيد رويير توسّط له لدى الحاكم العام لعمالة تلمسان لإطلاق سراحه، قائلاً: ¹ >فأنيّ قد زكّيته بشرفي تبعاً لما أعرف عن كُتب في عائلته وذويه من إخلاص لفرنسا واستقامة في الامتثال إلى القوانين، ولا أدلّ على هذا من وجود شقيقه قدور في حرب آسيا جنبا إلى جنب مع أبنائنا وإخواننا الفرنسيين، دفاعاً عن شرف فرنسا إثباتاً لوجودها في العالم¹، وهو ما أدّى إلى إطلاق سراحه بسبب تلك الشفاعة، ولم يكتف السيد رويير بذلك، إذ كان رؤوفاً به فقدم² له نقوداً تكفيه للسياحة وتذكره الحافلة، واقتناء وشراء بعض الهدايا، خاصة من الحلويات والفواكه الغريبة على بلدته، وكذا بعض الأكسية والأحذية الخفيفة، ولم يقصد السيد جاك من وراء تلك الالتفاتة الجميلة إلاّ هذا، فهو أدري بكماليات البلاد ونقائصها وما يجبّ البدو وما يكرهون².² إنّها صورة مشرّفة لمواطن فرنسي رؤوف متعاطف، إنساني إلى درجة عصيان أوامر أمته وقادتها العسكريين، يرحم الأهالي ويُعينهم، ويسعى للنهوض بهم وإخراجهم ممّا هم فيه من ظلم وجهل وفقر.

وفي رواية "هلاييل" لسَمير قسيمي نجد صورة شخصية فرنسية في غاية النبل والإنسانية، صورة المترجم الفرنسي سيباستيان دي لاكروا، الذي كان يعمل تحت إمرة الضابط بوتان عام 1808م وهو ضابط البحرية الذي كلّفه وزير الحربية الفرنسية عام 1808م بجمع المعلومات الضرورية، لوضع خطة واضحة بهدف احتلال الجزائر³، غير أنّ سيباستيان دي لاكروا قدّم شهادته أمام اللجنة الإفريقية المكونة من مجموعة من الوزراء والقادة، قائلاً: ³ >ولكّنيّ اليوم قد أوفدكم جلالة الملك لتقصّي حقيقتي ما يجري في الجزائر، وبعدها اتخذ ما يجب لإحلال العدالة وإنصاف من ظلموا في هذه الأرض، أقول لكم أنّ الحضارة التي حملناها من فرنسا إلى هنا. لم تكن إلاّ شعاراً تافهاً لطّخناه بدماء أبرياء لم يحملوا حتى

¹ عبد الجليل مرتاض، عقاب السنين، ص141.

² المصدر نفسه، ص143.

³ ينظر: سمير قسيمي، هلاييل، الدار العربية للعلوم ناشرون-لبنان، منشورات الاختلاف-الجزائر، ط1، 1431هـ-2010م، ص128.

السلاح في وجوهنا، وإن حملوه ففرنسا أعلم من غيرها بشرف المحارب الذي يجب أن يُصان حتى بعد هزيمته، فما بالكم سيدي الجنرال بما أصبح جنودنا يقترفوه من تنكيل ومذابح باسم الشريفة فرنسا التي تبرأ منها¹. لم يخف سياستيان من الحاضرين، وأدلى شهادته كما أملت عليها نفسه الشريفة وأخلاقه النبيلة، لاسيما وأنه وجد الغرض الأساسي الذي ذهب من أجله إلى الجزائر، كما أوهمه به الضابط بوتان، بشأن غزو الجزائر >ليس الاستئثار بها واحتلالها، ولكن تخليصها من الترك وتحريرها، لذلك أترجك أن تنظر إلى الأمر بعين المدرك لمهمة الأمة الفرنسية، نحو كامل الإنسانية، وبالأخص تلك المجتمعات البدائية لتذوق أخيرا طعم الحضارة² التي حُرمت منه طيلة فتراتهما السابقة.

فالرسالة الحضارية هي غاية الفرنسيين في الجزائر، المتهممة بالتخلف والوحشية في حين يري سياستيان دي لاكروا أنه لما كان في السفينة يرقب مدينة الجزائر من بعيد >أثناء ذلك كنت سارحا في الساحل الذي تراءى لي قطعة من الجنة بدا البحر أكثر زرقة، والرمال حبات ثلج أو بساط قطن، تمتئث في سرّي أن تتجاهل الريح أمر الضابط بوتان، وتسير لوروكان [السفينة] صوب تلك الشواطئ... فقط لو يحملها الموج إلى ذلك الساحل لأدقق في تلك الحصون، وأملأ عينيّ بمشهد مدينة الجزائر، التي قيل لي أنها من النظافة ما يُعني أي سائر عن الانتعال³، وهي عكس الصورة التي روجتها فرنسا عن الجزائر.

يعدّ "سياستيان دي لاكروا" -وفق هذا النص- إنسانا نبيلًا صادقًا، لا يزيّف الحقائق ولا يخاف لومة لائم، وإنما يشهد بما رأى واكتشف، ويسعى لكشفه أمام أعلى القوات في البلاد، ويعترف قائلًا: >أعرف سيدي الجنرال بوني، أنني فكّرت في مغادرة الجزائر أكثر من مرّة، خاصة بعد أن ظهر لي أن فكرة تصدير الحضارة إلى هذه الأرض، لم يكن إلاّ حلما مخادعا⁴ وقد أدّى هذا الحلم إلى استعمار الجزائر وتدميرها، التنكيل بأبنائها وقبائلها. إذ يكشف أيضا حقيقة الدوق دي رافيجوا والذي يرى أن

¹ سمير قسيمي، هلايل، ص 129.

² المصدر نفسه، ص 132.

³ المصدر نفسه، ص 133.

⁴ المصدر نفسه، ص 140.

التاريخ سيحفظ اسمه >> لا كقائد عام، بل كسفاح لا يفخر أيّ فرنسي شريف أن ينسب إليه <<¹، وهذا نتيجة جرائمه التي قادهها في الجزائر، حيث يقول عنه "الربيعة" شيخ قبيلة العوفية في الجزائر آنذاك لسيباستيان دي لاكروا: >> دوقكم جاء ليقتل ويبيد، لا ليتحدث ويفاوض، فما حاجته لرجل يتقن تسع أو مائة لغة، إن اللغة الوحيدة التي يجب حديثها والاستماع إليها، هي لغة البارود والقذائف <<²، وقد قال "الربيعة" ذلك بسبب مجزرة الدوق في كتشاوة، والتي راح ضحيتها العديد من الجزائريين الأبرياء. وكان الربيعة يرى أن فرنسا الداخل (أي فرنسا وحكومتها الداخلية في بلادها) بحقوقها للإنسان وعدالتها والأخوة التي تنادي بها بين المواطنين الفرنسيين، >> هي نفسها فرنسا الخارج واستبدادها وجرائمها ضد الإنسانية، وعبثا حاول خوجة أن يحكم بيننا، فحتى هو كانت تتقاسمه مشاعره بين فرنسا "الكتب" أو فرنسا VITELL وفرنسا الدوق دي رافيغو <<³.

يرى سيباستيان دي لاكروا أنّ شيوخ الجزائر لم يكونوا غافلين عمّا هو واقع. وأنّ ما يمارس ضدّ شعبهم من قتل وتنكيل واستبداد وطغيان-لاسيما من الدوق دي رافيغو- في بداية الاحتلال، لا يتوافق مع ما تنادي به فرنسا من حقوق الإنسان ومساواة وعدالة وإيحاء.

وقد كان يحمل سيباستيان راية الفرنسي الشريف الذي لا يقبل الإهانة لبلده ومواطنيه ولا يرض بالاهانة لشعب مسالم، يعيش في أرضه في معزل عن المشاكل والصراعات. ومّا قام به سيباستيان دي لاكروا >> تهريب الجنود الفرنسيين الفارين من الخدمة، ولم يكن لديّ أدنى شك في أنهم سيصلون إلى عاجلا أم آجلا، إذ لم يكن أحد يجهد معارضي لانحراف غاية الحملة من تهريب مجهل معارضي لانحراف غاية الحملة من تحرير الجزائريين من حكم الأتراك وضمان الامتيازات الفرنسية، إلى احتلال كامل لهذه الأرض، ولعلّ الأصوات التي بدأت تجدد صداها في الإليزيه في ضرورة قمع الأهالي بشتى الوسائل حتى الإبادة، جعلتني مقتنعا بضرورة العمل ضدّ ما أسميته موت الضمير، فشكّلت فرقة من الجنود المؤمنين بمبادئ (...). تحولت مهمّتنا من إيقاظ الضمير الإنساني في الأمة الفرنسية إلى عمليات

¹ سمير قسيبي، هلايل، ص 141.

² المصدر نفسه، ص 152.

³ المصدر نفسه، ص 153.

متواضعة لتهريب بعض الجنود¹. فهو يمثل صوت الفرنسي الشريف الواعي بالمبادئ النبيلة لفرنسا المتحضرة والشريفة، ولكنه في الوقت نفسه يمثل الفرنسي العاصي المتمرد على قوانين حكّامه وقادته. ولعلّ ذلك يبرز من خلال تهريبه للجنود وإعادتهم إلى فرنسا. وقد ساعده في ذلك الربيع-الذي أصبح محلّ ثقته بعد لقاءات عديدة بينهما، وحوارات مطوّلة بشأن ما يقع في الجزائر- إذ ساعده² في تهريب أكثر من أربعين رجلاً انطلاقاً من ميناء صغير بوادي الحراش يحمل كل سنة في قارب صيد، حتى يصلون عرض البحر بعيداً عن بواخر الأسطول الفرنسي ومناظرهم، لتحملهم من هناك سفينة تجارية، اكترها لهذا الغرض، إلى مرسيليا حيث يدخلونها بهيئة بحارة³، ولم يكن سبباً سياسياً متمرداً وعاصياً لقادته فقط بل متعاوناً مع أعدائهم، وذلك خاصة بعد مذبحّة العوفية التي لم يعد قادراً إثرها على البقاء في هذه الأرض، كما يقول: >> ولم يعد إيماني بنيل الأمة الفرنسية راسخاً، كما كان قبل تلك المذبحة، أصبح واضحاً أن قدومنا إلى هذه الأرض لم تكن غايته إلاّ استئصال أصحابها والحلول محلّهم، ومع هذا كنتُ آمل بوجود رجال لازالت مبادئ الأخلاق تسري في عروقهم أن تنظر فرنسا إلى عورتها وتستترها قبل أن تنحلّ إلى الأبد³.

يقدم سمير قسيمي من خلال هذه الرواية شهادة من فرنسي نبيل وإنساني عن فضاعة الجرائم التي ارتكبتها فرنسا وعن حساستها ومكرها وزيفها، جعل تلك الشهادة من أحد أبنائها، حتى تكون قيمتها أرفع، وصددها أبلغ من أن تكون على لسان أحد الجزائريين المغلوب على أمرهم، جعل شهادة الفرنسي كدليل على التناقض الموجود بين الفرنسيين العنصريين الاستدماريين، والفرنسيين النبلاء الشريفين وقد ركّز على كلمة الشرف أكثر من مرة، كما وضّح خيبة أمله في هذه الأمة التي تدّعي الشرف والنبل، فهي صورة متمرد وخائن في نظر الفرنسيين الغزاة المستعمرين.

¹ سمير قسيمي، هلايل، ص 161.

² المصدر نفسه، ص 165.

³ المصدر نفسه، ص 174.

4- صورة الجزائر الفرنسية من منظور المستوطنين في الرواية الجزائرية:

أصبحت الجزائر من منظور المستوطنين الفرنسيين أرضاً فرنسية، لاسيما أولئك الذين وُلدوا بها، ودرسوا وتعلّموا، أو الذين كانت لديهم أملاك ومزارع يقومون على تدبير شؤونها، في حين أن فرنسا تبقى هي الوطن الأم.

والهجرة المتبادلة بين الجزائر وفرنسا، كانت أمراً عادياً، كونها تدور في إطار الدولة والسلطة نفسها، وقد أورد (مولود فرعون) العديد من العبارات التي توضّح طبيعة الهجرة إلى فرنسا خاصة من خلال روايته "الدروب الوعرة" *les chemins qui montent* ، إذ يقول عامر في الرواية أنّ الزيارات متبادلة بين الجزائر وفرنسا، وقد فُتح مجال هذه الزيارة من طرف الفرنسيين منذ قرن تقريباً، أمّا زيارات الجزائريين إلى فرنسا فتصل إلى حوالي النصف قرن، وأن ذلك يعدّ من باب التبادل الأخوي¹، لاسيما وأنّ عامر كان من أب جزائري وأم فرنسية.

ويرى عامر أنّ الفرنسيين غزوا البلاد، ووزّعت السلطة الفرنسية الحاكمة الأسلحة والمعدّات والمواشي والأراضي والمنازل، لاستقرارهم في بلادنا أسياداً، محفوفين بالرعاية استثمروا الأراضي لصالحهم، ولا يشعرون اليوم إلاّ بأنهم في وطنهم، وكلّما قدم أحدهم إلى فرنسا، شعر أنه مواطن وليس مهاجر، ولا يلبث أن يصبح من الأغنياء المترفين لما يجد من تسهيلات وترقيات سريعة، حتى أصبحت هذه السرعة في التحوّل إلى الأحسن نكتة من طرف الجزائريين². ويقدم مولود فرعون ضمن الرواية نفسها قصّة مهاجر جزائري كان يُقيم بفرنسا ويبيع الخردة، وكلّما وجد في فرنسا متشرداً نائماً على قارعة الطريق أو في الساحات العمومية، إلاّ ونصحه بالذهاب إلى الجزائر، أين سيتبدّل حاله، ويستغني وقد يصبح شيخ بلدية³ في الانتخابات القادمة، والله على كل شيء قدير.

أمّا موقف المعمّرين الفرنسيين المولودين بالجزائر، من الأرض الجزائرية، فهي بلدهم وموطنهم الثاني، ويقولون للفرنسيين المتواجدين بفرنسا:

¹Mouloud Feraoun, *Les Chemins qui montent*, ENAG/ Editions, Alger , 2011, p231

²Ibid, p232

³Ibid, p140

- أندرون من هم الجزائريون؟ نحن الجزائريون، والجزائر هي نحن، انظروا ما أنجزنا من أعمال واشكروا نعمتنا يا سادة فرنسا، ولا يسمح أحد منكم لنفسه بانتقادنا. ولكن الأمر يختلف إذا ما خاطب هؤلاء الجزائريين، فإذا اسمعوهم يقولون أنهم جزائريون يرّدون عليهم:

- أنتم جزائريون...؟ إذن ولكن، ماذا تتصوّرون أنتم يا جماعة "الآنديجين"، هل تعتقدون أننا سواسية؟ فلتعلموا إذن أننا فرنسيون... عودوا إلى أماكنكم الحقيرة واعرفوا قدركم وقدرنا... أو تريدون الرمي بنا إلى البحر، أيها الغدارون النكارون للخير...؟ أنقذينا يا فرنسا من شر هؤلاء¹. فالفرنسيون يعتبرون أنفسهم جزائريو فرنسا، ولا يسمحون للجزائريين الأصليين أو الأهالي من القول بأنهم جزائريون، لما في ذلك من دعوة إلى المساواة بينهم في الحقوق والواجبات، ذلك أنهم يعتبرون الأهالي لا يستحقّون إلاّ المراتب الحقيرة والوضيعة، ويخافون من شرّ انتقامهم منهم.

وقد اعتزى عامر- في الرواية- ضحك من الفرنسيين أبناء المعمّرين وبناتهم، اللذين كانوا على ظهر السفينة، حيث أنهم بعد أن قضوا عطلة الصيف في فرنسا، يتصوّرون أنهم عائدون إلى بلادهم، وهم يتفاخرون بذلك، ضحك عامر منهم وقال في نفسه: أنتم مخطئون يا سادة، فالبلاد التي تتوجّهون إليها ليست بلادكم²، وذلك بعدما لُقّبهُ الفرنسيون في فرنسا بالبيكو، قائلين ارحل إلى بلدك يا بيكو، فهناك عرف أنّ فرنسا ليست بلده، كما أن الجزائر ليست أرض فرنسا، وليست ببلادهم.

5- صورة فرنسا من منظور المهاجرين الجزائريين في الرواية الجزائرية:

لطالما كانت فرنسا قبلة للهجرة الجزائرية، وإن كانت في ذلك مدعّمة من طرف السلطات الاستعمارية الفرنسية، حيث نظّمتها وأخضعتها لقوانين وقرارات حاسمة، تتزايد من خلالها الهجرة مرّات، وتتناقص مرّات أخرى، وذلك وفق ما يستجدّ من أوضاع وظروف تتعلّق بإرادة فرنسا، من حيث حاجتها إلى اليد العاملة، التي بدأت تتناقص هناك بسبب مغادرة الفرنسيين إلى المستعمرات، أو الذين

¹Mouloud Feraoun, Les Chemins qui montent, p233

²Ibid, p140

جندوا في الجيش الفرنسي لخوض الحرب القائمة¹. وقد كانت من نتائج الحرب حاجة فرنسا إلى اليد العاملة الجزائرية² للمساهمة في حركة البناء والتشييد بعد الخسائر المادية والبشرية التي تعرّضت لها. غير أنّ هجرة الجزائريين إلى فرنسا أتاحت للمهاجرين فرصة اكتشاف > حياة جديدة تختلف عن حياتهم التعسفية والمخنوقة بالجزائر، وقد أتاحت لهم الفرصة للاحتكاك بالمجتمع الفرنسي، والتعرّف على عقلية الطبقة العامة والاطّلاع على الاتجاهات السياسية المختلفة هناك، وكيف يتمتّع الناس بالحرية التي فقدوها في وطنهم³، فلجأ الكثير من الجزائريين إلى الهجرة دفعا للظروف القاسية المعاشة وبحثا عن مكاسب للقوت والحياة الكريمة.

وقد تعرّضت الرواية الجزائرية، لموقف الشباب الجزائري المحروم آنذاك من فرنسا، ليس كسلطة استعمارية، وإنما كبلد مستقبل للعمال، يرون فيه مكسب للرزق والقوت ويقول عن ذلك عامر في رواية "الدروب الوعرة" ل(مولود فرعون): أمّا نحن أهل البلاد، فلم يبق لناشئ في بلادنا، وما بقي لنا إذن إلاّ أن نذهب بدورنا إلى بلادهم... ولكن لا لنحتلّ المناصب، ولا لنجمع الثروات، بل لكي نحصل على رغيف العيش، سواء عن طريق العمل الشريف، أو التّسوّل، أو السرقة، وهذه هي الصّفقة الخاسرة التي يرغموننا عليها، والحقيقة أن بلادنا ليست فقيرة أكثر من البلدان الأخرى⁴.

تعدّ الهجرة إلى فرنسا قبلة لمن يريد النجاح في حياته، ومما يوصي به الآباء الجزائريون أبناءهم، حيث ينصح رمضان إبنه فوغولو منراد في رواية "ابن الفقير" Le Fils du pauvre ل(مولود فرعون)، بالهجرة إلى فرنسا والعمل بها، إذ يقول له: > وعلى مدى سنتين أو ثلاث، ستصبح أكثر قوة لتذهب للعمل في فرنسا، وسترى حينها أنك بشهادتيك، ستتدبّر أمورك أفضل منّا جميعا، لن تعرف المشاق التي عرفتتها أنا، إنّ فرنسا جميلة جداً، ستري كلّ شيء، وستفهم كلّ شيء، وعند عودتك سنزوّجك، تلك هي

¹ينظر: إدريس خضير، البحث في تاريخ الجزائر ال حديث1830-1962، دار العرب للنشر والتوزيع، وهران، 2006م، ج1، ص297

²ينظر: عمار بوحوش، العمال الجزائريون في فرنسا، دراسة تحليلية، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، 2008م، ص135.

³ينظر: إدريس خضير، البحث في تاريخ الجزائر ال حديث1830-1962، ج1، ص ص 207، 208.

⁴Mouloud Feraoun, Les Chemins qui montent, p234

الحياة التي أقرحها عليك، إنها الحياة الوحيدة التي تليق بنا...¹ ، فبالهجرة إلى فرنسا نُحل المشاكل العائلية المتعلقة بالمستقبل الآمن، ومصدر القوت الكريم.

ومّا يُنصح به الشباب المهاجر إلى فرنسا، التّخلي عن المبادئ والأخلاق والحياء ونسيان إلى أي مجتمع ينتمي، إذ يقول العم دحمان ل"عامر": > إذا أردت النجاح في فرنسا، كن دائما جريئا وشجاعا، كنت أنا أبيع الخردة (...). وينبغي ألا أنسى أنني في فرنسا لا في بلاد القبائل، ويجب عليّ ألا أقيم أي اعتبار للمبادئ (...). نعم يا ولدي، لا بد في فرنسا من السرقة والكذب والشكوى وإثارة عطف الناس أما الحياء، فإني أحذرك منه². وبذلك فإنّ فرنسا لا تعني لهم أكثر من مصدر كسب رزق، ونجاح في العمل، وهي بلد تنعدم فيه الأخلاق والمبادئ والحياء.

والمهاجر الجزائري الذي يرغب العودة إلى بلده، عليه التفكير في عدّة أمور، يتخلّى عن بعضها، ويستحضر الذي قد بدأ ينساه عن أهله وقومه حتّى لا يعود غريبا عنهم وعن عاداتهم وطباعهم، ويقول عن ذلك عبد الجليل مرتاض في رواية "عقاب السنين": > وكان الواحد قبل أن يعود إلى قريته، يفكر في "الرزّة" أزيد ممّا كان يشغل باله باقتناء الهدايا لعائلته وذويه، إلّا أنه كان لا يؤخذ إذا ما دخل القرية، وهو لافّ شعره برزة صفراء، والتي يوارى بها شعره المقصوص قصا قصيرا حتى لا يكون مثل النصارى أو الكفار، وهنا تستثار همم الشباب توقا إلى الهجرة ونبد المحارث الخشبية (العربية) أو محرث (النصارى) الحديدي، وإلقاء المناجل إلى الجحيم ومهاجر الدواب والمواشي والحقول، وشغل أي شغل في فرنسا، مهما كان نوعه، أليس العمل الشريف؟ وتزداد إثارتهم جنونا حين يحكي لهم العائد عن مظاهر حضارية وترفهية وجمالية ونسوية، فتحكي لهم عن الحافلات الضخمة المتواردة على المواقع لنقل الركاب من جميع فئات الأجناس والألوان... وعن السيارات المختلفة حجما وشكلا، والتي تكتظ بها الشوارع وتضيق بما رحبت... وعن مراكب غريبة تسير سيراً رهيباً في ظلام دامس في أنفاق تحت الأرض، اسمها المترو... وعن مدفئات منزلية تُغني السّكان عن (لاموضا) و(بورابح) و(التّليس)، أفلام سينمائية غرامية

¹Mouloud Feraoun, Le Fils du pauvre, Editions TALANTIKIT ,Bejaia , Algerie , 2015 , p 158

²Mouloud Feraoun, Les Chemins qui montent, p222

إباحية، وأخرى تاريخية أو بوليسية... فيكرهون أنفسهم، ويتمنى ابن السابعة عشرة لو كان ابن الثالثة والعشرين... ويقبلون على الحرث أو الحصاد أو الدرس... كسالى متثاقلين مترددين تحت أصوات آبائهم أو سبّ تعبير أمهاتهم¹. فكانت تبدو لهؤلاء الشباب أنّ الحياة تفتح يديها وأذرعها للمهاجر إلى فرنسا، تُغنيه عن الشقاء والتعب، وتُثريه كل مظاهر المتعة والجمال، وتلك هي صورة فرنسا، كما اكتشفها المهاجر الجزائري المحروم من كل المعاني الإنسانية، والحياة الكريمة.

6- صورة المستوطن الفرنسي المغادر للجزائر بعد الاستقلال:

بإعلان استقلال الجزائر، غادر الفرنسيون حكومة وشعبا الأرض الجزائرية، غير أنّ ذلك الرحيل لم يكن بالأمر السهل بالنسبة للمعمّرين (الأقدام السوداء) بعدما تمت مطالبتهم بلمّ متاعهم والتخلّص من أملاكهم بالبيع بأثمان زهيدة، أو تركها دون مالك. صوّرت رواية (ياسمينه حضرا) "فضل الليل على النهار"، بعضا من مظاهر ومواقف المعمّرين المرّحلين إلى فرنسا، وهم يتركون وراءهم بيوتا وأحياء ألفوها وألفتهم: >تعصف ريحٌ هلعة على السكان الأوروبيين، انفتح موسم "الحقيرة أو التابوت"، تمّت الرحلات الأولى للهجرة في فوضى عارمة، انقضت التيارات الراححة، تحت الأمتعة والشهقات باتجاه الميناء والمطارات، والآخرون باتجاه المغرب، ينتظر المتأخرون بيع ممتلكاتهم قبل الشروع في الرحيل، في التسرّع تباع المحلات والمنازل والسيارات والمصانع والورشات بأثمان زهيدة، أحيانا لا يجد الأوروبي الوقت لانتظار الشاري، ولا حتى لتحضير حقييته الخاصة² إذ لا يسع أحداً أن يحمل شيئاً من الممتلكات إلّا نقوداً أو مجوهرات يمكن حملها في الحقائب.

وقد سادت وجوه المهجّرين كآبة وحزن وجحوظ للعيون، يُوجد > في الشارع الرئيسي عدد كبير من السيارات والشاحنات والعربات، تاريخه بأكمله يستعدّ لمغادرة المكان، في محطة القطار يتربّح حشد فقد حاسة التوجّه، وصول قطار انتظره طويلا، يركض الناس من مكان إلى آخر، تائهيّن، عيونهم جاحظة، يشبهون عميانا أطلقوا في الطبيعة، أهملهم أولياؤهم الصالحون، ولم يعد للجنون والخوف والغرف والمأساة

¹ عبد الجليل مرتاض، عقاب السنين، ص ص 4، 5.

² ياسمينه حضرا، فضل الليل على النهار، ص ص 476، 477.

إلاّ وجه واحد: هو وجوههم¹. وتعلت أصوات الصّراح والبكاء والحيرة، إذ كانت السيّدة "لامبير" ترفع يديها إلى السماء وتضربهما على فخذيها: >> أين سأذهب؟ أين سأذهب؟ ليس لديّ أولاد ولا أقرباء في أي مكان²، وقد كان رئيس البلدية يحاول تهدئتهم، وهم في حالة من الهلع، كما أنّ الجدّ "روسيلو"، كان يأمر الناس بالعودة >> نحن هنا في منازلنا وأرضنا، لن نذهب إلى أيّ مكان³ فهو من الذين رفضوا المغادرة، كونه من أكبر أغنياء ريو سالادو بممتلكاته وعقاراته ومزارعه.

أما السيّد "آندري صوزا" (المعمّر العنصري) فقد بقي في حانته المفتوحة للريح من الجهات الأربعة، والكراسي والطاولات المكسّرة، يلعب البليار كعادته، يتحدّث بعصبية: إتني في داري، وهو في حالة بائسة كلّها حزن وبكاء وأسى، وانتهى به الأمر إلى رش الحانة بجميع مرافقها بالبزنين ثم إشعال النار التي أكلت كل شيء، وهو يتفرّج على التهابها، وبعدها غادر القرية⁴. المهم أنه اطمئنّ أن لا أحد يستمتع بها من بعده.

وفي الميناء كانت حالة المهجرّين يثرى لها، حيث >> كانت الأرصفة غاصّة بالمسافرين، والأمتعة ومناديل الوداع، تنتظر السفن الإبحار متمايلة تحت حزن المهجرّين، هناك عائلات تبحث عن أفرادها وسط الضوضاء، أطفال يبكون، شيوخ ينامون فوق أصرة أمتعتهم، أضناهم اليأس، يدعون في نومهم أن لا يستيقظوا أبداً⁵ خوفا من مستقبلهم المجهول في فرنسا، وكيف ستصير أحوالهم فيها.

بعد وصول المعمرّين إلى فرنسا، أصبح يطلق عليهم اسم: الأقدام السوداء، يقول أحدهم >> تصوّر؟ لا يسموننا إلاّ بالأقدام السّود الآن، كما لو أنّنا مشينا طوال حياتنا في الشحم الأسود...⁶، وتلك التسمية كانت للفرقة بينهم وبين سكان فرنسا الأصليين.

¹ ياسمينة حضرا، فضل الليل على النهار ، ص477.

² المصدر نفسه ، ص478.

³ المصدر نفسه، ص479.

⁴ ينظر: المصدر نفسه، ص480.

⁵ المصدر نفسه ، ص487.

⁶ المصدر نفسه، ص496.

وقد أُلّف الشاب يونس الملقّب بجوناس صداقة مجموعة من الشباب الأوروبيين، سكن في حيّهم وتعلّم في مدارسهم، ولعب رفقتهم، حاول بعد الاستقلال أن يبحث عن صديقه الفرنسية "إيميلي" التي هاجرت إلى فرنسا، وهناك تنقّل بين العديد من الأحياء والمقاهي والفنادق، وتبدّى له أن الأقدام السوداء يعودتهم إلى فرنسا، يتميّزون بـ[>] لهجة القرى الجزائرية، ولا تزال الوجوه تحمل سمرة شمس الضفة الجنوبية، يكوّرون حرف "ر" مثلما نكوّر الكسكسي بمتعة كبيرة، مهما ابتعد حديثهم وطاف حول العالم، إلاّ أنه يعود لا محالة إلى الجزائر، لا تلوك أفواههم إلاّ اسم الجزائر^{<1} وذلك لأن معظمهم ولد بالجزائر وترعرع بها، ولم يزر فرنسا إلاّ لقضاء عطلة أو الذهاب في نزهة.

وبقي ارتباط الأقدام السوداء بالجزائر قويا، مهما كانت طباعهم ومواقفهم من الأهالي آنذاك، عنصريين حقودين، أو متسامحين متعايشين، إلاّ أنهم يعتبرون أنفسهم اليوم-بعدالمغادرة-أيتام البلد، وذلك ما صرّح به أندري صوزا، الذي أخبره يونس أنّه بعد رحيلهم أصبح يتيم الأصدقاء². ويقول أندري أنه كلّما فكّر في هجرته من الجزائر إلاّ وتمزّقت أحشاؤه، والدليل على ذلك أنّهم لا يقولون "نوستالجيا" بل يقولون "نوستالجيريا"نسبة إلى الجزائر. وبعد أن[>] تنفّس بعمق لمعت عيناه تحت ضوء المصباح، اعترف قائلاً:

-الجزائر لاصقة بجلدي، تارة تثير في حكّة مثل بذلة نيسوس، وتارة أخرى تعطّرني مثل عطر مسكر، أحاول التملّص منها، ولا أستطيع، كيف أنسى؟ أردت شطب ذكريات الطفولة، والشباب، المرور إلى شيء آخر، الانطلاق من الصفر، محاولات فاشلة، أنا لست قطعاً ولا أملك إلا حياة واحدة، وحياتي بقيت هناك في البلد، حاولت جمع جميع البشائع لأقيته، بلا جدوى، الشمس، الشواطئ، أزقتنا طبخنا، بسكراتنا الرائعة، وأيامنا السعيدة تتغلب على غضبي، فأجد نفسي أبتسم في اللحظة التي أكون فيها مستعداً للعض^{<3}. ويعدّ هذا الاعتراف من المعرّر أندري دليلاً قوياً على سعادته في الجزائر، مع أنّه كان عنصرياً، يكره العرب، ويقهر عمّاله الأهالي إهانة وضرباً، إلاّ أنه يرى في الجزائر الجنة المفقودة، وهو

¹ياسمينه حضرا، فضل الليل على النهار ، ص497.

² ينظر: المصدر نفسه، ص ص 523، 524.

³ المصدر نفسه ، ص524.

بحديثه عن ذكرياته في الجزائر، يستعمل نون الجماعة (طنجنا، أزقتنا، سكراتنا...) فالجزائر كانت بمثابة الملك المنتزع وهي اليوم بالنسبة إليهم في خبر كان، إذ افتقدوا الجمال الطبيعي من ثمن وشواطئ ومجر، ولم يكن البديل بأجمل منها، وإن تحقّظ الكاتب عن ذكر أحوالهم الجديدة في فرنسا، وكيف هم يعيشون بعد العودة، وفي حينهم الشديد دليل على أنها ليست بأحسن ممّا كانوا عليه.

يقول غوستاف-صديق يونس- من الأقدام السوداء: > لو غادرنا البلد بمحض إرادتنا لهان الأمر ولكننا أُجبرنا على الهجرة، أُجبرنا على ترك ديارنا، وممتلكاتنا والذهب في استعجال كارثي، حقائبنا معبأة بالأشباح والأحزان، جرّدونا من كلّ شيء بما في ذلك أرواحنا، لم يتركوا لنا شيئا، ولا حتى العيون لنبكي، وهذا ظلم جوناس، ليس جميع الناس كانوا معمرين، وكان لهم سوط يتجبرّون به، نحن أيضا كان لنا فقراؤنا وأحياءنا الفقيرة، ومهمّشونا وناسنا أصحاب الإرادات الحسنة، وحرفيون الأصغر من حفريّكم، ونقوم غالبا بنفس الأدعية، لماذا وضعونا جميعا في قفص واحد؟ لماذا حملونا أوزار كمشة من الإقطاعيين؟ لماذا أرادوا إقناعا بأننا غرباء على أرض رأّت مولد آبائنا وأجدادنا وآباء أجدادنا، وأنا كُنّا مغتصبي بلد بنيناه بأيدينا وسقيناه بعرقنا ودمائنا؟... طالما لم نتلق جوابا، سوف لن يندمل الجرح¹ وذلك هو موقف غوستاف الذي كثيرا ما كان متسامحا ومتعايشا مع العرب، مسالما لا يهينهم ولا يحقد عليهم، ولكنّ مصيره كان كمصير صديقه أندري العنصري، وهذا ما آلمه، لأنه كان يعتبر نفسه ابن البلد المتعايش، فلماذا يطرد ويجرّد من كلّ الممتلكات.

¹ياسمينه حضرا، فضل الليل على النهار، ص526.

المبحث الثالث: صورة المرأة المستوطنة الفرنسية في الرواية الجزائرية:

وردت صورة المرأة المستوطنة أو المعمّرة في الرواية الجزائرية، في مواضع عديدة، وبنماذج متباينة، وتبعاً لذلك يتم من خلال هذا المبحث توضيح صورتها، والصفات التي ألحقها بها الروائيون في نصوصهم المختارة للتحليل، إذ تنوّعت صورتها بين المرأة المتحرّرة والمتمردة، والمرأة العنصرية، والمرأة المتعايشة والمساندة للجزائري، إلى جانب صورة المرأة المثقفة.

1- صورة المرأة المستوطنة المتحرّرة والمتمردة:

تبرز في رواية "شوك الأسي" ل(محمد المعراجي)، صورة فتاة فرنسية، هي ابنة المعمّر أنطوان والسيدة أوجيني، تدعى "ماري" طالبة في الجامعة بالجزائر، تتوفّر على جميع ضروريات الحياة وكمالياتها، كان والدها صاحب مزرعة يملك ثروة حيوانية كبيرة، ومن بينها جواد عربي أصيل، تحبّ "ماري" تحبّ ركوبه، والتجول عبره في المزرعة، تمتاز بأناقة وجمال، غير أنها فتاة متحرّرة من كل الضوابط العائلية، وترغب في التمرد عليها، يصفها الروائي بأنها ذات شعر >> أشقر مسترسل على كتفيها، تداعبه الرياح وتعبث به يمينا وشمالا، في حركة فنية منقطعة النظير، إن ماري تشعر خلال تعاطيها لهذه الرياضة بالحرية المطلقة (...). المهم عندها هو أن تفعل ما تريد دون قيد أو شرط، ودون أن تأخذ بعين الاعتبار الملاحظات التي توجه لها من طرف والدها أو والدتها، هذه هي الحرية بأتم معناها في نظرها، وهذا شيء جديد بالنسبة لجيلها المتشبع بكتب "جان بول سارتر" و"سيمون دي بوفوار"، إنها تريد أن تضع لنفسها عالما مستقلا عن عالم والديها، سواء أحبّا أم كرها، فالحياة عندها هي الوجود المتميّز عن الآخرين في القرارات، في المبادرات وفي الأعمال إذا دعت الضرورة إلى ذلك¹. وهي بذلك فتاة متحرّرة، تريد أن تعيش الحياة بعنفوانها، ومغامراتها.

كان يشتغل لدى والدها، شاب عربي اسمه "علي"، يختص في تصليح السيّارات والجرارات، غير أن "ماري" وضعت عينها عليه، وأرادت أن تعيش رفقته نوعا من المغامرة التي قرأت أو سمعت عنها، ولكن هذا الشاب لم يُعربها اهتماما، تقول عنه في نفسها، أنّ هذا الشاب قلبه ميّت لا محالة، >> وهذا لا

¹ محمد المعراجي، شوك الأسي، صص 110، 111.

يحتاج إلى أدلة لإثباته... إنه يناهز الثلاثين من عمره، ويعيش وحده في غربة متوحشة... لا يجب... فلا ينظر إليّ مثلاً بنظرة تتمتع قلبه بما أملك من جمال ورشاقة في الحركات... آه كأني أنفخ في رماد أو أصبح في واد، إنهم أشباح أو أشباه أشخاص¹ غير أنّ محاولة إغرائه لم تكن عن حبّ له، وإنما رغبة منها في التمرد على الحياة، والتحرّر من بعض القيود التي تثبّطها، وهي بذلك مغرورة، معتدّة بنفسها وجمالها، لا تُقيم أيّ حساب للمستقبل، إذ تقول في نفسها: >> ...آه، كم أنا بليدة، لماذا أبحث المستقبل والحاضر بين يدي؟ إن هذا التفكير ركيك حقاً... الحاضر بين يدي... الطبيعة فتانة... الحوض لامع... والهواء دافئ ونقي... وأنا أخيراً في وسط العالم الذي يأبى الوصف لمن يملك قلباً وإحساساً رهيفاً وخيالاً بلا حدود... أنا في وسط هذا العالم كالدّمية تلعب بها أيد بريئة... أنا كالعسل... كالنسيم... كالنار الملتهبة... أنا وسط هذا العالم كالساحرة أغيّرُ معالمه، فأجعل ميثه حياً... يا لها من أفكار سامية، لم لا أقوم بتجربة بعد الغداء؟...²

تعدّ ماري بذلك الوصف فتاة شقراء، جميلة وأنيقة، حيوية ونشيطة، معجبة بعالم الجمال والطبيعة الخلاب في مزرعة والدها، كالجنة الخضراء، تريد التمرد على الحياة، بتجربة كل ما يخطر على بالها، إذ حاولت بعد خطة مدرّسة الإيقاع بالشاب "علي" بعد مشاعر رومانسية اعترتها، فانتهزت فرصة غياب والديها والخادمة فاطمة، وأبجّتهت إلى المزرعة، وقرّرت السباحة في النهر عارية، ولعبت دور الغارقة، وراحت تُنادي علي "علي" لينقذها، ولكنّ "علي" كان يبدو في نظرها أبلّة، حيث لم يفهم قصدها من كلّ هذه التمثيلية، وقد بلغت به إلى درجات متقدمة الإغراء، إلا أنه لم يبال بها³، وهو ما زاد من غضبها وعنفها، وحقدتها عليه، حيث لم يرغب في مشاركتها مغامرة طالما فكّرت وحلمت في تجريبها. وفي إحدى المرات، وهو يقود سيارة والده، لينقل "ماري" إلى المدينة حاولت استفزازه انتقاماً من تصرفاته البادرة تجاهها:

¹ محمد المعراجي، شوك الأسي، ص 111.

² المصدر نفسه، ص 112.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 124 وما بعدها

>> - ألم يُعجبك جسمي يا وحش؟ سوف أذهب من هنا وتشوّق إلى رؤية جسم امرأة، فلن تراه ولو في الجنة، وتندم على الفرصة التي أحتتها لك... وهبْتُ لك جسمي، فرفضته، ودعوتك على الكونيك فرفضته... ما السبب في ذلك؟ إنك لا محالة متمرد تخشى أن تكشف أسرارك فيلقى عليك القبض¹ حاول "علي" أن يشرح بكل ما أوتي من سبل موقفه ووضعه كإنسان مغلوب على أمره، عامل في مزرعة، لا كلمة له، ولا حرّية، أنّ أهله وقومه وبلده، تحت استعمار قومها وأهلها وبلدها، ومع ذلك زادت في استفزازاتها قائلة:

>> - رجل مسلم! كلمة جميلة! ولكنك لا تستطيع الاعتداء عليّ حتى ولو كنت مجردة من أي وسيلة للمقاومة، ومع هذا فأنا أعتبر موقفك اعتداء لأن عدم الاعتراف بالجمال في نظري اعتداء عليه²، أحسن "علي" بأن "ماري" لا تضمر له في نفسها إلاّ خطراً فقال لها:

>> - إنك جميلة بالفعل يا ماري، وأنا لا أسمح لنفسي ولو بالتفكير المجرد أن أمسّ هذا الجمال خشية أن أفعل شيئاً لا يليق³ فقال تلك الجملة حتّى يواسي نفسيها التي أحسنّ بأنها مجروحة.

فراحت "ماري" تتصوّر نفسها جوليات، وتتصوره روميو، بعد هذا الاعتراف من "علي" لأنّها كانت ترى أنّ الأعراب وحوش لا يملكون قلباً ولا عواطف ولا مشاعر، ولكن تماديها في الاقتراب منه، ومعانقته، جعلته يقبلها قبله عنيقة اكتشفت من خلالها إنسانية "علي"، غيرت إزاءها كلّ مواقفها تجاهه، فقالت في نفسها: >> إن تجرّبي هذه فريدة من نوعها، ليست من تجربة الوجوديين، ولا من تجربة الماديين، إنّها تجربة إنسانية، لقاء إنساني في قمة الحب المستحيل.. مستحيل اجتماعياً لأنّ العرب في نظرنا نحن الفرنسيين مجتمع متأخر فاسد لا يصلح للحضارة، إنهم في الدرك الأسفل من البشرية، فأبي هو الأول لا يصفهم إلاّ بالبلادة والكسل، وأمثال أبي كثيرون، ومع هذا فأبي لا يمكنه تصليح سيارة إذا أصيب محرّكها، ولا يوافق على أنه جاهل في هذا المجال على الأقل... أما رفاقي في الجامعة، فلا يصفون العرب إلاّ بصفة الفئران، ولا أدري لماذا، لأنهم يسكنون الأكواخ، أم لأنّ الكوخ الواحد تسكنه عائلة فيها ما

¹ محمد المعراجي، شوك الأسي، ص 168.

² المصدر نفسه، ص 170.

³ المصدر نفسه، ص 170.

لا يقلّ عن عشرة أشخاص غالبا؟ وما هو ذنبهم يا ترى؟ ثم شعرت بالحياء يغمرها، فاعتبرت نفسها معتدية عليه، كما أثبت لها ذلك¹، وهو ما جعلها تتأسّف، وتطلب الاعتذار منه، وقد تغيّرت مواقف "ماري" تجاهه، ووعدته بالمساعدة في أي وقت احتاج إليها.

لقد أعادت "ماري" حساباتها، ونظرتها للحياة ولمن حولها بفعل موقف "علي" وكلامه، الذي اكتشفت من خلاله، أنها لا بد أن تفكر في ما فتها من دروسها الماضية، التي لم تتمكن بفضلها من التفريق بين الصالح والطالح، حيث تقول لفاطمة: >أفكر في هؤلاء الثوار، ولا أقول المتمردين، لأنني أفهم وأعي ما أقول، وفي حالتهم في الجبال وما يقاسونه من برد وجوع وحرمان، وكلّ ذلك من أجل أهداف سامية وقضية عادية، إنهم يطالبون في الواقع بشيء بسيط وهو استقلالهم واسترجاع كرامتهم، وما دام هذا الاستقلال وهذه الكرامة يتعارضان مع مصالح "الوطن الأم" فإنهم متمرّدون في نظرها، خارجون عن القانون، ثمّ أتساءل هل المصالح لفرنسا فقط؟ أليس لأبناء هذه الأرض المحرومة هم كذلك مصالح؟ أليس لهم الحق في تسيير أمورهم بأنفسهم؟ وهل تنقصهم الكفاءة في ذلك؟ أليسوا أشخاصا مثلنا لهم عقولهم وقلوبهم؟ (...). ثمّ فكّرت كذلك وتبيّن لي أنّ هذه الحركة الثورية ستنجح مهما كانت الأوضاع، لأنها تعبّر عن آمال هذا الشعب الصامت الذي لا يتكلم كثيرا وإنما يعيش بأحلامه وآماله، وينتظر اليوم الذي يقع فيه الانفراج وتدبّ الحرية في عروقه، فيُخرج كلّ طاقاته لاستعادة ما فاتته من جهل، بمثل الصبر الذي صبر كلّ هذه المدة من الاحتلال وحيثُ فقط يكون التآخي بيننا ونستطيع الكلام بوضوح، فالجزائر ليست أرضا فرنسية يا فاطمة...²

يعدّ هذا الاعتراف من "ماري" بمثابة الموقف الإيجابي تجاه القضية الوطنية، حيث تبدي تعاطفا ومساندة في الفكر مع الثوار الجزائريين، الذين تعتبرهم أمّتها الفرنسية متمرّدين خارجين عن القانون، فهي تعترف بوجودهم، وأحقّيتهم في الدفاع عن أنفسهم وعن وطنهم، كما تؤمن بنجاحهم وقدرتهم على بناء وطنهم.

¹محمد المعراجي، شوك الأسي، ص173.

²المصدر نفسه، ص235، 236.

تمرد الفتاة "ماري" لم يكن على الحياة ومحاوله عيشها بعنفوانها وحيويتها فحسب، وإنما هو تمرد أيضا على القيم والمبادئ التي يؤمن بها شعبها ووالدها خاصة، وبذلك نجد أنّ الكاتب قد جعل صورة هذه الفتاة متغيرة غير ثابتة على طول المتن الروائي، وإنما حدث اصطدم ومنعطف لفكر هذه الفتاة المتمردة، والتي لا تقول أنها تغيرت من حيث السمة الأساسية التي تميزها وهي التمرد، وإنما حدث انعطاف في طبيعة التمرد، الذي كان متجها نحو البحث عن تجربة المغامرات الغرامية، والعبث في الحياة والتجرد من القيود والضوابط العائلية، إلى التمرد على القوانين السارية المفعول بالنسبة إلى الأمة الفرنسية التي تنتمي إليها من حيث أن الأهالي الجزائريين متوحشون وجاهلة، جاء الفرنسيون لإخراجهم من جهلهم، وتحضيرهم، وأن الجزائر أرض فرنسية، إذ عرفت حقيقة كل هذه الترهات، واعترفت بأحقية الشعب الجزائري في تقرير مصيره، وأن الجزائر ليست بالأرض الفرنسية مطلقا وذلك بفضل حوارها مع "علي" الذي أبدى كل سمات الرزاة والقوة، والنبيل الإنساني وقد وقفت "ماري" في وجه والدها في العديد من المواقف، لاسيما تلك المتعلقة بالعلاقة الفرنسية مع الجزائريين، حيث وجه إليها يوماً سؤالا عمّا إذا كانت تحبُّ أحداً ما، لشرودها وتفكيرها البعيد عن الواقع الذي هي فيه، فقالت له افترض أيّ أحب عريبا، فكانت إجابته لها:

>> - أحبّي من تشائين حتى الكلاب فلا أعترض، ولكن حبّ العرب شيء لا يمكن أن أقبله بأي حال من الأحوال، أعتقد أنك تمزحين وأنّ هذا الكلام، إنما هو من باب التّحدي لفصاحتي، بيد أنّي أطيل الكلام في هذا الموضوع، لأني لا أتصوّره، ويستحيل أن أتصوّره، فما بالك إن كان ذلك من باب الواقع، فإني سأنتحر وأقتل معي محبوبك، حتى لا أترك العار في عائلتي يمشي على قدميه من بعدي، فهل أنت مقتنعة؟¹، كان يمثل السيّد "أنطوان" والد "ماري" المعمر الفرنسي في قمة عنصريته وحقده على العرب، ولذلك يعدّ تصرفها معه في قمة التمرد، بقولها أنها تحبّ عريبا، ودخولها في حوار بين طرفين متناقضين، بين عنصري حقوق على العرب، وبين متسامحة ومتعايشة مع العرب، متمردة على أمتها وبلدها، يقول السيّد أنطوان لأبنته:

¹محمد المعراجي، شوك الأسي، ص267.

>> انظري حولك تري الأعراب يتخبّطون في العجز المخيف والكسل الذريع، فلو كانوا مثلنا لما وقعوا تحت سيطرتنا دون أن يحركوا ساكننا، أم أنّك تنظرين إلى زمرة الأشرار الفلاقة الذين تسرّبوا من جبال الأوراس، فقد أصبحت أقرّ في نفسي، أنّ هناك رجلا أو رجالا فرنسيين وراء هذا الخروج على القانون... فالعرب لا يعرفون القانون، فما بالك أن يخرجوا عليه، إنهم مجرد مستعملين فقط، وهذا ما بدأ يستقرّ في ذهني، لقد استعملتهم فرنسا، تحت قيادتها الحكيمة ضد الألمان، فقاموا بأعمال وحشية سجّلها التاريخ ضدّهم، ولم يسجّلها ضدّ فرنسا، بل لقد أثبتت فرنسا للعالم أنّها كانت ضد الوحشية في الحرب بالقضاء على عدد كبير من الأهالي الجزائريين في سنة 1945¹، وهو يحاول تبرير حقه على الجزائريين بأنهم وحوش، أغبياء عنيفون، ولا يستحقون أن يكونوا ثواراً، أو مدافعين عن أنفسهم، ضد الفرنسيين إلّا إذا كان وراءهم فرنسيون يسيرون تلك الخطط الهجومية والتنظيمات الثورية، فالأهالي قاصرون عن ذلك عقلا وفكراً وإرادة.

ومع ذلك فقد كانت ابنته "ماري" ضدّه في تفكيره السليبي العنصري المتطرف قائلة: >> لا تريد معرفة الحقائق لأنها مرّة، ولك الحق أن تحتفظ برأيك، ولكن ثق أن التاريخ سجّل كلّ هذا، إمّا لك وإمّا عليك (...). الوقت الحالي يقتضي منك ألاّ تعتمد التّطرف لأنّ ذلك ضدّ مصلحتك² وتقول له في موقف آخر: >> إنّك متطرف يا أبي وأخشى أن يكون تطرّفك هذا سببا في أحداث خطيرة ولهذا أردت أن أنير سبيلك، ولكنك لم تقبل كلامي، مدّعيا أنني بعيدة عن الواقع³، تبدو "ماري" في نظر والدها وأشباهه من المعمرين متطرّفة متمرّدة على الواقع الاستعماري، تقف إلى جانب المتمرّدين من الجزائريين والفلاقة وبالتالي يبقى استعمال كلمة متمرّد متوافق مع كلّ ما هو مخالف للمبدأ أو القانون والفكر.

صورة "ماري" في الرواية، تجمع العديد من الصفات، حاولنا تتبّعها إلى النهاية، لأنها لا تلتزم بالرتابة والسكون، بل هي متغيرة بفعل تغيّر المسبّبات. إذ تعدّ في بداية الرواية فتاة جميلة جدّابة، أنيقة ومثقفة، متكبرّة متبحّرة تحبّ الطبيعة، والحياة السعيدة، ولكن وفق ما تراه هي، متمرّدة على كلّ ما

¹ محمد المعراجي، شوك الأسي، ص ص 267، 268.

² المصدر نفسه، ص 269.

³ المصدر نفسه، ص 270.

يتوافق مع تفكيرها وإرادتها، تبحث عن سعادة تتوقعها في حرية تجربة المغامرات العاطفية، حتى وإن كانت رفقة عربي طالما اعتبرته المتوحش، الحيوان المنعدم الإحساس والمشاعر، تتعمد الإغراء والتمثيل للإيقاع بمن تريد، ولكن التغيير الحاصل من خلال موقف هذا العربي الأبله، الذي أراها الوجه الرزين والقوي، والموقف السليم، وشرح لها الوضع والواقع، جعل تمرّد الفتاة ينقلب رأساً على عقب، إلى تمرّد على الأهل والأمة المستعمرة إلى فتاة تؤمن بالمبادئ الإنسانية للشعوب المقهورة، وبانتصار قضيتها التحررية يوماً ما.

2- صورة المرأة المستوطنة المتعايشة مع الجزائري:

وردت صورة المرأة المتعايشة مع العربي في الجزائر المستعمرة، ضمن العديد من الروايات الجزائرية، حيث تتميز بالمساندة والمساعدة لزوجها، أو ابنها أو أحد أفراد عائلة زوجها.

يقدم (ياسمينه خضرا) في رواية "فضل الليل على النهار" صورة للسيدة "جيرمان" زوجة عم يونس، وهي سيدة في الأربعين من عمرها، صهباء[>] جميلة بوجه دائري وعينين كبريتين خضراوين (...). كانت امرأة قوية بمركات فضة أحيانا رجولية تقريبا (...). تفوح عطراً طيباً مثل حقل من الخزامى^{<<1} وقد كانت لطيفة مبتسمة حنونة، عطوفة على الطفل يونس الذي أصبحت تناديه جوناس، وقد اعتنت بتربيته وتنظيفه وتعليمه إلى أن أصبح شاباً وسيماً مثقفاً، يمتهن الصيدلية، ويعمل في صيدليتها.

والسيدة "جيرمان" مسيحية، تقوم كل يوم أحد بقداستها، حيث[>] تنزوي في غرفتها راکعة على ركبتيها أمام صليب، وتغرق في دعاء طويل، ليس لديها عائلة في أوروبا، ولكنها تطلب الله من كامل قواه كي تتغلب الحكمة على الجنون^{<<2} وبذلك يصورها الكاتب بأنها امرأة مخلصنة متديّنة، تدعو الله لانتصار الحكمة ولسيادة الخير بين الناس والعدل والأمان، وقد كانت زوجة عمّ يونس المناضل السياسي الجزائري، وهي مع ذلك تعينه، وتتفهم مشاعره، وأحزانه والضغوطات التي يقع فيها نتيجة عمله السياسي، تعمل كل ما في وسعها لإسعاده.

¹ياسمينه خضرا، فضل الليل على النهار، ص91.

²المصدر نفسه، ص270.

كما أنّها تتمتع بمشاعر الأمومة على الرغم من أنه ليس لديها أولاد، فعوّضت نفسها بهم بتربية يونس، الذي تبنته، وهو من أب وأمّ جزائريين، وهي أوروبية ومع ذلك غمرته بكلّ مشاعر الأم الحنون والعطوف، إلى جانب التضحية في سبيل إنقاذ ابنها إن تعرّض إلى مكروه.

ولعلّ أشرف وأنبّل موقف قدّمته السيّدة "جيرمان" لابن جوناس، يوم دخلت الصيدلية جماعة من المجاهدين يصطحبون معهم جريحاً حالته صعبة، وقد كان هذا الأخير عضواً فعالاً في المقاومة المسلّحة، فهدّد أحدهم جوناس، بأن حياته بين يديه، وإن لم يُفلح في إنقاذه، فسيكون مصيره الموت، إلّا أنّ جوناس ليست له خبرة بالجراحة، كونه صيدلي إثر ذلك تدخّلت السيّدة "جيرمان" حاولت إبعاد جوناس عن المكان، بدعوى أنّه لا يحسن الجراحة، وأنّها هي من ستتولى معالجته، مع أنّها هي الأخرى لا تتقن ذلك- فطلبت منه الابتعاد، وكانت ترسل إليه شفرات لم يتمكّن من فك رموزها، يقول >>إنّها تخشى على حياتي، هذا أكيد، وتضع نفسها في المقدمة، كي تُبعدني عن الخطر، اعترفت لي بعد ذلك أنّها كانت ستحيي جثة هامدة لتُنقذ رأسي¹ حيث قالت السيّدة "جيرمان" للجماعة:

>>- سأتكفّل بذلك... وجوناس لن يفيدني في شيء...ومن فضلكم لا أريد أسلحة في صالوني، أنا بحاجة إلى راحة البال والسكينة كي أشتغل... يمكن للممرض أن يبق، أما أنت وابني... هذا ما نويت فعله سيّدتي.

أرادت جيرمان أن تحميني، أحسّ بها تقلب السماء والأرض، كي تحافظ على رباطة جأشها، وكان حضور يربكها، لا أرى كيف ستتدبّر أمرها، لم تلمس موس جراحة في حياتها، ماذا تخفي خلف رأسها؟ وإذا مات الجريح؟ كانت عيناها الجافتان تدفّعاني² يعدّ هذا الموقف من السيّدة "جيرمان" دليلاً على تضحيّتها، ورأفتها بالابن جوناس، وهي صورة في غاية النبل لفرنسية متعايشة مع الجزائري، مضحيّة في سبيله، فهي رمز للمرأة الأوروبية المتعاطفة والمساندة لا تتعامل مع الإنسان من مواقف عنصرية أو استعمارية، وإنما من منطلقات إنسانية.

¹ياسمينه حضرا، فضل الليل على النهار، ص443.

²المصدر نفسه، ص442.

وتبرز في رواية "الدروب الوعرة" ل(مولود فرعون) صورة المرأة الفرنسية المتعايشة مع العربي، حيث تعدّ والدة "عامر" في الرواية سيّدة فرنسية، تزوّجها والد عامر وأحضرها إلى الجزائر، وهي تعيش في منطقة القبائل، إلى جانب أهله وعشيرته، يُطلقون عليها "الرومية" أو "مادام" وقد تعايشت مع الجزائريين وألفت عاداتهم وتقاليدهم، اعتنقت دين الإسلام في آخر حياتها، يقول عنها ابنها عامر: >ولعلّها خاتمة حسنة بالنسبة لامرأة فرنسية تخلّت عن عاداتها، وتبنّت التقاليد المحلية، ولذلك لم ير شيوخ المرابطين أيّ مانع ليشرفوها في تشييع جنازتها¹ لا سيما وأنها ليست مسيحية، أي يمكن الحضور في جنازتها لعدم تنافها مع عقيدتهم الإسلامية.

وكانت "مادام" سيّدة طيبة القلب، تلجأ إليها نساء القرية، في منطقة القبائل يطمئنن إليها، ويحترمنها، ويزورنّها ليفضفضن لها، ويطلبن منها النصّح والإرشاد لكونها فرنسية مثقفة، يمكنها وزن الأمور بجديّة وصواب². وخاصة في نصّحها وتوجيهها ل "نانا مالحة" والدة ذهبية، إذ قالت لها مرّة: >> يا مالحة، أنت مخطئة، وإذا كنت حقاً تريد أن أحترمك، فينبغي أن لا يتحدّث عنك الناس بالسوء، ولا تنسي أنّ لك بنتاً وأنّه لا بدّ من تزويجها³، وذلك لأنّ مالحة وابنتها وزوجها المتوفى قد تبنّوا المسيحية ديناً لهم، كما أنّ مالحة وابنتها، كانت سيرتها سيّئة في القرية.

ومع أنّ "مادام" (والدة عامر) فرنسية، إلّا أنّها كانت تريد لابنها عملاً بحرفة يتعلّمها، أفضل من هجرته إلى فرنسا، إذا يقول عامر أنّ همّها الوحيد منذ صغره هو الحصول على وظيفة أو حرفة من الحرف، يمارسها هنا (في الجزائر) حتى لا يضطر كغيره من أبناء قومه للتّعرف إلى فرنسا، ولطالما سمعها تقول بأن من واجب الآباء هو تهيئة المستقبل لأبنائهم، فإذا عرفوا الطريقة المثلى، فإن أملهم يتحقّق، وتضيف بأن الآباء يقومون بالتضحيات في سبيل أبنائهم ويرشدونهم للخير والصّلاح، ثمّ تحتّم كلامها بالقول بأن الآباء لا تنجح مساعيهم إلّا إذا كان الأولاد أنفسهم صالحين، وبئس مصير الفاسدين منهم، الذين لا يريدون أن يشمروا عن سواعدهم، فأولئك لا بدّ من رحيلهم إلى فرنسا وتغرّبهم فيها، أين

¹Mouloud Feraoun, Les Chemins qui montent, ppp115,116,117

²Ibid, p47

³Ibid, p48

ستواجههم الحياة الصعبة¹. فعلى الرّغم من كون السيدة والدة عامر فرنسية- إلاّ أنّها استطاعت التعايش مع الجزائريين، وذلك بتبنيها لمبادئ وعادات أهل القرية، إضافة إلى اعتناق الإسلام ديناً لها، وقد تمتعت بالطيبة والحكمة والتزانة، حتى أصبحت قدوة لنساء القرية. وكانت ترى في الهجرة إلى فرنسا والتعزّب بها ليس إلاّ ملجأً للكسالى الذين يرفضون العمل في وطنهم، في حين أنّ الأبناء المطيعين المخلصين لبلدهم، يختارون مهنة يمتنونها، أو حرفة يتقنونها، ويبقون في بلدهم، ففرنسا فيها حقائق مرّة لا يعيها إلاّ المتغرب بها.

السيدة "آنا" السوسيرية في رواية "العاشقان المنفصلان" ل(أنور بن مالك)، حيث تعدّ فتاة أوروبية، قدمت إلى الجزائر رفقة "فرقة سيرك" غادرت الجزائر بعد طردها من طرف السلطات الاستعمارية، لكونها تشتغل ضمن موظفيها، فتاة يهودية تدعى "رينا"، غير أنّ الفتاة "آنا" قد بقيت في الجزائر بسبب صديقتها اليهودية التي كانت في السجن، فتعرّفت "آنا" على الشاب الجزائري "نصر الدين" وقامت بينهما علاقة حبّ ومودة، انتهت بالزواج وإنجاب طفلين²، تأقلمت "آنا" مع نصر الدين وعائلته، حيث أصبحت تلبس لباس أهله، من فساتين شاوية وتقوم بأشغالهم المنزلية وهي سعيدة متباهية بذلك.

وفي رواية (محمد مفلح) "زمن العشق والأخطار" يرد ذكر امرأة فرنسية، تُلقّب ب(الرومية)³، تزوّج بها عابد بفرنسا، وعندما قرّر العودة إلى القرية، اقترح عليها الطلاق، إلاّ أنّها رفضت ذلك، وفضّلت أن تبقى زوجته وترافقه للعيش في قريته وبلده، رفقة أهله.

¹Mouloud Feraoun, Les Chemins qui montent, p200

²ينظر: أنور بن مالك، العاشقان المنفصلان، ص207 وما بعدها.

³محمد مفلح، زمن العشق والأخطار، ص315.

3- صورة المرأة المستوطنة العنصرية:

كثيرة هي نماذج الشخصيات العنصرية النسوية المستوطنة في الجزائر المستعمرة وهي غالبا ابنة المعمّر أو زوجته، ترى في جنسها وأصلها وبلدها أفضل بكثير ممّا هي عليه العربي أو العربية، وهم في نظرها كالوحوش، لا يستحقّون إلاّ أن يكونوا خدما لرعاية شؤونها وشؤون أهلها.

في رواية "نجمة" Nedjma ل(كاتب ياسين) صورة للمرأة الفرنسية العنصرية، وهي ابنة المعمّر "أرست" المسماة "سوزي"، وقد كانت فتاة متكبرة ومتعجرفة، متعالية على العرب، ترتدي فستانا قصيرا خفيفا، مزينة عينيها وجفنيها، تمشي بدلال¹ وكلها حيوية ونشاط، غير أنّها ترى أنّ العربي متوحش خطر، يجب الحذر منه². تتحاشى المشي إلى جانب الشاب "مراد" الذي يعمل لدى والدها، عندما أمره بمرافقتها إلى البيت، تُبدي تمهّجا منه، بتباطؤها أو مورها من جهة أخرى، تمشي وتقفز بجوية ونشاط ولكن بحذر³، فما بال هذا العربي التعيس يمشي خلفها، تعدّه من فئة الفقراء البؤساء، وهي ابنة ربّ العمل الثري، هو من عالم متخلف وهي من عالم نظيف متحضر، تسعى لنهر العمال وتعنيفهم كلّما فعل والدها ذلك، مدعية بتصرّفها أنّها ذكية، قادرة على معرفة أن العامل معاقب من طرف والدها الرجل القوي⁴، بلغت عنصريتها أبعد الحدود في الحقد على العربي والحطّ من شأن ممّا جعل مراد يتخيّل ذات يوم أنّه يعنّفها ويضربها، كلما تفيق بعيد الكرة مرّة أخرى إلى أن تدرك أن العالم ليس عالمها النظيف، أو عالمه الحقيّر وإنما العالم الذي يعيش فيه الفرد وكفى⁵. وبذلك قدم الكاتب صورة عن الفتاة العنصرية ابنة المعمّر، المفتخرة بنفسها، المغرورة بجمالها وقوة والدها وراثته، تكره العربي ولا ترى فيه إلاّ صورة الخادم التعيس البائس الوحش القدر.

كما تعدّ الفتاة إيزابيل في رواية (ياسمينه خضرا) "فضل الليل على النهار" صورة لابنة المعمّر العنصرية والحقودة، وهي حفيدة الجدّ "روسيلو"، أكبر ثري في ريو سالادو، حيث كانت وهي في سنّ الثالثة عشر جميلة بعينين كبيرتين زرقاوين، وشعرها طويل يتدلّى على ظهرها، متصنّعة، تتعامل مع غيرها

¹Kateb Yacine, Nedjma, Seuil, Paris, 1956, p50.

²Ibid, pp12,13.

³Ibid, p18, 19.

⁴Ibid, p50.

⁵Ibid, p19, 20.

بتكبر، وإن كانت مع الفتى جوناس (يونس) عكس ذلك، حيث اعتقدت إلى غاية فترة ما أنه فرنسي بسبب اللقب الذي لقبته به زوجة عمه السيدة جيرمان، أو بسبب جماله وعينه الزرقاوين.

وقد كانت "إيزابيل" تسكن هي وعائلتها في فيلا جميلة وواسعة، وأمها فرنسية معقدة من عائلة مفلسة، وأبوها كطالوني، سحنته داكنة أقرب إلى السمرة، وكانت تشبه أبوها، ذات أنف جاثم في الأعلى، تعرف بالتدقيق ماذا تريد وكيف¹ تحصل على علاقاتها بالصرامة نفسها التي تستخدمها في السهر على الصورة التي تريد أن تمنحها لنفسها.

يعدّ جوناس أفضل زملائها وأقربهم إليها، وهي التي بادرت بصداقته وحبّه، وكانت طفلة جريئة، حيث تجرأت على تقبيله ذات يوم، واصفة إياه بأنه أجمل طفل على وجه الأرض، واختارته خطيبا لها² ولكن في إحدى المرّات، أحسّ جوناس بالضجر، فراح إلى بيتها، وناداهما من النافذة كالعادة. إلاّ أنه فوجئ بصراخها وغضبها، وحقدتها عليه، قائلة واصفة إياه بالكذاب، وأنها لا تريد رؤيته ثانية، وأن سبب ذلك يعود لكون اسمه الحقيقي يونس، أي أنه عربي، ولكنه لما لُقّب بجوناس اعتقدت أنه فرنسي، وقالت له: >> "لسنا من عالم واحد، سيّد يونس، وزرقة عينيك غير كافية، وقبل أن تصرف مصراعي النافذة في وجهي، شهقت شهقة ازدراء، وأضافت:

-إنني من عائلة روسيلو، هل نسيت؟ هل تتصوّري متزوّجة مع عربي؟... الموت أفضل...³
منذ ذلك اليوم أصبحت تتجاهله، إن واجهته في الطريق، وتنظر إليه من علٍ، >> ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحد، لإيزابيل عيب فرض أذواقها ومرارتها على الآخرين، حينما لا تحمل شخصا في قلبها، تشتت من جميع محيطها أن يتقيأه. رأيت إذا ميادين لعي تنحصر تدريجيا، وأصبح زملاء مدرستي يتجنبوني عمداً... لقد قام "جان كريستوف لامي" بمشاجرتي في ساحة المدرسة، وضربني ضربا مبرحاً خصيصا لينتقم لها⁴.

¹ يasmine حضرا، فضل الليل على النهار، ص ص163، 164.

² المصدر نفسه، ص166.

³ المصدر نفسه، ص167.

⁴ المصدر نفسه، ص169.

صورة الفتاة العنصرية واضحة في رواية "فضل الليل على النهار" سواء من حيث مظهرها أو صورتها الجسدية، إذ هي ذات عينين دائرتين زرقاوين، شعر مسترسل، أو من حيث المعنوية (الروحية) إذ أنها فتاة متعجرفة متكبرة تهتمّ بجمالها ومظهرها وبعلاقاتها بغيرها، حيث تفرض رأيها وفكرها على الجميع، كما أنها لم تحبّ جوناس إلا لمظهره، عيناه الزرقاوين أو اسمه غير العربي "جوناس"، ولكنها باكتشافها لذلك غيرت موقفها ورمت بكلّ مشاعر الحبّ التي اعتقدتها في يوم من الأيام، بمجرد معرفتها لأصله العربي، إذ أنها عنصرية تتباهى بنسبها إلى جدّها المعمر روسيلو، وقد فرضت موقفها العنصري ذاك على جميع الأصدقاء في الحيّ والمدرسة.

وتعدّ السيدة "أوجيني" زوجة المعمر أنطوان، والدة الفتاة "ماري"، حيث كانت تجعل من فاطمة اليتيمة خادمة لها، تقوم بكلّ شؤون الأسرة، وإن كانت لا تسيء معاملتها ظاهريا، إلا أنها لم تُعطيها حقّها في التعلّم أو في الحرّيّة، ولا في الرّاحة والمتعة كما هو الشّأن بالنسبة لابنتها ماري.

وكانت السيدة أوجيني فحورة بحياتها، كونها زوجة مالك الأراضي والمزارع الغنّاء، وابنة معمر أيضا كان ثريا في زمنه أيضا، وقد أثر سوء الأحوال الأمنية الذي بدأت تتسبّب فيه مجموعة من الثوار المجاهدين الجزائريين أو كما كانت تسميهم الفلاقة (المتمردين)، إذا أصبحت لا تطمئن للحياة في هذه الأرض، التي تتوقع >> أنها ستقلب إلى جحيم من القتل والملاحقة والانتقامات المتوالية، إلى أن يأتي دور أنطوان فتفقدته إلى الأبد¹ ولذلك أرادت إقناع زوجها بمغادرة هذه الأرض، لأنّ قساوة الحياة في فرنسا-حسبها- خير من الجحيم في هذه البلاد التي عزمت على لفظهم وكأنهم لم يساهموا في بنائها، وعندما تمنع النظر في إسهامات المعمرين في بناء هذه الأرض وزرعها وتحويلها إلى جنة خضراء >> ترى أنّ من الصعب عليهم مغادرة هذه الخيرات بمثل هذه السهولة، لأن هذه الأرض صارت كالدم تجري في عروقهم، فمن منهم يستطيع العودة من جديد إلى قساوة العمل في "الوطن الأم" ولو فرض عليه ذلك فرضا؟ ومن أين لهم أن يتفاهموا مع العمال هناك؟ ومن أين لهم تحقيق الأرباح الباهظة في نهاية

¹محمد المعراجي، شوك الأسي، ص352.

المواسم¹ فالسيدة "أوجيني" عنصرية أنانية في تفكيرها، حيث لم تفكر في حلّ وسط، يتمثل في> الاعتراف بالتمرد والتسامح على أساس بقاء المعمّرين في البلاد، ولو كان ذلك يقتضي بعض التضحيات، إنها متطرّفة كذلك، وهذا شأن جميع المعمّرين، لأنهم تصوّروا أنّ الإنسان في الجزائر غير قادر على الانتفاضة، وأن الكسل سيبقى مسيطرا عليه مدى الأيام، وبهذا لا يتصوّرون أبدا أن ينقلبوا من حاكمين إلى محكومين²، فهي بذلك لا تختلف كثيرا عن زوجها العنصري.

وقدّمت آسيا جبار في روايتها "لا مكان في بيت أبي" *Nulle part dans la maison de mon père* والتي هي بمثابة مقتطفات من سيرتها الذاتية، تحدّثت فيها عن أهمّ المحطّات في حياتها، بداية من طفولتها في أسرتها وفي مدرستها، وأولى خطوات نجحها، ومن الشخصيات الفرنسية النسوية التي ذكرتها في روايتها، **المديرة الفرنسية**، مديرة المدرسة الإعدادية الفرنسية في الجزائر المستعمرة، وهي نموذج أو صورة عن الفرنسيات العنصريات، اللواتي يفرّقن بين العرب والأوروبيين، حيث كانت هذه المديرة تفرّق بين الطالبات في المدرسة وتكّن الحقد للعربيات، حيث تقول عنها آسيا جبار- الطفلة فاطمة آنذاك- أنهم كانوا يلقّبونها "العاشرة وعشر" جزّاء مشيتها، وطريقتها الآلية في التقدم كما كانوا يسمّونها بالشيوعية، والتي طردها نظام "بيتان" لسنوات قبل ذلك لوظائفها، هذه السيدة إذن المكّلة بماضيها المضطهدة فيه، تسعى لمنع الطالبة العربية، من بين باقي الطالبات الأوروبيات من تعلّم لغة الأم، تعلّما أدبيا، بحجة عدم إمكانية استقدام أستاذ لها وحدها، اضطهدتها بمنعها ممّا كانت تعتبره طموح حياتها³.

وكانت آسيا جبار ترى أن المديرة عنصرية بتفريقها بين الطالبات المكّنات بالأوروبيات رغم ميلادهن في البلد مثلها⁴، حيث كن جاهزات لتعلم جميع لغات العالم بما فيها اللغات الموصوفة بالميتة، مع أنّهنّ لم يكن لديهن طموح في فهم اللغات المستعملة خارج المدرسة من قبل تسعة أعشار الساكنة.

¹محمد المعراجي، شوك الأسي، ص352.

²المصدر نفسه، ص253.

³Assia Djebar, *Nulle part dans la maison de mon père*, Editions Sedia, Alger, 2008, p121.

⁴Ibid, p50.

4- صورة المرأة المستوطنة المثقفة في الجزائر المستعمرة:

تميّزت النساء الفرنسيات في الجزائر المستعمرة، بالثقافة والعلم والمعرفة، وقد أدرج العديد من الروائيين الجزائريين صور المستوطنات المثقفات ضمن رواياتهم وهنّ في الغالب معلّّات أو طالبات، ومن بينهنّ المعلّمة لوسيا، في رواية "الانطباع الأخير" ل(مالك حدّاد)، حيث كانت تُدرّس في مدرسة شهيرة بالمدينة، منذ ثلاثة أعوام، وكانت لها نبرة بروفانسية، تشبه الشعر والموسيقى¹. وقد كانت زميلة لسعيد يدّرسان بالمدرسة نفسها، يخرجان معا جنبا إلى جنب، في كل الأوقات التي تكون خارج نطاق العمل، بينما توقفا عن الخروج معاً مع اندلاع حرب التحرير، واحتفاظا بلقائهما في بيته فقط وفي المدرسة.

وفي أحد الأيام طلب منها المدير بعد تسليمها ظرفا فيه قرار توقيفها مؤقتا، الانتقال إلى متوسطة أخرى، حيث سيتمّ انتدابها كأستاذة للغة اللاتينية بكليرمون فيرون²، بمعنى أنّها ستغادر الجزائر لتلتحق بمنصبها في ظرف خمسة عشر يوما.

لكن الصدمة وقعت لسعيد الذي أحبّها وتعلّق بها تعلّقاً شديداً، حيث صارت الهواء الذي يتنفسه، ولم يرغب مطلقاً في مغادرتها البلاد، حيث يقول عنها بطريقة رمزية أنّها تحسن الكلام عن اسم الزهور، "لوسيا" في موسيقى ساعات العسّق الأزرق، لوسيا البعد الخامس، لوسيا الحب الهاديّ والأكيد، لوسيا غابة البلوط في الساعة التاريخية دائماً للأغاني الأولى³. يعدّ مالك حدّاد صاحب لغة رمزية شاعرية رومانسية، نقلها إلى سعيد الذي حمّله حبّاً وحزناً وشجناً بهذه المعلّمة الفرنسية التي أراد أن يعبرّ لها عن حبّه، أو عن منعه من ذهابها ولكنّه في حقيقة الأمر، لم يعرف ماذا يريد منها، لاسيما وأنّه فهم أنه بقبولها المغادرة أنّها تحبّ سعيد لا بلد سعيد، أي أنّها لا تحبّ الجزائر، ولا ترض العيش والبقاء فيها، لأنّ أصولها بروفانسية، بمعنى ليست من المعمّرات المتعلّقات بالجزائر، لاسيما اللاتي ولدن بها.

¹مالك حدّاد، الانطباع الأخير، تر: السعيد بوطاجين، الدار العربية للعلوم ناشرون - منشورات - الاختلاف، لبنان - الجزائر، ط1،

1429هـ، 2008م، ص15.

²ينظر: المصدر نفسه، ص38.

³ينظر: المصدر نفسه، ص399.

ولكن "لوسيا" قُتلت قبل مغادرتها الجزائر، من قبل الثوار الجزائريين، بعد قضائها سهرة رفقة سعيد، سهرة وداع، كانت وداعا إلى الأبد، فكّر سعيد في نفسه طويلا وهو سائر أنّه إن كان فعلا يحبّ لوسيا، إن كان لا يزال يحبّها، لم يحب سعيد لوسيا أبداً، لم يحب أمها أبداً، لم يحب الشمس أبداً، ولا بنات أختها ولا الخبز، ولا الشّحاذ في شارع العرب، إنه فعلاً لا يفهمه فعلاً محشو كَلّه بالتّجريد، ولكن سعيد كان دائما مع ما هو ضروري للحياة، قطعة الخبز للشّحاذ، الشمس لأمه، والحلزونات للوسيا¹.

يقدم مالك حدّاد صورة للمرأة الفرنسية المثقفة في الجزائر المستعمرة، وإن كانت هذه الصورة رمزية، تحيل علاقة سعيد ب"لوسيا" إلى علاقته بفرنسا، حيث كانت الثورة في أوج اشتغالها عند كتابة هذه الرواية وذهاب "لوسيا"، هو ذهاب فرنسا وانسحابها، وكيف سيؤثر ذلك على الذين ألفوها، وألفوا ثقافتها وحضارتها، إذ توهم أنه يحبّها، ولكن بعد مقتلها اكتشف أنه لم يحبها وإنما تعلق بكل ما هو ضروري للحياة آنذاك.

وفي رواية (آسيا جبار) "لا مكان في بيت أبي" نجد صورتين للمرأة الأوروبية المثقفة، تمثل المعلّمة بلازي² واحدة منهما، وهي معلّمة فرنسية مسيحية، طويلة نحيفة، ذات أصابع طويلة، بأظافر طويلة مصبوغة بالأحمر القان، شاهدتها أول مرّة وعلق صوتها بذاكرتها، بصورتها وهي تضع يداها مضمومتين إلى بعضهم في هيئة الدعاء، صوتها جهور حذر به لكنته، أثرت من خلاله في الطالبة فاطمة التي سجلت بها معرفة وثقافة، وأدبا حيث كانت تُلقى بيتاً شعريا لشارل بودلير، أحبّت من خلال صوت المعلّمة بلازي ولغتها الفرنسية الجميلة، الأدب والشعر الفرنسيين، فكان صوت المعلّمة وجمالها وهدوءها وطريقة إلقاءها يشكلون صورة إيجابية جدّابة عن المعلّمة الفرنسية وثقافتها.

وتعدّ الطالبة ماق الإيطالية في رواية آسيا جبار، صورة للمثقفة الأوروبية في الجزائر المستعمرة، حيث تعدّ صديقة فاطمة الأولى، وقد كانت هذه الفتاة شغوفة بالأدب، وهي التي أخرجتها من عزلتها وتفوقها في الداخلية، فكانت ذات حيوية لاذعة، موقظة لوعي فاطمة، إذ كانتا تتداولان المطالعة معا،

¹مالك حدّاد، الانطباع الأخير، ص94.

²Assia Djebar, Nulle part dans la maison de mon père, p p117, 118,119.

دون توقّف، ودون أيّة مرجعية من مرجعيات العالم الأوروبي، بخيال واسع، وتبادل للكتب والتعاليق المختصرة¹. فكانت بمثابة الأخت في الأدب.

وبذلك فإن المرأة الفرنسية في الجزائر المستعمرة كانت ذات صورة إيجابية، كلّها نبل، وهدوء وإعجاب، وأناقة، لشغفها بالأدب والثقافة، تأثّر بها سعيد في رواية الانطباع الأخير، وفاطمة في رواية "لا مكان في بيت أبي"، وهي صورة تحمل في ذاتها شغفا بالثقافة والأدب.

5- صورة المرأة المستوطنة الجميلة الجذابة:

في العديد من الروايات، أو حتى في الموقف العام، تبرز صورة المرأة الفرنسية جميلة جذّابة، بلباسها، وأناقتها، ومن ذلك صورة "الروسية" زوجة المعمّر الفرنسي. وقد صوّرها الكاتب من حيث جمالها وجاذبيتها، وانبهار العرب بها، عند قدومها رفقة زوجها إلى قرية صغيرة بمدينة تلمسان، حيث يقول عنها (عبد الجليل مرتاض) في رواية "عقاب السنين" أنها بقدومها: >ضربت على سندس أخضر أريض ووثير يفوح عطراً وشذى، ازداد بسرعة كل أنواع العطور الباريسية التي تحمّلت وأدهنت بها السيدة (العلاء)، والتي لم تكن بحاجة إليها لو علمت، ولكنها العادة... انسحبت من المجلس منجذبة برائحة الشاي النبيلة، غير أنها لم تعبأ أكثر من أن أخذت بعض الصور، ثم واصلت سيرها متمائلة بوركيتها البارزين ذات اليمين وذات الشمال، والناس كلّهم وقفوا صامتين وجمين فزعين أن تسقط بجزمتها ذات الكعب العالي في إحدى الحفر الصغيرة التي تفوق العشب كثرة (...). ولكن السيدة الوقورة التي كانت تبدو عليها البساطة والشعبية سرعان ما اجتابت بسلام بعد لأي شديد² فغادرت المجلس، متوجّهة إلى حيث النساء يطهين ألذّ المأكولات لإكرام الضيوف، فتعجّبت من نشاطهن؛ صافية ورضية وعائشة، وراحت تلهو مع أبنائهم لاسيما وأنها لم يسعفها الحظّ في إنجاحهم رغم الفحوص الطّيبة العديدة التي أجرتها³ وقد هالتها تلك الأعمال الشاقة التي كانت النسوة تقمن بها، وهنّ متبسّمات راضيات. أثر

¹ Assia Djebar, Nulle part dans la maison de mon père ppp 149, 150,151

² عبد الجليل مرتاض، عقاب السنين، ص116.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص117.

فيها الموقف إلى أن أذرفت دموعاً كفكفتها بمنديل أصفر أخرجته من حقيبتها. دموعاً انسكبت من عينيها اللامعتين بزرقه جميلة¹.

فكانت صورة المرأة زوجة المعمر، تنضح جمالا وعطراً، بأناقة لباسها، وكعبها العالي، تحمل حقيبة، عيناها زرقاوان لامعتان، ذات وركين بازين، لقبها الأهالي بالروسية العلجاء، كما أنّها اكتفت بالابتسامة أو التصوير، أو ذرف الدموع بسبب التأثر. لعبت مع الأطفال الذين لم تتمكن من إنجابهم، وأشفقت على النساء المتعبات الشاقيات.

وفي رواية (آسيا جبار) "لامكان في بيت أبي"، صورة للفتاة الفرنسية الجذّابة، والأنيقة، المعتدّة بمظهرها، حيث تعدّ جاكلين الفتاة المراهقة صديقة فاطمة، جميلة أنيقة بحركاتها اللطيفة التي تنضح رقة وأنوثة. وكانت رغم مئزرها الأزرق زرقه البحر، المفروض على الجميع، ترتدي في الأسفل المرئي من جسدها أجمل الألبسة، تحتفظ بمظهر السيدة الصغيرة، لا تبسم ولكنها تظهر الثقة بالنفس وراحة المرأة! تُبدي فاطمة نحوها إعجاباً شديداً. وكانت رفيقتها في المرقد أين تخفيان حميميتها واعترافاتها².

وكانت "لجاكولين" مغامرات غرامية، تعيشها في العطل الصيفية رفقة شباب، تحكيها لجاكولين في المرقد دون خجل أو حياء. حيث كانت تقوم بها على الشواطئ وأمام والديها. وكثيراً ما اعتبرت فاطمة هذه الحرية وقاحة وخرقا، بل مغامرة حقيقية يمكن تحويل جاكلين بفضلها إلى بطلة رواية غريبة³، فكانت بذلك صورة هذه الفرنسية منفتحة على كل معاني الجمال والأناقة، باللباس والمظهر، كما أنّها تعبّر عن معاني الوقاحة والحياة بكل مغامراتها لاسيما العاطفية منها. حتّى أن الفتاة العربية فاطمة كانت كلما سمعت عن الفرنسيات أنّهن فاجرات⁴، استحضرت صورة جاكلين وحكاياتها الغرامية.

6-الموقف الجزائري من المرأة الفرنسية:

في نهاية هذا المبحث لا بأس من ذكر موقف النساء الجزائريات من المستوطنات الفرنسيات وإن كانت في الحقيقة صورة، لم نجد لها خانة ندرجها ضمنها. إذ تتعلّق بصورة "سيمون" الفرنسية التي

¹ ينظر: عبد الجليل مرتاض، عقاب السنين، ص118.

² Assia Djebar, Nulle part dans la maison de mon père 205.

³ Ibid, p206.

⁴ Ibid, p207.

تزوجها عمّ سعيد في رواية "الانطباع الأخير" ل(مالك حداد)، حيث تُبدي موقفاً منها أكثر مما تبدي صورة لها. وهو ما يعبر عنه الكاتب من خلال وصية "ما مسعودة" جدّة سعيد بعدم زواج ابنها إدير من الفرنسية: <> "يا بني، لن تتزوج فرنسية أبداً (...). أبداً! محال! وتنهدت <<...¹

وكانت تناديهما بالخنزة، حيث تقول لسعيد: <> "الخنزة هي سيمون، زوجة إيدر، خنزة، لا تترجم إلى الفرنسية، هذه الكلمة تعني القدرة أو مثيرة القويء، تلك التي لا تغتسل، تلك التي ليست نظيفة، في الواقع، تلك التي ليست من عندنا، وبوضوح تلك التي ليست الكنة التي كنت سأختارها ...

الأجنبية! (...). الخنزة سرقت ابني ...

(...) التحق سيمون بزوجها:

- يبدو لي أني سقطت مثل شعرة في حساء، قالت.

- بالضبط، أجاب سعيد <<² ولكن لما عرفت الجدّة أن "سيمون" تنتظر صبياً، مدّت يدها الطويلة الشاحبة، وأمسكت بيد سيمون، وظلت جالسة قربها، ثم قالت لابنها (إيدر)

<> - "أنتظر صبياً؟ سمّه فرانسوا وسيذهب إلى المدرسة في باريس <<³ وبذلك يتضح موقف الجدّة، والذي يمثّل - في الواقع - موقف النساء الجزائريات من المرأة الأجنبية، الذي كان في البداية موقف رفضٍ مطلق، بأن يحدث مثل هذا الزواج، واصفة إياها بأبشع وأقذر الصفات. ومظهرة كل مشاعر الحقد والضغينة، ولكنها بمجرد أن علمت أنها تحمل جنينا في أحشائها، جنينا سيصبح حفيدها، يحمل دم ولدها ودمها، تعيّر الموقف، وشعرت بالعطف نحوها. وإن كانت السرقة التي تخوفت منها في البداية لابنها، قد أقرتها لحفيدها بقولها إنه سيسمى فرانسوا، وسيدرس في باريس. أي لا عروبة ولا جزائرية فيه إلا ألم دم والده الذي يجري في عروقه.

وبذلك تتضح صورة المستعمر من خلال صورة رجال السلطة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر والتي برزت على مستوى المتن الروائي الجزائري ضمن أربع صور أساسية (محورية)، وهي صورة رجل

¹ مالك حداد، الانطباع الأخير، ص 27.

² المصدر نفسه، ص 27، 28، 29.

³ المصدر نفسه، ص 31.

السلطة الظالم والمستبد، صورة رجل السلطة المراوغ والمخادع، صورة رجل السلطة المتمرد على أوامر سلطته، وصورة رجل السلطة المريض والمعقّد والمتأزم، وقدّم لذلك الروائيون الجزائريون شخصيات متباينة تتضح صفاتهم، إمّا عن طريق السرد المباشر والوصف، أو من خلال الحوار بين عدّة شخصيات، تظهر أهم السمات وأبرز الأفعال التي تميّز كل صورة على حدة.

ويعتبر المستوطن الفرنسي (الأوروبي الذي يحمل الجنسية الفرنسية في الجزائر المستعمرة) نفسه أفضل بكثير من العربي، فهو الذي يحتل مكانه، وسيطر على أملاكه ومع ذلك يحقد عليه، ويرى فيه أسوء المخلوقات، يشبّهه بالحيوانات المتوحشة، لا يستحقّ الراحة ولا الأمان، بل يجب ضربه واحتقاره وإهانته وإثارة الفزع والخوف في نفسه حتى يبقى دائما في الخدمة، لا يدافع عن نفسه ولا يدفع عنها الأمل أو الإهانة.

فصورة المستعمر في الرواية الجزائرية زمن الثورة تختلف عن زمن الاستقلال وبعده، حيث كانت في المرحلة الأولى تدرج صورته بطريقة رمزية في قهره للجزائريين وتوضيح معاناتهم باستثناء كتابات محمد ديب التي فضحت الواقع المعاش بطريقة جليّة واضحة، و يعود ذلك لعدم توضح الأمور آنذاك، ومصير الجزائر لم يحدد بعد، أما بعد الاستقلال فقد توجّهت الروايات لفضح جرائم المستعمر الفرنسي وكانت أكثر اتّهاما وإدانة له ولاغتصابه الأراضي والممتلكات الجزائرية، في حين وضّحت بعض الروايات جوانب التسامح في أوساط المستعمرين؛ رجال سلطة ومستوطنين، نساء ورجالا، بتعايشهم مع الأهالي، وتمردهم على القوانين التي تسير شؤونهم. وعرضت بعض الروايات صورة الأقدام السوداء بعد مغادرتهم الجزائر مع الاستقلال وحينهم الكبير لما ألفوه من رغد العيش والخيرات والثروات والممتلكات في الجزائر المستعمرة.

وفيما يلي جدول ملخّص لما ورد في الفصل من صور المستعمر، حيث تم تخصيص الخانة الأولى للآخر، والثانية لصورته والثالثة للرواية التي ورد فيها.

جدول ملخص لصورة المستعمر في الرواية الجزائرية:

صورة رجال السلطة الفرنسية في الرواية الجزائرية			
الرواية	الصورة	رجال السلطة	الظالم والمستبد
محمد ديب "الحريق"	<ul style="list-style-type: none"> - زي عسكري واحد - أحذية حديدية النعال - وجوه جافة حاقدة - ملامحهم فظة وعنيفة - القسوة على الفلاحين - تهديد المتعاونين مع الثوار. - العقاب بالضرب أو بالرصاص أو بالسجن، أو بالكلام أو بالتجويع. - انعدام الرحمة والشفقة - السب والشتم - الضرب الشديد حتى السقوط للسجناء. 	رجال الشرطة	
محمد ساري "على جمال الظهرة"	<ul style="list-style-type: none"> - حركة ودوران طول اليوم في المعسكر - إساءة معاملة السجناء لأبسط الأفعال. - قهقهات بضحكات هستيرية. - وقاحة وقسوة. - تخويف السجناء وزرع الرعب في نفوسهم. - التطلع على العورات وكشف المستور. 	العساكر	
محمد المعراجي "شوك الأسي"	<ul style="list-style-type: none"> - تفتيش البيوت، بدق أبوابها بعنف. - الدخول إلى المنازل في تهوّر واضح. - تعنيف الأهالي وانعدام الشفقة، - كسر الخزانات وكلّ ما يصعب فتحه. - زرع الخوف والفرع في نفوس الأهالي 	الجنود	
أنور بن مالك "العاشقان المنفصلان"	<ul style="list-style-type: none"> - عساكر دمويين يسحقون كل من لا يأتي في صفّهم. - رفس الأهالي وضربهم بالعصا. - تكسير العظام وإسالة الدماء. - التعذيب الشديد عبر مراحل لاستنطاق السجناء باستخدام الكهرياء، الزجاجية، الحزفة المبللة بالبول وسائل الكريزيل 		

صورة رجال السلطة الفرنسية في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	رجال السلطة
محمد ديب "الحريق"	<ul style="list-style-type: none"> - مخادعة الجزائريين للتعاون معهم - الاستلطاف في الكلام، والمهادنة في الحوار - التحدث باسم الشرف والنبل لصالح فرنسا والمتعاونين معها 	<p>مدير الشرطة</p>
لمولود معمري "الأفيون والعصا"	<ul style="list-style-type: none"> - رجل أنيق ومؤدّب وحاد وذكي. - ثقافة واسعة - إتقان المهنة وحسن الاستنطاق - المراوغة في الاستجواب والإحاطة بالمتهم. - الرّزانة والموضوعية وحسن اختيار الحجج. 	<p>المحافظ الفرنسي</p>
محمد مفلاح "زمن العشق والأخطار"	<ul style="list-style-type: none"> - في حدود الأربعين - عينان زرقاوان. - عضلات مفتولة كالثور الهائج. - تدخين السيجارة - ابتسامته وقحة - القسوة في التعامل - الغطرسة والمكر والخداع - السّخّط والغضب والأمر العنيف 	<p>النيّيب " جورج " الفرنسي</p>
محمد ساري "على جبال الظهيرة"	<ul style="list-style-type: none"> - في حدود الأربعين ، أنيق متعالٍ - اللّهجة المحلية تطغى على لغته الفرنسية - التكبرّ والاستعلاء على السجناء. - نظرات مستاءة، الحديث بهدوء. - ادّعاء الرسالة الحضارية في الجزائر والنهوض بها من التخلّف، وعدم الاستيعاب للحضارة المهداة من فرنسا 	<p>النيّيب الفرنسي</p>

المخادع والمراوغ

صورة رجال السلطة الفرنسية في الرواية الجزائرية			
الرواية	الصورة	رجال السلطة	
ل مليكة مقدم "رجالي"	<ul style="list-style-type: none"> - عسكري أدى خدمته العسكري بالجزائر قرب الحدود التونسية - مكلف بحملة تفتيش في دوار "لاكروا" - إرغام الجنود على أداء التحية العسكرية لقدامى المحاربين، لأسلحة وأوسمة تعود للحرب العالمية الثانية. - إخلاء الدوار الذي أمر بحرقه القائد، من جميع السكان الذين لا يتعدون الشيوخ والأطفال والنساء، وتمكينهم من عبور الحدود التونسية. - الأمر بمحاكمة العسكري في محكمة عسكرية بتهمة العصيان والتمرد على القيادة العليا للاستعمار. 	العسكري "جان دوبرنار"	المتمرد والعصي
الطاهر وطار "اللاز"	<ul style="list-style-type: none"> - في حدود الأربعين، - شفتين رقيقتين حمراوين - أبيض البشرة. - عينان زرقاوان - نظارات جميلة بإطار ذهبي. - ملاحمة سنوية- متوسط القامة - نحيف الجسم. - أنامل جد قصيرة - في عنقه سلسلة رقيقة يتدلى منها صليب ذهبي، - مريض، ذو شذوذ جنسي كأنه عاهرة وقحة - يأتي الرجال شهوة من دون النساء (اللاز-بعطوش) -الحديث عن المظاهر الجنسية بطريقة مخلة أمام الجنود لإثارتهم -رغبة في رؤية الدم بالقتل لوالدة اللاز، والبقرة وهي في آلام المخاض -أمره بعطوش بزنا المحارم بخالته حيزية. -رغبة في رؤية العرب والفسق أمام عينيه. -سعيه إلى تحويل بعطوش بعد اللاز إلى مد من خمر، ووسيلة لإشباع مرضه وشذوذه. -نهايته كانت على يد بعطوش الذي انتقم منه شر انتقام 	الضابط الفرنسي	المتأزم والمريض نفسياً

صورة رجال السلطة الفرنسية في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	رجل السلطة	
محمد ديب "الحريق"	<ul style="list-style-type: none"> - الاعتراف والتأسف والندم - الاحساس بالألم الكبير في القلب - الرغبة في اللعب مع الأطفال - استذكاره لجرائمه (قتله للعبيد المكبلين) - البكاء الشديد - الصراخ لتخيّله ركض الأموات وراءه. 	الشرطي المتأزم	المتأزم والمريض نفسياً

صورة المستوطنين الأوروبيين في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	المستوطن
لعبد الجليل "السنين" عقاب	-إغراء فرنسا لهم بالتسهيلات المادية والأمنية -مغادرة أهاليهم وبلداتهم. -كالوحوش الضاربة التي انقضت على الأراضي	المستوطنون الفرنسيون عند قدومهم إلى الجزائر
محمد ديب "الحريق"	-القدوم إلى الجزائر بأحذية مثقوبة النعال -حالة مزرية قدموا بها إلى الجزائر. -امتلاك مساحات من الأرض لا تعدو ولا تحصى على حساب سكان الجزائر.	المستوطنون الفرنسيون عند قدومهم إلى الجزائر
محمد مفلح والأخطار "زمن العشق"	-دخل قرية العين بحقيبة مهترئة وقبعة سوداء -استولى على القطعة الأرضية الخصبة. -اغتصاب الأرض والادعاء بشرائها.	السيد "ماسو"
محمد ساري "علي جمال الظهرة"	-امتلاك مزارع وبنائات عصرية كبيرة -تنتج الأراضي الزراعية قمحا ذهبية وفواكه لذيذة -اغتصابه لجزء منها، وشرائه الجزء الآخر بوسائل خسيسة. -التهديد والقمح والطرْد لأصحاب المزارع بمساعدة الشرطة والعساكر له.	ربّ العمل الباترون
محمد المعراجي "شوك الأسي"	-اغتصاب أرض جاره باستغلال ديونه والإسهام في قحطها بوضع الملح في السواقي.	المستوطن الفرنسي

المغتصب

صورة المستوطنين الأوروبيين في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	المستوطن
محمد العراجي "شوك الأسي"	<ul style="list-style-type: none"> - اغتصاب أرض والد سعيد. - اللجوء إلى المحاكمة بالتّخلي عن الأرض مقابل الديون. - تحويل مالك الأرض الحقيقي إلى عامل بالمزرعة حتى لا يموت من الجوع. - كان قبل مجيئه إلى الجزائر: شريك منفي، سجين، مجرم، غير مرغوب فيه في فرنسا. - صبر حثيث في اغتصاب أكبر عدد من المزارع بسبب إطاحة أصحابها في الديون. - خوفه من فقد هذه الأراضي حوّله إلى مجرم رفقة جماعة من المعمّرين بتشكيل منظمة سرية تدعى اليد الحمراء، للبطش والقتل والدفاع عن الثروات والمزارع والممتلكات. 	السيد أنطوان
محمد ديب "الحريق"	<ul style="list-style-type: none"> - رجل في الخميس من عمره. - وجهه وجه رجل حسن التغذية. - يلمع شعره الوردى. - ساقاه قويتان. - جذع عريض. - كرشه يطفح فوق حزامه. - يعمل وكيلاً لدى المعمر ماركوس. - يعامل الفلاحين بقسوة. 	ميسو "أوغست"
محمد ديب "الحريق"	<ul style="list-style-type: none"> - مالك المزرعة، سليل أسرة من المستعمرين الأثرياء. - لا يراه الفلاحون إلاّ نادرًا - لا يهتمّ شيء إلاّ استمرار العمل - لا يبالي بما يصيب الفلاحين من حوادث - من سماته الكذب والتزييف للحقائق 	ميسو "أوغست"

المغتصب.

صورة المستوطنون الأوروبيون في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	المستوطن	
لمرزاق بقطاش "طيور في الظهيرة"	<ul style="list-style-type: none"> - حقود على فتیان الحي - الوشاية بالفتیان إلى الشرطة والعساكر. - يعمل على حماية الفرنسيين. - القذر الكافر. - يأكل الخنزير. - والده حقود وعنصری على الأطفال وغيور. - يخوف الأطفال بكلب أسود ضخّم. - يمنع الأطفال من اللعب. - لديه حظوة عند الشرطة الفرنسية. 	"روني الماطلي"	العنصري
	<ul style="list-style-type: none"> - صريح، معتر، حقود. - يكره العرب. - التخويف بالكلاب. - عداوة شديدة مع "روني" ووالده. - الخصام والشجار بالبصق والشتيم. 		
ملك حدّاد "الانطباع الأخير"	<ul style="list-style-type: none"> - رجل قصير بعادات مستهجنة. - ممتلئ ذو نظرة مائلة - يلقي دروساً وعضية طيلة مروره بالأروقة - لديه كلبة تلحقه. - أرسنقراطي ألماني. - ليس بالذكي. - لا يخفي عنصريته. - يمنع الأطفال العرب من وجبة السحور في رمضان. 	السيد زيفير	

صورة المستوطنين الأوروبيين في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	المستوطن	
<p>"فضل الليل على النهار" ياسمينة خضرا</p>	<ul style="list-style-type: none"> - والده مالك لمزرعة جميلة. - طاغية مستبد مع عمّاله. - لطيف مع أصدقائه. - طفل مدلل يتلقّظ ببذاءات لا يقدر أبعادها. - أقواله جارحة عن العرب والمسلمين. - يري أن العربي كالإخطبوط، إن لم تضربه لن يتمدد. 	<p>"آندري صوزا"</p>	<p>العنصري</p>
<p>"عقاب السنين" لعبد الجليل مرتاض</p>	<ul style="list-style-type: none"> - رجل مثقف رءوف بالعرب. - ثري أنيق بمظهره وسيارته. - شهم في غاية الإنسانية والإيثار. - يتمرّد على السلطة الاستعمارية بنشر مقاله عن معاناة الجزائريين من مرض وجهل وفقر وتخلّف، وانعدام لأساسيات الحياة. - يشفع في العرب عند الحاجة. - يقدم الإعانات المادية من مال وطعام للمغلوب على أمرهم من الأهالي. 	<p>جاك رويبر</p>	<p>التمرد على السلطة المتعايش مع العرب</p>
<p>"هلايل" لسمير قسيبي</p>	<ul style="list-style-type: none"> - مترجم فرنسي في غاية النبل والإنسانية. - اكتشافه لزيف الرسالة الحضارية التي تدّعيها فرنسا المستعمرة في الجزائر. - إدلاؤه بشهادته أمام اللجنة الإفريقية حول سوء الأحوال في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي لها، والتي يقرّ أنّها كانت بيضاء، جميلة، نظيفة قبل ذلك. - فضح جرائم الفرنسيين من قتل وظلم واستبداد بالجزائريين. - تحريبه للجنود الفرنسيين الفارين من الخدمة العسكرية. من الجزائر نحو فرنسا. - تعاونه مع الربيعة شيخ قبيلة العوفية. - سعيه إلى مغادرة الجزائر لإيمانه بعدم نبل فرنسا في هذه المهمة. - يقرّ بمواقف تمردّه على السلطة الاستعمارية وعصيانه لقرارات قاداته 	<p>سيباستيان دي لاکروا</p>	<p>التمرد على السلطة المتعايش مع العرب</p>

صورة المستوطنين الأوروبيين في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	المستوطن
<p>"فضل الليل على النهار" ياسمينة خضرا</p>	<ul style="list-style-type: none"> - مغادرة المعمرين الفرنسيين الجزائر إلى فرنسا. - بيع الممتلكات وتركها أو حرقها على عجل قبل الرحيل مباشرة. - بكاء وعويل وفوضى وسط المعمرين المرحلين. - حرق المعمّر أندري لحانته حتى لا يتمتع بها أحد من بعده. - إطلاق اسم الأقدام السوداء على المهجّرين إلى فرنسا. - تطغى على لغتهم اللهجة المحلية الجزائرية. - يكوّرون حرف "ر". - وجوههم تحمل سمرة المناطق الجنوبية. - يعيشون حالة من الحنين المتميز سيمونه "نوستالجيريا". - بقاء حياتهم وذكرياتهم متعلقة بالجزائر، التي لا سبيل إلى محوها. - تمثّل الجزائر لهم السعادة المطلقة. - أسفهم على مخلّفاتهم من أملاك وعقارات ومزارع. - شعورهم بالطرد والإهانة والتحرير والتهميش. 	<p>المعمّرون والمهجّرون</p>

صورة المستوطنة الفرنسية في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	المرأة المستوطنة	
<p>محمد المعراجي "شوك الأسي"</p>	<p>- ابنة السيّد أنطوان. - فتاة مراهقة، طالبة في جامعة بالجزائر. - تحبّ وتمارس رياضة ركوب الخيل، نشيطة. - أنيقة، جميلة، شعر أشقر مسترسل على كتفيها. - فتاة متحرّرة متمرّدة من كل القيود والضوابط. - متعطّشة لإرواء عطشها العاطفي. - الرغبة في خوض مغامرات عاطفية وغرامية مع العامل "علي". - إتباع أسلوب الإغراء والإيقاع بضحيتها. - عدم مبالاة "علي" بما تدفع في نفسها حقدا وغضبا. - تمردّها على والدها بإعلان حبّها للفني العربي بعد حدوث نقطة تحوّل في حياتها. - وقوفها ومساندتها للعرب في ثورتهم ضد الاستعمار، وإيمانها بقضية الاستقلال. - وصفها لوالدها العنصري بالمتطرّف.</p>	<p>"ماري"</p>	<p>المتحرّرة والمتمرّدة</p>
<p>ياسمينه خضرا "فضل الليل على النهار"</p>	<p>- في حدود الأربعين. - صهباء، جميلة، شقراء. - عينيان كبيرتان زرقاوان. - وجه دائري. - حركات فضة (رجولية). - مبتسمة. - مسيحية (متدينة) - مؤمنة، مخلصه. - تدعو لانتصار الحكمة على الجنون. - تساند زوجها المناضل السياسي. - ترعى ابن أخ زوجها الجزائري وتربيته وتعطف عليه. - تضحيّ بجياتها من أجله. - كلّها أمومة وعطف وحنان.</p>	<p>"جيزهان"</p>	<p>المتعايشة والمساندة</p>

صورة المستوطنة الفرنسية في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	المرأة المستوطنة
الرواية لمولود فرعون "الدروب الوعرة"	<ul style="list-style-type: none"> - زوجة والد "عامر" الجزائري.. - سيدة فرنسية مثقفة، محترمة. - اعتنقت الإسلام، وألفت العادات والتقاليد القبائلية. - طيبة القلب، تلجأ لنساء القرية لمساعدتهن، ونصحنهن. - تنصح ابنها بعدم الهجرة إلى فرنسا للعمل والتغرب، وتفضّل عمله ببلده وأرضه. 	الرومية (والدة عامر) الفرنسية
الرواية لأنور بن مالك "العاشقان المنفصلان"	<ul style="list-style-type: none"> - شابة سويسرية، ممثلة في سيرك. - قدمت إلى الجزائري وبقيت بما بعد مغادرة فرقة السيرك. - إتباع أسلوب الإغراء والإيقاع بضحيتها. - أحبّت شابا جزائريا (نصر الدين)، ولهما طفلان. - ألفت العادات الجزائرية، واللباس الشاوي وأعمال النساء المنزلية. 	"آنا" السويسرية
الرواية للكاتب ياسين "نجمة"	<ul style="list-style-type: none"> - جفون مزينة. - عيون لامعة. - فساتين قصيرة خفيفة. - المشي في غنج ودلال. حيوية، نشيطة. - متكبرة، متعجرفة. - تكره العربي، والمشي بجانبه، ترى فيه المتوحش والخطر. - متعالية، حقودة على العمال العرب، مفتخرة بوالدها ربّ، العمل القوي والثري. - تتدخل في كل الأمور لتدعي الذكاء، والقوة في إدراك الأمور. 	سوزي

المتعايشة والمساندة

العنصرية

صورة المستوطنة الفرنسية في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	المرأة المستوطنة			
<p>"فضل الليل على النهار" باسمينة خضرا</p>	<ul style="list-style-type: none"> - حفيدة الجد روسيلو أغنى أغنياء المنطقة. - في حدود الثالثة عشر من عمرها. - عينان كبيرتان زرقاوان. - شعر طويل يتدلى على ظهرها. - متصنعة. - ذات أنف جاثم في الأعلى - متكبرة، متعجرفة. - مغرورة بجمالها وثرائها. - واعية بما تريد وكيف تصل إليه. - جريئة ومغامرة. - تكره العرب وتعاديهم وتتكبر عليهم، حتى ولو كان على حساب الحب والصدقة. 	<p>العنصرية</p>			
<p>"شوك الأسي" محمد المعراجي</p>	<ul style="list-style-type: none"> - ابنة وزوجة معمر. - تخاف على زوال الخيرات والممتلكات بأعمال الفلاحة (الثوار). - أنانية لا تقبل بالتسامح، وتحول الممتلكات لأصحابها. - متطرفة مثل زوجها أنطوان. 			<p>"السيدة" أوجيني "</p>	
<p>"لا مكان في بيت أبي" لآسيا جبار</p>	<ul style="list-style-type: none"> - تلقب بالعاشرة وعشر، لطريقة مشيها. - شيوعية مضطهدة. - تفرق بين الطالبات الأوروبيات والعربيات في تعلم اللغات التي يردن، لاسيما إذا تعلق الأمر بتعلم اللغة العربية. 			<p>المديرة الفرنسية</p>	

صورة المستوطنة الفرنسية في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	المرأة المستوطنة	
الانطباع الأخير " لملك حداد	<ul style="list-style-type: none"> - معلّمة في مدرسة فرنسية. - استحضارها من بروفانس منذ ثلاث سنوات. - لغتها جميلة تشبیه الشعر والموسيقى. - قبولها الإقالة إلى مدرسة خارج الجزائر. - رمز لفرنسا، وفي تعلّق الجزائريين بها. - قُتلت قبل رحليها من طرف الفلّاقة. 	"لوسيا"	المثقفة
"لا مكان في بيت أبي" لآسيا جبار	<ul style="list-style-type: none"> - معلّمة فرنسية مسيحية. - طويلة، نحيفة، ذات أصابع طويلة، وأظافر طويلة ذات لون أحمر قان. - صوتها حذر جهور. - ذات معرفة وثقافة واسعة. - قدوة في محبة اللغة والأدب الفرنسي. 	المعلّمة "بلازي"	الجميلة الجذابة
"لا مكان في بيت أبي" لآسيا جبار	<ul style="list-style-type: none"> - مراهقة شغوفة بالأدب . - ذات حيوية لاذعة. - تحب المطالعة، وتقرأ دون توقف. - لا مرجعية أوروبية توجّه مطالعتها. - الصديقة والأخت في الأدب. 	الطالبة "ماق" الإيطالية	

صورة المستوطنة الفرنسية في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	المرأة المستوطنة	
<p>لعبد الجليل مرتاض "عقاب السنين"</p>	<ul style="list-style-type: none"> - الرومية العلاء (لبياضها ونقاوتها) - تتعطر بكل أنواع العطور الباريسية. - ذات وركين بارزين، تلبس الكعب العالي. - عينان زرقاوان. - بسيطة وشعبية. - متبسمة. - اكتفت بالتصوير، أو ذرف الدموع للتأثر بحالة الأهالي، من تعب وشقاء. - ليس لها أطفال، رغم الفحوص الطبية العديدة. 	<p>زوجة المعمر (الرومية)</p>	<p>الجميلة الجذابة</p>
<p>لآسيا جبار "لا مكان في بيت أبي"</p>	<ul style="list-style-type: none"> - فتاة مراهقة. - جميلة وأنيقة، ترتدي أجمل الألبسة. - كلّها رقة ولطافة وأنوثة. - تتمتع بمظهر السيدة الصغيرة. - لا تبسم، ولكنها تظهر ثقة بالنفس. - تعيش مغامرات غرامية وعاطفية، خلال العطل الصيفية. - تحكيها للبنات في المرقد، دون خجل أو حياء 	<p>"جاكلين"</p>	

الفصل الرابع:

صورة الأجنبي الأوروبي والأمريكي في الرواية الجزائرية

المبحث الأول: صورة الفرنسي في الرواية الجزائرية

المبحث الثاني: صورة الإيطالي في الرواية الجزائرية

المبحث الثالث: صورة الإسباني في الرواية الجزائرية

المبحث الرابع: صورة الألماني في الرواية الجزائرية

المبحث الخامس: صورة البريطاني في الرواية الجزائرية

المبحث السادس: صورة الأمريكي في الرواية الجزائرية

الفصل الرابع: صورة الأجنبي الأوروبي والأمريكي في الرواية الجزائرية

تعدّ دراسة صورة الأجنبي في الرواية الجزائرية، من قبيل دراسة صورة الآخر المختلف عن الأنا من حيث الهوية المحدّدة لمعالم كل منهما، تتدخّل فيها عناصر عديدة؛ كاللغة، البلد، الدين، التاريخ والجنس، فيتشكل الآخر الذي هو -غالبا ما يطلق عليه- الغرب بالنسبة للأنا العربية الجزائرية، الغرب الأمريكي و الأوروبي بمختلف أقطاره؛ فرنسا، إيطاليا، إسبانيا، ألمانيا، بريطانيا... .

وقد وجدت دراسات عربية عديدة تصوّر الآخر الغربي، الأجنبي، ولكنها تشمل هذا الأخير في خانة واحدة، من حيث هو كلّ مجتمع يمثّل مقابلا للشرق أي الأوربي والأمريكي بمختلف أقطارهما في خانة الغربي عموما، غير أن هذه الدّراسة تسعى جاهدة إلى فصل كلّ قطر غربي عن الثاني، لاسيما وأنّ الروايات الجزائرية في كثير من مواضعها، تطرّقت للأجنبي بتحديد دولته، ولغته، ودينه، وكذا جوانب من طبيعة بلده، وطبائع أهله، فيذكر الفرنسي بصورة غير تلك التي نجدها للإسباني أو الإيطالي أو الأمريكي.

فكانت الرواية الجزائرية موضّحة كاشفة لخريطة العالم الغربي، لا مناص من النّظر لصورها مجتمعة مختلفة، إلّا من خلال التّحديد لكل قطر وصورته على حدة، ولا ندّعي في ذلك الكمال بالإحاطة والشمول بكلّ الصور الواردة، ولا بكل الأقطار ولا حتى بكلّ الروايات الجزائرية، وإنما هي محاولة متواضعة، تتضّح من خلال المباحث الستّة المدرجة ضمن فصل واحد ترصد صورة الأجنبي كما وردت في بعض من الروايات الجزائرية.

وتّم التدرج في الرصد والتحليل لصور الأجنبي بداية بصورة الأوروبي بما فيها: صورة الفرنسي ثم الإيطالي، ثم الإسباني ، ثم الألماني والبريطاني، وبعدها الأمريكي، على أنّ تحليل الصورة لم يكن وفق طريقة واحدة، وإنما تبعا لطبيعة الصورة ذاتها، فصورة الفرنسي كانت تعتمد على تحليل المواقف من هذا الفرنسي أكثر من توضيح صورة شخصياته أو التعرّف على أهله وطبائعهم. كما أنّ صورة الأمريكي هي الأخرى تخضع لطبيعة هذه القوة العالمية اليوم، بما فيها من متناقضات، بين التفتح والتحرّر

والاستعمار والظلم والعدوانية، أما باقي الأقطار الأوروبية الأخرى، فتتضح صورة شعبها من خلال بعض الشخصيات النسوية أو الذكورية.

المبحث الأول: صورة الفرنسي في الرواية الجزائرية

تعد العلاقات الفرنسية الجزائرية، علاقات قديمة، تبنى في جزء منها على الخلفية الاستعمارية الفرنسية للجزائر، وتعتمد في جزئها الأخير على كون فرنسا قبلة للهجرة الجزائرية، ولذلك يمكن القول أنّ كلا من الشعب الجزائري والفرنسي يعرف الآخر، ويتفهم نفسيته وطباعه، فهو الأقرب إليه، خاصة الشعب الجزائري الذي اطلع على ثقافة الفرنسيين، وتعلم لغتهم، وتوضّحت لديه معالم صورهم، نساء ورجالا، واكتشف مواقفهم، سلبياتهم وإيجابياتهم. على أنّ التركيز انصبّ في هذا المبحث، على الفرنسي الأجنبي بما يحمله من ثقافة وعادات وطباع، على خلاف الفرنسي الذي خصّصنا له الفصل الثالث من حيث اعتباره المستعمر؛ معمرًا ورجل سلطة.

وقد كان رصد صورة الفرنسي (الأجنبي) غالبا من خلال التطلع إليه، وهو في بلده الأصلي والجزائري - في الغالب - هو المهاجر إلى بلد الآخر، وتبعاً لذلك تعددت واختلقت صورة الفرنسي في الرواية الجزائرية، والتي تبرز فيها وفق منظور كلّ كاتب، من حيث الهوس والانبهار بهذا الفرنسي إلى حدّ الانغماس في شخصيته، وبلده ولغته، والتجرد من الذات وخلفياتها من لغة وبلد وعادات وتقاليد ودين.

ومن المواقف ما كان سلبيا تجاه هذا الأجنبي الفرنسي، برؤيته عنصريا مستبداً ومتسلطاً ومنها ما كان متوازناً، يرى في الفرنسي إيجابيات كما له سلبيات، فيه من التّحضر والإنسانية والأخلاق الحسنة والكرم والطيبة وذلك من خلال العناصر التالية:

1- صورة باريس في الرواية الجزائرية:

تبرز صورة باريس من خلال ذكر ومضات عن تاريخها، وذلك خاصة في رواية " انبهار" Fascination لرشيد بوجدره، حيث يقول: >اشتق اسم هذه المدينة من باريسيس ذات الأصل السلي المحتمل الذي ينحدر منه شعب جاء من وراء الراين، لكن موقع المدينة، سُكن منذ العهد النيولوتيكي في القرن الثالث قبل الميلاد، والذي كانت لوتيس موجودة قبله: شارك الباريسيون في حرب الغولين استجابة لنداء يوليوس قيصر وذلك في العام 53 قبل الميلاد، ثم توجهوا نحو روما استجابة لنداء فيرسينجيتوريكس، سحقهم إذاك لابينوس، استقرّ الغزاة الرومان بدورهم في الموقع الذي أضفوا إليه امتداداً ومكثوا فيه 1000 عام، ثم تدمير لوتيس من طرف البرابرة في 280 بعد الميلاد، أعاد الرومان بناءها منذ القرن الرابع، شهد ذلك التاريخ مولد المدينة من جديد، في القرن الخامس استقرّ فيها كلوفيس. في العام 1789 اندلعت الثورة الفرنسية في 1804 تمّ تويج نابليون بونابرت امبراطوراً على الفرنسيين تحت اسم نابليون الأول من طرف البابايوس السابع الذي جاء من روما ليقوم بالمراسيم التي أقيمت في نوتردام دوباريس في 2 ديسمبر (كانون الأول) 1805، كُتبت لنابليون أن يكون غازيا يحاول الاستئثار بكل أوروبا، ظلّ على مدى عشر سنوات يضاعف الحروب والانتصارات إلى غاية 1815 حين غزا ائتلاف أوربي فرنسا وخلع الإمبراطور الذي انسحب إلى فونتين بلو، وتنازل عن العرش في 4 أبريل (نيسان) 1815، في الحرب العالمية الثانية (1939-1945)، احتلّت باريس من طرف الفيرماخت منذ جوان (حزيران) 1940، تميّزت فترة الاحتلال الألماني المظلمة بالاعتقالات والنفي الجماعي لليهود والشيوعيين إلى معسكرات الاعتقال، وأعمال المقاومة وإعدام الرهائن، ثم تحرير باريس في 24 أوت/ آب 1944 بدخول فرقة مصفحة يقودها الجنرال لوكليير¹. في إشارة من الكاتب إلى تاريخ هذه المدينة التي اعتملت فيها عدة معارك وحروب.

ومّا يقوله رشيد بوجدره عن مدينة " باريس"، في الرواية نفسها، أنّها >مدينة مبعثرة ومجمعة في آن، تتنازع أوصالها ضفتي نهر السين، دون روابط ملحوظة على ما يبدو لكنها متضامنة بشكل قوي،

¹ رشيد بوجدره، انبهار، تر: إنعام بيوض، منشورات ANEP، الجزائر، ط2، 2002، ص ص 197، 198.

تتهشم عليها عدّة أجزاء أخرى متفرّقة، في حين أنّ كل خطوط التلاقي ليست بالمتوحّة ولا بالمغلقة، بل كما لو كانت مضمحلة¹. وصوره باريس كما يراها بوجوده في هذا الموضوع تقوم على التناقض والاختلاف بين عناصرها المختلفة المشكلة لها.

وقد نشبت حرب أهلية في فرنسا، يقول عنها "حسن" ابن خاله "قادر" في رواية "ابن الشعب العتيق" Le fils du peuple encien (أنور بن مالك): >> فلقد قرّر الفرنسيون أن يبقّر بعضهم بعضا في عاصمتهم، يُقال إنهم يأكلون الجردان والهررة، وإن أموالهم تعدّ بالآلاف، أيمنك أن تتصوّر أنّهم يقصفون مواطنيهم بالمدافع، إنّ الجنون ذهب بعقول هؤلاء النصاري، صدّقني يا ابن الخالة! <<². وهي صورة عن الفقر والجوع والأوساخ والعفن الذي كانت تعيش فيه فئات كبيرة من المجتمع الفرنسي، قرّرت الثورة على النظام القائم، فقتل أبناء الوطن الخارجين عن القانون وتمّ إبعادهم إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة، أو الحكم عليهم بالسجن المؤبد. حيث كانت فرنسا تعيش داخليا مجموعة من الثورات والأزمات، التي شكّلت من خلالها قوّتها، وبسطت بها نفوذها، على المستويين الداخلي والخارجي.

2- صورة الفرنسي الحلم والهوس في الرواية الجزائرية:

يعدّ موقف الهوس والانبهار بالآخر، من أهمّ المواقف التي رصدتها الصورائية في الأدب المقارن وعبر عنها الأدباء الجزائريون في رواياتهم، لاسيما تجاه الأجنبي الفرنسي، ويعدّ هذا الأخير مصدرا للهوس والانبهار به، مقابل نكران الذات والتجرد منها.

ومن أكثر الروائيين الجزائريين الذين برزت لديهم هذه النظرة الكاتبة الجزائرية باللغة الفرنسية (مليكة مقدم) في روايتها "رجالي" Mes Hommes، إذ يبدو إعجابها بفرنسا والفرنسيين كبيرا، يصل

¹ رشيد بوجدره، انبهار، ص 199.

² أنور بن مالك، ابن الشعب العتيق، تر: رلى ذبيان، الفارابي- سيديا، لبنان- الجزائر، ط1، 2007، ص 37.

إلى حدّ الهوس والانبهار، ويتّضح ذلك من خلال مواقفها الواضحة في الرواية؛ كهروبها من الجزائر ومن بلدتها والعادات والتقاليد التي تحاصرهما فيها. ولم تكن ترى خلاصها من كل ذلك إلاّ بالتّعرف على شخص أجنبي يأخذ بيدها ويساعدها على الهروب والخروج، حيث تقول: > الجسد، جاذبية شخص أجنبي بمثابة المشارف الأولى للمنفى، المنفى الخلاصي الآن بثُّ مقتنعة أنّ وحدهم الرجال القادمين من بعيد، من أرض أخرى بوسعهم أن يساعدوني على التّحرّر نهائياً من البلبلة الجزائرية، ولا علاقة لذلك إطلاقاً بتوق إلى الاكزوتيكية، لا بل إنّها، قبل كلّ شيء حاجة للهروب من الاستنطاق والقسوة والتّمييز وفك التصاقى بالعادات ومحاكاة الجماعة، المرور بالغريب كما ينخرط المرء في المقاومة السريّة لإنقاذ نفسي للاهتداء إلى سبيلي¹. ولعلّ أول أجنبي تعرّفت عليه، وأخذ بيدها لإخراجها ممّا تعتقد أنه جحيما، هو الفرنسي جان-لوي، وهو بحار التقت به في وهران، تولّى التدريس لمدة سنتين في جامعة وهران أثناء خدمته العسكريّة²، فأحبّته هذه الجزائرية المتمرّدة المتعطّشة إلى مغادرة الوطن، فمكّنها من السّفرة وأخرجها من عالمها، تقول عنه: > يملك جان-لوي كذلك مركبا شراعيا عائدا للتو من شهر (..) في المتوسّط، يدرّس في معهد بوليتكنيك، إنّّه مديد القامة، كستنائي الشعر، وسيم الحيا، وقد راق لي مظهره اللامبالي³. فأول ما أعجبها فيه شكله ومظهره.

وقد كانت مدينة باريس هي قبلتها، حيث أصبحت تمتلك فيها رفقة رفيقها الحرّية المطلقة، في فعل ما تشاء، إذ تقول: > وافاني جان-لوي إلى شارع إليزيا، مضينا عبر شوارع باريس متعانقي الأيدي في مدينة، لم يسبق لي أن فعلت ذلك أبداً من قبل، تتعانق أيدينا، وتلك القامة الفارغة تعانقي، تقبّلي بعد كلّ عشرين خطوة في الشارع في وضح النّهار، على مرأى الجميع، باريس ملك لي⁴. فكانت منبهرة في باريس بالحرية التي كانت تنشدها في التّمرد على العادات والتقاليد، والنظام الاجتماعي، وقد كانت- في ذلك- مغرمة بباريس مهووسة بها، تقول: > هنا، أنا الغريبة، ما أجمل أن

¹ مليكة مقدم، رجالي، تر: نحلة بيضون، الفارابي- سيديا، لبنان- الجزائر، ط1، 2007، ص 72.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 77.

³ المصدر نفسه، ص 78

⁴ المصدر نفسه، ص 79.

أكون أنا الغربية، بعيداً عن الإدانات الجزائرية، أكتشف في باريس، تلك الحيوانية الشبقة للحالة الغرامية¹، وفي إحساسها بالغربة لذة ومتعة كبيرتين.

ومما بھرھا مناظر الشباب المخلّة بالحياء في الشوارع والطرقَات >> أنبھر بمشهد العشاق الآخرين في باريس، لا يفتقرون إلى الحياء، إنهم فريدون من نوعهم، مستغرقون في أحاسيسهم الجياشة، فريدون ولكثرهم يضيئون لي المدينة، أعجب بهم، وأقول سراً: لو يعلمون أنّ هناك رجال شرطة في الجزائر يعتقلوننا إذا كان الرجل الذي يرافقنا ليس أباً ولا أخاً ولا زوجاً!². وإن كانت الكاتبة ليست الوحيدة التي تطرقت لهذه الظاهرة: صورة باريس بانحطاطها وانعدام الحياء فيها، غير أنّ مواقف الكتاب تجاهها تختلف بين الإعجاب والاستهجان، ولكنّ (مليكة مقدّم) من خلال روايتها هذه تعبّر عن شدّة إعجابها بذلك، إلى درجة اعتبار هؤلاء العشاق فريدين لها المدينة، وهي في كلّ مرّة تقارن بين ما هي فيه، وما كانت عليه في بلادها، حيث تقول: >> أجول في شوارع باريس لدى خروجي من المستشفى، أسير مطوّلاً، استكشف كنوز المدينة، وأسكر حرّيّة، إلّا أنّي لا أستطيع إلّا أن أقوم بالمقارنة مع الجزائر، ينقضّ الغضب عليّ لمجرّد التفكير بما تورّطت به البلاد³ وعند ذلك تزيد شرباً وسكراً من باريس حتّى الشماله علّها تنسى ماضيها ومجتمعها وتاريخها، علّها تنسى ذاتها وتتجرّد من هويّتها.

وكان قدوتها في باريس، الفرنسي جان-لوي الذي أصبح زوجاً لها، بعد نقلها إلى العيش في فرنسا، ودامت مدّة زواجهما حوالي سبعة عشر سنة، أعجبت به فيها، أثر على مستوى ذاتها وشخصيتها، وغير من نمط حياتها. تقول عنه: >> طوال سبعة عشر عاماً من الهناء بفضل الصبر على كلّ الشدائد الذي يميّز به العشاق المتيمون، روضني ذلك الرجل، وأنقذني من اليأس، كان حاضراً في كلّ الظروف، بدءاً من المداعبة وصولاً إلى الدعم المادّي، ولشدة ما غمرني برعايته، واهتمامه بنجح أخيراً في

¹ مليكة مقدّم، رجالي، ص 81.

² المصدر نفسه، ص ص 81، 82.

³ المصدر نفسه، ص 88

إقناعي بأن بلده أصبح بلدي¹، وبذلك فقد حرّرها كما كانت تتميّن من الرجل الأجنبي، وتعترف بأن بلده أصبح بلدا لها، شعورا وانتماء، وهي قمة التّماهي مع الآخر والذوبان فيه، حتى أن تأثيره فيها قد ساهم في تغييرها: >> لقد انتشلي حبّ هذا الرجل على شفير محظورات كثيرة، أشاع السلام في تخومي وبدد عدوانيتي، جعلني أرفض الاضطراب، إنّه يتوهّج في صميم شكوكي ولحظات صميمي، لقد فتح أمامي الآفاق التي كانت منكوبة². فأحبته وتعلّقت به، وكان دليلا لها في بلد عشقته واهبته به.

فصورة الفرنسي جان-لوي من منظور الكاتبة مشرقة مشرقة لما أضفاه عليها من إيجابيات كانت تفتقر إليها، لاسيما على مستوى شخصيتها العدوانية المتمرّدة والمضطربة، وقر لها الأمان والطمأنينة وأعاد لها التوازن النفسي، فنجحت بمساعدته في العمل كطبيبة كلى ملتزمة ثم كاتبة مشهورة.

غير أنّ علاقتها به اهتزت منذ تلك الليلة التي عادت فيها من مناوبتها بالمستشفى، فاكشفت خيانة لم تكن تتوقّعها من رجل أحبّته، مثل نقطة تحوّل جذرية في حياتها، مع أخت لها قدمت من الجزائر لتغص عيشها، وتربك اطمئنانها³، واستمرت الخلافات بينهما، لاسيما بعد تحوّلها إلى كاتبة مشهورة، والنجاح الذي أصبحت تُحقّقه كُتبتها، إذ تملكته الغيرة والأنانية، منها وعليها، ممّا وصلت إليه وكانت رغبته في بقاءها مُلكا له وحده، حيث قال لها في نبرة تعيسة ذات يوم: >> لقد عرفتُ شابة تعيش في قطيعة تامّة مع المجتمع، وشيئا فشيئا أصبحت هذه الشابة جزائرية ملتزمة، لقد أحطتُك برعاية أمومية طوال سبعة عشر عاما، والآن أموت في ظلّك⁴، وكان طلاقهما على إثر تلك العلاقات المهتزة شقّ كلّ منهما طريقه في الحياة، واستمرّت هي في الكتابة والإبداع الأدبي.

وبذلك فإنّ صورة الفرنسي في رواية "رجالي" ل(مليكة مقدّم)، تبدو على العموم صورة إيجابية وصلت إلى درجة الهوس والانبهار به، وباريس موطن الحرية المنشورة.

¹ مليكة مقدّم، رجالي، ص 96.

² المصدر نفسه، ص ص 135، 136.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 143.

⁴ المصدر نفسه، ص 150.

وتتضح صورة الفرنسي- على العموم- رمزا للحلم والهوس، في رواية "حفنة السراب" ل(الصادق بخوش)، حيث تبرز شخصية المرأة الجزائرية "حورية" والدة "أحمد"، إذ يستذكر هذا الأخير طفولته، وتعلّق والدته - في فترة السبعينات أين كانت الجزائر تعيش أزمات اقتصادية واجتماعية- وحينها لفرنسا، مستعمرة كانت أو بلداً أجنبياً، حيث كانت ترفض وتندمّر من واقع استقلال الجزائر بصفتهم حرّكي موالين لفرنسا، حيث تقول مفتخرة بماضي فرنسا المستعمرة في الجزائر: >> في زمن "الرواما" كانت الأسواق مليئة بألوان الفواكه وأنواع البقول والخضروات واللحوم والأسماك، ناهيك عن الملابس والمنتزهات وسهرات مساء السبت (...). فمذ غادر الفرنسيون بلادنا استوطنها البؤس وركبتها الفاقة، وانقطع عنها الخير...¹، كما تقول: >> "أه... ما أمتع الحياة في فرنسا"²، وظللت معجبة منبهرة بترف الحياة في فرنسا، مُتدمّرة ممّا هي فيه، إلى أن طلقها زوجها، والتحقّت هناك بعائلتها وتزوجت برجل آخر في فرنسا، ولما زارها ابنها (الشاب) الذي تركته طفلاً عمره سنتان، وجد أنّها أصبحت شبه فرنسية هي وعائلتها الجديدة، حيث هاله ذلك التّمط الذي أصبحت تعيش عليه، من فسق وخمر وانعدام للحياء والأخلاق، ففرّ من بيتها بعد المدّة القصيرة التي قضاها به، إذ لم يتحمّل منظر أمّه متجرّدة من هويتها، متشبّعة بمظاهر حياة الآخر الفرنسي مهووسة بها.

وفي رواية "ضباع في عرض البحر" ل(الحفناوي زاغر)، برز موقف منصور المهاجر الجزائري المتأثر بالثقافة الغربية الفرنسية والحياة فيها، إذ يفتخر بالحياة والتفكير الفرنسي ويحطّ من قيمة التفكير العربي؛ >> الآخرون يا ابن الذين... لما عرفوا مراكز الفكر والعواطف والميول، أخذوا يطهّرون أدمغتهم... يجاربون الأفكار البدائية والمعتقدات الزائفة... الإيمان بالخرافة والأسطورة الأوهام... التّرهات"³، وذلك دليلاً منه على مادّية العالم الغربي وروحانية العالم الشرقي، الذي يعتبر أفكاره بدائية ومعتقداته زائفة، وكانت النتيجة - حسب منصور- أنه >> منّا المتصوّفون والزّهاد، وكان

¹ الصادق بخوش، حفنة السراب، دار الحكمة للنشر، الجزائر، ط1، 2009م، ص ص 11، 12

² المصدر نفسه، ص 11.

³ الحفناوي زاغر، ضباع في عرض البحر، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2009م، ص 141.

منهم العلماء والمبدعون... كنا نرصد النجوم، بينما هم يتأهبّون لغزوها واحتلال أفلاكها¹. غير أنّ السيد منصور، لم يكفّ عن إبداء الإعجاب والتأثر والانبهار بالآخر وإتّما راح يعلن جهارا تماهيه مع الآخر وتجوّده من ذاتيته قائلا: >اقتديت بهم، خلعت من حياتي المعتقدات الزائفة والأهواء الخادعة وما كانت تمتلئ به نفسي من ميول ورغبات ونزوع... حدّدت هديني، ضبطت وسائلتي ومضيتُ غير مبالٍ بعواء الضمير أو صراخ العواطف أو بذاءات الجهول². كما أنه تحجّم على المسلمين ومعتقدهم الديني قائلا: >إنّ السرّ في تخلف المسلمين وانحطاط مستواهم الذهني والعلمي، هو اعتقادهم الخاطيء في أنّ القلب هو مصدر الإلهام، وموطن الهداية والإيمان، ومركز المشاعر والأحاسيس، ومقرّ العواطف الإنسانية والأخلاقية والمثل³ وما ذلك الانتقاد والسخرية من الأنا أو الذات المسلمة، إلّا للبرهنة للآخر على أنّه معجب متماهٍ مع ثقافته ومعتقده ودينه، وهي قمة الهوس والانبهار بالآخر.

تتضح صورة الفرنسي رمز الحلم والهوس والانبهار، في عدد من الروايات، تتضح إيجابيات الفرنسيين من منظور بعض الشخصيات الروائية، حيث تبرز عند مليكة في رواية "رجالي" على أن الانبهار يتمحور حول الحرّية المطلقة في الحياة كلّها بجميع مناحيها دون استثناء، عكس الذات التي لطالما كانت ممنوعة، مقهورة، محاصرة، بجملة من القيود والتعاليم التي لم تتقبلها ولم تتعايش معها، فكان الفرنسي هو النبراس وهو الحلم في الخلاص منها.

أمّا حورية في رواية "حفنة السراب" فقد كانت تنشد فرنسا مهووسة بها، لما فيها من مظاهر مادية جدّابة، من ترف وأناقة وسهرات، وما لذّ من المأكولات والمشروبات، فهي الحياة البذخة المريحة. ويعتبر منصور في رواية "ضبياع في عرض البحر" أنّ فرنسا التي ينبهر بها هي ما تمثّله من أفكار وعلوم وتكنولوجيا ساعدتها على التّقدم والتّطور والرّقي، عكس الذات التي يجد فيها كلّ مظاهر التخلف والبدائية، والمعتقدات الخرافية.

¹ الحفناوي زاغر، ضبياع في عرض البحر، ص 141.

² المصدر نفسه، 142.

³ المصدر نفسه، ص 140.

3- صورة الفرنسي المتسلط والعنصري:

عبر العديد من الروائيين في كتاباتهم عن صورة الفرنسي بصفات سلبية كثيرة تتراوح بين التسلط والعنصرية، والتعجرف والتكبر. نسبها البعض منهم للفرنسيين كشعب، وخص بعضهم الآخر بها فئة دون أخرى، وينسبها (ياسمينه خضرا) إلى باريس كلها، التي يشبهاها في روايته "مكر الكلمات" **"L'imposture des mots"** بامرأة ارسقراطية مسنة استقبلته ببرودة، بمروحة عجول وعينين تبرز منهما رموش مستعارة، حيث غضبت لرؤيته، كأنه شعرة في الحساء، أفسد وليمتها ليلة رأس السنة فيما كانت تود الاحتفال بها في أقصى حاله من الحميمية، مع ما يلزم فقط من الممالقين لتوبيخ الخدم أمامهم، حيث يصورها واضحة شعرها على شكل كعكة أعلى من الغيوم، وفستانها أكثر اتساعا تتظاهر بملاعبة كلها البكيني، لتجنب مصاحفته مع أن يدها تحتبئ تحت قفاز¹. فكانت بذلك صورة باريس في كامل غنجها وتكبرها، بمظهر بشع، وسنّ متقدّم لا جاذبية لها، وكلّ ما فيها مستعار. وهو ما بعث في نفسه شعورا بالاستياء والحزن لاسيما وأنه كان متوجّها إليها ليعلن عن خلفيات إحدى رواياته من خلال القنوات الإذاعية و التلفزيونية.

وفي رواية "حفنة السراب" ل(الصادق بخوش)، صورة للفرنسية العنصرية الحقود، متمثلة في المرأة "روزا" التي كلّفها صاحب المطعم، بمراقبة العمال، والوقوف على شأن الزبائن، حيث كان يعمل به المهاجر الجزائري أحمد بوصية من أمّه التي تعيش في فرنسا منذ فترة ليست بالقصيرة حيث كان صاحب المحلّ السيّد دوموساك من الأقدام السوداء². وقد كانت الفرنسية "روزا" الفتاة > الشقراء، الهيفاء، ذات الشأن في المحل والقاسية عادة على العاملين معها³، توبّخ هذا وتنهز ذلك للتأخر في العمل أو الوقوف

¹ Yasmina Khadhra, L'imposture des mots, Editions Julliard, paris, 2002, p33

² ينظر: الصادق بخوش، حفنة السراب، ص 63.

³ المصدر نفسه، ص 63

الطويل مع أحد الزبائن¹، بينما هي تقوم بما يحلو لها من احتضان لصديقها أو تقبيله أمام الجميع، في تغنّج ودلال²، وبذلك تُبدي وجهان في الوقت نفسه؛ العنت والخشونة بعد التدلّل والغنج.

وقد كان مدير المطعم بيخس "أحمد" حقّه، فلا يكافئه بمثل ما يكافئ به زملاءه ولما طالب بما له من مال >> ألفى أمامه شيطاناً أشقر، ودون أن تمهله "روزا" بنس الشفاه، وبكبرياء الغالب، وبحركة كأنها الأمر بالسيف، أدارت سبّابتها المزدانة الأظفر بالأزرق الملتبس بالأحمر، وضارعت حركة يدها بقول فحش: أنت دائماً بخزيك وكسلك، أجئت تستجدي كعادة العرب³، وكانت صاحبة القلب الغلف تحدّجه بنظرة شزرا، قائلة >> أنسيت يا هذا، أنّك عامل بطريقة غير شرعية، وأنّ مزّيّة منّا ألاّ نخبر عنك السلطات بوضعك⁴، فتبدو مستغلة، مهدّدة، مغتصبة لجهده وعرق جبينه، وهنا تذكّر أحمد ما قاله والده لأمه ذات يوم عندما راحت تُفاخر بفرنسا وتمدحها، معجبة بها وبأهلها، تذكّر >> يوم كشف والده لأمه عورة المحتل الفرنسي الذي أباد شعبا، واحتلّ وهنا وغيّب تاريخنا، وداس على قيم واستباح تراثنا⁵ وما كان استحضاره لتلك الصورة القديمة عن الفرنسي، إلاّ ليستنتج أين يضع قدماه، مجتمع لازال أهله عنصريا مستغلا، سليل ذلك المحتل المغتصب، فكانت لهذه الصورة أن شجّعت على إهانة المدير وتلك العنصرية الشنّاء، إذ >> صرّح عاليا، انتم لصوص، وأنت عاهرة تقعين للكلب قبل الرجل، قالها بمجحين بين العربي الدّارج والفرنسي المارج⁶ في غضب وهيجان راميا بالاحترام والوقار، مقرأ بأن هؤلاء الفرنسيين لن يتغيروا ولن يتبدّلوا، وسيبقون حفدة أجدادهم المستعمرين الغاصبين، فما كان من الفرنسيين إلاّ التّهيّب أمامه خشية على سمعة المحل، فاقترب المدير منه طالبا هدوئه >> مذكّرا إيّاه بفضله عليه، إرضاء لأمه التي ترجّته أن يأويه، ويتدبّر أمره بعمل يعيله، ثم خاطبه بلطف، مازحه خبث ورياء: قد أكون

¹ ينظر: الصادق بخوش، حفنة السراب، ص 64

² المصدر نفسه، ص 65.

³ المصدر نفسه، ص 66.

⁴ المصدر نفسه، ص 66.

⁵ المصدر نفسه، ص 66

⁶ المصدر نفسه، ص 66.

غمطت حَقِّكَ بما سدّدت إليك البارحة من مال، وأراني مقصّراً، وإنيّ لأعدك بالمساواة مع زملائك¹ < > فما كان له بعد الاستغلال والإهانة إلاّ التّحاييل بوجه الحمل الوديع معترفاً بتقصيره، وتيّته في ذلك الخوف على سمعة محلّه، غير أنّ أحمد غادر المدينة كلّها بعد هذه الحادثة، إذ رأى فيها مكاناً غير صالح للعيش في غربة، في ظلّ شعب عنصري حقود ومستغل.

وفي رواية "ضبياع في عرض البحر" ل(الحفناوي زاغر) تبرز صورة لفرنسا وأجواء الهجرة إليها، وإن كان الكاتب غير موضح علناً للبلد الأجنبي الذي يقصد الحديث عنه تحديداً، إلاّ ما سقط منه سهواً أو عمدًا، من ذكر بعض أسماء الشوارع الفرنسية². وتعدّ هجرة الصحفي "سنان" إلى فرنسا هروباً من الوطن الذي أصبح فيه التعبير عن الواقع بوضوح، مرفوضاً من طرف بعض الأطراف، حيث تمّ إسكات صوت الصحفي عن التّنديد بالظلم والحقائق المزيفة، كان يسعى لإصلاح المجتمع والحديث باسم الشعب، وكشف المشاكل التي يتخبط فيها، والبوح بكل معاناته وهمومه، ولكنه فقد منصبه الصحفي إثر ذلك، وأُثمّ بالجنون، وهو ما جعله يهاجر إلى فرنسا ظنّاً منه أنه سيلقى جواً أكثر حرّيّة في التعبير غير أن حظّه فيها لم يكن أكثر سعادة ممّا كان عليه في الجزائر حيث افتقد حرية التعبير وحرية العيش وأصبح منبوذاً من طرف الجميع، لا يرغب فيه أحد، يقول: < > حضارتهم ترفضني، زيف حياتهم لا يريدني... لست منهم، ولا هم منّي، أمقتهم أزدريهم³ < > لا توجد في ذاكرته أيّ صورة جميلة أو إيجابية عن الفرنسيين، لم يستطع أن يحبّهم ولا أن يحترمهم.

والأعمال التي عُرضت عليه في فرنسا، لم تكن تبيّنها شريفة، إذ منها العمالة والجوسسة والتّنكر للوطن والكتابة بلغة الغير، وأما الحبّ فقد فشل فيه، ووجدته مخادعاً، حبّ من أجل قضاء المصلحة وتسيير الأعمال، فقرّر على إثر ذلك العودة إلى الوطن بعد عشر سنوات قضاها بها، يقول عن الفرنسيين: < > كيف أُسمّيهم رفاقاً، عليهم اللّعة، إنهم ليسوا من عالمي، ينتمون إلى مجتمع آخر، عملته

¹ الحفناوي زاغر، ضبياع في عرض البحر، ص 66.

² مثل: سان ميشال، سان جيرمان، ينظر: الحفناوي زاغر، ضبياع في عرض البحر، ص 68

³ المصدر نفسه، ص 20.

نصب، الأتجار غير المشروع، العمالة، التّجسس¹، وعزّي نفسه بالعودة إلى أرض الوطن على متن باخرة، قائلاً في نفسه: >>الموت على باخرة وطني... خير من الحياة على أرض أشعر فيها بالاغتراب أجدها ترفضني، تضيق بي... يموت ويجيا فيها الإنسان، دون أن يشعر به أحد... صراع بين القوى... عصابات الإجرام تختطف، تقتل... تسرق الأحرار... تتاجر بالكرامة والضمير²، وإن كان في ذلك لا يقصد الأجنبي الفرنسي فحسب، وإنما تجتمع فيه العديد من الجنسيات المختلفة الأجنبية تتضح أكثر من خلال أسماء شخصياتها. وبذلك يعدّ موقف الحفناوي زاغر في الرواية على لسان الصحفي "سنان" سلبياً من فرنسا، إذ يُعدّ بلد الجريمة، وانعدام الإنسانية، دون أيّ اعتبار للمبادئ أو القيم أو الأخلاق.

ومن الشخصيات الفرنسية التي صادفها الصحفي سنان في فرنسا، صورة المرأة الفرنسية المتسلّطة، زوجة صديقه المهاجر "دادي"³، الذي لم يُفصح من أيّ بلد هو، أو ماهي جنسيته، واكتفى بالإشارة إلى أنّه ينحدر من أسرة ريفية تشتغل بالفلاحة، هاجر منذ الصغر، انتقل من عمل إلى آخر حتّى استقرّ في إحدى الشركات الصناعية الكبرى كعامل بسيط.

وتعدّ هذه الفرنسية >>موظّفة في بعض المؤسسات الاجتماعية، متوسطة الجمال لكنها قوية الشخصية، تسيطر على كل شيء، لا تتحرّك في البيت شعرة دون علمها، أو دون إرادتها⁴، أمّا بيتها فهو >>فيلا جميلة مؤثثة، بأفخر الرياش والأثاث، مرتبة منظّمة، تحار أين تضع رجلك، إذا كنت منتعلاً حذاءً⁵ وهذا دلالة على ثرائها ونظامها، ويتضح تسلّطها في كونها هي >>التي تتحدّث، تصدر الأوامر للزوج، لأخذ هذه أو جلب تلك، من أكبر انشغالاتها السياحية، اكتشاف المدن والقارات، زارت جلّ مدن العالم وحدها حيناً، ومع وحيدها حيناً آخر... الزوج يحرس الفيلا، يسقي الشجر والزّهر... ينفض

¹ الحفناوي زاغر، ضياع في عرض البحر، ص 157.

² المصدر نفسه، ص 100.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 26.

⁴ المصدر نفسه، ص 27.

⁵ المصدر نفسه، ص 27.

الغبار، يحافظ على نظافة المسكن الذي لا يطرقه غيره قبل عودة الزوجة العتيدة¹. إذ تعيش هذه السيدة المتسلطة، القوية الصارمة، كامل حرّيتها وحياتها كما تحبّ هي، وتجعل من زوجها خادماً الوفي، في حضورها وفي غيابها، لاسيما أمام الناس، وإن كانا يعيشان حياتهما الزوجية بكامل حميميتها ودفعها وحنانها، وهو ما صرّح به يوماً لصديقه "سنان"، عندما تبين له عن رفضه لمثل هذه المعاملة السيئة، وعن مثل هذا الزواج غير المتكافئ.

وقد كان "لدادي" ولد من السيدة الفرنسية² يبلغ من العمر ثمان عشرة سنة، شديد السمرة، غير وسيم... أسأله لأعرف ميوله لمواطن الأب، وارتباطه ببني قومه هناك... فكان يقول: أنا على دين أمي وجنسيّتها... قومي وأهلي هم من هنا، أمّا أولئك فلا أراهم مقبلين إلّا لطلب منحة أو قرض لن يسدّوه قطّ³، إذ لم يكن يعترف هذا الابن بأصوله من والده، الذي هو في حقيقة الأمر لا يعترف ببنته أيضاً. وقد كان الولد يستنكر شخصية والده غير المقنعة، المهترة أمام شخصية أمّه، ليس له رأي في القضايا العائلية، يستضيف أصدقائه، وليست له سلطة في بيته، فهو كالحادم الأمين والمطيع، الذي يتولّى في أوقات الفراغ تنظيف البيت وغسل الأواني وترتيب الغرف والاعتناء بالكلب والقط³، وهو ما جعله ينفر من أبيه وأهله، الذين لا يرى فيهم إلّا شخّاذين طماعين، ويختار تبعاً لذلك جنسية الأم ودينها.

تظهر في رواية "ضباع في عرض البحر" شخصية أو صورة المرأة الفرنسية المتسلطة، المهيمنة في بيتها، المتحكمة في زوجها المهاجر القابل بأي وضع، إذ لا مشكلة لديه في تحوّلته إلى خادم مقابل منحه الجنسية الفرنسية، والبيت والاستقرار فيزيد تجرّبا وتسلّطها لضعف الآخر الذي تُقيم معه علاقة زوجية تجعلها غير متوازنة، لا تتنازل فيها عن كبريائها وعنصريّتها، خاصة أمام الضيوف والناس أجمع، حيث تبقى هي السيدة الوقورة القوية والعتيدة، ويبقى هو الخادم المطيع.

¹ الحفناوي زاغر، ضباع في عرض البحر، ص 27.

² المصدر نفسه، ص 28.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 27.

4- صورة الفرنسي المتحضّر والإنساني في الرواية الجزائرية:

لم تكن رؤية الكتاب الجزائريين منصّبة - دائما - حول الانبهار بفرنسا ومظاهر الحياة فيها، أو انتقادها وذكر سلبياتها، بل كانت لبعض الروائيين نظرة متوازنة تجاهها وتجاه شعبها، تتميز بالصدق في نقل الصورة بإيجابياتها وسلبياتها، كذكر مظاهر الحضارة والتّقدم والإنسانية والنّظافة والجمال وغيرها. ومن مظاهر الحضارة التي وضّحها (عبد الملك مرتاض) في روايته "الحفر في تجاعيد الذاكرة" إثر هجرته إلى فرنسا في مرحلة الشباب، ما وجدته في فرنسا الخارج مختلف تماما عن فرنسا المستعمرة لبلده، حالها متقدّم، ومناظرها جميلة خلّابة، جمال يقول عنه: >> وكنتم تلاحظون من نوافذ القطار ريفا فرنسيا مخضّرا، تجلب مناظره الألباب، وتسحر مشاهدته القلوب¹ ، وفي المدينة عيون ماء يشرب منها الفرنسيون >> وقد أدركتم فيما بعد، أن الفرنسيين لا يشربون في أغلبهم خصوصا في المدن، إلاّ الماء المعدني، أو ماء العيون، فلعلّ أولئك النساء المتأنّقات كنّ يسخرن في قرارات أنفسهنّ من أناس يعبّون في ماء مخصّص في الأصل لرشّ الشوارع وسقي الأشجار، وهم لا يعلمون² ، وهي صورة عن جمال المدينة وتحضّر أهلها.

ومما اعتبره مظهرا حضاريا، ما وجدته من غرف مجهزة بالمدافع إذ >> كان لكل غرفة مدفعة تشتعل بالفحم الحجري الذي يكثر في مناجم تلك الأرجاء، ولكن تلك المدفعة كان لها بعض الوظائف الأخرى، مثل استعمالها في طهي الطعام وتسخين الماء³ فأعجب بحضارة فرنسا هناك وتقدّمها للاختلاف الشاسع بين مظاهر الحياة فيها، وفي الجزائر التي تستعمرها.

وقد شكّلت بعض المظاهر الحضارية في فرنسا لدى الكاتب صدمة سمّاها "الصدمة الحضارية" وهي مظاهر هائلته لاختلافها عمّا عهده وتربّى عليه من قيم وأخلاق، وعادات في مجتمع جزائري محافظ حيث يقول عن مظاهر اللباس: >> فصادفتم يوما مصحّيا حارّا بمدينة مرسيليا، فشاهدتم الفتيات الفرنسيات ربّما لأول مرّة، وهنّ لا يرتدين إلاّ تّبانات قصيرة، لا تكاد تستر إلاّ عوراتهنّ الكبرى، ولم يكن

¹ عبد الملك مرتاض، الحفر في تجاعيد الذاكرة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2004، ص 232

² المصدر نفسه، ص 232.

³ المصدر نفسه، ص 243

يسترن إلا قليلاً¹، إضافة إلى بعض الأعمال المخلة بالحياء بين الفتيات والفتيان علانية، أمام الناس الذين ينظرون ولا ينكرون². تلك المشاهد والمناظر شكّلت لديه صدمة، لم يحدّد ويصرّح إعجابه بها أو إنكاره لها، وإنما اكتفى بأنها تختلف عمّا ألفه، إذ يقول: >وربّما كان ذلك المشهد الذي شاهدت في مدينة ليون، بمحطة القطار أوّل طلائع الصدمة الحضارية الغربية التي بدأت تصطدمون بها في مجتمعكم الجديد³، وهي كثيرة لم تبق عند مظهر اللباس وانتقلت إلى قلة الحياء.

يرى الكاتب أنّ الصدمة الثانية، كانت عند إصابته بجرح في معمل "لاستوري" الذي كان يشتغل فيه، ولما أراد أن يعاينه الطبيب، طلبت منه الممرضة الفرنسية التّجرد من جميع ثيابه لإتمام الفحص، وعند رفضه لذلك خجلا وحياء، قالت له: >العري واقع ضمن طقوس الفحص العام، ولا مناص منه، وإلا فلن أدخلك على الطبيب!... فتعرّيت كما ولدتك أمك أمامها، وهي تنظر إليك دون خجل، ولا استنكار، فكانت تلك صدمة حضارية أخراة... وعجبت كيف كانت تحدّك ببصرها ولا تستحي، من حيث كنت أنت شديد التّحرّج بل ساجحا في الخجل أمامها⁴. وهي على العكس منه تماما تنظر إليه ولا تستحي ولا تبالي.

اعتبر عبد الملك مرتاض في روايته السير ذاتية، أنّ ما رآه وهو شاب عند هجرته إلى فرنسا، من بلده الجزائر المستعمرة، يختلف عمّا ألفه وما تربّى عليه، ولم يشكّل ذلك لديه إلا صدمة حضارية تتلخّص في صورة الفرنسي الذي يدّعي الحضارة والتقدّم، من خلال اللبس القصير والمظاهر المخلة بالحياء علنا، والتعرّبي دون خجل، من الممرضة إلى المريض - فرما قد تكون تلك هي الحضارة الفرنسية.

وفي رواية "الإنكار **La Répudiation**" ل(رشيد بوجدره)، مظاهر الحضارة الفرنسية تبدو في جمال المدينة ونظافة شوارعها، إذ يقول: >هاهي ذي المدينة الأوربية عدد النساء في تزايد مستمر، والشوارع نظيفة منظّمة، والمقاهي متألّقة وهاجة والناس هيئتهم نقيّة واشحة، يحملون كلّهم جريدة مطوية

¹ عبد الملك مرتاض، الحفر في تجاعيد الذاكرة، ص 230.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 233.

³ المصدر نفسه، ص 233.

⁴ المصدر نفسه، ص 247.

تحت آباطهم (إنها علامة على النبيل والامتياز) حتى البحر يبدو هنا أشدّ تألؤاً¹، فتبدو صورة فرنسا مشعة متحضرة، بنظافة ونظام الشوارع، والمقاهي، وشعبها المثقف، النقي النبيل.

وقد أعجب أحمد في رواية "حفنة السراب" ل(الصادق بخوش) بمعاملة السائق له بكرم وودّ وهدوء في فرنسا، كما أعجب بطريقة الباريسيّين في ترتيب الفواكه وعرضها في محلاتهم، >> شاهد كيف يوضّب الباريسيون سلّعهم، ويقدمونها لزبائنهم بطرق تبعث على الاشتهاء²، إضافة إلى جمال المدينة ومنظرها الخلاب، لاسيما مساء، تحت الأضواء المتألئة، والناس المزدهمة، التي خاف على نفسه من الضياع فيها، كما لاحظ كم يحترّم الناس أوقاتهم ويُقدّرونها، إذ يعتبرون الوقت ثمينا، وملكا خاصا لهم³ لا يحقّ لهم أن يضيعوه في خدمة غيرهم.

5- صورة المرأة الفرنسية الإنسانية والمتعايشة:

وتعدّ المرأة الفرنسية في بعض الروايات الجزائرية إنسانية كريمة طيبة، إذ نجد صورة العجوز " ريموند" في رواية " ندير كيمايدير في البحر العوام" ل(الصادق عيسات)، ترأف بالمهاجر الجزائري " DZ " وتجده مُعينا لها، وتُكرّمه إثر ذلك بالطعام والألبسة، يقول عنها: >> كانت العجوز ريموند تجدني عربيا ودوداً، أدّيت عملي على مائرام في بيتها، وعندما كانت تذهب في إجازة كانت تترك لي مفاتيحه لأنفقده بين الحين والآخر، وأتبط المتربّصين من اللصوص، كنتُ أجد أنّ القبو هو أفضل مكان في بيتها، وكنت أرتاده كثيرا في غيابها، كانت توصي بي أصدقائها لأشغالهم الصغيرة، وأحيانا تعطيني بعض الطعام والملابس⁴، فهو على الرغم من كونه مساعدا لها، إلا أنّها تُكرّمه وتثق به، من حيث تركها لكل شيء بين يديه أثناء غيابها.

وفي رواية (عبد الملك مرتاض) " الحفر في تجاعيد الذاكرة" صورة لسيدة فرنسية طيبة، وكريمة وكلّها إنسانية، حيث جرح ذقن الشاب المهاجر إلى فرنسا ذات مرّة، وذلك عند اصطدام دراجته التي

¹ رشيد بوجدرّة الإنكار، ص 286.

² الصادق بخوش، حفنة السراب، ص 44.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 42.

⁴ الصادق عيسات، ندير كيما يدير في البحر العوام، تر: إلياس تملالي، منشورات البربخ، الجزائر، ديسمبر 2007، ص 28

كان يقودها في أحد الشوارع الفرنسية بسياج بيت سيدة فرنسية، نزل منه دم كثير إثر تلك الصدمة وكاد يغمى عليه فلاحظت ذلك، وخرجت >> من مطبخها مذعورة وفوطة مطبخ نظيفة بيدها فمسحت دمك بها، ثم أدخلتك البيت وقدمت إليك الإسعافات الأولية، وهي تتلطف بك، حتى كأنك ابنها أو أخوها الأصغر، وهي كالملاك الكريم، ثم رافقتك بنفسها إلى طبيب الحي الذي خاط اللحم الممزق إلى ثلاث غرزات، وقدمت له ما طلب منك مقابل الأتعاب»¹. فصورة السيدة الفرنسية تبدو إيجابية، إنسانية، لما فيها من طيبة وكرم وعطف بهذا الشاب الجزائري، فهي ليست عنصرية حقودة على جنسيته أو بلده وإنما عاملته من منطلق إنساني، داوت جراحه، ودفعت مقابل ذلك مالا وهي تشع حنانا، إذ شبهها بالملاك للطفها ونظافتها.

وتتجلى صورة المرأة الفرنسية في رواية "إله في بلاد البربر **Dieu en barbarie** ل(محمد ديب)، وهي الفرنسية "مارث Marthe" زوجة الجزائري "حكيم مجار"، إذ يصورها ذات وجه هزيل جميل جداً، مشرق مبتسم، بعينين زرقاوين لامعتين، وبشعر قصير كستنائي بخصلات حريرية شقراء²، وهي امرأة متدينة مؤمنة، تداوم على الصلاة في كنيسة سان ميشال³ التي كانت تجاور منزلها قبل مجيئها إلى الجزائر حيث كانت ممرضة تعمل في مستشفى خاص.

تبدو صورة الفرنسية مارث إيجابية، مشرقة، نظرا للأخلاق الرفيعة التي تتمتع بها، تعدّ طيبة القلب، يحبّها الجميع في الجزائر، لاسيما النساء المتقدّمات في السن، حيث يقلن لها: >> أنت طيبة، بارك الله فيك⁴، وذلك ما يبعث الراحة في قلبها، كما كانت تعطف على الجميع وتسعى لمساعدتهم حتى وصفها "لعبان" (الفتى البالغ من العمر عشرين سنة، وهو مريض نوعا ما، كان يعطف عليه زوجها حكيم مجار) قديسة، طاهرة جاءت لتخلصهم وتحرّهم من العذابات التي يعيشونها⁵. وقد أثر ذلك في

¹ عبد الملك مرتاض، الحفر في تجاعيد الذاكرة، ص 257.

² Mohammed Dib, Dieu en Barbarie ; Editions de seuil ; paris ; 1970,p 68

³ Ibid, p 67.

⁴ Ibid , p 80.

⁵Ibid, p 83.

نفسها وبعث فيها شعورا بالرّهبة، وكل ذلك بسبب حنائها وعطفها ومحبتّها للآخرين، لاسيما الضعفاء الذين يفتقرون إلى أبسط مشاعر الصدق والعطف والحنان.

وقد كانت ذات أخلاق راقية، تقترب إلى الكمال، لاسيما فيما يتعلق بحبّها لزوجها وإخلاصها له فهي رمز المرأة المطيعة، إذ تسعى لإرضائه وتلبية طلباته وتحاشي كل ما يُعكّر مزاجه، وتُسرع لمصالحته كلّما طرأ بينهما سوء تفاهم مهما كان بسيطا¹، فعلاقتهما نموذج للعلاقات الزوجية المثالية، لما فيها من تفاهم وما يسودها من روح الدّعابة²، والثقة والسعادة.

وتعائش "مارث" مع "حكيم مجار" لم يتوقف عند حدّ العلاقة الزوجية وحيثياتها، حيث انعكس ذلك على شخصيتها ورغباتها، لاسيما معتقداتها إذ أنّها مسيحية مؤمنة، ومع ذلك فإنّ حكيم استطاع أن يؤثّر فيها من خلال الآيات القرآنية التي كان يردّها، وتحفظها عنه، لترتلها أثناء فرعها وقلقها كقراءتها لسورة الفلق لتهدئ بالها وتطمئن قلبها³، بعد الأحلام المزعجة التي كانت تتردّد عليها كلّ ليلة. وهي بذلك صورة لسيدة فرنسية مثقفة، مؤمنة، جميلة، طيبة القلب مرهفة الحس، شديدة التأثير متعايشة مع الآخر المختلف عنها لغة ودينا، وجنسية. مطيعة مخلصّة ووفية، فكانت مارث صورة ورمزاً أراد به الكاتب توضيح جانب إيجابي في نساء فرنسا، إذ ليست كلّ النساء الفرنسيات عنصريّات، مستبدات أو فاجرات عاهرات.

وفي رواية "هابيل" Habel ل(محمد ديب)، صورة أخرى لفتاة فرنسية متأزّمة، ضعيفة ومنكسرة، هي الفتاة الفرنسية "ليلي"، الفتاة الصغيرة النحيلة، البيضاء الجميلة، التي سحرت "هابيل" برقّتها وحنانها ولطفها المذهل، وابتسامتها الحنونة⁴، يدها لبقّة، يدا امرأة مرنة ولطيفة⁵ ساحرة بنور عينيها عينيها اللطيف، وبأنوثة كلّ ما يقال عنها أنّها ناعمة.

¹ Mohammed Dib, Dieu en Barbarie , p p 76-77.

² Ibid, p 204.

³ Ibid, p 79.

⁴ ينظر: محمد ديب، هابيل، تر: أمين الزاوي، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 2007، ص ص 141، 142.

⁵ ينظر: المصدر نفسه، ص 145.

وتمثل "ليلي" في الرواية السند والمعين للمهاجر الجزائري "هاويل" إلى فرنسا، فقد عرف معها الحب الحقيقي العارم¹ والمعنى الكامل لحياته الروحية، إذ كان ناسيا لاسمه وجنسه، والغاية من حياته معتقدا بأنه منسي، إلى أن التقى بها ووضع يده في يدها²، تحابا وألغا بعضهما بعضا، إلى أن فلتت منه ذات ليلة، أضعها طويلا، وبحث عنها في كل شوارع باريس دون أن يعثر على أثرها.

وما تتميز به "ليلي" في الرواية هو الهروب والتغرب في الوطن الأم، حيث يجعل استسلامها المؤلم هاويل يشعر بجوع وعطش شديدين إليها، إذ أصبحت غريبة مجهولة، شخصا آخر فارقت ونسيتها³، ولكنها في الواقع نسيت نفسها إذ أصيبت بالجنون، وراحت تتجول في شوارع باريس بلباس مضحك، فكانت كالمهرج أو راقصة الشوارع⁴، تغرس مندبلا لتستعطف قلوب، الآخرين وجيوبهم.

وبعد نقلها إلى دار الصحة، راح هاويل يزورها، ويتردد عليها كل مرة دون أن تتعرف عليه وانتهى به الأمر إلى تفضيل البقاء قربها، معتقدا أنه لا حقيقة إلا هناك، ولا حياة إلا بقربها، المجنونة التي أصبحت <أكثر عجزا، أكثر عدا، أكثر وحدة وأكثر منفى>⁵، وهي بذلك في نظره ملاك، آلهة آلهة مضطهدة ومقيدة، من طرف شياطين حقودين تحرمه منها⁶.

تمثل "ليلي" صورة المرأة الفرنسية الضعيفة التي لا تتحمل تناقضات الحياة وآلامها، لم تود بها الغربة النفسية إلا إلى الجنون. في إشارة من الكاتب إلى أن فرنسا كلها تناقضات وأزمات، والذي يعيش فيها ضعيفا، سواء كان مهاجرا غريبا، أو من أبناء البلد سينتهي به الأمر إلى الجنون وفقدان العقل ونسيان النفس.

وفي رواية "ابن الشعب العتيق" le fils du peule ancien ل(أنور بن مالك)، تبرز صورة الفتاة الفرنسية "ليسلي" الألزاسية المنبت، حيث كانت تعيش رفقة أخيها بعد وفاة أبويها غرقا.

¹ ينظر: محمد ديب، هاويل، ص 144

² ينظر: المصدر نفسه، ص 145

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 161، 162.

⁴ ينظر: المصدر نفسه، ص 166، 167.

⁵ المصدر نفسه، ص 174

⁶ ينظر: المصدر نفسه، ص 168

وقد كانت "ليسلي" فتاة بريئة ووحيدة، تعيش في ذكريات طفولتها رفقة والديها، غير أنّ الصّدف شاءت أن تكون أختاً لأحد[>] مناصري العامية الدّين، ولشدة ثقتهم بأنفسهم، تلهوا بالثرثرة وتعلّقوا بأضغاث الأوهام، فحرقوا باريس، ونكّلوا بأهلها، إلا لسعيها أن تكون نصيرة للعامية^{<1}، وقد كانت "ليسلي"^{>>} تحبّ أخاها الذي التزم روحاً وجسداً بالعامية، أملاً في أن تصبح باريس سيّدة مستقلة، يعيش فيها المواطنون أحراراً، فيتولون إدارة شؤونهم بأنفسهم، كما يروونه مناسباً^{<2}. في حين كانت هي مسالمة، مستسلمة، ناصحة لأخيها، تقول له: [>]يا قرّة عيني ماذا تجني من الاحتجاج العنيف على الإمبراطور وأولئك الذين أتوا من بعده، ألا ترى أن قياديين جُدد حلّوا محلّ الذين سبقوهم، أمّا أنت وأنا فإننا لا نزال نتضوّر جوعاً، قابعين في أسفل الدّرك وما من سبب يقضي بتغيير ما نحن عليه من حال، إلّا إذا أصبحنا آنذاك كالأخرين^{<3}، غير أنّ أخاها ظلّ على ذلك الحال، وتزوج من فتاة مثله وأنجبا بنتاً، فُتلاً وتركها عند "ليسلي" التي كانت ترعاها وتحنّ إليها، فلم يبق للواحدة منها إلّا الأخرى غير أنّ الفوضى انتشرت في البلاد، وأدّى ذلك إلى الحرق والتهديم والتخريب، وكانت "ليسلي" مظلومة في ذلك كلّها، حيث وُجد إناء بنزين في يدها حملته لتضع فيه ماء لتروي ظمأ الصغيرة التي برفقتها. فاعتقدت الشرطة أنها واحدة من اللواتي أضرم النار، وتمّ سجنها وإبعادها عن الصغيرة ومن ثمّ ترحيلها إلى كاليدونيا الجديدة، على متن سفينة رفقة تسعة من السجينات.

وفي كاليدونيا تعرّفت على الشاب الجزائري "قادر" وهو حفيد الأمير عبد القادر، تمّ هو الآخر نفيه إلى الجزيرة، بعد ثورة الشيخ المقراني، إذ نُفي الجزائريون إلى جزيرة الصنوبر، والنساء الفرنسيات الثائرات إلى جزيرة (دوكوس Ducos) غير أنّ كل من "ليسلي" و"قادر" قد هربا دون أن يعرفا بعضهما، أو ينطلقا من المكان ذاته وكان اللقاء بينهما ذات مرّة. حصل "قادر" على مالٍ بعد قتله مرافقه، فأخذته "ليسلي" إلى الكوخ الذي كانت تتقاسمه رفقة زميلتها "ماتيلد" وتمكّنا بذلك المال من مغادرة الجزيرة (دوكوس) والتوجه عبر مركب إلى أستراليا التي كانت لهم بمثابة الحلم.

¹ أنور بن مالك، ابن الشعب العتيق، ص 85

² المصدر نفسه، ص 86.

³ المصدر نفسه، ص 87.

مع مساعدة "ليسلي" لـ"قادر" إلا أنها كانت تبغضه، وتختيئه ضبعا أو حيوانا شرسا، وقد كانت تتميز بالمغامرة والتمرد بحثا عن الخلاص، دون تراجع حتى ولو كان ذلك على حساب شرفها أو جسدها¹، و اكتسبت شجاعة ووحشية بعد الذي تعرّضت له من أزمات، غيّرت من طباعها. ولم يبق يهّمها سوى حياتها وخلاصها، فكانت الفتاة الذّكية والمرشدة والشجاعة في أرض غريبة عنها. ومن جهة أخرى كانت عطوفة وحنونة على الطّفل الرّنجي الذي وجدته هي وقادر، حيث كان تريدارير² طفلا مُنهكا متأزما مصدوما. عوّضته عن حنان الأم وربّته إلى أن صار شابّا، كما تأقلمت مع قادر وتعايشت معه، حيث تزوّجا، وأنجبا طفلا. فكانت رمزا للمرأة الفرنسية المتمسّكة بالحياة بتغيّر طباعها في سبيل حياتها عكس "ليلي" الذي كانت نهايتها من الأزمات التي تعرّضت لها في مستشفى المجانين.

وهنا تبرز رؤية كلّ أديب في تصوير الآخر، في حياته وفي نهايته في ظل الظروف التي يتعرّض لها، وفي طريقة تعايشه مع الآخر.

6- صورة المرأة الفرنسية المتعطّشة للرجل العربي:

كثيرا ما تُتداول صورة نمطية عن المرأة الفرنسية، في كونها متعطّشة للحبّ وإرواء الظمأ الجنسي والمغامرة رفقة رجل عربي، تلك المرأة الجذابة الجميلة، التي لا تُبالي بالأخلاق والحياء وتبحث بكلّ السبيل عن تلبية رغباتها وإشباع نزواتها.

وتبرز صورة المرأة الفرنسية بذلك الوصف، في العديد من الروايات الجزائرية، بما فيها رواية "الإنكار **La Répudiation**" لـ(رشيد بوجدر)، ورواية "هابيل **Habel**" لـ(محمد ديب) وكذا روايتي (أحلام مستغانمي): "ذاكرة الجسد" و"عابر سرير" وإن كانت الشخصيات التّسوية الواردة في تلك الروايات تختلف فيما بينها من حيث بعض التفاصيل الدقيقة. إلا أنها تجتمع تحت غطاء واحد هو ما اخترنا إيضاحه في إجلاء مكّونات هذه الصورة.

¹ ينظر: أنور بن مالك، ابن الشعب العتيق، ص 211

² ينظر: المصدر نفسه، ص 217

تبرز صورة "سيلين" في رواية " الإنكار " ل(رشيد بوجدره)، من خلال زيارتها المتكررة لرشيد باعتباره مريضاً في مستشفى، نتيجة أزمة نفسية أصابته، تأثر بها وزادت حياته تعقيداً بسبب صعوبات حياته الطفولية، وانتهاك حقوق أمه الضعيفة، وخطورة والده الظالم والمتجبر. كل ذلك كان يعتمل في ذهنه ويشكل له عقداً نفسية حادة راح يحكيها ل"سيلين" التي كانت الإنسان الوحيد الذي يعود به بالمستشفى، يقول: >> رغم أنني كنت أحجل منها بعض الحجل، ورغم أن فسائنها الباهظة الثمن الزاهية الألوان في إفراط تهددني بمقاطعة سائر المرضى لي¹ ومن صفاتها أنها ذات وجه هادئ قريب من الوداعة والاطمئنان²، حيث كان لها تأثير عليه، من حيث أنها كانت تعرف كيف تردّه إلى الجادة، فتؤنّبّه في رفق وصبر، يقول: >> وهبت موهبة أساسية هي القدرة على أن تجعل مني إنساناً عاطفياً، منشرح الصدر³، وكانت ترأف به، إلى درجة كبيرة، مما يجعله يمقت تلك الرأفة والشفقة⁴ التي تبديها نحوه وقد بلغ تأثره وتعلقه بها وبجمالها إلى أن أصبح يتخيّل أنّه يسجنها لكي يحافظ عليها، فتكون له وحده ويحميها من رعاية أولئك الذكور المتسكّعين في تلك المدينة المهجورة من النساء⁵، ويقصد بها مدينة قسنطينة، ولا يقصد بالنساء إلا مثيلاً لها وأشباهاها، من الجميلات المثقفات الأجنبية المتفتّحات على حبّ الرجل العربي وعشقه.

وقد كانت "سيلين" ومثيلاً لها قد جئن إلى الجزائر >> لرفع الأمية عن جموع الذراري الضارين العدائين الذين كانوا يخافون من الوقوع في منتهى الضياع والهجران، وكان الأمر ينتهي بهؤلاء الأجانب إلى الإثراء وإلى احتقار سكان البلاد المذكورين، وهم قوم لا سبيل إلى الاندماج فيهم لا سيما أن لهم لغة لها وقع الحصى، وذات تراكيب متصلبة معقدة إلى درجة قصوى، وعند ذلك كانوا يستبدلون حيّ سكناهم، بحيّ آخر ويسرعون في التعايش مع بعضهم دون سواهم، باستثناء بعض الإناث اللاتي كنّ

¹ رشيد بوجدره، الإنكار، ص 13.

² المصدر نفسه، ص 11.

³ المصدر نفسه، ص 09.

⁴ المصدر نفسه، ص 9.

⁵ المصدر نفسه، ص 09

يصرون على محبة رائحة رجال البلد القوية، رجال البلد الذين استولى على نفوسهم جنون مطلق¹، إذ يصور الكاتب "سيلين" ومثيلاً لها أهن عنصريات لم يتمكن من التعايش مع الجزائريين الذين يبدو أن لا لغتهم ولا طريقة عيشهم قد راقت لتلك النساء اللواتي أصررن على الانضمام إلى أنفسهن، ولكن نيتهم في معاشررة الرجال العرب (الجزائريين) جعلت البعض منهم يعن أنفسهن لرجال طالما حلمن بهم، وكانت "سيلين" هي الأخرى تعاشر "رشيد" - في الرواية - وتتوق إليه، ولكن ذلك كان مقابل سماعها لحكاية رشيد المعقدة عن قبيلته وعشيرته، وأسرته وزوجات والده الأربع، وأمه المنهكة وأخوه الشاذ وغيرها، في خطوة لا حدود لها، خصوصا حكاية أخطبوطية، لم تكن ترى خطرها، إذ كانت كما يقول رشيد:

>> تحسبني مدعاة للشفقة والرثاء وإنسانا صيحا زعاقا في آن، لقد كانت تبغني وهي مشدودة إلى الكلام الخارج من شفتي أن تبقيني خارج العالم فتسبب في خرابي وتحملني على التمتعة².

وكانت أثناء استماعها لقصة رشيد، لا تصدقه فيما يرويها، وهو يكره منها ذلك الشك³ ولكن لم يكن في استطاعتي أن أحتمل ذلك الشك الذي كانت ترعرعه عمدا لإبقائي تحت رحمتها، لما كان في نفسي من عجز عن الإفلات نحو متعاقدة أجنبية أخرى أغويها، بقصيدة أكتبها على ظهر العشيقة الأبيض العريض. ...لزرع الخوف في نفسها، كنت أستأنف الحديث عن الانتحار، وأطالعها بأن تقني لي جميع الكتب التي تعالج موضوع الانتحار، والتي لا أقرأها أبداً. وإذ ذاك كان يتحتم عليها أن تتحالف معي، فتسلم أمرها لله وتقبل على مضض روايتي لقصة الجنازة³. فقد كانت "سيلين" لا تريد تصديقه فيما يقول، وتسعى إلى التهرب من قصته المقيتة، التي لا تفهمها ولا تعي تفاصيلها، غير أنها تبقى حبيسة غرفته الكريهة مصغية، لا لشيء إلا لخوفها من زوال تلك العلاقة الجنسية الرغبة فيها المتعطشة إليها، حيث كان يهددها باستبدالها بأجنبية أخرى تارة وبالانتحار تارة أخرى، وكأما بينهما عقد صفقة إذ يقول: >فسيلين لم تكن تريد مفارقتي، إذ كانت تعرف أنها قد ترتكب بذلك غلطة خطيرة من

¹ رشيد بوجدر، الإنكار، ص 241.

² المصدر نفسه، ص 34.

³ المصدر نفسه، ص 242.

شأنها أن تكون وخيمة العواقب (أهي المساومة؟) لاسيما أن سبب الافتراق المحتمل سبب واه ضعيف لكم تتفنن في الإغراب والتناقض إلى أقصى حد¹ وكأنه يمسكها من اليد التي توجعها ولا تتحمل ألمها. ويصوّر الكاتب هذه المرأة الفرنسية، أمّا متناقضة، مزدوجة الفكر، مزدوجة الوجه، وهي في ذلك تشبّهه كثيرا، إذ يقول: >>... هذه المرأة ذات الوجهين، وجه غمره الضياء، فعاد إليه ضرب من المتانة والصلابة، ومن واقعية لا عهد له بها فبينما ظلّ في حالة من الغموض والإبهام، شعرت أنا الآخر في ألم وعناء بشيء من ازدواج الشخصية على غرار ما تشعر به تلك المرأة². فكلّاهما واقعي، له اهتماماته التي يعيشها، مثقف له فكر يعيه، غير أنّ كلاً منهما ضعيف، غامض عندما يكون في مواجهة رغبات جنسية لا حدود لها لكلّ منهما يعشق الآخر، فهو يرى في الفرنسية المرأة الجميلة الجذابة المغربية، وهي ترى فيه الرجل العربي الذي تعشق معاشرته. إذ يقول عن ذلك: >>لقد وقع الضوء المتصاعد من حوض الميناء والمتّجه نحو نافذتنا المضاءة على أحد جانبي وجهي، فأصبحت أشبه "سيلين" مما جعلني في الحين أشعر بالأهميّة الكاملة لتساكننا، وهو تساكّن ليس بالغمامي ولا بالاجتماعي، بل هو من قبيل التعايش البيولوجي، ف"سيلين" أصبحت تشبّهني! فقد صرّث مزدوجا، وهي كذلك، وقد أثر في نفسي ذلك أيّما تأثير، لأنّني ما انفككتُ إلى ذلك الحين، أعتقد صارم الاعتقاد أنّ ليس هناك ما من شأنه، أن يصير أحدنا مثل الآخر³ شكلا وتفكيراً.

وتتضح ازدواجية شخصيته في الشعور نحوها، مرّة بالرغبة في أن يحكي لها تفاصيل حياته المعقّدة ومرّة أخرى يعتبرها من خلال سماعها تشكّل سطوة على ذاته، فإذا لم يتكلّم أحسنّ بها تتغلّت من القيود التي كانت تنصبها له. وهو يسعى من جهة أخرى إلى الإيقاع بها، وإبقائها تحت سلطته، حيث يقول: كانت تريدني >> فريسة من نوع خاص، لا أيّة فريسة، كانت تريدني حيّا ولا تحلم إلا بانتزاع ذكرياتي منّي، لا لاستعمالها لغاية ما، بل لإفنائني وإذابتي من خلال ثرثرتي القاحلة التي لا ينضب لها معين، ولا فراغي من جنوبي الملموس ولو حدث لها ما تحبّ لما بقي من ذاتي، إلّا رواسب مبهمة الآثار، ملؤها

¹ رشيد بوجدر، الإنكار، ص 17.

² المصدر نفسه، ص 14

³ المصدر نفسه، ص 14ن15

اللعاب والدخان، تتواصل بعد ظلالي وبعد استلاب كلامي المجرش المعنى المتشقق العلامات¹، فحكايته لماضيه الكئيب، تشعره بأسره لها دون خوف على نفسه منها، إلا من ناحية سعيها إلى محو تاريخه، ومحو كل ما بقي لديه من ذكرياته، حتى يتسنى لها العيش رفقة ومعاشرته، دون شروط أو قيود، وحتى يبقى خالصا، ملكا لها لوحدها لا تشاركها فيه ذكرياته ورواسبه.

غير أنّها في نهاية المطاف استسلمت، وفضّلت المغادرة إلى وطنها الأم على سماع تلك الترهات، تاركة له وحيدا رفقة ذكرياته السيئة، وصراخه وكوايبسه، يقول عن رحيلها: >> لم أكن أدري الجواب الآن، وقد انتهى الأمر بسيلين إلى التخلص من خوفها عليّ وإلى الرجوع إلى فرنسا بلادها تاركة إتي في بلبله فكرية، لم يسمع بمثلها قط. ومنذ قطيعتي مع تلك العشيقة، صار يتفق لي أكثر فأكثر أن أطفق في مناجاة نفسي بصوت مرتفع وأنا بزنانتي، فأحدث بتلك الصورة وبدون قصد كوايبس تتخلّل نوم حراسي². وبذلك وردت صورة المرأة الفرنسية "سيلين" في رواية الإنكار لرشيد بوجدره، صورة إيجابية ولكن لصالح "رشيد"، يصوّرها بالجميلة والجذابة، الحنونة والعطوفة، بما يجعلها تأخذ بيده وتساعد على الخروج من حالته، ولكنّها من جهة أخرى، صورة امرأة خاضعة، يتسلط عليها، ويتركها تحت رحمته يشترط عليها سماع قصّته ويأسرها في غرفته. فإخضاعها من أجل الانتقام منها وكأثما المساومة، فهو الرجل الجزائري المتحكّم في زمام العلاقة القائمة بينهما وهي المرأة الفرنسية الخاضعة، مقابل إرواء عطش جنسي كان هو المصلحة الكبرى لها في إقامة تلك العلاقة التي آلت إلى الزوال.

وفي رواية "هايبيل" Habel ل(محمد ديب)، تبرز صورة المرأة الفرنسية "صابين" التي كانت دليل "هايبيل" في مدينة باريس، التي هاجر إليها ولا يعرف عنها أيّ شيء، إذ كان تائها، متغرّبا فيها.

وصورة "صابين" في الرواية، تنفتح على كلّ معاني الجمال الخالد، إذ تشبه الفتيات الشرقيات الجميلات، تتميز بما تتمتع به من نضح، وورك^{>>} لا تتمتع به فتيات باريس إلا نادرا، ينطلق الورك من خصر ضيق جداً، ضيق إلى حدّ يمكن وضعه في أيّ سوار مثل تلك الأساور التي تضعها في معصمها

¹ رشيد بوجدره، الإنكار، ص 16

² محمد ديب، هابيل، ص 349.

ثم يتسع نحو حرّ لافح، ملجأ برودة¹، بشرتها بيضاء جارحة وأسنانها جميلة² شعرها عذب برائحته المرّة التي تغمزه عند وضع رأسه على صدرها. يصفه بالشعر المغربي³ فهي جميلة إلى درجة أنه لا يستطيع الانفصال عنها، جمالها فتان، فهي وحدها⁴ > أقلّ قيوداً وأكثر وحشية وأكثر جمالا، إذ لا شيء أجمل من وحش جميل⁴ بعينين عميقتين تطلقان رصاصا تُصبيان به "هايل"، المتأزم المنتشي رفقتها.

وتبدو "صابين" في الرواية جامعة بين صفتي القوة والضعف، فهي صارمة واعية لحقائق الأمور من حولها، إذ لديها تفسير⁵ > لأتفه حدث يطرأ على حياتها، لديها التفسير لكل شيء، إنها تعرف دائما ما يجب أن تفعل، ما يُراد منها، ما تريد، الوجهة التي يجب أن يأخذها مجرى حياتها، طريق واضح ومحدّد المعالم، وما عليها إلا اتباعها⁵ وهو ما جعل هايل يثق فيها وفي تصرفاتها، إذ أنه > > يدرك ويعلم أنّ صابين تفهمه⁶، ولكن في الوقت نفسه، يجد "هايل" الصّامت المتأمل لما حولها، أنّها ثرارة تتحدث دون أن توقف⁷ تُقاوم صمت "هايل" بكلام عنها وعنه، باحثة عن أجوبة لتساؤلات في عينيه.

ومن جهة أخرى يصوّر الكاتب "صابين" كرمز للمرأة الأوروبية المتهورّة⁸ الضعيفة العنيدة⁹ حادّة حادّة المزاج¹⁰، بغضبها الشديد الذي يسعى "هايل" لتهدئته بمدوّته وثقله المترامي على قلبها، ونظراته التي تبدو لها شبه جنون أو غباء.

ومع ذلك لا يستطيع هايل العيش دونها، كونها تمثّل له الجانب الجسدي الذي يسعى لتعبئته، تسمح له بممارسة الحبّ الفاحش، حيث > يعيشان منذ أوّل يوم (...). يجبان بعضهما مثل مخلوقين

¹ محمد ديب، هايل، ص 133

² المصدر نفسه، ص 127.

³ المصدر نفسه، ص 48.

⁴ المصدر نفسه، 51.

⁵ المصدر نفسه، ص 45

⁶ المصدر نفسه، ص 133.

⁷ المصدر نفسه، ص 46.

⁸ المصدر نفسه، ص 40

⁹ المصدر نفسه، ص 45

¹⁰ المصدر نفسه، ص 40

وُجدا من أجل بعضهما بعضاً، والجنس الذي يشكّلانه منذ ذلك اليوم، هو جنس خلق مدين لتعاونهما¹، فهما عشيقان اجتماعاً ليملاً الواحد منهما جوفه وغريزته، بحبّ جنوبيّ تحركه شهية قويّة، قويّة، تجعلهما يلتهمان بنهم كلّ شيء²، فـ"صابين" مستعدّة لسيان اسمها وماضيها³ من أجل تهدئة جوعها فمثّلت بذلك أسطورة للمجون والإغراء المادي.

تتضح صورة المرأة الفرنسية في رواية "هابيل" متميّزة بجملها المنقطع النّظير، تجمع بين سمات الجمال المشرقي والمغربي، لها فكر ووعي عميقان واقعيان، وإن كانت تُسبّق - في كثير من الأحيان - رغباتها وشهواتها، وهو ما يُفسد عليها طباعها، رامية بكلّ القيم والأخلاق الإنسانية والاجتماعية، وراء نشوتها وجوعها، ضائعة في أجواء باريس، وأحوال شعبها وإن كانت من شعبها المنهك التّائه.

وفي رواية "عابر سرير" ل(أحلام مستغانمي)، صورة المرأة الفرنسية الجميلة المثقفة، وقد وردت بصورة رمزية نوعاً ما، لتوضّح الكاتبة من خلالها صورة لفرنسا عامة، وتعلّق بعض الجزائريين بها، وهي في هذه الرواية باسم "فرانسواز" رفيقة "زيان" أو "خالد".

وتبدو "فرانسواز" في الرواية سيّدة فرنسية أربعينية، جميلة القوام، ينسدل شعرها الأحمر، بتموجات على كتفيها⁴، تعمل موديلاً للرّسامين⁵. فرانسواز طيبة، خدومة ومثقفة في حدود عالمها الذي يدور كلّ كّلّه حول الرسم، وكان فيها شيء شهواني بدأ يعلن عن نفسه تدريجياً، يقول زيّان: >لكنّ شهيتي كانت تفتح نحوها ببطء، فقد كنت أخاف من الضجر الذي يلي الشّهوات السريعة الاشتعال، ومُتعا مآلها إلى ندم سريع. لكنني كنت أحتاجها، لا لتأويني أو تنفق عليّ كعادة النّساء مع العابرين، إنّما كي تلهيني عمّا هو أخطر، تلك الأشياء التي تصبح الأخطر بالتناوب، حسب فترات العمر وتقلّبات القدر، وكنت أحتاجها قبل كلّ شيء لتوصلني إلى ذلك الرجل⁶، ويقصد به "خالد" كما ورد في رواية ذاكرة

¹ محمد ديب، هابيل، ص 45.

² المصدر نفسه، ص 45.

³ المصدر نفسه، ص 131

⁴ ينظر: أحلام مستغانمي، عابر سرير، منشورات ANEP، الجزائر، 2004، ص 56

⁵ ينظر: المصدر نفسه، ص 63

⁶ المصدر نفسه، ص 65، 66.

الجسد، خالد الرسّام الذي كانت لوحاته تُعرض، بينما هو مريض مُلقى في مستشفى. وقد التقى "زيان" بـ"فرانسواز" في معرض "خالد" للوحات. وأراد من كلّ الفترات التي قضاها رفقتها أن توصله إليه وتُعرّفه عليه، بعدما أُعجب به من خلال قرائته لرواية "ذاكرة الجسد".

ومّا يقوله عن "فرانسواز" وعن تعلّقه بها: >> "قد أكون تعلّقت بها لحظة شرود عاطفي من أجل رجل، هي المعبر الإجماعي لأي طريق يوصل إليه"¹، ومع ذلك فقد كانت مستثيرة له، لا بجمالها ولكن بكلامها >> فرانسواز فتحت بجملة واحدة، بؤابة الشّهوات الجهنّمية، وتركتني مذهولا، لا أدري كيف أوقف سيل الحمم، أبقاومتها، أم بالاستسلام لها"². أمّا هي، فقد وجدت في تمنّعه وعدم استعجاله الانفراد بها شيئا مغريا، >> ومثيرا للتحدي الأنثوي الصامت، ومثيرا أيضا للاحترام، خاصة بعدما اعتذرتُ [كما يقول] عن قبول عرضها الذي أظنه كان نابعا من طبيعتها في استضافتي بعض الوقت في بيتها، لتوفّر عليّ مصاريف الإقامة المكلفة. قالت مثبته حسن نواياها:

- عندي غرفة إضافية يحدث أن يقيم فيها لبعض الوقت الأصدقاء العابرون لباريس، ومعظمهم من معارف زيان (...)

- وهل زيان يُقيم في بيتك؟

أجابت ضاحكة:

- أجل، وإن شئت أنا من يُقيم في بيته"³.

حيث كانت تشترك معه في دفع إيجار البيت، مقابل الاشتراك في السكن. ولم يكن زيان هو الوحيد الذي يُقيم في البيت كلّ عابري باريس، هم عابرو بيتها، وعابرو سريرها، ممّا جعله يتخيلها >> امرأة لا يملكها رسّام، لكأنّها أنثى لكلّ فرشاة، لفرط اختلاف شخصيتها بين لوحة وأخرى، كنت تشعر معها وكأنّك تُسلم نفسك إلى قبيلة من النساء"⁴، وذلك أنّ الرسّامين الذين يعبرون بيتها، يهدونها لوحة

¹ أحلام مستغانمي، عابر سرير، ص 75

² المصدر نفسه، ص 75.

³ المصدر نفسه، ص 77

⁴ المصدر نفسه، ص 86.

يرسمونها من خلالها وبقيت محتفظة بكلّ تلك اللوحات التي تبدو في كلّ لوحة مختلفة عمّا هي عليه في اللوحة الأخرى، يقول عنها: >> رغم ذلك لم يكن في الأمر ما يغريني، ولا كانت لي رغبة أن أدخل في تحدّ مع الرجال الذين يسبقوني إليها، فقد كنت على جوعي الجسدي رجلاً انتقائياً في حرمانني كما في متعتي، أنا المولع بانحسار الثوب على جسد متوهّم ما وجدت في جسدها المكشوف مكمّن فتنتي¹ فلم يكن بقاؤه بجانبها، وتعامله معها، وزيارته لبيتها، إلا ليصل إلى من جاء يبحث عنه .

ومع كون تلك الفرنسية متعطّشة للمغامرات العاطفية، إلا أنّها كانت >> مهووسة بالمبادرات الخيرية، وكأنّها نذرت نفسها لمساعدة بؤساء البشرية، الذين يتناوبون على قلبها وعلى سريرها حسب مستجدّات المآسي في العالم، حتى كان يبدو لي أنّ معاشرته زيان تدخل ضمن نشاطاتها الخيرية² التي تُسعف بها كلّ المحيطين بها، وذلك لطيبتها وإنسانيتها العالية. فكل من يحتاج إلى بيت غطاء، لباس أكل، حبّ، عطف، رغبة، شهوة، فهي حاضرة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ "فرانسواز" في رواية "عابر سرير" هي نفسها "كاترين" في رواية "ذاكرة الجسد"، إذ يكتشف المهاجر الباحث عن (زيان = خالد) ذلك لمقارنته بينها وبين كاترين كما قرأ عنها³ ولذلك فهي تحمل القسمات الجسمية نفسها، وهي صديقة "خالد" تتردّد عليه في بيته، تخرج معه للعشاء، وإن كانت تكره أن تظهر معه أمام الملام بسبب إعاقته (ذراع المبتورة) إضافة إلى كونه جزائري (عربي) أكبر منها: >> تكره اللقّاءات العامة، أو تكره كما استنتجت أن تظهر معي في الأماكن العامة، ربما كانت تخجل أن يراها بعض معارفها، وهي مع رجل عربي، يكبرها بعشر سنوات، وينقصها بذراع⁴، ولكنّها عند زيارتها له في معرض لوحاته التشكيلية، حتّى وإن وصلت متأخّرة في كامل أنافتها وخفتها وحيويّتها⁵، إلا أنّها هنّأته. وبدت لأوّل مرّة أنّها معجبة به، وهي أمام النّاس، تريد أن يعرف

¹ أحلام مستغانمي، عابر سرير ، ص 86..

² المصدر نفسه، ص 241

³ ينظر: أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد ، ص 63.

⁴ المصدر نفسه، ص 71.

⁵ ينظر: المصدر نفسه، ص 72.

الآخرون أنّها صديقته أو حبيبته¹ يتساءل: >> ما الذي غير سلوكها فجأة، هل منظر ذلك الحشد من الشخصيات الفنيّة والصحافيين الذين حضروا الافتتاح... أم أنّها اكتشفت في هذا المكان أنّها كانت منذ سنتين تضاجع عبقرها دون أن تدري، وأنّ ذراعي الناقصة التي كانت تضايقها في ظروف أخرى، تأخذ هنا بعدا فنيّا فريداً لا علاقة له بالمقاييس الجمالية؟<<²، غير أنّ ارتباط "كاترين" بـ "خالد" كان وثيقا بسبب عشقها له، وعطشها لمعاشرته. قالت له يوم عرضه للوحاته، وهي في قمة الغيرة منها، والتعطّش إليه: «- متى ستعاملني أخيرا كلوحة؟»

قلتُ وأنا أضحك لسرعة بدايتها... ولشهيتها التي لا تشبع:
- هذا المساء إذا شئت.

وعندها أخذت كاترين منيّ مفاتيح البيت، وطارت كفراشة، داخل فستانها الأصفر نحو الباب<<³. ولم تكن "كاترين" تعني لـ "خالد" سوى حاجة جسدية بيولوجية، يقضي معها ليلة حبّ بعد وحدة وسأم وتعب⁴، ولكن بمجرد الاستيقاظ والصحوّة يشعر أنّها كادت أن تكون حبيبته، إلّا أنّها لا يمكن أن تكون كذلك، لاسيما وأنّه يلحظ طريقة التهامها "للساندويتشات"، لأن امرأة تعيش عليها هي امرأة تعاني من عجز عاطفي، من فائض في الأنانية⁵، ولذا لا يمكنها أن تحب رجلا ما يلزمه من أمان.

ويبدو "خالد" في رواية "ذاكرة الجسد"، مختلفا عن "رشيد" في رواية "الإنكار" لرشيد بوجدرّة، ذلك أنّ رشيد كان يحبّ أن يأسر المرأة الفرنسية ويجعلها مشابهة له، تتخبط في قيود حكايته المعقدة في حين أنّ خالد يعلم أنّهما متناقضين، ولا يحاول أن يصنع منها نسخة منه. يقول: >> "تعودنا مع مرور الزمن ألاّ نزعج بعضنا بالأسئلة ولا بالتساؤلات، في البدء تأقلمت بصعوبة على هذا النمط العاطفي

¹ ينظر: أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 72.

² المصدر نفسه، ص 75.

³ المصدر نفسه، ص 75.

⁴ المصدر نفسه، ص 75.

⁵ المصدر نفسه، ص 76.

الذي لا مكان فيه للغيرة ولا للامتلاك، ثم وجدت فيه حسنات كثيرة أهمها الحرية... وعدم الالتزام بشيء تجاه أحد...¹ ولم يكن يجمعهما في النهاية سوى شهوتهما المشتركة وحبهما المشترك للفن.

تبدو صورة الفرنسية "فرانسواز=كاترين" في روايتي (أحلام مستغانمي): "عابر سرير" و"ذاكرة الجسد"، صورة للمرأة الفرنسية الممتلئة رغبة وعنفوانا وشهوة، لاسيما رفقة الرجل العربي (الجزائري) تجتمع فيها صفات الجمال والأناقة والثقافة، والحب للفن. علاقتها بالرجل العربي تبقى في حدود مظهر وطبيعة هذا الرجل، لأنها تهتم بالمظاهر، الشهوة والأضواء، ولا ترغب في الظهور إلا مع القويمين المتميزين، أما شعور العربي تجاهها، فلم يكن إلا للوصول إلى غاية ما، أو إشباع عاطفة ورغبة عابرة، ويبقى حبه لمن تفهمه وتوفّر له الأمان والطمأنينة والسلام، والحب الحقيقي والعاطفة الصادقة، بعيدا عن الجوع والعطش التهمين اللذين لا حدود لهما. كما يتمثل عند فرانسواز وكاترين.

7- صورة الفرنسي الفضولي:

في رواية "خرائط لشهوة الليل" ل(بشير مفتي) صورة الفرنسي الفضولي المتعلق بالجزائر، أقام بها فترة، قدم مع "ليليا عيّاش" الجزائرية للقيام بتحقيق صحفي تجاه الأحداث التي تعيشها الجزائر فترة التسعينات، وتحديدًا وضع الحرب وتقدير أبعاده، إذ كان صحفيا نشيطا هدفه الجري وراء السبق الصحفي.

وقد كان خلال حوارهِ مع "ليليا عيّاش" مستفزا لها، موجّها لفكرها، لاسيما وأنه قد أبدى اهتماما خاصا ومتميزا بالجزائر، ذلك أنه كان يحبّ هذا البلد، > بلد والديه وطفولته التي يقول إنه يتذكر منها اللون الأبيض وزرقة البحر، ضحك وهو يسمعي أحاطبه:

- جزائركم وجزائرينا
- وما الفرق؟
- هكذا سألني، وهو يتعمّد بلاهة ما، فقلت مبتسمة هذه المرّة:
- كانت لكم وأصبحت لنا، لقد ولدت جزائرينا عام 1962

¹ أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 77.

عندئذ قال متعمدا الإساءة أو الاستفزاز:

- ولم تعرفوا كيف تحافظون عليها

أومأْتُ له بالإيجاب، غير أنني أضفت:

- ولكن ماذا كنتم تتوقعون منا؟ أن نبقى ننتظر صحوة ضميركم فجأة، وتقدرّون رغبتنا في الحياة مثلما

كنتم تتمتعون بها؟

قال:

- لست استعماريا في تفكيري، أنا ضدّ كلّ أشكال العبودية والظلم والعنصرية ولكن خسارة! كان يمكننا أن نعيش مع بعض وأن نكون شيئا مختلفا مثلما فعلتم أنتم العرب في بلد مثل إسبانيا "فردوسكم المفقود"¹. إذ يعدّ هذا الصحفي واحد من أبناء الأقدام السوداء، مازال قلبه وفكره متعلّقا بالجزائر وإن كان ذلك مرتبط باللون الأبيض والأزرق وفي ذلك إشارة إلى الجزائر الفرنسية، وليست جزائر اليوم التي يرى أن شعبها لم يحافظ عليها، وكان أفضل في رأيه لو تعايش الجزائريون والفرنسيون في ظلّ جزائر فرنسية ومع ذلك يعتبر نفسه ليس استعماريا ولا عنصريا، وإنما يطلب هذا التعايش من باب التسامح والتصالح.

وقد أبدى رأيه للجزائرية في الشعب الجزائري، الذي اعتبره عنيفا، وأنّ عنفه هذا نابع عن خوف تجاه أمر ما، في حين أن الشعب الفرنسي لا يميل للعنف بل يحلّ مشاكله بطريقته الخاصة، أي أن هناك عقلانية ما تضبط تصرّفاته² وترى "ليليا عيّاش" أنّ هذا الاهتمام الفرنسي بالجزائر قد يكون حيننا استعماريا عميقا في نفوس الفرنسيين، حلم ضاع منهم ومازال يشدّهم خيط قوي إليه³. كما قد يكون إعجابا ببلد يتعثر وينهض ويخرج من تجاربه كلّ مرّة حريصا على الحياة، معتزا بنفسه، كما لو أنّ شيئا لم يحدث.

¹ بشير مفتي، خرائط لشهوة الليل، منشورات الاختلاف- الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر- لبنان، ط1، 1429هـ-2008م، ص 45.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 46.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 121

وقد كان اهتمام الصحفي "مارسيل" بما يقع في الجزائر من أحداث مُلفت للانتباه، كتب عنه مقالات عديدة وكان يقول للجزائرية: > هي فرصة حقيقية أن أعمل ببلدكم، كلّ المواضيع مهمة وجديدة على القارئ الفرنسي، إنهم يطلبون المزيد (...). كنت أدرك أنه مطلع على أسرار وقضايا كثيرة كان يحشر أنفه في كلّ المُلَفات الكبيرة منها والصغيرة، كانت بطاقة الصحفي الأجنبي تسمح له بذلك وبالعلاقات مع رجال أقوياء ومن كلّ الأصناف والطبقات¹. يسعى إلى إشباع نهم القارئ الفرنسي بأخبار عن الجزائر وأهلها.

يعدّ "مارسيل" صورة عن الفرنسي الفضولي، المتعلّق بالجزائر بمصيرها وأخبارها وأحوال شعبها يحاول ترقّبها، يحشر نفسه في كل مستجدّاتها، وهو أوّل من يعلم بها، يُبعد عن نفسه صفة الاستعماري والعنصري، ويدّعي التّعاش والتّسامح². وهو نموذج عن الشعب الفرنسي ككلّ الذي يريد مزيداً من الأخبار عن الجزائر، ويحلم بالجزائر الفرنسية.

وبذلك فإنّ صورة الفرنسي في الرواية الجزائرية تتجلى عبر عدّة مواقف، كموقف الانبهار بفرنسا وبأهلها، تتضح الإيجابيات فيها من منظور بعض الشخصيات الروائية التي وجدت في الحرية الفكرية، وممارسة الأفعال المرغوب فيها دون أي رقابة أو شروط أو قيود. وكان الانبهار بجمال مدنها، وما فيها من مظاهر الزينة والرخاء في العيش. ومن الشخصيات الروائية من وجدت في فكر الفرنسيين تنويراً وتقدّماً بعيداً عن العادات والخرافات والطقوس الممارسة في عقائد الأنا. وعبر بعض الروائيين عن صورة الفرنسي بصفات سلبية كثيرة تتراوح بين التسلّط والعنصرية، والتعجرف والتكبر، نسبها البعض منهم للفرنسيين كشعب، وخصّ بعضهم الآخر بها فئة دون أخرى، وقد وردت في الأغلب في صورة المرأة الفرنسية المتسلطة والعنصرية الحقودة. وفي روايات أخرى تبرز فرنسا بصورة البلد المتحضّر والإنساني، وبطيبة سكانها وأخلاقهم الفاضلة، وفي كل مرة يتم اختيار المرأة للتعبير عنها. وإن كانت المرأة في بعض الروايات متعطّشة لإرواء ضمناً جنسي، يكون الرجل العربي الجزائري مستهدفاً فيه لذلك.

¹ بشير مفتي، خرائط لشهوة الليل، ص 124.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 126.

المبحث الثاني: صورة الإيطالي في الرواية الجزائرية

كتب بعض الروائيين الجزائريين عن الآخر الإيطالي، ووضحوا بعض الجوانب من صورته وشخصيته وفكره، بعد التعرف إليه سواء عن طريق المطالعة والقراءة عنه، أو الهجرة إلى بلده والاحتكاك به وثقافته، وبعدّ (عمارة لخصوص) من بين أهم الروائيين الذين احتكوا بالإيطالي ونقلوا صورة عنه وعن مجتمعه، لاسيما من خلال روايته: " كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك " و " القاهرة الصغيرة"، وذلك بحكم كونه مهاجرا مقيما في إيطاليا يكتب باللغتين العربية والإيطالية، عبّر ومثّل بالعديد من الشخصيات من مختلف العقليات والطباع، خاصة من حيث التعامل مع المهاجرين العرب منهم والمسلمين، فبرزت صورة الإيطالي العنصري والإيطالي المتسامح على مستوى روايته.

1- صورة الإيطالي العنصري في الرواية الجزائرية:

يصوّر (عمارة لخصوص) في روايته " كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك " العنصرية في إيطاليا تجاه المهاجرين العرب والمسلمين، حيث يُبدي أهل البلد منهم مواقف سلبية، عدائية وحقودة. ويعدّ المهاجر الجزائري "أميدو" (اسمه أحمد ويلقبه الإيطاليون أميدو) شخصية محورية في الرواية، صوته حاضر بعد كل حضور لشخصية أخرى، يشح ويوضح ويفسر جميع الطباع والمواقف، دون أن يفصح عن شخصيته وجنسيته إلا في آخر الرواية، حيث يحسبه القارئ كما تدّعي شخصيات الرواية أنه إيطالي لجماله، وحسن خلقه، وأدبه وتحضّره، وكذا للغته الإيطالية الجيدة.

سأل المهاجر النبغلاديشي "أمير الله إقبال" ذات مرة "أميدو" عن الفرق بين العنصري والمتسامح فأجاب: > "العنصري في عدااء مع الآخرين، لأنه يعتقد أنّهم ليسوا في مستواه، بينما المتسامح يتعامل مع الآخرين دون تكبر واحتقار، العنصري لا يبتسم¹، وقد كان "إقبال" يُحسن التّفريق بين الإيطاليين العنصريين والمتسامحين، وذلك بفضل إقامته الطويلة في روما، حيث يقول: > "الأول لا يبتسم لي ولا يردّ على تحيتي، إذا قلت له تشاو أو بُونجُونُو أو بوناسيرا ويتجاهلني كأني غير موجود، بل يتمنى من أعماق

¹ عمارة لخصوص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك، الدار العربية للعلوم ناشرون- منشورات الاختلاف، لبنان- الجزائر، ط2،

قلبه أن أتحوّل إلى حشرة قادرة كي يسحقني بقدمه بلا رحمة ! أما الإيطالي المتسامح فهو كثير الابتسام وسباق إلى التّحية، مثل السينيور أميدو الذي كان يفاجئني دوماً بالتّحية الإسلامية¹ إذ كان يعتقد كغيره من المهاجرين والإيطاليين أن "أميدو" شاب إيطالي .

ويرى "إقبال" أنّ الإيطاليين >> لا يعرفون الإسلام كما يجب، يعتقدون أن الإسلام هو دين المنوعات: ممنوع شرب الخمر ! ممنوع أكل الخنزير ! ممنوع الجنس خارج إطار الزواج...²، يتصوّرونه دين منع وحرمان.

ومن الشخصيات العنصرية الإيطالية الواردة في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك": الإيطالي لورانزو مانفريدي: الملقّب بالغلادياتور، وهو شاب إيطالي، وجد مقتولا في المصعد تنبني أحداث الرواية كلّها، على حادثة مقتله، وهي عملية تحقيق واستجواب لكل سكان العمارة التي يسكن بها ووجد مقتولا في مصعدها.

وقد كان هذا الإيطالي "الغلادياتور" عنصرياً لا يحبّ الأجانب، ويقول للإيراني المهاجر: >> أيّها الأجنبي الحقيّر؟ ويصرخ في وجهه: "إيطاليا للإيطاليين ! إيطاليا للإيطاليين ! إيطاليا للإيطاليين !"³.
ومن صفاته ولعه >> بالمبارزات القتالة التي تنتهي بموت أحد المتصارعين في عهد الرومان، كان الغلادياتور أسيراً أو عبيداً يقاتل حيواناً مفترساً، كالأسد أو النمر، أمام آلاف المتفرّجين في الكولوسيو فيما اهتدى لورانزو وبعض أصدقائه إلى لغة قمار جديدة تقوم على مبارزات سرّية بين الكلاب⁴ وبذلك يعدد السبب في اختفاء الكلب فالنتينو، الكلب المدلّل للسيدة "إزابتا فاياني"، وباكتشافها لذلك وضعت خطة محكمة قرّرت من خلالها الانتقام من لورانزو بقتله بطريقة تبعد عنها الشبهة وقد استوحتها من الأفلام البوليسية المدمنة عليها⁵. وهي تتظاهر بمشاعر البراءة المطلقة.

¹ عمارة لخص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك ، ص 50.

² المصدر نفسه، ص 51

³ المصدر نفسه، ص 22.

⁴ المصدر نفسه ، ص 149.

⁵ ينظر: المصدر نفسه، ص 149

فصورة الإيطالي لورانزو، تجمع بين عدّة ملامح من عنصرية ورفض للأجانب في إيطاليا، والعنف ولعب القمار، واعتباره واحد من رجال المافيا، سرقة الحيوانات، وغيرها من الملامح التي تشكل صورة سلبية قائمة عن الإيطالي العنصري.

وتعدّ شخصية الإيطالي "أنطونيو ماريني" في الرواية معبّرة عن الأستاذ العنصري، من سكان ميلانو ويحاضر في جامعة روما. كان كثير الانتقاد لأبناء روما الذين لا يرى بينهم وبين المهاجرين فرقا يعيشون في فوضى عارمة، غير دقيقى المواعيد، عكس أهل ميلانو¹ الذين يقدرّون الوقت ويعتبرونه ثمينا، كالذهب لا يجب التلاعب به.

ويعدّ الأستاذ "أنطونيو ماريني" من سكان العمارة، تمّ التحقيق معه في قضية مقتل "لورانزو". يعتبر أن بعض سكان العمارة من أمثال البوابة النابوليتانية و"ساندرو دنديني" و"إزابتا فاياني" رموز الجنوب المتمثلة في الكسل والثثرة والتخلف والنميمة، والإيمان بالشعوذة والبربرية، إذ يقول: >> "أنا لست عنصريا، يمكنني أن أذكر المؤرخ الكبير جوستيو فورترناتو، وهو من الجنوب، إذ يقول أنّ مصيبة أهل الجنوب، هي عدم إيمانهم بالغد، لذلك لا يزرعون ولا يزرعون، أي لا يستثمرون"²، وإن كانت عنصريته بارزة واضحة من خلال تفرقة بين السكان الأصليين لإيطاليا، بين أهل الشمال وأهل الجنوب فكيف لا بالأجانب والمهاجرين.

وينادي الأستاذ "أنطونيو ماريني" بالحضارة والتّقدم والحداثة والتنوير، باستعمال المصعد، الذي يعدّه وسيلة حضارية تهدف إلى ربح الوقت وادّخار الجهد فهي لا تقلّ أهمية عن المترو والطائرة³ لذلك يرفض رفضا مطلقا المشي على الأقدام وتضييع الوقت في صعود ونزول السلم.

وقد كان شديد الانتقاد لكلّ ما يراه متخلّفا رجعيا، ومن ذلك قوله: >> "أنّ هذا البلد غارف في بحر الغرائب، كأس العالم في كرة القدم على سبيل المثال هي مناسبة يكتشف فيها الإيطاليون أنّهم إيطاليون (...). ياللعجب كرة القدم تصنع الهوية ! لا فائدة من الدين الواحد واللغة الواحدة والتاريخ

¹ ينظر: عمارة لخص، كيف ترضع من الذئبة دون إن تعصّك، ص ص 83، 84.

² المصدر نفسه، ص 86.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص ص 87، 88.

المشترك والمستقبل المشترك، ما الفائدة من الوحدة الإيطالية، أين نحن؟ هل نحن بلد متخلف حقاً؟ الرحمة والشفقة يا إلهي¹ فالملتحم الإيطالي مشئت، لا روح تجمعهم كاجتماعه على كرة القدم لاسيما مباريات كأس العالم، حيث تعيش الكل في همومه وانشغالاته الكل يسعى لقضاء مصالحه، دون الالتفات إلى من يتصارع ، أو يتنافس معه، بنسيان تام للهوية الواحدة التي تجمعهم.

كما يقف ضد كل من لا يشجع التقدم الحضاري، وهو لا يتحرّج² من تسمية دعاة حماية البيئة بالبرابرة الجدد، لأنهم يسعون بكل الطرق إلى إيقاف عجلة التقدم والتكنولوجيا وإعادة البشر إلى كهف العصر الحجري، وذلك برفع شعارات تافهة كحماية الأشجار وإغلاق المصانع الكبرى ووقف الصيد ومقاطعة منتوجات نيستلي وماكدونالدز³. وبذلك تبرز صورة الإيطالي العنصري في انتقاده لكل ما هو متخلف وفق منظوره، يدعو إلى الحضارة بكل أوجهها ينتقد سكان روما، ويعتبرهم متخلفين كسالي، ثرثارين وتمامين، لا يقيّمون الوقت الثمين ولا يحترمونه، فوضويون يشبهون المهاجرين والأجانب في كل ذلك. ويتضح أن الإيطاليين لا يتوحدون كشعب ومجتمع واحد إلا عندما يلعب فريقهم الوطني مبارياته ضمن كأس العالم تجاه فرق أخرى.

"إليزابيتا فاياني"، وهي سيّدة إيطالية من سكان العمارة أرملة، تعيش رفقة كلبها الصغير الذي تحبه وتدلّه وتسميه فالنتينو، تناديه "حبيبي Amore" وتعامله كابن أو زوج، بل حتى أن أحدهم سمعها تقول أنه ينام معها في السرير نفسه³. ولكنها فقدت هذا الكلب منذ أخذته ذات مرّة إلى الحديقة في "ساحة فيتوريو" لقضاء حاجته ككل يوم، ولم تعثر عليه بعدها، بكتّه بكاءً شديداً⁴، كأنها فقدت ابنها "ألبرتو" وليس كلبها المدلّل .

¹ عمارة لحوص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك ، ص 89.

² المصدر نفسه ، ص 89.

³ ينظر المصدر نفسه، ص 22

⁴ ينظر: المصدر نفسه، ص 41

وتعد السيدة "إليزابتا" متعلقة بالأفلام البوليسية التي تدمن عليها، إذ لا تقبل حديثاً لا يُذكر فيه كلب أو هيتشكوك أو أغاثا كريستي، أو المفتش كولومبو أو ديريك أو مونطلبانو أو بوارو¹، وترى أنّه من لا يحبّ الكلاب عنصري ومتطرّف، وإزاء ذلك تخوض معركة حضارية من أجل الكلاب، وتتساءل عن <متى تصيرا إيطاليا بلداً متحضراً كسويسرا؟>² التي يتعاملون فيها مع الكلاب بطريقة حضارية حيث تكثر محلات الحلاقة والعيادات والمطاعم المخصصة لها، حتى أنّه توجد مقبرة بـ "جنيف" يُدفن فيها الكلاب³، كان حلمها أن تجعل من كلبها فالنتينو ممثلاً مشهوراً كالمفتش "ركس" الذي يلاحق المجرمين الأشرار، ويلقي القبض عليهم⁴، لاسيما بعد أن خاب ظنّها في ابنها الذي أرادت أن تدفعه للتمثيل دون رغبة منه⁵، ممّا جعله يترك البيت الذي اعتبره سجناً و اعتبر أمّه سجّانة.

وتبرز عنصرية هذه السيدة في كرهها للمهاجرين الذين تفضّل الكلاب عليهم إذ تقول: <أنا أقول أنه من الواجب أن نبدأ بأهل البلد الأصليين الذين وُلدوا في إيطاليا، والكلاب هم من أبناء هذا البلد، أنا لا أثق في المهاجرين...، هذا العجري المتخلف [الإيراني] المنحرف العنصري، يستحق الطرد الفوري من إيطاليا، لكن المشكلة أن العجر لا يملكون بلداً محدداً يُطردون إليه! الحقيقة أنّنا لسنا بحاجة إلى المهاجرين، سمعت من يقول أن الاقتصاد الإيطالي معرّض للاختيار إذا غاب المهاجرون! هذه كذبة ينشرها الشيوعيون، نستطيع الاستغناء عن المهاجرين بسهولة، يكفي أن ندرّب كلابنا تدريباً جيّداً<>⁶ فالسيدة "إليزابتا" مهووسة بحبّ الكلاب، يجعلها ذلك تعتقد أنّهم الحل المثالي لكل مشكلة، تطرأ على الفرد والمجتمع، إذ تعوّض به نفسها عن فقد الزوج والابن وهو الحل في توفير اليد العاملة، والقيام بأدوار بطولية في أفلام سنمائية أو بوليسية.

¹ ينظر: عمارة لخص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك، ص 69.

² المصدر نفسه، ص 61.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 61.

⁴ ينظر: المصدر نفسه، ص 63.

⁵ ينظر: المصدر نفسه، ص 64.

⁶ المصدر نفسه، ص 65.

ولا تختلف العجوز "بندتا اسبوزيتو" عن "إليزابتا فاياني" في العنصرية، وكره المهاجرين. إذ كانت تشتغل بوابة للعمارة في ساحة فيتوريو، وهي من نابولي ترى أنّ الجميع يكرهها، في حين أنّها أمينة ومخلصة في العمل، كونها أقدم بوابة في روما، وعمارتها أنظف عمارة، غير أنّها متهمّة بالنميمة والتجسس¹ سعيًا منها لمعرفة كل صغيرة وكبيرة، تحدث في العمارة.

وتعتبر العجوز "بندتا" أنّ المهاجرين الأجانب هم الذين أخذوا مكان أبناء البلد الأصليين، فهم السبب فيما يحدث في إيطاليا من مشاكل على غرار ما أصاب الغلادياتور، إذ يعود ذلك لعدم إيجاده عملا شريفا، وبذلك كان مجبرا على السرقة والكسب غير المشروع. تدعو إلى طرد العمال المهاجرين وتعويضهم بأبناء البلد المساكين، حيث ترى أنّهم منحرفون، ملاعين، عديمو التربية² ومن واجب الدولة حماية شعبها - مقابل الضرائب المدفوعة - من هؤلاء المنحرفين بزجّهم في السجون، أو طردهم من البلد. فهي لا تكره وجودهم فحسب وإنما تغار منهم وتحقد عليهم إذ تقول عن الخادمة الفلبينية "ماريا كرسيتينا"، أنّها لا تطيق رؤيتها، لأنّها كما تقول: > تستفزني بوقاحة لا توصف، أنا لا أحبّ الكسالى، لا أزال أذكر عندما جاءت أول مرّة لترعى العجوز "روزا" كانت نحيلة كعصا المكنسة، بسبب الجوع أو سوء التغذية، فلا يزال الكثير من الناس في إفريقيا والبرازيل يقتاتون من المزابيل العمومية، بعد شهر قليلة صارت سمينة من فرط الراحة³، وهي تقارن نفسها بها، إذ تقول: > أنا الإيطالية العجوز المريضة أشقى وأتعب، وهي المهاجرة الشابة السمينة التي تطفح بالصحة تأكل ما طاب لهم وتنام ما شاءت كالقطّة المدلّلة، أعرف أنّها لا تملك وثيقة الإقامة، ولكني لا أستطيع إبلاغ الشرطة خشية أن أسبّب الأضرار لأهل العجوز روزا، ممّا قد يدفعهم للانتقام منّي شرّ انتقام⁴ فهي تخاف من الإيطاليين، تحقد على المهاجرين.

¹ ينظر: عمارة لخصوص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك، ص ص 14، 33، 36.

² المصدر نفسه، ص 38.

³ المصدر نفسه، ص 39.

⁴ المصدر نفسه، ص 40.

وترى العجوز "بندتا" أنه من الواجب التصرف السريع من الدولة حيال المهاجرين، الذين تقول عنهم: > "عمّا قريب سيطرّدوننا من بلدنا، يكفي أن تتحوّل بعد الظهر في حديقة ساحة فيتوريو لترى أنّ الأغلبية الساحقة من الأطفال أجانب من المغرب ورومانيا والصين والهند وبولونيا والسنغال وألبانيا. إنّ العيش معهم مستحيل، لهم دين وتقاليد وعادات مختلفة عنّا، في بلدانهم يسكنون في العراء أو في الخيام، ويأكلون بأيديهم ويركبون على الحمير، والبغال، ويعاملون النساء كالعبيد...¹<، وهي تتساءل عن سبب مجيئهم إلى إيطاليا، والبطالة المنتشرة فيها بكثرة إذ لا تخلو نشرات الأخبار من مشاهدة سفن المهاجرين غير الشرعيين الذين يحملون الأمراض المعدية كالطاعون والملاريا² وهي بذلك تحطّ من قيمتهم وكرامتهم، ولا تفرّق بين المهاجرين، تجعلهم في خانة واحدة وصورة واحدة. والصينيون في نظرها يأكلون لحم القطط والكلاب³، فهم الذين اختطفوا كلب "إليزابتا" وأكلوه.

ولم تكن البوابة متشكّية من المهاجرين الأجانب فقط، بل من الدولة الإيطالية ككل⁴، إذ تقول عن الشعب الإيطالي: > "هل نحن شعب مجبول على الخيانة؟ في الحرب العالمية الثانية قاتلنا مع الألمان ثم انقلبنا عليهم، وتحالفنا مع الأمريكيين (...). نحن شعب غريب! قتلنا موسوليني وعشيقته كلاريتا في ساحة عمومية في ميلانو، قمنا بطرد الملك وعائلته إلى الخارج ومنعناهم من العودة، تحدّينا قداسة البابا والكنيسة المبجّلة حين صوّت أغلب الإيطاليين لصالح الطلاق ثم رأينا على شاشات التلفزيون رئيس الحكومة السابق خوليو أنديوتي في مقعد المتهمّين... إذا كان أنديوتي من المتعاونين مع المافيا دون دراية! هل يعني أن المافيا هي التي حكمت إيطاليا لسنوات طويلة؟ في النهاية سمعنا بحزب رابطة الشمال الذي يدعو إلى الانفصال عن الجنوب الإيطالي، وتأسيس دولة جديدة اسمها بدائنا؟ أي بلد نحن فيه؟ الرحمة باقديس نابولي العظيم! يايسوع المسبح! الرحمة!⁵<.

¹ عمارة لخص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك، ص 40

² المصدر نفسه، ص 41

³ المصدر نفسه، ص 41.

⁴ المصدر نفسه، ص 47.

⁵ المصدر نفسه، ص 43.

أفرغ الكاتب جوف هذه الإيطالية العنصرية، وجعلها تتحدّث عن كل المتناقضات التي تقوم عليها إيطاليا. من خيانة للحكام والملوك وممثلي الأحزاب والدول والتمرد على نظام الكنيسة الذي يُسيّر البلاد، و كشفها للصراع القائم بين سكان الشمال والجنوب، وتأسيس كل منهما لدولة جديدة ، بدعوى عدم التفاهم أو الكسل والحمول وكذا التّخلف والانحطاط وهي مميّزات مجتمع تقول أنّها تكثّر فيه المهجرة الشرعية وغير الشرعية رغم معاناته من قلة اليد العاملة، ما جعل أبناء البلد ينصرفون إلى تشكيل عصابات المافيا والسرقّة والنهب وغيرها من الأعمال غير المشروعة.

وتتحلى صورة الإيطالي العنصري في رواية " القاهرة الصغيرة" ل(عمارة لخص)، من خلال شخصية الجد "جوفاني" الذي يعدّ رجلاً مسنّاً، >>تجاوز عمره الثمانين، وقد مسّه الصمم وبوادر الخرف، يجلس دائماً على نفس المقعد في الحديقة لقراءة صحيفته اليمينية¹. وتبدو عنصريته من خلال بعض المواقف السياسية، خاصة تجاه بعض القضايا، من قبيل قوله: >>"أتمنى أن أموت قبل أن تنضمّ رومانيا إلى الإتحاد الأوروبي" أو "سيغزونا العجر الرومانسي كالجراد" أو"ماذا تنتظر الحكومة لإغلاق جميع المساجد وزج المصلين المسلمين الإرهابيين في السجون؟" أو "إذا أراد المهاجرون المسلمون الاندماج في مجتمعنا، فعليهم أن يعتنقوا المسيحية!" أو "اللعنة على الشيوعيين" أو "آه يا وطني ما أجملك وما أتعسك!"² وقد كان من خلال ذلك له ثلاثة أعداء، الشيوعية، سكان الجنوب(روما)، والمهاجرين المسلمين، فعنصريته تجاههم تبلغ مبلغ الحقد والخوف(الفوبيا)، إذ يشكّل المهاجر المسلم مركز قلق ورعب وخوف لابن البلد الأصلي.

وقد كانت الشابة "صوفيا" وهي مصرية الجنسية، مهاجرة إلى إيطاليا هي وزوجها وقد كانت زوجة محافظة ترتدي حجابها، تلتقي ببعض الصديقات الإيطاليات في الحديقة، أين يجلس الجد "جوفاني" وكان يناديها: "ياراهبة"، وهي في كل مرّة تقول له: >>"أنا لست راهبة لأنني مسلمة، ولا رهبانية في

¹ عمارة لخص، القاهرة الصغيرة، الدار العربية للعلوم ناشرون- منشورات الاختلاف، لبنان- الجزائر، ط1، 1431هـ-2010م، ص 99.

² المصدر نفسه، ص 99

الإسلام"، فيردّ " لكن أنت تشبهين الراهبات في اللباس"¹ حيث كان يسعى لإقناع نفسه أنّها راهبة لأنه لا يحتمل رؤية المسلمات بلباسهن الشرعي.

وقد كان لصوفيا إن التقت برجل إيطالي آخر، وكان ذلك في السوق، عاملها معاملة سيئة وأسمعتها كلاما مهينا، كان رجلا في الخمسينات من عمره تقول عنه: >> في البداية ظننته لم يرني [عندما..دفعها] ولكني كنت مخطئة، لقد فعلها عمدا، نظرا إليّ باستخفاف ووقاحة، وقال لي:

"جئت قبلك ! هل تفهمين الإيطالية؟"

" أنا أفهم الإيطالية جيدا، أنت قليل الأدب "

" مومياء وتتكلم ! لماذا لا ترجعين إلى بلادك؟ لماذا تأتون إلى هنا لاختلاق المشاكل وتدبير التفجيرات؟"
" أنت غبي "

" اذهبي أنت وبرقعك إلى أفغانستان، إذا لم تنصربي حالا سأفقد صوابي وأشبعك ضربا"
"دفعني الغبي بيده فقدت توازني وسقطت "².

يبدو هذا الرجل عنصريا تجاه الإسلام إلى حدّ لا يوصف، يكره المسلمين ولا يحتمل رؤيتهم، ولعل أهم ما يفسّر ذلك، اشمزازة من الحجاب الذي تلبسه، والذي وصفه بالبرقع، كما أنه ينسب كل المسلمين إلى أفغانستان بما يتساوى مع الإرهاب والتفجيريين، وهو ما شكّل الرعب في نفوس الايطاليين الذين يشترطون على المسلمين في إيطاليا، والذين يرغبون الاندماج في المجتمع والمعاملة باحترام اعتناق المسيحية.

والموقف من الحجاب واضح، حيث تقول صوفيا: >> كان الناس لا ينظرون إليّ، وإنما إلى حجاي عندما كنت أسير في ماركوني، هل أنا شبح مرعب أو ضيف غير مرغوب فيه؟ (...). كنت أرى في عيونهم ضجرا وضيقا وخوفا (...). في الواقع لم أسر وحدي، بل كنت دائما في صحبة العديد من المرافقين الوهميين، ولكن أسماءهم معروفة لدى الخاصة والعامة، مثل جهاد وكاميكاز و 11 سبتمبر

¹ عمارة لحوص، القاهرة الصغيرة، ص 99.

² المصدر نفسه، ص 115.

والإرهاب وتفجيرات والعراق وأفغانستان و 11 مارس والقاعدة و... الخ»¹. وهي عبارات التصقت بالمسلمين، لاسيما المهاجرين، الذين أصبحوا يعانون بعد هذه الأحداث في البلاد الغربية عامة، وإيطاليا خاصة حيث أصبح هناك نوع من الفوبيا (الإرهاب) تجاه كل عربي ومسلم، وأحداث رواية "القاهرة الصغيرة" توضح ذلك إذ اختير الشاب "كريستيان مزارى" من طرف المخابرات الإيطالية ليندس في حي إيطالي مخصّص للمهاجرين العرب والمسلمين، يُطلق عليه اسم "القاهرة الصغيرة" وهذا لترقب عملية تفجيرية على وشك الوقوع.

2- صورة الإيطالي المتسامح في الرواية الجزائرية:

توجد بعض الشخصيات المتسامحة في إيطاليا، إذ لم يكن أبناء البلد الأصليين كلهم عنصريين حقودين، وإنما منهم المتعايشون المتفتّحون، ومن بينهم "ساندرو" صاحب بار "دنديني" هذا الذي لم تكن له أية عقدة تجاه المهاجرين المسلمين، حيث يقول: >> أنا أحترم الرجال المسلمين، لأنهم يحبون الإناث كثيرا مثلنا نحن فحول روما، كما أنكم تحترقون الشواذ مثلنا تماما²<<، فهو معجب بالإسلام للصفات والأخلاق الحميدة التي يدعو إليها من إعطاء البنات والنساء حقوقهن وإكرامهن، كما يلعن الشواذ غير القوميين في تعاملاتهم الجنسية الحقيرة، ويرى "ساندرو" هذه الصفات إيجابية في دين الإسلام كونها لا تتعارض مع قيم فحول أهل روما.

ويعتبر "ساندرو" نفسه متسامحا غير حقود على الأجانب، إذ يقول: >> أنا لا أحقد على الأجانب³<< وأنه يوجد فرق شاسع >> بين روما ونابولي، وبين روما وميلانو، بين روما وطورينو، نحن نعامل المهاجرين بحبة وتسامح، أنا لا أحب أهل الشمال لأنهم يتحكمون في ثروات البلد ويحتكرونها، أولاد الحرام لا يفكرون إلا في مصالحهم، خذ مثلا أنطونيو ماريني الذي يعامل سكان العمارة كأطفال الحضانة أو كأفراد الزولو (...). جاء من ميلانو ليدرس في جامعة روما، كأن روما مدينة الحمير، لا تنجب

¹ عمارة لخص، القاهرة الصغيرة، ص 75.

² عمارة لخص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك، ص 51

³ المصدر نفسه، ص 109.

أساتذة جامعيين¹. ويبقى بذلك الصراع قائما بين أهل الشمال (ميلانو) وأهل الجنوب (روما)، يعتقد كلٌّ منهما أنه بأخلاقه وطباعه وعاداته هو الذي يسلك الدرب الصحيح، ويشمئز ساندرود من الأستاذ أنطونيو، الذي يعتبره عنصريا لاحتقاره أهل الجنوب، والحطّ من قيمتهم وشأنهم، ونعتهم بكل صفات التخلف والكسل.

وتعدّ "ستيفانيا مسّارو"، سيّدة إيطالية متسامحة، زوجة "أميدو" المهاجر الجزائري إلى إيطاليا كانت تعمل في وكالة سياحية، ريبوبليكا منذ عشر سنوات، تحبّ السفر إلى الصحراء، وتحبّ الطّوارق، وكانت مدرّسة متطوعة، تعلّم اللغة الإيطالية للمهاجرين الأجانب إلى إيطاليا²، وتعدّ "ستيفانيا" امرأة مضحيّة، محبّة، صادقة، ومخلصة لزوجها³ تسعى لاسعاده، وعدم تنغيص حياته بأي شيء يرفض سماعه. وكانت لا تفضّل العلاقات الزوجية القائمة على التحقيق والاستجواب بين الزوجين، كما تكره التفاصيل كرها لا نظير له، لأنها ببساطة تمنع الحلم والخيال⁴، وهذا ما جعل "أميدو" يحبّها ويتعلق بها، فهي من فتحت له ذراعيها، واحتضنته وأنقذته من ذاكرته المصابة، وقفت إلى جانبه في تعليمه اللغة الإيطالية، وأبجديات العيش في إيطاليا، يقول عنها: >أنا رضيع أحتاج يوميا إلى الحليب، اللغة الإيطالية هي الحليب اليومي، ستيفانيا هي الحياة، أي الحاضر والمستقبل، أحبّ ستيفانيا لأنها متعلّقة بالحياة، أعشق ذاكرتها الخالية من الكوابيس، أريد أن تصيبي بالعدوى، عدوى الحياة، عدوى الحبّ، عدوى المستقبل وعدوى العواء السعيد، أووووو⁵. والذئبة هي روما وبذلك رضع من حليب الذئبة دون أن تعضه، أي دون أن تتنكّر له، لأنه بلد يكره شعبه المهاجرين، غير أن اللغة الإيطالية الجيدة التي تعلّمها أو رضعها مكنته من عدم تفضنّ السكان الأصليين لكونه ليس إيطاليا، لاسيما الأخلاق الحميدة التي كان يتمتع بها.

¹ عمارة لخص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك، ص 110.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 117.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 120.

⁴ ينظر: المصدر نفسه، ص 121.

⁵ المصدر نفسه، ص 125.

وبذلك تظهر الشخصيات المتسامحة في روايتي عمارة لخصوص، محدودة مقارنة بالشخصيات العنصرية، وهو ما يبيّن أنّ التسامح استثنائي في إيطاليا، إذ يشعر معظم الإيطاليين بالحق على المهاجرين لاسيما منهم المسلمين، حيث يشكلون مصدر قلق وخوف ورعب في وسط إيطاليا، أما المتسامحون، فلا يرون أي خطر قادم من هؤلاء، لوعيمهم بقيمة تعاليمهم الدينية السمحة، مثل: ساندرود. أو لأنّ مبدأ ستيفانيا أصلا هو حبّ السفر والميل إلى كل ما هو شرقي، ومبادرتها التطوّعية في أن يتعلم المهاجرون اللغة الإيطالية، حتى يتسنى لهم قضاء مصالحهم والتفاهم مع غيرهم بسهولة.

وتبدو شخصية "الحوّاس" في رواية " الصلاة الأخيرة" **La dernière prière** ل(حميد قرين) متأثرة جدا بالممثل الإيطالي " مارشيلو ماستروياني"¹، إذ أن >فكره يحلّق باتجاه الممثل، وهو يعبد ذلك الإيطالي الذي يحفظ أفلامه عن ظهر قلب يجب كل ما هو عنه، كمثل امتشاقه قامة العاشق اللاتيني، وسخريته وفلسفته في النساء، لا توجد من تستحق أن نغيّر حياتنا من أجلها، عبارة أسرّ بها " لإيليا كازان" وهو أيضا ما يتيقّنه "حوّاس" ويؤمن به، غير أنه بخلاف ماستروياني الذي سجد على أقدام فاي دوناوي، إذ هجرته، لم يسجد على ركبته أمام أية امرأة، كان يحبّ أن يغتذي بنماذج وأمثلة تدلّ على هشاشة معبوداته، فيصير بها أكثر اقتدارا وقوّة، هو القائل ليس من إنسان خارق، كان يرغب أن ماستروياني هو الفاتن الذي لا يُقهر، ولا يتأوّه، يفتن الواحدة، ويهجر أخرى، يتّمّتها الآلام في سبيله². يجعل الكاتب من الشخصية الروائية " الحواس" نسخة من شخصية الممثل الإيطالي، يعكس عليه أفعاله ومواقفه، وكأنه يسعى بذلك إلى توظيف سمات وخصال إيطالية في شخصية جزائرية، لاسيما وأنّ "الحوّاس" في الرواية كان يعيش مغامراته الجنسية رفقة نساء عديدات، ثم يتحوّل مباشرة إلى الضوء والصلاة، حتى قالت "سميرة" -إحدى عشيقاته- في نفسها ذات يوم وهي تبتم: >لو كان هذا المشهد من فيلم سينمائي لقهقهت ضاحكة ومعني قهقهة المشاهدون جميعهم، إنّ المشهد لأشبه بكوميديا إيطالية

¹ حميد قرين، الصلاة الأخيرة، تر: ميرنا صعب، سيديا، مطبعة الفنون الجميلة، الجزائر، جويلية 2012، ص 10.

² المصدر نفسه، ص 11، 12.

تمزج بين المقدس والنجس، ثم قالت لحواس: فيك الكثير من فيتوربو غاسمان ومن مارشيلو ماستروياني¹، وفي إشارة منها ومن الكاتب الذي لم يجد أحسن من السينما الإيطالية لتوظيف بعض السيناريوهات لكشف بعض الحقائق، إذ يبدو الإيطالي متناقضا في العديد من صفاته، من حيث سعيه إلى الجمع بين شيئين متناقضين في الوقت نفسه، بين القداسة والنجاسة، بين الطهر والخبث، وهو ما سعى الكاتب توضيحه في شخصية الحواس الذي كان يدّعي الإيمان والصلاة واللحية وقراءة القرآن بصوت جهور ولكنه في الوقت نفسه، يعيش نزواته ومغامراته النجسة بحرية مطلقة، رفقة العديد من العشيقات.

وبرزت شخصية المرأة الإيطالية، وإن كانت بلمحة موجزة في رواية " الصلاة الأخيرة" لـ(حميد قرين)، حيث تعدّ "ليزا" الإيطالية إحدى الفتيات اللواتي تعرّف عليهن الحواس في إيطاليا، حيث كان يقدم نفسه في إيطاليا على أنه إسباني وفي إسبانيا على أنه إيطالي.

وتشبه "ليزا" الإيطالية نوعا ما لوحة ليوناردو دافينتشى، شعرها ونظرتها الهادئة والباسمة وبيضاوية وجهها، لها ببشرتها المخملية وشكلها الساحر أن تعدّب وليّا جزائريا وتهلكه². ولما أوهمها الحواس بأنه إسباني، راحت تناديه خوليو، وهي تمسك بذراعه، متيمّة واقعة في حبّه، إلى أن كشف أمره أمامها، أحد الباعة المتجولّين، وإن لم يكن قد رآه من قبل، إلاّ أنّه عرفه بالبداهة من خلال عينيه وملامحه أنه جزائري، وذلك لاشتراكهما في الهوية، فما كان من "ليزا" إلاّ أن جمدت في مكانها شاحبة اللون، وبقي حواس مذهولا ولم تجد الإيطالية إلاّ الفرار مخرجا لها³، لما وجدت نفسها محصورة بين جزائريين. وهي صورة أخرى تبرز ميل الإيطاليين إلى الإسبانيين، ولكن عندما يتعلق الأمر بالجزائريين، فلا مناص من ذلك إلاّ بالهرب والفرار نظرا للحالة النفسية التي يشعر بها الإيطاليون، والصورة التّمطية التي يشكلونها في أذهانهم عن الجزائريين، باعتبارهم عرب، مسلمين، تُنسب إليهم كل سمات الإرهاب والعنف والخطر.

¹ حميد قرين، الصلاة الأخيرة، ص 35.

² المصدر نفسه، ص 22

³ المصدر نفسه، ص 23

3- ملامح من البيئة الايطالية:

تجتمع جملة من الملامح عن المجتمع الإيطالي في روايتي (عمارة لخصوص)، يمكن تحديدها وفق عدّة نقاط وردت على لسان شخصيات الرواية؛ أبناء البلد الأصليين أو المهاجرين.

يرى بارويز الإيراني أن الإيطاليين يحبّون كثيرا أكل البيتزا والمعجنات صباحا ومساءً¹ في المطاعم، وفي الحافلات وفي العمل، لا يكلّون ولا يملّون. أما رجال الشرطة الإيطاليين -حسبه- فإنّ معاملتهم سيئة خاصة للاجئين والمهاجرين، يقول: >> عاملوني معاملة سيئة دون أن أقترف أي ذنب، بل ذهبوا إلى حدّ إهانتي، بقولهم: هل تريد أن تُحوّل روما الجميلة إلى مزبلة، إذهب إلى بلدك وافعل ما شئت² وذلك من أجل إطعامه للحمام الذي ينتشر بكثرة في ساحة سانتا ماريا ماجوري³، إذ يريدون أن يكون كلّ شيء وفق النظام والقانون.

ومما تشترطه الشرطة الإيطالية على السكان، أنه لا بدّ من الإبلاغ عن أي شخص تستضيفه في بيتك، خلال مدة لا تتجاوز اليومين⁴. وقد دخل هذا القانون حيّز التنفيذ في السبعينات لمواجهة الإرهابيين يساريين كانوا أو يمينيين.

وقد ورد على مستوى روايتي ل(عمارة لخصوص)، أن الشيوخوخة كثيرة في إيطاليا وعدد الأطفال قليل، إذ يقول "أميدو" في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك": >> قرأت اليوم مقالا في صحيفة "ألكوربيري دلاسير" عنوانه مثير: هل الإيطالي مثل الديناصور؟ ويتناول مشكلة انخفاض الولادات في إيطاليا، وهو من أخفض النسب في العالم، وقال كاتب المقال أن الإيطالي سينقرض في القرن التالي، والخلاص الوحيد هو قدوم المهاجرين أو عقد صفقة مع السلطات الصينية لاستيراد البشر

¹ عمارة لخصوص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك، ص 09.

² المصدر نفسه، ص 24.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 24.

⁴ المصدر نفسه، ص 62.

ما أكثر عدد الشيوخ في هذا البلد¹، وتناسب كثرة عدد الشيوخ بقلة عدد الأطفال حيث تقول "صوفيا" في رواية "القاهرة الصغيرة" أنّ "الحضانات العمومية في إيطاليا قليلة ومكتظة رغم أن نسبة الولادات منخفضة جداً، وهي الأكثر انخفاضاً في أوروبا، عندما أتحوّل في شوارع روما أرى الكثير من المسنّين والمسنّات، أحيانا الكلاب تفوق الأطفال عدداً في الحدائق العامة، هل ستحوّل إيطاليا إلى بلد بلا أطفال². وقد تعود أسباب ذلك للمصاعب التي تتلقاها الأمّهات في التربية وصعوبة الطلاق .

تحكي "صوفيا" في الرواية نفسها، عن صديقتها الإيطالية "أنجلا" التي تُشرف على الأربعين من عمرها، وهي >> تشتغل في وكالة عقارية، لها ابن كثير الحركة، ولا تملّ أبداً من الشكوى من مصاعب الأمومة، خصوصاً من لا يحظى بمساعدة من العائلة³، ومع أنّ "أنجلا" ليست متزوجة، إلاّ إنّها كانت >> تعاشر رجلاً، وهو في نفس الوقت أبو ابنها، لا تناديه أبداً زوجي، وتكتفي بكلمة ريفيقي⁴، والسبب الرئيسي في عدم زواجها ومعاشرتها فقط لرجل ما، (هي ومثيلاتها من الإيطاليات) يعود إلى كون >> إجراءات الطلاق مرهقة ومكلفة للغاية، وتتطلب ثلاث سنوات على الأقل للحصول على الانفصال النهائي في حالة التراضي، أمّا إذا اعترض أحدهما فإنّ القصة ستطول أكثر⁵.

ومن خلال ما تقدم في هذا المبحث عن صورة الإيطالي في الرواية يمكن الإشارة إلى بعض الملامح باقتضاب، تعدّ إيطاليا بلداً للشيوخ أكثر منه للأطفال، يعيش جملة من المشاكل بما فيها صعوبة في الحضانات وصعوبة في الطلاق مما يؤدي إلى انتشار الزواج غير الموثق، مجرد معاشرات بين نساء ورجال فقط، الوضع الأمني المتشدّد في فرض بعض القوانين الصارمة على المواطنين لا سيما ما تعلّق باستضافة الأجانب، وهو ما يجعل الشعب الإيطالي يتحايل على القانون، ولا يدخله في حساباته، حتى لا يقع في متاهاته، كما تبرز العنصرية كثيراً في إيطاليا، لا سيما بين سكان الشمال (ميلانو) وسكان

¹ عمارة لحوص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك، ص 81.

² عمارة لحوص، القاهرة الصغيرة، ص 88.

³ المصدر نفسه، ص 95

⁴ المصدر نفسه، ص 95.

⁵ المصدر نفسه، ص 96.

الجنوب(روما). ولا يتفقون إلا على الحقد على المهاجرين العرب والمسلمين، يفضلون الكلاب عليهم، يتخوفون منهم ويرون فيهم الشر المطلق المحقق بأمنهم وسلمهم. لامناص من الفكك من شرهم إلا بالخالص منهم، وطردهم، وتحييدهم فهم رمز للإرهاب والعنف والدمار.

المبحث الثالث: صورة الإسباني في الرواية الجزائرية

تعرّضت بعض الروايات الجزائرية للشخصية الأجنبية الإسبانية رصدت ملامحها، وأهمّ ميزاتهما. وتختلف إثر ذلك صورة هذا الأجنبي تبعا لمنظور الكاتب وتصوّره له، وسعيه في إبراز جانب من جوانب شخصيته على حساب جانب آخر.

ومن الروايات الجزائرية التي عرضت صورة الإسباني بصفة مكثّفة، رواية "حارسه الظلال.. دون كيشوت في الجزائر" ل(واسيني الأعرج)، ورواية " السماء الثامنة" ل(أمين الزاوي)، مع بعض الإشارات السريعة والسطحية الواردة في رواية "انبهار" ل(رشيد بوجدره)، ورواية "العاشقان المنفصلان" ل(أنور بن مالك) .

1- صورة الإسباني المتعلّق بالماضي الجزائري:

يعرض (واسيني الأعرج) من خلال رواية: "حارسه الظلال.. دون كيشوت في الجزائر" قصة الأجنبي الإسباني الذي زار الجزائر- اسمه فاسكيس دي سرفانتيس دالميريا الملقّب بـ دون كيشوت، بطل رواية جدّه "ميغال دي سرفانتس" إذ قدّم إلى الجزائر لزيارة الأماكن التي مرّ عليها جدّه من قبل، وأُسّر بها، كان <> حلمه هو أن يعيش الحالات العميقة التي عاشها جدّه¹، حيث أُسر من طرف القراصنة الأتراك لمدة خمس سنوات، وعوده حفيده الملقّب بـ "دون كيشوت" كانت أيضا عبر سفينة قادمة من إسبانيا مارّة بمرسيليا، لتزوّد الجزائر بالسكر، وهذا ما جعله يسافر على متنها كجدّه تماما، كما أنّه كان لكلّ منها (كورديللو) أي كناش أو كراس صغير يدوّن عليه جميع الملاحظات والمشاهدات التي يصادفها أثناء رحلته إلى الجزائر، و كان يحمل آله فوتوغرافية لتصوير الأماكن التي زارها جدّه والوضعية التي هي عليها اليوم.

يصوّر الكاتب "دون كيشوت" متلهّفا لمعرفة مصادر إلهام جدّه، متخيّلا أنّ هذه الأماكن أصبحت مواقع أثرية ومزارا لعشاق ميغال دي سرفانتس جدّه الكاتب الكبير، ولكنّه في الواقع، وجدها

¹ واسين الأعرج، حارسه الظلال.. دون كيشوت في الجزائر، الأعمال الكاملة: المجلد الرابع، منشورات السهل، الجزائر العاصمة، 2009، ص 133.

أماكن تبعث على الخجل بتحويلها إلى مزبلة أو مفرغة، تضيع فيها النصب التذكارية، توحى بالاستهتار والعبث بالتاريخ والتراث، والذاكرة الثقافية، وسرقة بعض الآثار وبيعها بثمن بخس.

ويقدم (واسيني الأعرج) من خلال تلك الرواية، صورة مزدوجة، للمقارنة بين الأنا والآخر من منظور كل منهما للثقافة والتراث، يتحمل الأجنبي ركوب المخاطر ويغامر بحياته في بلد بعيد عن بلده، مع علمه بالمخاطر والأزمات الداخلية والأمنية التي يتخبط فيها فترة العشرية السوداء، إلا أنه أبا إلا أن يزور الآثار التي تربط بين البلدين، والتي قد تكون ساهمت في يوم من الأيام في توجيه فكر جدّه والتأثير عليه، إذ يسعى إلى التماس كل المشاهد والمواجس التي عاشها جدّه أثناء أسره بالجزائر، كما يسعى إلى شراء كل ما يمكن بيعه من آثار.

وبذلك تبرز صورة إيجابية مشرّفة للآخر الأجنبي الإسباني في الرواية ، في حين تبرز صورة الأنا الجزائرية على العكس منها، سلبية من حيث عدم الاهتمام بالثقافة ورعاية الآثار وصيانتها لاسيما في تلك الفترة الدموية، التي تعرّضت فيها الجزائر لجميع أنواع الانتهاك والسرقة والإتلاف للآثار والرموز الثقافية.

يصوّر الكاتب الإسباني "دون كيشوت" في روايته "حارسه الظلال" ذا عظام[>] بارزة من تحت معطفه الأبيض، قامته الطويلة التي تحاذي المترين، تبدو مزعجة له قليلا، فظهره انعكف في الأعلى تحت ثقل الحقيبة الظهرية التي لم تكن مملوءة، بين يديه مصوّرة معقّدة، زاده الأساسي في رحلة تبحت لجنونها عن اسم^{1<} يرتدي مظلّ السّامبرير² . وكان "حسين" صاحب مكتب في وزارة الثقافة هو من استقبله وأخذه إلى بيته، وعزّفه -في عدّة جولات- بالمواقع الأثرية في المدينة، وكان شديد الاهتمام بشكله ومظهره الجسمي أكثر من كلامه، إذ يقول: >> لا أدري حقيقة إذا كنت أستمع إليه بجدّية، فقد كنت منشغلا بتفاصيل حركاته وقامته الفارعة النّحيفة ورأسه المهترّة باستمرار وملاحه الضائعة، لكنّ الذي يشغلني أكثر عيناه الصغيرتان اللتان تشبها عينا ديك، لم أكن قادرا على تصوّر الشخص الذي كان أمامي، غير دون كيشوت دي لا مانشا، في حالة يرثى لها وهو يئن من جراحات حرب خاضها بدون

¹ واسيني الأعرج، حارسه الظلال.. دون كيشوت في الجزائر، ص 28.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 28.

هوادة ضدّ حبيبات الدنيا¹. وقد كانت سعادة "حسين" بهذا الأجنبي الإسباني كبيرة، هذا الصحفي الذي يحمل على عاتقه مسؤولية اسم شخصية أسطورية، شكّلت بشكل دائم الهواجس المركزية لمخيلته² وقد كان دائم الاستعداد للتصرف بودّ وبساطة، كما يعدّ إنساناً طيباً³ يبحث بشكل محموم عن هوية جدّه الضائعة بين مدن عديدة، يريد أن يشتري المفرغة بكاملها، كل هذه المفرغة بكافة عمالها، مجنون بكلّ ماله علاقة بالتراث⁴ إلى درجة الرغبة في امتلاك كل شيء حتى بما ليس له علاقة بتاريخ جدّه وآثاره.

وجدّة "حسين" العجوز "حنّا الموريسكية" عجوز مقعدة عمياء، تعيش مع حفيدها، لازالت تحتفظ ببعض الصور القديمة عن جدّها الأندلسي وتخيّل كلّ إسبانيّ اليوم أنه على شكل فرسان الأندلس، وعند إخبارها أن ضيف "حسين" إسباني، طارت فرحاً، لاسيما وأن وصفه له كان وفق ما تخيله وترى به الأندلسي، رجلاً⁵ ذا بنية قوية تحاذي المترين تقريباً، ومائة كيلو من العضلات، هيئته مثل هيئة فارس خاض كلّ حروب جبال البشترات بالأندلس، وخرج منتصراً. وجه مشع وعيناه مليئتان بالنور والحب، مقرونتان بحاجبين مثل الهلال، قبضة قوية وخفيفة، مثل الفولاذ، تنسدل من رأسه صغيرة طويلة، تختلط في النهاية بسبابات لباسه التي تملأ بدلته الأندلسية المذهبة، بالحدائق والأنوار وأشجار الجنة. شامة تتوسط خدّه الأيسر، بينما الخد الأيمن لم يُشف بعد من جرح غائر أصيب به بكل تأكيد في حرب خاضها لوحده، ضدّ أعداء مدينته⁶، وهي صورة لطالما التصقت بذهنها وخيالها عن جدّها الأندلسي إذ قالت "حنّا": >> مدهش، إنّه يشبه جدّي الأندلسي التائه بين الأمصار، بعدما ضيّع أشواقه ومدن النور، إنّ الدم الذي يجري الآن في عروقي وفي عروق الآخرين دمه⁷، لا يزال حينئذ قوياً للبيئة والحياة والقصور الأندلسية، وتصف كلّ ما يتعلّق به بشغف وحسّ مرهف وحنين كبير. وهو

¹ واسيني الأعرج، حارسه الظلال.. دون كيشوت في الجزائر، ص 29.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 31.

³ المصدر نفسه، ص 88.

⁴ المصدر نفسه، ص 53.

⁵ المصدر نفسه، ص 53.

دليل على تسمية الكاتب لها بـ"حنّا"، وهي تُفضّل أن يناديها الناس سينيورا¹، لأنه يذكرها بالجنة المفقودة.

وتُبرز هذه الصورة المزدوجة التي وظّفها الكاتب في الرواية، بين "دون كيشوت" والجدّة "حنّا" حنين كلّ منهما إلى الماضي، يحنّ الإسباني إلى ميراث جدّه الفكري والثقافي ويسعى إلى الاكتشاف وتقدير الوضع القديم، في حين يبقى قلب وذهن الجدّة حنّا للموريسكية متعلقا بالجنة المفقودة التي فيها كلّ الماضي العريق لأهلها بالأندلس، وتخيّل هذا الإسباني الوافد إلى الجزائر، صورة عن جدّها الأندلسي وما وضّحه الكاتب صورة عكسية متناقضة مع ما وصف به "دون كيشوت" كما يبدو ظاهريا ويدلّ ذلك على قوة الرجل الأندلسي القديم، وضعف وتعب وبساطة وطيبة الرجل الإسباني .

ومما زاره "دون كيشوت" رفقة "حسين" مغارة سرفانتيس التي تحولت إلى مزبلة بلكور بالجزائر العاصمة، والتي كان يتصوّرها قبل مجيئه مكانا سياحيا يحلم عشاق سرفانتيس برؤيته ولو مرة واحدة في العمر. وقد كان وزير الثقافة "السي وهيب" يتهكّم من هذا الإسباني، قائلا: >هؤلاء الغربيون مهاييل يتقاتلون حتى على الزّوية، قل لي يرحم والديك عن ماذا يبحثون في مكان متّسخ مثل هذا؟ ماذا يشمشمون في قمم جبل من الفضلات يصعب تسلّقه<<² فوزير الثقافة هذا لا يُعطي أيّة قيمة أو اعتبار للثقافة ولا إلى كل ما يمتّ لها بالصلة.

وأثناء زيارة "دون كيشوت" للمغارة، التقى بجموع من الأطفال يلعبون ويجرون فسألهم، عمّا تعنيه لهم مغارة سرفانتيس، فقال أحدهم:

>> - واش تحب يعني لي؟ لا شيء سوى أنّه اسم لحينّا وللغابة... ويقول كذلك أنه اسم كافرٍ

جاء من بعيد ليسرق كنوز هذه البلاد وليمسّح الناس، هذا هو على ما أعتقد.

- لا، أنا أتكلّم عن سر... فان... تيس

¹ واسيني الأعرج، حارسة الظلال.. دون كيشوت في الجزائر ، ص 54.

² المصدر نفسه ، ص 47

- اسم واحد رومي، أنا أتساءل وعلاش باقي حتى الآن؟ كلّ أسماء الرّومة عوّضت بأسماء الشهداء، حتى بلكور صار بلوزداد، بكلّ تأكيد سيغيروّنه¹.

يوضّح هذا الحوار موقف الجزائريين من "سرفانتيس" الذي لازال يُعتبر واحدا من الروامة الأجنب، الذين جاءوا إلى الجزائر، من أجل السرقة ونهب الكنوز كما أنه كافر جاء لينشر دين المسيح بين الناس. والمفارقة التي يوضّحها الكاتب في هذه الرواية، أنّ "دون كيشوت" هو الآخر أُلصقت به العديد من التّهم كالجوسسة، وسرقة الآثار، حيث تتبعته السلطات الجزائرية أثناء جولاته بالجزائر، وألقت القبض عليه، وراح أحد العساكر سيتجوبه ويخبره بالتّهمة الملقاة عليه:

>> التّهمة الكبيرة بالجوسسة لمصلحة دولة أجنبية، تحوم حولك، وعليك أن تعترف أو أن تدافع عن نفسك، ولكن بلغة أخرى غير اللغة التي سمعناها². أمّا التّهمة الثانية فهي >> تحويل كنوز تراثية وطنية كبيرة باتجاه الخارج³، وتلك التّهم لأنّه مشبوه في أمره كونه دخل الجزائر عبر سفينة تجارية (التزويد بالسكر) ولم يمر على الجمارك الجزائرية لتسجيل دخوله.

وقد كان "حسين" يعي المتاعب التي يمكن أن تلحق به أثناء مرافقته لهذا الإسباني حيث يقول:

>> كنت منتظرا للشّطط الذي ينتظر مع دون كيشوت، وطبيعة مهمّتي في ظروف أمنية، أقلّ ما يقال عنها أنّها تسير عكس التيار الذي كنتُ أسبح فيه، يستحيل عليّ أن أتخيّل نفسي في شوارع العاصمة، أتجوّل مع أجنبي، وأساعده على معرفة الأماكن وكأنّ شيئا لم يكن؟ ولكنني على يقين أنه من الضروري في مثل هذه الظروف تحديد، تجاوز حالة الخوف وأخذ الحالة بشيء من الفانتازيا والجنون⁴.

فاعتراف "حسين" بالخطأ الذي يقدم عليه بمرافقة هذا الأجنبي، تتضح صعوبة الأوضاع الأمنية آنذاك بالجزائر، وقد تحاور حسين مع أحد رجال الشرطة لإطلاق سراح "دون كيشوت" قائلا:

¹ واسيني الأعرج، حارسه الظلال.. دون كيشوت في الجزائر، ص 105

² المصدر نفسه، ص 188.

³ المصدر نفسه، ص 188.

⁴ المصدر نفسه، ص 37

>> - فعلٌ مثل هذا قد يشوّه صورة وطننا في عين الآخرين، لا تنس أنّه صحفي ويكتب في أكبر جريدة إنسانية، صورتنا الآن ليست مشرقة، فهذا الشخص لا علاقة له بمشاكلنا، فهو هنا في إطار عمل ثقافي. - تعال ونرى ماذا نستطيع أن نفعل من أجله، هؤلاء الأجانب أتعبونا بحضورهم في ظروف سيئة مثل هذه، وعندما يُغتالون، نتحمّل نحن التّبعة وأننا لم نقم بواجب الحراسة تجاههم¹، وهو ما يبرّر به رجال الأمن عدم تقبلهم لتواجد الأجانب في الجزائر بسبب سوء الأحوال الأمنية التي قد تؤدّي إلى هلاكهم، وهو ما يجرّ الجزائر إلى أزمات خارجية هي في غنى عنها، إذ تكفيها الأزمات الداخلية، بين أبناء الشعب الواحد.

وتتضح بذلك صورة الإسباني في رواية "حارسه الظلال" ل(واسيني الأعرج) متشعبة من حيث علاقة الإسباني بالجزائر، بما فيها العلاقات التاريخية القديمة من زيارة الإسبان إلى الجزائر والتواجد العربي الإسلامي في إسبانيا، مما شكّل الحضارة الأندلسية (الجنة المفقودة)، وأبرز الكاتب جانبا من العلاقات المعاصرة بين البلدين، في فضولٍ وحبّ لمعرفة الجزائر والآثار الإسبانية المتواجدة بها، وكذا في حنين الجزائريين المورسكيين إلى بلاد الأندلس.

وتبدو الرواية صورة الإسباني متناقضة مع ما كان عليه الأندلسي قديما في صفات جسمية تتميز بضيق العينين، ونحافة الجسم، وبروز العظام، على عكس ما كان يتميز به فرسان الأندلس من قوة في البنية، والطول، والقوّة والشجاعة. وجعل الكاتب مصير الإسباني "دون كيشوت" يتقاطع مع مصير جدّه "سرفانتس"، من حيث دخول كل منهما إلى الجزائر تسلّلا، واتّهام كل منهما بالسرقة والجوسسة، ممّا يدلّ على أنّ موقف الجزائريين تجاه الأجنبي الإسباني لم يتغير، وطريقة الإسباني في الدخول إلى الجزائر لم تتغير أيضا، وبقيت صورته واحدة في تركيبته الذهنية والعقلية وفقا لهذه الرواية.

2- صورة الإسباني المخنث والاستغلالي:

وفي رواية "السماء الثامنة" ل(أمين الزاوي) تبرز شخصية أستاذ جامعي إسباني يُدعى "أنطونيو" التقى به المهاجر الجزائري في ألمانيا بعد هربه من أداء سنتين من الخدمة العسكرية الجزائرية، وهناك التقى

¹ واسيني الأعرج، حارسه الظلال.. دون كيشوت في الجزائر، ص 112.

بعض الأصدقاء الأجانب، جمعهم توجهاتهم الإيديولوجية المشتركة حيث كانوا يتبنون الشيوعية مذهباً وأثناء حديث الجزائري عن احتفال المسلمين في عيد الأضحى، بذبح الأضحية، وكيفية القيام بذلك، ثارت إحدى الفتيات الألمانيات وغادرت الجلسة غاضبة، وهو ما سمح للإسباني أن يختلي بالجزائري ويوقعه في شباكه. وكان الإسباني إنساناً ضعيفاً أمام العربي، له ثقافة واسعة بتاريخ العرب والمسلمين، خاصة في الأندلس حيث يقول: >لقد أخذ الأوربيون عن العرب الخمر والتمر واللواط والسحاق والغلمايات، أنتم في العالم الإسلامي تخلّيتم ولو ظاهرياً عن حضارة الغلمايات التي ازدهرت في العصر العباسي (...). كان الإسباني يتحدث بلهفة عن حضارتنا في الشرق والمغرب، في الأندلس وفي الجمهوريات الإسلامية السوفيتية سابقاً (...). سبحان الله يحفظ فصولاً كاملة من كتاب (طوق الحمامة في الألفة والآلاف) في نصه الأصلي وفي ترجمته الإسبانية¹ وقد كان له هذه المعرفة لكونه أستاذ كرسي في جامعة قرطبة، أستاذ علم الجمال والفلسفة العربية الإسلامية الوسيطة².

غير أنه لم يكن عارفاً بها، بل كان ممارساً لبعض العادات السائدة فيها، أدّى به الشغف بالعرب إلى حبّهم، وممارسة ما سمّاه بالغلمايات رفقة الشاب الجزائري، الذي يقول: >> رافقته ووقع الذي أحجل الآن أن أحكيه لكم، لم يكن الشراب هو السبب، لا ذنب للخمر في ذلك، لقد كنت في كامل قواي العقلية حين نمّثُ معه ومارست معه، ذلك الشيء الذي تحجل في بلاد الإسلام تحدّث عنه³. إذ كان الإسباني أنطونيو مخنّثاً⁴ لديه رغبة وميول شديد للرجل العربي. وذلك ما جعله يطلب منه مرافقته إلى قرطبة، والعيش معه هناك إلى جانب زوجته الرسّامة المعروفة وابنته المعوّقة، قال له: >> هيا لتعش معنا ترافق ابنتنا "فيُوليتّا" يومياً إلى المكتبة الوطنية والحفلات الموسيقية و...و...و...⁵

¹ أمين الزاوي، السماء الثامنة، منشورات ضفاف - منشورات الاختلاف، بيروت - الجزائر، ط4، 1435هـ-2014م، ص 25

² ينظر: المصدر نفسه، ص 26.

³ المصدر نفسه، ص 25.

⁴ المصدر نفسه، ص 63

⁵ المصدر نفسه، ص 27

ولما كان الشاب الجزائري ضائعا تائها، فكرَ قائلاً: >> بقيت وحدي أبحث عن نفسي في نفسي... الإسباني يغربي، وأداء سنتين من الخدمة العسكرية في بلادي، يدفعني إلى الابتعاد والمنفى وعدم التفكير في الرجوع أصلاً¹، فتعلّم اللغة الإسبانية بسهولة، ولم يتردّد لسانه في التعبير بها عن أية فكرة، ويرى أنّ ذلك بسبب الضعف الذي كان يظهر به ذلك الإسباني أمامه²، وهو طالب لشهوة ونزوة عابرة بطلها رجل عربي.

وليست زوجة الإسباني "أنطونيو"، أفضل حالاً منه، حيث كانت ذات خمسين سنة من عمرها غير أنّها تبدو في مقتبل الشباب. وكان زوجها عند حديثه عنها، >> يغمرها بنعوت وأوصاف امرأة مراهقة، حبّها ركوب الخيل، ومصّ أصابع الثلج في الشارع، والاستحمام على شواطئ السنغال عارية تماماً، لأنطونيو نيّة أخرى في كلّ هذا الحديث عن زوجته التي تنتمي إلى نادي العراة الطبيعيين³. وما ذلك إلا لإغرائه بها، حتى يقبل دعوته وعرضه في السّفر معه إلى بلده، وإبقائه إلى جواره.

وقد استغلّه كل من انطونيو وزوجته، فعلا به ما يشاءان وما يشتهيان، طلبت منه الزوجة الإسبانية ذات ليلة حبّ جنوبها الرّائع، أن يتعرّى كي ترسم لجسده "بورتري"، ذات ليل شتوي بارد بطوله، يقول عنه: >> قضيته عارياً أمام قنينات التّبيد المتعاقبة، سبع قنينات سحقته، وهي تحدّق في دقائق جسدي⁴. ويوضّح ذلك صورة الإسباني وزوجته، في الرغبة الملحة في جسد العربي حبّاً واشتهاء ورسمًا ومتعة، استغلّ الإسبانيان ذلك الشّاب وجعلاه فرجة أمامهما، وكأّمّا في قلبيهما شوق وانتقام وعطش وحقد لهذا العربي.

وقد تشكلت الصورة كاملة في ذهن الشاب الجزائري، بقوله: >> الإسباني هو الذي أفقدني الثقة في الأجنبي، إنه ليس وحده في الحقيقة، لم يُقم الإسباني سوى بتأكيد قراءتنا عن الغرب في تلك

¹ أمين الزاوي، السماء الثامنة، ص 28

² ينظر: المصدر نفسه، ص 48

³ المصدر نفسه، ص 29

⁴ المصدر نفسه، ص 30.

الكتب التي تصوّرهم تباعا للمتعة، المرأة الأوروبية تعرض نفسها مجاناً للرجل الإفريقي»¹ من جهة والعربي من جهة أخرى. ومع ذلك فقد تعلّق هذا الشاب الجزائري بالإسباني وألف صحبته إذ بافتراقهما قال: >«أشعر بحاجة إلى الإسباني، لا تعرف قيمة الشيء إلاّ حين تفقده، بدا لي أنطونيو دافئا حاراً وحضارياً بدت صورته كغلام شاخ، فطرد من ديوان سلطان أو أمير عربي أندلسي»² إذ تصوّره مرفوضاً منبوذاً من طرف من كان في حاجة إليه، ممّن كان سببا في جعله سعيدا مبتهجا، ويمثل الجزائري السلطان أو الأمير العربي الأندلسي بالنسبة لذلك الإسباني.

وردت في رواية "العاشقان المنفصلان" ل(أنور بن مالك)، صورة الإسباني "مانويل" الملقب بالعجري، يعدّ صديقا مساندا ل"نصر الدين" الجزائري في الرواية، ساعده يوما عندما تعرّض لإهانة، فلم يتوان عن ردّ الدّين إليه، في يوم احتاجه "نصر الدين"، فكان له ذلك عند فراره من السّجن. كان "مانويل" يلبس بدلة صينية زرقاء وحذاء قماشيا (السبادري) يلقّب الجزائري بـ "المور"، ويلقّبه الجزائري بـ "العجري". وعند معرفة "مانويل" بخروج أو فرار "نصر الدين" من السجن، هرع إليه حاملا قفّة فيها زوج حذاء وبعض الملابس النظيفة، التي طلب منه أن يلبسها وينزع القاذورات اللاصقة بجلده، قال له كأنتك بغل أصيب بداء الثعلبة وذلك من فرط وسخ ثيابه وجروحه وتشرّده. ولما تساءل "نصر الدين" عن سبب مساعدة "مانويل" له، أجابه: >> «أوو... لنقل أنّي كنت بحاجة إلى شريك غير ماهر كي أتغلّب عليه في لعب الورق، ولا أحتمل أن أراه في هيئة بائسة! أيكفيك هذا نصر الدين؟ باندهاش كبير لاحظ نصر الدين أن العجري قد احمرّ، دمدم مانويل وهو يسحق أفعال سترته، بأنه مدين له بأكثر من هذا.

لقد أنقذتني من الورطة، دون أن تطرح على نفسك أسئلة ربما حان دوري أليس كذلك نصر الدين؟ ثم اذهب إلى الجحيم بأسئلتك، أسرع ليس لدينا وقت نضيّعه، ينبغي أن نعثر بسرعة عن حيلة كي لا نموت جوعاً يا المور»³. وإن كانت صورة الإسباني في هذه الرواية بما تتميز به من طيبة وتسامح

¹ ينظر: أمين الزاوي، السماء الثامنة، ص 66.

² المصدر نفسه، ص 67.

³ أنور بن مالك، العاشقان المنفصلان، ص 205.

تندرج ضمن صورة المعمّر المتسامح، إلا أننا أبيتنا توظيفها ضمن صورة الأجنبي الإسباني. وذلك لاعتبارات عدّة؛ أهمّها أن الإسباني لم يكن من السكان المعمّرين في الجزائر، وإنما كانت زيارته إلى الجزائر في سياحة فقط، كما أنّ الموقف الإنساني الذي أبداه تجاه الجزائري، كان بعيدا عن المستعمر وطبيعته، وهو من قبيل الصداقة والإنسانية وحسن المعاملة وردّ الدين، ويرجعان ذلك لأصلهما المشترك (الإسباني- الأندلسي).

وفي رواية " انبهار " Fascination ل(رشيد بوجدره)، يتحلّى موقف "لام" من إسبانيا وشعبها. انطلاقا من مهمّة سرّيّة أرسلته إليها المقاومة الوطنية لشراء السلاح من إسبانيا، وإرساله إلى الجزائر عبر المغرب. وأثناء حديثه عن هذه الرحلة قدّم لمحة تاريخية عن مدينة برشلونة الإسبانية، التي تعدّ > مدينة تنحدر من مرتفعات مونخويش إلى غابة الميناء يسدّ الرامبلاس الضخمة، حيث يقع الباروتشينو، نوع من المتاهة المحصورة التي تتلوى وتدور في الفراغ بدكاكينها الصغيرة وحوانيتها، ومطاعمها الشعبية وموسماتها وزعرانها، وحيث قضى "لام" عاما كاملا ينتقل من فندق قميء إلى فندق دعاة، يحمل اسما مستعاراً، ويخالط المهريين من كلّ شاكلة، يدخل هنا ولأول مرة مدرسة الحياة الحقيقية القاسية، العديمة الرحمة والخطيرة وينظر إلى الناس والأشياء بشكل مختلف، ويتعلّم الإسبانية والكتلانية في الميدان بسهولة عجيبة ودون لكنة، فقد كان عليه أن يبدو بأي شكل من الأشكال كواحد من أبناء المدينة الأصليين <<1 كان "لام" ينظر إلى هذه المدينة الخطيرة، ويترقّبها بكلّ حذر، وحياته فيها أجبرته على مخالطة هؤلاء البشر لاسيما المهريين والمجرمين، الذين يصفهم بالبشرية الغريبة المؤلّفة من صعاليك تعساء ومثيرين للشفقة² وهو ما كان يُشعره بالحزن والغثيان.

ويصف مدينة برشلونة بأدغال مهريّ السلاح، كل شيء فيها مباح، > وبأن الغش كان المبدأ الأساسي لدى شركائه، تعلّم الدهاء هو أيضا، والكذب والتكلم مثلهم (...). تعلّم تغيير الرأي واللون، حسب ظروف ومتطلبات اللحظة، ونظرا لأنه كان يعيش يوما بيوم، فقد أخذ يستنسخ بشكل أحرق

¹ رشيد بوجدره، انبهار، ص 153.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 154.

مشاعره وتخوفاته وغثياناته وتوعّكاته الليلية¹، فلم تلتصق في ذهنه عن برشلونة إلا صورة سلبية يعترّبها كلّ القبح والحزن، إذ كانت حسبه، مدينه مفرطة في انفتاحها وانغلاقها، يقول: >> أنا حزين، ألم تجرّدي فظيع، متعنّت، لكّي أبقى حذراً إزاء هذا الخليط من المشاعر اللزجة²، من شعب برشلونة وهواجسه وطباعه إزاء تلك المدينة التي لا تحيل إلا إلى كل ما هو بئيس وحقير.

ومن خلال ما سبق يتّضح جلياً أن صورة الإسباني لم تأخذ بعداً واحداً ولم تتقارب فيما بينها - في مختلف الروايات التي تمّ تحليلها في هذا المبحث- إلا من نقاط تكاد تكون مبهمه. إذ يُعتبر الإسباني في رواية "حارسه الظلال" ذا صورة تحمل بعداً تاريخياً لعمق العلاقة بين الجزائر وإسبانيا، فهو يشعر بالحنين إلى جدّه ميغال دي سرفانتس، يسعى إلى تتبّع آثاره في الجزائر وفي بلاد عديدة، علّه يتعرف على مصادر الهامه، أو بعض مخلفاته في إحداها لاسيما الجزائر. وقد بدت صورته متناقضة مع المخيلة الجزائرية من المورسكيين الذين عاشوا في الأندلس العريقة، سواء من حيث بنيته الجسدية الضعيفة والواهنة أو من حيث بساطته وطيبته. وفي الوقت نفسه تفتح أمام القارئ صورة الجدّة حنا الجزائرية الموريسكية التي لازالت متعلقة ظاهراً وباطناً بالأندلس أرض الآباء والأجداد، الأندلس الجنة المفقودة. وفي رواية "السماء الثامنة" تبرز صورة الإسباني ممثلة في الأستاذ أنطونيو وزوجته، حيث تتشكل الصورة من معاني الضعف والاستغلال تجاه العربي والإفريقي والسعي الحثيث لمشاهدة عريه والتمتع به. وممارسة الجنس معه(من طرف الرجل أو المرأة الإسبانيين) يمثّل الشهوة والنزوة الكامنة تجاه حضارة عريية عريقة، مثّلها الأستاذ أنطونيو فيما يعرف بالغلمايات باطلاعه على بعض المؤلفات العربية القديمة كطوق الحمامة.

وتختلف الصورة في رواية انبهار، لتتحوّل إسبانيا من خلال مدينة برشلونة إلى صورة مقزّزة، باعثة على الحزن والغثيان لما عاشه "لام" في هذه المدينة، وهو في مهمة سرية لشراء السلاح وارساله للمقاومة في الجزائر تهرباً أثناء الاستعمار الفرنسي للجزائر. وذلك ما جعله يساير هؤلاء المهريين، يكشف عن

¹ رشيد بوجدره، انبهار، ص 154.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 155

حياتهم وسيرتهم التي تعايش معهم بها، يتعلّم لغتهم ، للتمكن من اقتناء المطلوب بطريقة لا تثير الشكوك
حوله، ولا تكشف سرّيّة مهمّته.

المبحث الرابع: صورة الألماني في الرواية الجزائرية

ارتبطت صورة الألماني بالأجنبي الذي اضطهد اليهود في المحرقة التي راح ضحيتها الملايين، في وقت ألمانيا النازية، وهي واقعة تاريخية نقلتها العديد من الروايات الجزائرية، واختلف فيها الكتاب من حيث الشخصية الروائية المختارة للتعبير عن صورة الألماني، وإن كانت تتعلّق بالمرأة الألمانية في كلّ من روايتي "كريماتوريوم.. سوناتا لأشباح القدس" ل(واسيني الأعرج)، ورواية "السماة الثامنة" ل(أمين الزاوي).

1- صورة الألمانية المتعايشة مع العربي:

تركز رواية "كريماتوريوم" على صورة الألمانية "إيفا موهلر" الحبيبة القديمة لـ "بابا حسن" الفلسطيني والد "مّي"، كان محبًا ومتعاطفًا مع هذه الألمانية التي كانت تعمل ممرضة بمستشفى ألماني في فلسطين، ويُشاع عنها أنّها كانت نازية > ترفض استقبال اليهود في المستشفى الألماني في القدس أو تتركهم، ينتظرون حتى يصيبهم التعب، فيعودون من تلقاء أنفسهم إلى بيوتهم أو يموتون من كثرة الانتظار¹. ولذلك لأمّ العديد من الفلسطينيين "باب حسن" على حبّه لها، لاسيما أولئك المتعاطفين مع اليهود الذين كانوا يشكّلون جيران وأصدقاء لهم، يتقاسمون معهم رغيف العيش ولم يتعايشوا إلاّ بودّ وإحسان.

كان "بابا حسن" يعرف حقيقة "إيفا موهلر" التي لم تكن نازية أبداً، وقد عرف الجميع حقيقتها بعد وفاتها عن عمر ناهز الثمانين سنة مقتولة. كان لـ "بابا حسن" العديد من الرسائل التي بعثت بها إليه، بعد وفاته وقعت بين يدي "يوبيا" ابن "مّي"، وباطّلاعه على ما فيها، اكتشف أنّ اسمها الحقيقي هو هيلين سميدث، واكتشف اعترافاتها لجده عن حياتها وطبيعتها تصرّفاتها معه ومع اليهود، إذ ورد في إحدى الرسائل قولها: > من الغبي الذي قال أنّ عواطف الألمانيات باردة، وأنّهنّ مثل أحجار البازلت ثقيلة، وبلا صدى؟ أيّ وغد سطرّ بجهل قانون العواطف البشرية، ووزّعها، لا بحسب الأحاسيس الفردية الأعمق، ولكن بحسب شهوات الخرائط البشرية الباردة التي خطّها المعتوهون الذين لا يعرفون شيئاً عن

¹ واسيني الأعرج، كريماتوريوم.. سوناتا لأشباح القدس، ص 148

دواخل الإنسان وغاباته النفسية؟ معذرون في جهلهم، هؤلاء لم يعرفوا عاشقا مثل غوته وشيلر، ولم يتحسسوا مجنوننا عظيما كنيثشه، ولا اقتربوا من رهافة باخ¹. وكأنّ الكاتب يريد تصحيح صورة مغلوبة عن الألمانية في عواطفهن ومشاعرهن، وذلك بالتذكير بأنّ حفدة الرومانسيين العاشقين غوته وشيلر وغيرهم.

وعن كرهها لليهود تقول: >>كنت أكره اليهود الروس والرومان والبولونيين، ليس لأنيّ نازية، كما أشاعوا ذلك عنيّ، ولكن لأنيّ كنت أرى فيهم أبأس المخلوقات وأكثرها عطالة من الناحية الإنسانية، غطرتهم لا حدود لها، ربما كنت مخطئة، ولكنّي مازلت أعتقد أنّهم هم من دمّر النظام القائم بين المسلمين والمسيحيين واليهود، وزرعوا كماً من الأحقاد التي لن تمحى بسهولة²>>، فكرهها لليهود نابع لا من نازيتها، ولكن من شعورها بأنهم أسوأ المخلوقات وأكثرهم غطرسة، وأنهم السبب في سوء العلاقات القائمة بين أهل الأديان الثلاثة.

يكتشف "يوبيا" من خلال ذلك وبعد مقتلها أنّها لم تكن نازية، بل >>كانت أبسط من ذلك كلّ، امرأة هشة وعاشقة مجنونة، فتحت حولها كلّ أقواس الموت الممكنة، فهي التي كانت تداوي المرضى في المستشفى الألماني باتفاق مع اللجنة العربية العليا التي ظلّت تتعاطف معها حتى بعد انكسار 48 وهي التي ظلّت متعلقة ب"بابا حسن" الذي كان محكوما عليه بالإعدام بعد أن عُرف أنّه كان من بين الذين نفذوا عملية تفجير جريدة بلستين بوست في أول فبراير 1948³، اتّضحت الصورة الحقيقية للألمانية في قضية كرهها وحقدتها على اليهود، ساندت العرب الفلسطينيين، لاسيما "بابا حسن" الذي أحبّها حبّها وإخلاصها له. يقول يوبيا: >>لم تكن إيفا نازية بالشكل الذي تصوّرتّه [ميّ] قد تكون إمراة مقهورة وعاشقة لرجل لم يكن لها، ولكنه كان يحبّها وإلاّ لما عشقته بكل هذا القدر من

¹ واسيني الأعرج، كرماتوريوم.. سوناتا لأشباح القدس، ص 429.

² المصدر نفسه، ص 432.

³ المصدر نفسه، ص 448.

الرقعة والتضحية، لا بد أن يكون شوقها هو من قادها نحو ارتكاب الخطأ القاتل، المؤكّد أنهم اقتفوا خطاها من رسالتها¹. فبرزت مواقفها المساندة للعرب الفلسطينيين مسلمين ومسيحيين.

تتضح صورة المرأة الألمانية في رواية "كريماتوريوم" بكونها امرأة عاشقة مرهفة وحساسة محبة ومخلصة، مساندة للعرب ضدّ اليهود المتغترسين الحقودين منعدمي الإنسانية، وعلى الرغم من كونها ألمانية إلاّ أنها لم تكن نازية، وما كرهها لليهود إلاّ لطباعهم وخصالهم البذيئة والحقيرة.

2- صورة الألمانية العنصرية:

وتبرز صورة المرأة الألمانية أيضا في رواية "السماء الثامنة" ل(أمين الزاوي)، حيث يهاجر الشاب الجزائري إلى ألمانيا. وقد التقى فيها بجماعة من الأجانب، منهم الإسباني أنطونيو (الأستاذ الغامض) والألمانية التي كانت معجبة به، وهو معجب بها، إلى أن تحدّث عن عيد الأضحى عند المسلمين وكيفية ذبحهم لخروف العيد (الأضحية)، فرعت وقفزت منبهرة؛ كيف لشيوعي ماركسي أن يتحدث عن إراقة دم حيوان بتبجح، وهذا ما أكد لها دموية العرب والمسلمين مهما كان توجههم الإيديولوجي، تقول: >>كنت دائما ضدّ الأفكار التي ترى في العرب قوما فاشيين وقتلة وإرهابيين، لكنّي بعد أن تيقّنت من أنّه بإمكان مثقف ماركسي ذبح خروف، ويتمتع بالدم يسيل من الرقبة أحمر فواراً، فإني أعتقد أن العربي بطبعه دموي²>>، وكانت تلك لحظة انسحابها من السهرة تاركة الشاب الجزائري متورّطا في صداقة الإسباني المختنّ، والعلاقة المشبوهة التي أصبحت تجمعهما.

أحسن الجزائري آنذاك بإهانة الألمانية، راح يستحضر في ذهنه كل تاريخ ألمانيا الأسود، بحقد وضعينة لهذا الجرح العميق الذي سبّته له تلك الألمانية حفيذة >>الجرمانيين الكلاب العنصريين، أحفاد قتلة اليهود³>>، وظلّ طيلة تذكّره لها حاقدًا عليها، راغبا في الانتقام منها، مذكراً نفسه بماضيها الدموي >>في الحقيقة ما يشغلني الآن هو أن أنتقم هذه الليلة من الألمانية، إنها السبب المباشر في تورطني في هذه العلاقة مع الإسباني الغامض، سأعدّها الليلة، سأنتقم سأشرب من دمها، النازية بنت الكلب، جدّها

¹ واسيني الأعرج، كريماتوريوم.. سوناتا لأشباح القدس، ص 449

² أمين الزاوي، السماء الثامنة، ص 23.

³ المصدر نفسه، ص 26

أو أبوها أو أحد أقاربها هو الذي كان يشرف على الأفران التي ابتلعت مليون ونصف مليون من الأطفال اليهود، الليلة سأذكرها بتاريخها الدموي¹، فإذا كانت هي تُعيّره بكونه عربيا مسلما بإراقة دم خروف فهو يتذكر ماضيها وتاريخها الدموي في إراقة أجدادها لدم شعب كامل (مليون ونصف مليون من الأطفال اليهود)

يقول الشاب الجزائري عن الألمان: > يخافون من الدّم، وهم الذين قتلوا اليهود أشدّ القتل وأبادوهم جميعا في محرقات جامعية²، ويستذكر ذلك في موقف آخر، فيقول: > الألمان، الكلاب، ذبحوا العالم، شعرت الآن بتعاطف مع دعوة اليهود المطالبة بتعويضات باهظة، تُقدّمها ألمانيا لإسرائيل كضريبة على جرائم الألمان ضد اليهود في الحرب العالمية الثانية. تمنيت أن أذكرها مرة بهذه الحقائق المرعبة، إنَّها دون شك حفيذة واحد من الذين شربوا دم الإنسان³. ويقول عنها أيضا: > لا يُقنعني كلامها عن حماية الطبيعة، ولا حماية الحيوانات إنَّها تقول بأنَّها من حزب الإيكولوجيين⁴ الذين يسعون للحفاظ على الممتلكات الطبيعة والحيوانية.

وقد أحسّ هذا الجزائري بتعاطف مع اليهود لأنّ الألمان أحرقوهم ويحقدون عليهم وكان ذلك في الحرب العالمية الثانية، ولكنه اليوم يجد أنّ فتاة ألمانية تسخر وتشمئز من العرب، وتصفهم بالدمويين، وهذا ما يجعله يقدم لنفسه مبرّرا على التعاطف مع اليهود، لكون عدوّهم مشترك هو الألمان، إذ يقول: > عاودتني رغبة الانتقام، استيقظ في حبّ اليهود، فشعرت تجاههم بقرابة أبناء العمومة، لأول مرة يشعرونا الألمان أن اليهود والمسلمين عليهم أن يعاملوا على قدم المساواة، إنّنا منبوذون مثلهم تماما، حالنا ليس أحسن من حالهم لا فرق بين إسماعيل وإسحاق⁵، وإن كان هذا الموقف غريبا من الكاتب، يعبر عن وجهة نظره، التي قد لا تتعدّى الرؤية الروائية، وقد تكون متعمّدة تخفي وراء هدفا ما.

¹ أمين الزاوي، السماء الثامنة، ص 53.

² المصدر نفسه، ص 24.

³ المصدر نفسه، ص 49.

⁴ المصدر نفسه، ص 50.

⁵ المصدر نفسه، ص 64.

وكانت تراود مشاعر التسامح من حين لآخر هذا الشاب الجزائري، حتى يتمكن من الظفر بجسدها المغربي الفاتن¹، إذ يزيد طولها عن المتر والسبعين²، ولكن ليس من السهل ذلك لأنّ الإسباني يُحكّم قبضته وسيطرته عليه، ولا يمكنه التخلّص من مراقباته ومراوغاته. يهبيّ في نفسه خطّة وحواراً للظفر بها وطلب السّماح منها، وإن كان هو المظلوم يدقّ بابها، ويتودّد إليها، قائلاً: >> سأسامحها على تصرّفاتها القبيحة تجاهي، سأسكت، سأبكي وأنا العربي الرومانسي العاشق لأغاني عبد الحليم حافظ: إنني لست القاتل (...). سأقول لها، للألمانية كي أستميلها وأكل قلبها من لّبّه: لقد أحسن أجدادها التّصرف تجاه اليهود، وسأبيّن لها أن العقل الألماني هو أكبر عقل عرفه الإنسان، ألمانيا هي القوة وهي الحروب والفلسفة، وهي الموسيقى أيضاً³، فيذكّرها بإيجابيات عرقها، ويستحضر خصاله الحميدة، عند ذلك فقط يستطيع أن يظفر بها.

تظهر صورة الألمانية سلبية إذا ما استُذكرت محرقة اليهود، وإيجابية بإهانة اليهود للألمان الحق في كل ما قاموا به تجاههم، أو في الإشادة بالعقل الألماني أو الحروب والفلسفة، والموسيقى الألمانية، ويظل هو كذلك بين الحقد والانتقام والتسامح والمدح. وكان بيده مفاتيح كلّ صورة ومفاتيح كلّ علاقة من شأنها أن تبيّن طبيعتها وخصوصياتها بالسلب أو الإيجاب.

يقدم أمين الزاوي صورة إيجابية في الرواية عن جمال ألمانيا وتحضّر أهلها، إذ يقول >> المطر بدأ يسقط، يا الله كم هي جميلة مدنهم، بأمطارها، ومن تحتها النساء الجميلات وأضواء فتريناتهم، وضجيجهم الشعري الهادئ، وشيء ما غامض يمشي في الهواء لا أستطيع أن أسميه. المطر يسقط، وحين يسقط المطر يحدث شيء واحد، إذ في لحظة واحدة يا سبحان الله، فتح الجميع مظلاتهم، نصبوها فوق رؤوسهم، ثم واصلوا السّير دون أن يثير فيهم سقوط المطر أيّ تساؤل، دون أن يستنكروا الحدث، ولا حتى أن يكلّفوا أنفسهم عناء شكر الله الذي أنزلها وتعظيمه⁴ وهي صورة عن هؤلاء الألمان

¹ ينظر: أمين الزاوي، السماء الثامنة، ص 64.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 50.

³ المصدر نفسه، ص 62، 63.

⁴ المصدر نفسه، ص 61.

وشاعريتهم، وأناقة شوارعهم ومحلاتهم. وما يزيدهم جمالا وجاذبية سقوط المطر لاسيما والنساء الجميلات يمشين تحته.

تبرز صورة الألمانية في الرواية امرأة جميلة وراقية، طويلة فاتنة، نفورها من العرب بسبب دمويّتهم من ذبحهم لخروف العيد (عيد الأضحى)، وبذلك يتغيّر الموقف تجاههم وتصفهم بالقتلة والإرهاب، وهو ما يثير الحقد والضغينة في الشاب الجزائري الذي يظلّ في مواضع كثيرة من الرواية، يذكرها بحقيقة الدموية والإرهاب في تاريخ أجدادها وما فعلوه مع اليهود. وقد بلغ به الحقد إلى التصالح في نفسه مع اليهود، ضدّ هؤلاء القتلة. ولكنه كان ذا روح متسامحة، متحايلة، مخادعة، إذ أراد أن يبيّض الصورة التي سوّدها من قبل في عدة مواضع. وذلك بذكر كلّ ما يحبّ الألمان سماعه عن قوة فكره، وعقله، وفلسفته وحروبه وموسيقاه، وأنه لديه الحق في كلّ ما فعله تجاه الألمان، وبذلك تبرز صورة الألمانية عند أمين الزاوي مختلفة عما هي عليه عند واسيني الأعرج في الروايتين المذكورتين، من حيث عبّرت " كرىماتوريوم " عن الألمانية بكونها هادئة، عاشقة وما كُرهها لليهود إلاّ لطباعهم السيئة من جهة، وحبّها للعرب والفلسطينيين من جهة أخرى.

المبحث الخامس: صورة البريطاني في الرواية الجزائرية

وردت صورة البريطاني في الرواية الجزائرية بوضوح في رواية "أعشاب القلب ليست سوداء" ل(نعيمة معمري)، ورواية "حفنة السراب" ل(الصادق بخوش).

1- صورة مدينة لندن:

تبرز في رواية "أعشاب القلب ليست سوداء" ل(نعيمة معمري) صورة مدينة لندن وأجوائها وأحوال سكانها مرتبطة بالحالة النفسية للشخصية الساردة وشعورها تجاه ما يحيط بها في تلك المدينة التي قادتها الظروف القاسية في الجزائر فترة العشرينيات السوداء، حيث كان المهاجر الجزائري يشتغل في وطنه صحفياً، تعرّض للعديد من المناهضات والمراقبات السياسية التي شكلت خطراً محتوماً يترتب به وبجربة نشاطه الصحفي.

يقدم المهاجر الجزائري صورة لمدينة لندن بوصفه لها قائلاً: >لندن مدينة جميلة، أنيقة إلى حدّ السحر والهديان، كبيرة واسعة إلى درجة الشعور بالضيق والدوار، ممتعة، تُغني وتتعريّ إلى حدّ الرقص وإيّاها، تحت الأضواء داخل الملاهي، وتحت المطر، متعبّة جداً للغرباء مثلي، إلى حدّ الحزن إلى حدّ الوجع، قاسيةٌ بأوكار الجريمة، الشذوذ والانحراف إلى حدّ الخوف، ناضجة مثقفة، فاتنة ترتشف كلّ صباح وإيّاها قهوتك ممزوجة بأخبار الثقافة، الفكر الفن والأدب، إلى حدّ وخز الضمير ووجع الذاكرة¹ فهي مدينة تجمع بين الجمال والأناقة والسحر والاتساع والإمتاع، مدينة فيها من الثقافة والفن والأدب والفكر مما يجعل المرء واسع المعرفة، ولكنها في الوقت نفسه ليس من السهل الإقامة فيها لمهاجر غريب عنها، لا يعي أبجديات الحضارة فيها، ويكتفي بالاندهاش والتّمتع أو الغرق في أوكار الجريمة والانحراف.

وقد لا يجد المهاجر فيها عادة عملاً، أفضل من العمل في المطاعم، خاصة غسل الصحون، والمهاجر الجزائري في هذه الرواية يعمل بمطعم، لطالما جلس بالمقهى المجاور له، متأملاً لدقة هندسة المدينة في معمارها، في بناياتها وحدائقها، يتأمل الطرقات ذات الحجارة الصّلبة، المغروزة في الأرض، يسمع قعقة خيول لجيش عظيم وحضارات عريقة مرّت بها، يكتشف أن لندن مدينة عتيقة، ترقد على كنوز

¹ نعيمة معمري، أعشاب القلب ليست سوداء، فيسيرا للنشر، الجزائر، 2010، ص 129.

التاريخ والحضارات المتعاقبة عليها¹. ومما كان يستحضره في ذهنه عن إنجلترا؛ تاريخها العظيم ببطولاتها وعظماؤها، بصمود لندن وعدلها، كان ينفق كلّ وقته في حديقة Hide.Park ، يقول: >أقف هنا لساعات طويلة عند تلك المنصة المفتوحة لكلّ الأجناس، بمختلف ألوانهم، لغاتهم، دياناتهم، أفكارهم وهمومهم، منصة يقول كلّ واحد منا جرحه عمقه دون أن يتعرّض للأذى، ودون أن يستيقظ فجراً مفزوعاً على ضربات رجال الأمن وهي تكسرّ بابه، وتحمله إلى قيو رطب مظلم، وأتساءل: لماذا اخترع الانجليزيون هذه المنصة؟. هل حقاً إيماننا منهم بحرية التعبير؟ أم ليقينهم بأن التعبير هو أهم ما ينقص تركيبته البشرية الحضارية؟ أم لأن إنجلترا العظيمة تزداد عظمتها بتبني قضايا البلدان الضعيفة، بتبني هموم هذا الخليط من البشر ومن الألم². مدينة لندن تقارن فيها الكاتبة، بين حرية التعبير المتوفرة فيها، وبين حال الجزائر في العشرية السوداء من خوف وألم وضرب جزاء كلّ صاحب لسان طويل، يتجرّأ على التعبير بحرية وطلاقة دون مراعاة للحدود والخطوط الحمراء، فمدينة لندن -حسب الروائية - توفر جواً من الحرية المفتقدة في التعبير.

ومن صور لندن الواردة في الرواية أمّا: >مدن الاسمنت والحديد، مدن الصخب الضجيج، الانحراف، الجنون دوما دون رحمة³، كما أمّا مدينة البرد الشرس⁴، تبدو خاوية باردة تحت المطر، بناياتها الرخامية الصامتة، الناس فيها كأنهم تماثيل ثلجية متناثرة في الشوارع، منفصلة عن بعضها البعض في عدائية غير مقصودة، وهو ما يزيد الإحساس بالغرابة⁵ فيها رفقة أهلها.

ومن سمات البشر في لندن؛ الوجوه باردة والخطوات سريعة أو الركض في صمت وفتور، >كأنهم قطع ثلجية آدمية تركض في مختلف الاتجاهات لقضاء حاجاتها، لكن بلا مبالاة شديدة⁶، تشعر أنّ لا شيء يهمهم، >يهزهم، لاشيء يضمهم ولا شيء يدهشهم البتة، عدا مشاكل الطقس (...). أهم سؤال

¹ نعيمة معمري، أعشاب القلب ليست سوداء ، ص132

² المصدر نفسه ، ص 133

³ المصدر نفسه ، ص115.

⁴ المصدر نفسه، ص 116

⁵ ينظر: المصدر نفسه، ص 117.

⁶ المصدر نفسه، ص 116.

في لندن هو الطقس^{1<<} وهي صورة عن اهتمام البريطانيين بأموالهم الشخصية وأحوالهم الفردية وسعيهم لقضاء مصالحهم، إذ ليس لهم الوقت الكافي للالتفات إلى مصالح الآخرين، واهتماماتهم، لذلك يبدو أنهم مشتتون، متفرّدون.

صادف المهاجر الجزائري ذات مرّة في لندن طفلا صغيرا يقف عند زجاج أحد المحلات، فأراد أن يداعبه لأنه وجدته وحيدا، وأمه دخلت لقضاء حاجتها من المحل، وإذا بالطفل ينفجر صراخا منزعجا، لم يتوقع الشاب ردّة الفعل تلك، لاسيما وأنها عادة الجزائريين في مداعبة الأطفال الذين يرحّبون بذلك يفرحون ويخجلون، وإذ بهذا الطفل البريطاني يصرخ: >> Oh! Mum، وخرجت أمّه للتو مدعورة، رفعته بين ذراعيها بسرعة وخوف شديدين، ضمّته إلى صدرها لتحميه مئّي، وقذفتني بنظرات كان فيها احتقار وازدراء العالم، وصرخت في وجهي:

What's the matter with you ?

Are you crazy ?

يومها ازددت إيمانا وفهما للأشياء من حولي، وتأكدت بأنّ الغرباء ليسوا سوى نباتات مضرّة بصحة هؤلاء^{2<<}، إذ يبقى الغريب غريبا غير مرحّب به، يبقى كل طرف في خائنه ولا سبيل إلى التعايش والتآلف.

وقد وردت في الرواية صورة المرأة البريطانية "لورا" وإن كان توظيفها من باب الترميز والإشارة لنساء بريطانيا عامّة، وهي امرأة أحبّها الشاب الجزائري، وضّح صورتها قائلا: >> لورا التمثال الانجليزي الذي يخلو لي أن أعذّبه على طريقي، لورا رشيقة كرمح، جميلة كصور إعلانات، لورا المطيعة العذبة، الهادئة والعاجزة عن فهمي^{3<<} وقد كانت مستعدّة لطاعته حتى في منعه لها من ممارسة حياتها بالحرية التي كانت لديها سابقا، إذ طالبها بشقّي أشكال الطاعة، منع عنها الخمر والسهر والأصدقاء، تحت

¹ نعيمة معمري، أعشاب القلب ليست سوداء، ص 116.

² المصدر نفسه، ص 121.

³ المصدر نفسه، ص 148.

مبّررات الغيرة والتّملك. ولكنّها استمعت إليها واستسلمت لها¹ فهي وديعة صافية في عيونها الزرقاء² بأنوثتها الجاقّة الباردة³، إذ تعتبر المرأة في لندن عبارة عن تمثال⁴ لصلابتها وبرودتها.

" لورا" فتاة مطيعة مستسلمة للرجل العربي الجزائري ولكنّ أهلها لم يكونوا كذلك، كرههم للعرب كبير، يرؤن فيهم الهمجية والوحشية يستحقون القتل و التدجين، شعب لم يلتحق بركب الحضارة لولا بركة نابليون⁵، يقول والد "لورا" لما أرادت عائلتها التعرف على رفيقها الجزائري، وهو ينظره بازدراء: >إذن هذا هو الرجل العربي الذي تستمتعين بالتسكّع وإياه في شوارعنا، هذا هو الرجل العربي الذي تتأبطينه كل يوم وكل ليلة متحدّية والديك ومجتمعك⁶. تتجلّى صورة وموقف البريطانيين من العرب، إذ ليسوا إلاّ متخلّفين همجيين، ومصاحبة العربي تعني في قاموس المجتمع البريطاني تحدياً له ولمعاييره وهي تمثّل النظرة العنصرية الحقودة على العرب والمسلمين منذ القدم.

2- صورة المرأة البريطانية:

وفي رواية "حفنة السراب" ل(الصادق بخوش)، وصف للمجتمع الإيرلندي الذي وجدته "أحمد" الفار من باريس وعنصرية أهلها، أنّه أقلّ عنصرية ممّا ألفه في باريس⁷، حيث يبدو أهلها أكثر انصرافاً للاهتمام بشؤونهم.

وفي إيرلندا، تعرّف "أحمد" على امرأة تدعى "كاترين"؛ بسيطة الهندام حيّة متواضعة، على قدر من الجمال، كتابيّة، تزوّجها "أحمد"، غير أنّه لم يسترح لمعاملتها له، حيث كانت متسلّطة تأمره بأداء الواجبات المنزلية من غسل وطبخ وترتيب للفراش، ولم يتقبّل ذلك إلاّ لتوفيرها الاستقرار واليسر ورغد العيش، غير أنّ استقبالها للضيوف في بيتها، من أصدقاء وصديقات، وشرب للخمر والرقص والصخب

¹ ينظر: نعيمة معمري، أعشاب القلب ليست سوداء، ص 149.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 149.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 153.

⁴ ينظر: المصدر نفسه، ص 153.

⁵ ينظر: المصدر نفسه، ص 174.

⁶ المصدر نفسه، ص 174.

⁷ ينظر: الصادق بخوش، حفنة السراب، ص 68.

والعريضة، هو ما رفضه "أحمد" ولم يتقبله نهائياً، خاصة مصاحبته للشباب المدعو "بلا تير"، حيث جرّها من ذراعها وأبعدها عنه، تأثرت كاترين ومن معها بذلك الموقف أيما تأثر، وأذرفت دموعاً رقيقة تأسّف لها جميع الحاضرين، ورأوا في زوجها شخصاً لا يليق بمستواها ولا يستحقّها¹ فلم يكن من أحمد إلا أن يقرّر مغادرة البيت، ورأت هي في الانفصال حلاًّ لهما، رامية بالعقد الذي رآته ما بقي رابطاً بينهما وهزّت كتفيها في كبرياء، وقالت: >> لم يعد يربطنا إلا هذا فعقد الحبّ قطعته، وقيم الاحترام دُستها، وحرّيتي سطوت عليها، فغداً صباحاً ننهي إجراءات الطلاق، وداعاً يا هذا² ومع ذلك سمحت له أن يبيت على الأريكة في الصالون، وأن يغادر في الصباح، بيت "كاترين" في مدينة دوبلان.

وتبدو إثر ذلك "كاترين" امرأة بريطانية متسلّطة، باردة جافة لا قيمة للحبّ والاحترام والطاعة للزوج وما هو إلا خادم يرضى شؤون البيت، مهمته استقبال الضيوف والأصحاب وتوفير الجوّ الملائم للسهر والصخب، مع عدم إبداء التذمّر والاستياء وإلا كان الطلاق نصيبه، والطرّد مآله.

وبعد "كاترين" تعرّف "أحمد" على امرأة أيرلندية أخرى تُدعى "ديانا"، وكانت أرملة شقراء، فارعة القامة، هيفاء، قويّة الشخصية، غير أنّها حنون ذات رغبة جارفة في ولادة ابن ترعاه، لا تُقيم كبير الاعتبار لمن تتزوجه³، تتبّى أفكاراً يسارية >> معادية للمملكة البريطانية، حتى لكان المرء يخالها من المتعاطفين مع منظمة إيرا الأيرلندية، أُعجبت بأحمد لفتوته وهدوئه، ومظهره الذي ينم عن شخصية أدعى للاستقرار والمسؤولية⁴، تزوّجا إثر الإعجاب المتبادل، وقررت فيه "ديانا" البيت والأمن، أحسنّ فيها "أحمد" بالتّدم على الأيام التي قضاها مع "كاترين".

وقد تخلّلت حياتهما ومعاشرتهما لحظات من التوازن وأخرى من الاختلاف، اعتاد عليها "أحمد" بسبب طباعها وسلوكها، لاسيما حبّ السهر وشرب الخمر في غير إصراف، لكنّها لا تميل إلى غيره من

¹ ينظر: الصادق بخوش، حفنة السراب، ص ص 73، 74.

² المصدر نفسه، ص 76.

³ المصدر نفسه، ص 77، 78.

⁴ المصدر نفسه، ص 78.

الرجال، وهذا ما حدا به إلى أن يغفر لها ضلالها، ويعزّي نفسه إثر ذلك بأنّها مسيحية كتابية¹، يُبيح لها دينها تعاطي الخمر.

وُزّق الزوجان بعد سنة ابناً، كان مولده عرساً لهما، لطالما تحيّله والده فارساً فاتحاً في بلاد الغال، وانتظرته أمّه مواطناً إيرلندياً صالحاً مسيحياً الدّيانة، أشقرّ البشرة، غربيّ الهوى²، بخروجه إلى الحياة مثلّ الطفل بذرة التّزاوج بين حضارتين مختلفتين لغة وأرضاً، دينا وعرقاً، اختار الوالد اسم "محمد" تيمناً بالرسول الأكرم، واختارت الأم اسم "جيم" ، فقامت حرب الأسماء في عش الحب والمودة والرّحمة³ وأدّى اختلافهما إلى التوجه لمصالح البلدية لتسجيله، غير أن مصالح بلدية دوبلان كانت فاصلة في إعطاء الأم الحق في فرض إرادتها بتسمية الوليد بـ " جيم" وأنكرت سلطة الأب ورغبته أمام قانون الأمّ الإيرلندي، ممّا جعله يحسّ أنّ نطفته كانت خطيئةً ستلاحقه مدى الحياة، بل ذنباً وغضباً ربّانيا سيتعبّه إلى يوم الدين⁴ إذ دخل "أحمد" بمسيحية أملاً في إسلامها⁵، فإذا بها تنصّر له ابنه.

ولعلّ أكثر المواقف التي اصطدم بها "أحمد" وهو العربي المسلم، رفقة تلك الإيرلندية المسيحية، ما صادفته به يوم احتفاله بليلة القدر، بتحويل البيت إلى كنيسة مزيّناً بالشموع والهدايا والأنواع المختلفة من الألوان والأشكال ومذاقات الحلوى وشجيرات الصنوبر والخمور، ومهدّ ابنه مزيّن مكّلل بشجيرات العيد، يعلو رأسه صليب رمز لتحصينات يسوع الناصري، وغدر الكافرين به في سبيل تخلص الإنسانية من خطاياها التي غرقت فيها⁶، صدم كلّ ذلك "أحمد" وهاله المشهد في ليلة المسيح التي استقبلته فيها زوجته وهي في أحلى حلّة وزينة، فحوّل انتظارها إلى صراخ وغضب قائلاً: >> ما هذا الذي فعلتِ؟ ألم تعلمي أنّ هذه ليلة القدر، ليلة خير من ألف شهر، عندنا نحن المسلمين⁷، وقد بدا مضطرباً جافلاً

¹ ينظر: الصادق بخوش، حفنة السراب ، ص 78.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 78.

³ ينظر المصدر نفسه، 78.

⁴ ينظر: المصدر نفسه ، ص 78.

⁵ ينظر: المصدر نفسه، ص 79

⁶ ينظر: المصدر نفسه ، ص 85.

⁷ المصدر نفسه، ص 85

من مظاهر الزينة والجمال صائحا: > هذا حرام، هذا حرام، أنا مسلم ولستُ كافراً¹ ، غير أنّ زوجته كانت ترى في تلك الليلة كل الحبّ والتسامح، إذ أنّ روح المسيح تنهادى رحمة لتعمّر الأرض والسماء محبةً وصفاءً²، ورأت في رفض أحمد لذلك بدعوى أن ما يقوم به المسيحيون كذب وباطل وبهتان، من ابتداء القساوسة، لإغماض عيون الناس عن إدراك الحقيقة الجلية في دين الحق، دين الإسلام.

اعتبرت "ديانا" ما يقوله "أحمد" ويدعو إليه نشرًا للرعب والدّعر والإرهاب في العالم وقالت: > دينكم صنو للإرهاب، ثمّ تمت وأضفت: هؤلاء كما يبدو لي، خلّقوا ليكونوا نقمة على الحياة ومباهجها، فهم من يعدّب نفسه بالجوع اليومي، وينعّص حياتنا... ثمّ سارت لتشعل شمعة كانت قد انطفأت والتفتت إليه (...). وقالت: اعتبر هذه الليلة، هي لحظة اللقاء ولحظة الوداع في حياتنا³ فما كان من أحد بعد هذه الإهانة والاتّهام إلّا أن جال ببصره في البيت، وهمّ بجمع بعض متاعه > ارتمت ديانا في صالون البيت على أريكة وانهارت باكياً، لا تدري ما الذي أخذها على البكاء ولا على ذلك السلوك، وقد ألفت منه كثيراً من الرجولة والغيرة عليها، وأداء واجب الزوجية، وهو ما لم تتعوده من معاشرتها السابقة لرجال من قومها³.

تظهر "ديانا" امرأة إيرلندية، ملتزمة، ناضجة، مؤمنة، أمّاحنونا وزوجة مخلصة، مطيعة، لا تميل إلى غير زوجها، تقوم بالسّهر وشرب الخمر ولكن دون إسراف، ولكن التزاوج بينها وبين "أحمد" العربي المسلم، كان بداية الصراع فيه بميلاد الطّفّل، ولم يبق الصراع عن اسم الطّفّل، أو الدّين الذي يعتقده. وإنما أصبح صراعاً بين عالمين عالم الشرق وعالم الغرب، عالم الإسلام وعالم المسيح، وعندما بلغت الصراعات إلى السطح وقع التصادم ومن ثمّ الانفصال بحيث لم يحدث التعايش لعدم وجود التفاهم والتنازل عن القيم والمبادئ، إذ تُحلّ المشاكل بتخلّي أحدهما عن دينه، ولكن كل منهما كان مؤمناً حتى النخاع، ممارساً لطقوس دينه ومعتقداته مخلصاً لها، وهو ما جعل الانفصال بينهما مآلاً لسوء علاقتهما

¹ الصادق بخوش، حفنة السراب ، ص 86

² ينظر: المصدر نفسه، ص 86.

³ ينظر: المصدر نفسه ، ص 87.

المبنية أساسا على الاختلاف، وإن كانت الزوجة "ديانا" قد ندمت على هذا الفراق لما ألفتته من ذلك العربي المسلم من حسن أخلاق ورجولة وغيره ومحبة.

فصورة البريطاني في الرواية الجزائرية، وردت عند بعض الأدباء دالة على برودة المدن البريطانية وصلابة جدرانها، وجفاف عواطف أهلها المنصرفون لشؤونهم مع اللامبالاة بمن حولهم، منهم المنحرفون الذين يعيشون الحياة بعنفوانها وصخبها، ومنهم المؤمنون المخلصون لمسيحتيتهم التي يضحون فيها بالسعادة الزوجية مقابل التمسك بمبادئها.

المبحث السادس: صورة الأمريكي في الرواية الجزائرية

تتضح صورة الأمريكي على مستوى بعض الروايات الجزائرية، من خلال سمات وصفات يضيفها الكتاب على شخصياتهم الروائية؛ منهم من يختار التطرق لصورة الأمريكي الإنساني، لجوانب من شخصيته وطباعها وعاداتها، ومنهم من يختار عرضاً لصورة الأمريكي العدواني، بداية من الرئيس الأمريكي وحاشيته ونواياهم السيئة تجاه العرب والمسلمين. ومن الروايات الجزائرية المختارة لتحديد صورة الأمريكي الواردة فيها؛ رواية "الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء"، ل(الطاهر وطار)، " كريمة تور يوم سوناتا لأشباح القدس" ل(واسيني الأعرج) ورواية "حفنة السراب" ل(الصادق بخوش).

1- صورة المجتمع الأمريكي في الرواية الجزائرية:

وردت في رواية "كريمة تور يوم" ل(واسيني الأعرج) صورة أمريكا التي هاجرت إليها "مي" الفلسطينية رفقة والدها "بابا حسن" منذ سنة 1948م، وأكملت بقيّة حياتها بها، تزوّجت وأنجبت ابناً وشقت طريقها الفني فيها. ومع ذلك بقي إحساسها بالغربة كبيراً، يخالجهما في كثير من الأحيان، وتعزّي نفسها بالقول لابنها، أنّ أمريكا أرض للغرباء: >حظنا في أمريكا أنّ كل الناس على نفس الإيقاع، كلّهم غرباء، وأبناء هذه الأرض في الوقت نفسه، يحاول البعض أن يُخلّ بهذا التوازن الاستثنائي، ولكنهم لن يختصروا هذه البلاد في دين أو إثنية متفردة وصغيرة يجب أن تقاوم يا يوبا لكي يقاس هذا البلد بعقلائه لا بمجانينه، ومعتوهيه¹، فأمریکا بلد يسكنه الناس من مختلف الأعراق والديانات، ولكنهم يتعايشون ويتآلفون، إذ لكلّ طباعه وعاداته وطقوسه ودينه وكلّ يمارس ما يشاء بحريّة مطلقة.

وأثناء هجرة "مي" الفلسطينية وهي صغيرة إلى نيويورك أخبرها والدها، بأنّ >نيويورك... مدينة كبيرة، أكثر من كل فلسطين بكثير، ولا تضيق بنا أبداً، كلّ ناسها جايين من برّا وما فيه حدا يزود على الثاني، مدينة كبيرة طيبة، وناسها كرماء، استقبلت كثيرين قبلنا عبر تاريخها الحديث، حالاتك مثلا وغيرهنّ كثير، لسنا أوّل من يهاجر إلى نيويورك ولا آخر من يفعل ذلك². في إشارة منه إلى التاريخ

¹ واسيني الأعرج، كريمة تور يوم.. سوناتا لأشباح القدس، ص 41.

² المصدر نفسه، ص 179.

الحديث لاكتشاف أمريكا وأنّ كلّ الناس الذين يسكنون بها لهم أصول عرقية أخرى، ولهذا لا يمكن لأحد أن يدّعي أنها بلده وليست بلداً لغيره.

وتعدّ مدينة **سياتل** من مدن نيويورك، سكنها "ابا حسن" غير أن ابنته "مي" قرّرت البقاء عند خالاتها، لأنها تكره تلك المدينة التي أكلت ضواحيها المصانع الكثيرة والأدخنة¹، وكان والدها يقول عنها: >منذ أكثر من خمس سنوات وأنا أعيش في هذا المستشفى، تعوّدت على نظامه وناسه، الناس هنا طيّبون للغاية، رأيت الكثيرين منهم يموتون بسبب الحروق العميقة والسموم التي تبتّها مصانع طائرات البوينغ والميناء والصناعات البحرية، والنقص الفادح للأعضاء البشرية، والأمراض الفتاكة التي تأكل الإنسان جزءا جزءا بدون أن يتمكن الطب من فعل أيّ شيء، سمعت الأطباء وهم يتحدثون عن أمراض العصر التي ولدها زماننا بكل صغره وأنانيته، وتلك التي نشأت داخل هذه المدينة منذ أن كانت منارة شدّاذ الآفاق والباحثين عن الذهب والخشب، وحتى صناعة الطائرات الحربية والمدنية². تتضح صورة مدينة **سياتل** بكونها مدينة صناعية، فيها كل أنواع الصناعات وتنتشر بذلك كلّ أنواع السموم، ممّا يؤدي إلى الإصابة بجميع الأمراض الخطيرة التي يعجز الطب عن إيجاد الدواء لها، ويبقى إثر ذلك السكّان ضحية نتيجة ما يتعرّضون له يوميا من معاناة.

وما دامت أمريكا أرضا للغرباء، تلتقي فيها مختلف الأجناس، تتزوج وتتعايش، قد تواصل حياتها معا، وقد تفترق، ويشقّ كلّ منهما طريقا وسبيلا وفق رؤيته ومنظوره، فيها من التشتت العائلي الكثير ومن انعدام الحنان والمحبة بين أفراد العائلة الأكثر، يصف "فرانشيسكو" الأمريكي لصديقة "يوبا" كيف يعيش، وما هي علاقته بوالديه قائلا: >أنا لا أحفظ لأمي وأبي أيّ ودّ، عندما افترقا، هي عادت إلى الإكوادور وتزوّجت هناك بابن عمّها، حبّها الأول، سائق تاكسي معتوه، لم يستوعب مطلقا فكرة زواجها بغيره، عادت له بعدما خسرت مدة من الزمن، وأعتقد جازمًا أنّها كانت على علاقة سرّية معه كلّما سافرت نحو أرضها في العطل الصيفية، أمّا والدي، فقد ذهب إلى ولاية تكساس واستقرّ بها مع

¹ واسيني الأعرج، كرماتوريوم، ص 34.

² المصدر نفسه، ص 35.

عشيقته التي فاجأها أمي في فراشها معه¹. يعدّ حديث "فرانشيسكو" عن عائلته بمثابة الصورة الجليّة عن الأسر الأمريكية، فيها خيانات زوجية من كلا الطرفين، يقتربان بعقد زواج، وينجبا أطفالا ولكن كلّ منهما يعيش حياته مع من أراد من غير زوجه أو طرفه الثاني، وهي مشكلة كبيرة تؤدي إلى الاغتراب غالبا وتشرّد الأطفال مؤكّدا، يقول "فرانشيسكو": >"أمّا أنا فقد ربّيتي ذئبة روما، جدّتي الطيبة التي لم أجد أحدا غيرها عندما تخلّص مني كلاهما لكي يعيد حياته، عندما كبرت محوت هذه الذاكرة منهما نهائيا، ولم أحتفظ إلا بذبّتي، جدّتي التي ماتت قبل سنوات في بيتي عشت كذب صغير في غابة كبيرة اسمها نيويورك، وكان عليّ أن أجد مكاني فيها، وإلاّ أكلت كأبيّ خروف²، بُترت مشاعر المودة والمحبة للوالدين، وبقي الطفل تائها حائرا، في مجتمع أحسن بوصفه غابة كبيرة، يأكل فيها القوي الضعيف. وهو ما جعله يبحث بنفسه عن شقّ طريق جديد لحياته. وفق ما يتناسب مع رغباته يقول: >"اليوم أعيش حياتي كما أشتهيها بدون شطط الأبوة ولا الأمومة (...). ذهني حالٍ منهما (...). يبدو لي أحيانا كأبيّ ولدتُ بالفعل من ذئبة أو من أيّ حيوان آخر، أو حتى من شجرة، هذا معتقدي الراسخ ربما ليست لديّ حساسيتك المفرطة، سعادتني الكبرى تشرق كلّما انتهيت من عمل جميل (...). منشغلٌ بما هو أهم من الأبوة أو الأمومة (...). لا وقت لديّ، أعيش حرّاً، بلا زوجة وبلا أعصاب، بيني وبين صديقتي المكسيكية "نورما" الحبّ فقط، لا زواج ولا أولاد ولا أيّة كذبة من كذبات المجتمع الحديث، لكل واحد فينا الحقّ في تغيير رأيه، ومساره الحياتي، وحتى شهواته الكبيرة والصغيرة وفراشه، هكذا أحسن³. تبني في المجتمع الأمريكي علاقات جافة باردة أو منعدمة بين الآباء والأبناء، يعيش الشباب ضحايا الأبوبين حالة من الفوضى والتشرّد، لا سعادة لهم إلا في أعمال يرغبون فيها، ينتظرون نجاحتها يعيشون كالحوانات في الغابة، لا دين يضبط معتقداتهم وعباداتهم، ولا قانون أسري يجمع بين الأفراد في بيت واحد، يتمتّع الجميع بالحرية في الاختيار، وفي الاستمرار أو التغيير. يؤمنون بالحياة

¹ واسيني الأعرج، كرماتوريوم، ص 66.

² المصدر نفسه، ص 66

³ المصدر نفسه، ص 67.

الفوضوية العبثية، ويرونها أفضل من القوانين المنظمة التي يسميها "فرانثيسكو" كذبة، لاحت ولا عواطف، جمود وبرودة واستمتاع بنزوات ورغبات تختلف مدة مكوثها وهي مؤكد مآلها الزوال.

2- صورة الأمريكي العدواني في الرواية الجزائرية

تبرز صورة الأمريكي العدواني بدرجة كبيرة في رواية " الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء" ل(الطاهر وطّار)، حيث تطرح الصّراع القائم بين المنطقة العربية الإسلامية والعالم الغربي المتمثل في الإتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية، وإن كان عرض الكاتب لهذا الصراع من منظوره الخاص لظاهر الأحداث وباطنها، بتقديم قراءته عن أحداث خيالية، تبني على نوايا خفية، حيث يصاب "الولي الطاهر" بحمى (الصرع) أصبح من خلالها لا يفرّق بين ما هو حقيقي مرئي، وما هو خيالي.

تتعرّض المنطقة العربية (من المحيط إلى الخليج) إلى سواد وظلام دامس يُغشي السّماء، ويسودّ الأرض، وأصبحتْ إثر ذلك الصحف الوطنية والدولية والعالمية في فوضى واسعة، منقولة على التلفزيون بمختلف قنواته، وراح الكلّ يقدم تفسيره الخاص للظاهرة، حيث أعلن الأئمة بعدما توهم الناس بقيام الساعة، أنها ليست كذلك، لأن قيام الساعة يسبقها -شرطاً- بعض العلاقات الصغرى¹ والتي لا تزال بعيدة، واكتفوا بالدعوة إلى الإكثار من الصلاة والاستغفار والبقاء داخل المنازل ما أمكن²، في حين أنّ كبير السّحرة اليهود **ضراطوخ صرّح**: >> بأن عفاريت سيّدنا سليمان هم الذين انطلقوا من أعماق الأرض، ليعلنوا عن غضب الربّ من التّأخير في إعادة بناء الهيكل³<<، وتبعاً لذلك تحدث حالة طوارئ في كلّ من الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد الأوروبي.

تحركت الولايات المتحدة الأمريكية معلنة حالة الطوارئ، إذ قامت بتجهيز الطائرات والصواريخ، وذلك بإعلان وكالة أنبائها أن >> الحكومات العربية تناشد العالم الحر، وفي مقدمته الولايات المتحدة الأمريكية، بأن يسارع فيقدّم لها يد العون لإخراجها من محنتها، وهي الحكومات العربية، كلّ على حدّته، تعلن أن بلدها منكوب كما تعلن الحالة القصوى للطوارئ من فرض منع التّحرك وإطلاق الإشاعات

¹ ينظر: الطاهر وطّار، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، ص 31.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 31.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 32.

خاصة المتعلقة بالمسؤولين والقادة السياسيين^{1<<}، وهي صورة أمريكا التي تسعى إلى انتهاز أي فرصة مهما كانت صغيرة أو كبيرة للتدخل في المنطقة العربية.

ومن جملة الإجراءات التي اتخذتها الولايات المتحدة الأمريكية، أنّ حالة الطوارئ تشمل >>إغلاق الحدود الأمريكية، ضدّ كل عربيّ أو قادم من المنطقة العربية واعتبار المنطقة العربية والإسلامية منطقة موجودة يتوجّب عزلها نهائياً، إلى أن تتأكّد الوضعية الصحيّة في المنطقة وما جاورها، وأيضا فرض إقامة جبرية مشدّدة على كل من هو أصل عربيّ أو إسلامي، يعيش في أمريكا. وهناك إشارة غير واضحة إلى إمكانية إقامة مراكز تجميع وحشد لهم لإجراء التحقيقات والفحوصات الدّقيقة والنهائية^{2<<}، إذ هرعت لعزل العرب والمسلمين والمباشرة في التحقيقات الخاصة.

ومع ذلك كانت أمريكا تدرأ الاتّهامات التي توجّه إليها من طرف العرب، لاسيما ما تعلّق بتجريب سلاح استراتيجي جديد >>ترسله بواسطة أقمارها الفضائية، وأنّ جنودها يضعون على أعينهم نظارات تُمكنهم من الرؤية، وأنّ الهدف الأساسي لأمريكا وإسرائيل هو إعادة ما حدث للهنود الحمر بأمريكا، لكن بشكل جذري ومتحضّر^{3<<}، إلا أنّ المستشار الأمريكية التي تستخفّ بالعرب والمسلمين تعتبر تلك القراءة لما هو حاصل، وعن دور أمريكا فيها، بأنه >>تخريف عربي (...). لم تُعدّ تخفي استخفافها بالعرب وعدوانيتها ضدهم، كلما ذكّرتهم أو تعرّضت لشؤونهم^{4<<}، ويصفها الكاتب على لسان "الولي الطاهر" أنّها >>ظهرت للمرة الأولى كما تشاهدونها في هذا التسجيل دون زينة، وفي لباس رياضي داكن، فتبدو في سنّ غير تلك التي كانت تبدو بها، كما أن فمها تخلّص من مراقبتها له، فبدأ عريضا جداً، يظهر كامل أسنانها الناصعة البيضاء، كلما فتحت، ويجعل ذقنها تظهر وتختفي كلّما تحركت وأنفها الغريب يعجز عن الاستقرار في وجهها، بينما ازدادت عيناها ضيقاً وصغراً وحده، فتكشفان عمّا

¹ الطاهر وطار، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء ، ص 41

² المصدر نفسه ، ص 44.

³ المصدر نفسه ، ص 44.

⁴ المصدر نفسه، ص 44.

يكن في رأسها من عدوانية واحتقار¹. وبعد إعلان حالة الطوارئ والتأهب للانطلاق بمختلف الطائرات والصواريخ الجوية والأرضية والبحرية، والأقمار الفضائية، كلُّها منصبة على المنطقة العربية والإسلامية، > فأمرىكا على لسان رئيسها المؤمن "جورج بوش" الابن، وإن كانت تؤمن بعفاريث سيّدنا سليمان، وتثق الثقة المطلقة في العلامة الإسرائيليّ ضرططوخ، لا يقابلها في هذه اللّحظات إلاّ الإرهاب الإسلاميّ وشخص بلادن بالذات. ولقد جاء على لسان مستشارة الأمن القوميّ، أنّ أمريكا لم تكن مخطئة عندما غزت العراق، فهي تثق في المعلومات التي بين يديها، عن أسلحة الدّمار الشامل التي أعدّها صدام حسين²، الذي تسعى إلى تجريمه - هو وحليفه بلادن في الرواية - وإصاق التّهم به.

مما سبق تتضح صورة أمريكا عدوانية، تتحيّن الفرص للهجوم على العالم العربيّ والإسلامي وأول أعدائها الإرهاب الإسلاميّ متمثلاً في شخص بلادن، لتبرّر لنفسها وللعالم أنّ هجومها على العراق واحتلالها، لم يكن خطأ بل هو عين الصّواب وذلك يعود للأسلحة التي أعدّها رئيسها صدام حسين، ومن جهة أخرى تبرز أنّ جورج بوش يُلقّب بالمؤمن، وثقته مطلقة في اليهود من حوله، ولكن لما يتعلّق الأمر بالإرهاب الإسلاميّ، لا تحيد عنه ولا ترغب في غيره بديلاً.

ويقدّم الكاتب في نهاية الرواية جملة من الإجراءات التي تعتمز أمريكا العدوانية تنفيذها في حق العرب والمسلمين، ومن بينها > الاستيلاء على كل أموال العرب المودعة في الولايات المتحدة، وعلى جميع الممتلكات الثابتة والمنقولة (...). وطرد كل العرب المقيمين، ومنع القادمين من الشرق الأوسط من الدخول (...). استعادة كل الجيوش الأمريكية المتواجدة في المنطقة، بما فيها العراق، حالا وبدون تأخير والتخلي عن الامتيازات الأمريكية المترتبة، سواء عن حروب الخليج أو عن الحرب الباردة (...). قطع العلاقات مع إسرائيل ومنح كل اليهود في العالم الجنسية الأمريكية وجوازات سفر دبلوماسية (...). الاعتراف بانتصار الإرهاب العالمي وهزيمة الديمقراطية الغربية في شكلها الحالي (...). إعلام الجميع بأن بلادن مات بمرضه هذه ثلاث سنوات خلت، وأن القاعدة والزرقاوي مجرد خرافة تحركها الأهواء³ وقد

¹ الطاهر وطار، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، ص 84.

² المصدر نفسه، ص 44.

³ المصدر نفسه، ص 107، 108.

جاء ذلك كردّ فعل على المحلل السياسي العربي حنزيقة القائل: >> العلماء الأمريكيون ارتكبوا خطأ في تركيبة السلاح الجديد، وهم لهذا السبب يسحبون قوّاتهم، كما يسحبون أصدقاتهم اليهود¹<< وأدى بهم ذلك إلى طلب الإعانة من الإتحاد الأوروبي، حيث ترى المستشارة الأمريكية أن الأوروبيين ينسون أن أمريكا خرجت من ضلع أوروبا، كما خرجت حواء من ضلع آدم، نادراً ما يتفق الأجداد مع الأحفاد وبالتالي فهما شعبان يشكلان امتداداً لبعضهما، وبذلك لا تختلف مصالحهما في هذه القارة أو تلك ولكن الخطر الذي يواجههم معا هو >> خطر الآخر أينما كان خارج القارتين²<< والمتمثّل في العرب والمسلمين.

ويتطرّق الصادق بخوش في روايته "حفنة السراب" إلى تفجيرات أمريكا في 11 سبتمبر 2001، ويتناول موقف الرئيس الأمريكي وحاشيته تجاه الأحداث وأهم الأفكار والمواقف العدوانية المتخذة تجاه العرب والمسلمين، حيث >> شوهد الرئيس الأمريكي والكر بوش صبيحة الثالث عشر من تشرين الثاني/نوفمبر 2001، متّجها رفقة زوجته إلى كنيسة صغيرة بأحد أحياء نيويورك، استقبله القس الإنجيلي بترحاب يليق بمقام رئيس أعظم دولة في العالم المعاصر³<<، ويصوّرها الكاتب وهما يقومان بطقوس الصلاة في كنيسة ويبدوان كأنّهما في حضرة حاخام لا قسّ، حيث وقف هذا الأخير >> يقلّب صحائف صفراء للعهد القديم بينما وضع بوش وزوجه قلنسوتين، كما لو كانا في حضرة حاخام لا قسّ، وراحا يصلّيان أمام الهيكل⁴<<، وبعد تلاوة من الكتاب المقدّس، راح القسّ يدعو للرئيس وحرمة، بدوام العافية والقوة، وبنصر مؤرّر من الرّب على المسلمين والأشرار وبسط شوكة أمريكا عبر العالم كله، حتى يسود العدل والحبّ والسّلام وبقدرة قادر، غيّر القسّ عباءة الدّين، ولبس بذلة السّياسي المحرّض على الانتقام فقال: >> أيّها الرّعيم لقد اختارك الرّبّ لتملأ الدنيا عدلاً، وأرسل إليك روح القدس باليقين، لتقود حربك المقدّسة على أعداء النور من المسلمين الذين جاءوا إلى ديارنا وقتلوا أبناءنا، فبارك الرّبّ مسعاك، وحقّق

¹ الطاهر وطار، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، ص 109.

² المصدر نفسه، ص 85.

³ الصادق بخوش، حفنة السراب، ص 270.

⁴ المصدر نفسه، ص 270.

مبتغاك، ثم سقاه وزوجته ماء من إناء فضّي، وناولهما قطعة من خبز، وجُرعة من خمر أرادته مقدّسا وشكرهما على الإيمان والوفاء لتعاليم السّماء، وودّعهما إلى الباب الخارجي¹، وهنا تبدو عدّة ملامح تشكّل صورة الأمريكي العدواني ممثلة في الرئيس وزوجته والقسّ حيث ذهب الرّئيس وزوجته بعد عزمه على الانتقام من العرب والمسلمين إثر التفجيرات إلى الكنيسة ليطلب مباركة القسّ، ولكن الظّاهر أنّهما صليّا كما يصليّ اليهود وليس المسيح، ومن جهة أخرى فإنّ القسّ بعد أن لعب دور رجل الدين تحوّل إلى رجل السياسة الذي يبارك ويحرّض في الوقت نفسه على الانتقام من أولئك الذين أيقضوا نوم أمريكا.

وقد كان الرّئيس الأمريكي إثر تلك الصلاة شاردًا حانقا، لم يخاطب زوجته إلا بعد مداعبتها له، قائلا: >> لا شيء يعزّيني يا عزيزتي يعزّيني في محنتي ومحنة الشعب الأمريكي إلاّ أنت، والبوارج الحربية والطائرات النّفثاء، والمارينز الأشداء، قالت له: امض يا والكر، فشعبك الذي اختارك سيؤازرك في كلّ مساعيك، والرّب الذي باركك سيقا تل معك كلّ المارقين الإرهابيين²، وبذلك يبدو الرّئيس حزينا تجاه مُصاب أمريكا، محبّا لزوجته، مخلصا لشعبه، حاملا كل حقد العالم على العرب والمسلمين ولا سبيل إلى ذلك إلاّ قوة السلاح، وقوة منفذيه، إذ اختار أصعبهم من بوارج وطائرات ومارينز أشداد، كما تبدو زوجته إنسانة متفهمّة مخلصّة، ذكية ووفية، وهو ما جعله يُعجب بها وبرجاحة عقلها، وقبل خروجه أحضرت له الخادمة السوداء بذلته الرسميّة بلونها الدّاكن وقميصا أبيض وربطة عنق حمراء، دون أن تنسى وضع علم أمريكا وصليبا صغيرا يكاد لا يُرى على صدره من الجهة اليمنى³، وبعد تعطرّه وتقيله لزوجته خرج إلى الرّواق في مشية عسكريّة تخاله يستعدّ للنزال.

وقد كان فخورا متباهيا بنفسه كونه يمثل الشعب الأمريكي، قائلا أثناء توقيعه للقرار بالانتقام والهجوم والاحتلال: >> أنا شعب أمريكا العظيم، وأنا ظلّ الرّب في الأرض، فمن يجرؤ بعد اليوم على

¹ الصادق بخوش، حفنة السراب، ص 270.

² المصدر نفسه، ص 271.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 271.

التجاسر على أمريكا، في المشارق أو المغرب، حُسِفَت الأرض به¹، وفي اليوم الموالي بدأت أمريكا تجهز نفسها بمختلف قواتها الحربية براً وبحراً وجواً.

وقد كانت بطانة الرئيس تشجعه في كل ما يقوم به، ومن بينهم كاتب دولته للدفاع "رامسفيلد" والذي خاطبه الرئيس قائلاً: > من لم يمت بنازنا من المسلمين الإرهابيين يُقَبَر في المعتقلات غوانتانامو، وشقة إكس، والغابروفو، والمعتقلات الطائرة في بلدان حلفائنا، إنها أمّ العواصف، إنها الحرب التي تقاد بمبادرة الرب². أمّا نائبه قائد الأركان العامة للجيش "ديك تشيني" فيصوّره الكاتب كالمتمسّل دون إذن مسبق، يفرك أصابع يديه، > يُصقّق قلبه فرحاً، وسوست له نفسه بأرقام لا تخصيها كل أجهزة الكمبيوتر، رأى الصحراء العربية بركاً من الدم المسفوك، وآبار نפט وقناطير مقنطرة من الدولارات تضخ من منابع الشمس، رأى الصبح يخرج على الناس من غير شروق، والعالم بدون مسلمين ولا عرب، وقد حفظ عن ظهر قلب جملة، كما لو كانت فاتحة الإنجيل، وراح يُرثّلها على مسمع بوش الذي هدأ من روعة على تطمينات قائد الأركان العامة للجيش... قال بوش: ما الذي وراءك يا ديك؟

ردّ ديك جذلاً عزيزاً: سيّدي الرئيس لا أحسبك، إلّا قاتل المسيح الدّجال لتملاً بعد قتله الكون فضيلة وعدلاً، بعد أن امتلاً رذيلة وظلماً، لقد وقفت إلى جانبك المعمورة اليوم المشارق والمغرب تنتظر تعاليمك ليستقط الصنم الثاني بعد سقوط الصنم الأول للشيعوية (...). اقرأ سيدي الرئيس هذه الجملة الإنجيلية على لسان هنتغتون: إن تاريخ الإسلام خلال أربعة عشر قرناً يؤكّد أنّه خطر على أيّة حضارة واجهها، خصوصاً المسيحية³. فكانت بذلك التعبئة من طرف شخصيات أمريكية وعلماء بأنّ الإسلام هو العدو الوحيد الذي يجب إسقاطه بعد إسقاط الشيوعية، وهو الخطر الذي يترص بجميع الحضارات منذ أربعة عشر قرناً. إذ قال بوش: > علمتُ البارحة أن مائة أهمّ عالم أمريكي أصدرُوا بياناً يدينون فيه الإسلام، والتّطرف، وإني لفخور بهم، فخر جنود المارينز الذي انطلقوا اليوم ليدكّوا حصون المتطرفين الإسلاميين في أفغانستان، ولن يفلت منّي! ... كرّرها ثلاث مرات.

¹ الصادق بخوش، حفنة السراب، ص 272.

² المصدر نفسه، ص ص 272، 273.

³ المصدر نفسه، ص 273.

أشكل الأمر على ديك، فقال: ومن تقصد؟ سيادة الرئيس.

قال بوش: بن لادن أحد أقطاب محور الشر مع صدام حسين.

رفع ديك يده إلى أعلى وقال: نحن حواربوك إلى المال، عفوا نحن حواربوك إلى الحق¹.

فشكّل قرار إدانة المسلمين لدى بوش وحاشيته فخرا وزهوا وعزة في نفوسهم، وكأنّما انتظروا تلك اللحظة بفارغ الصبر لمحاربة الأمة الإسلامية والكيد لها، وإبادتها عن بكرة أبيها، وتحطيم أقطابها، والظفر بأموالها وثرواتها.

وكان فخر الرئيس الأمريكي كبير **بجنود المارينز** لشدة قوّتهم، ومعاملتهم الحاسمة المتمثلة في القسوة على السّجناء العرب والمسلمين. وقد وضّح الكاتب في رواية "حفنة السّراب" صورا لهؤلاء الجنود وأثناء سجنهم "أحمد" الذي عُدّ من أحد الإرهابيين المخطّطين للتفجيرات في أمريكا. ومن بين الجنود ضابط ذو بشرة[>] تخونه، إنّه إلى السّمرة أميل، توهم الجنيد أنّ بشرته قد تشفع له لديه، إن هو استعطفه تكلم الضابط بعربية تخالها عجمة مفلتة، وقال: لقد علمت أمريكا من أمرك وأمر شركائك في الجريمة كل شيء، ومنذ اليوم ستكون ضيفنا المبعجل (...). بحزم كأنه السيف، خاطب الضابط جمعا من العسكريين في الخلف وقال: خذوه فوراً للرحلة "إكس شبح" ونفذوا الإجراءات ثم جرّوه إلى الخلف. وكالذئاب المتهاككة على حملٍ وديع، انقضّوا عليه، كبلوا ساقيه ويديه، عصبوا عينيه وحملوه على المناكب إلى طائرة ضخمة رابضة بمطار مكفهر اللّون، كأنّ قومه من عفاريت جهنّم، ارتفعت أسواره وعسكرت منافذ الدخول إليه وعلت حيطانه أسلاك شائكة، وزرع محيطه بحقل من الألغام. ألقى الجند بالجنيد في مؤخرة الطائرة، شدّ أحدهم حزام أمنه، وثبته في الجانب الأيسر². وهي صورة لحزم وجدية الضباط والجنود في اعتقال المساجين ونقلهم إلى الطائرات، وقد كان من المنقادين في الطائرة[>] رهط من ذوي المسحة السّمراء، عرب جلّهم، مقيّدون معصّبون منقادون كالسوائم إلى النحر، معتقلون في السّحب

¹ الصادق بخوش، حفنة السراب، ص 274

² المصدر نفسه، ص 277.

رهائن بلا حرب، مجاهدون بلا قضية، وضحايا بلا سبب، إنهم عرب فقط¹ إذ كان هؤلاء العرب لا يعرفون التهمة الموجهة إليهم، ولا إلى أين هم متوجهون.

وقد كان طاقم الطائرة مؤلف من >>عساكر قلوبهم غلف، وعقولهم شُحنت بالبغضاء على المشحونين في ذلك التابوت الطائر، الذي ظلّ يمزق الفضاء المدلهم بالسحب والغيوم والغربة والتيه² وبذلك تتضح صورة الجنود من المارينز بالقوة والجدية والحسم في الاعتقال للعرب دون أيّ ذنب، ومن ميزاتهم البغضاء على كل هؤلاء.

وقد كان من بين الجنود امرأة تدعى "ريس فاندرا"، وقد فاقت رفاقها في معاملتهم السيئة للمساجين، كانت تلبس لباس المارينز، وتبدو >>ممتلئة الأرداف، دميمة الحلقة، ملونة البشرة، هازئة الوجه، مفلطحة الأنف، تمشي كأنها الوحل الوجل، رأت الجنيد في محنته، وعلى رأسه وقف عسكري بلا حراك، اقتربت منهما وسألت زميلها قائلة: ما عذر هذا الوحش الآدمي، حتى يشكو حاله؟.

ردّ العسكري: أراه على غير الطبيعة، أشارت عليه بأصبعها، وحزّكت مؤخرتها الداعرة، وأردفت قولاً بهزء من رأسها إلى أعلى، وقالت: لو كانت نوافذ الطائرة مفتوحة، لرميت به فيهوي إلى السحيق، فيبلى في الجوّ حتى لا يعرف له رسم. ثم مدّت يدها غلى شعر الجنيد، وجذبتة بعنف وفضاظة، اقتلعت بعضه وسكن بين أصابعها، دُعر المسكين واستفاق دون شكوى، ثم أدارت وجهها لزميلها وقالت: سيوقف الكوميديا فوراً، ستزى أفنعتة تسقط بعد كل تعنيف، ثم عادت أدراجها إلى مقصورة مقدّمة الطائرة، وهي تحدّث نفسها، سيكون هؤلاء الأوغاد من نصيبي في غوانتانامو، عذابي لهم متعة ألدّ من متعة الفراش ستشيب له الولدان... وقهقهت كالمصاب بحمى الجذام، وهي تهمّ بفتح باب المقصورة، أيجرؤون على تدنيس حرمة أمريكا، وهي شريك السماء على سلطة الأرض؟³. وقد كانت تلك العسكرية المارينزية تبعث على الغثيان من خلال خلقتها الدميمة وتصرفاتها العنيفة الفضة في حقّ المساجين العرب، تريد أن تتشفى بعذابهم، عنصرية ترى في أمريكا شريك السماء على سلطة الأرض، متكبرة متعجرفة.

¹ الصادق بخوش، حفنة السراب، ص 278.

² المصدر نفسه، ص ص 278، 279.

³ المصدر نفسه، ص 279.

ولم تكن العسكرية "ريس فاندري" الوحيدة في هذه الغرفة والفضاطة، إذ كان العساكر الآخرون يحملون هراوات ويمتشقون أسلحة خفيفة، يجهزون على المساجين ضرباً بالعصى، والبصق، والدَّوس بالأحذية الخشنة على وجوههم حتى يصير الدَّم المتدفق من أفواههم ورؤوسهم يُغشي الأمكنة القابعين فيها، ويزيد بذلك الرفس والسَّب واللعنات¹، وكانت تتلذذ بكل تلك المناظر وتزيد من حميتها، وتشارك في صناعتها، غير أنّ ضابطاً برتبة مقدّم نهرها واستنكر تصرفاتها الفظة، قائلاً: >ليست هذه أخلاقنا، يا هذا! كُفّي عن تعنيفه، إنّ القانون يجرّم ذلك، انكفأت المرأة على نفسها، وتوعّدت عُتبية بأيام عصبية وانصرفت، أمر الضابط عساكره بالكفّ عن تعنيف السجناء وقال لهم: انزعوا ألثمتكم... إنّنا على مشارف جزيرة الخنازير، وهبوط الطائرة بعد دقائق²، وكان بذلك يعطي صورة حسنة للضباط من حيث احترامه للقانون الذي يجرّم تعنيف السجناء.

وتعدّ جزيرة الخنازير هي جزيرة غوانتانامو التي نقل إليها السجناء العرب المتّهمون بتفجيرات أمريكا، وعند وصولهم >ألسوهم زياً داكنا خشن القماش، وضربوا على ظهورهم بمستطيل أحمر، علته أرقامهم في تعداد المفقودين، في هذا الجحيم الإنساني، قبل أن يغدو شحبا أو زيغا، أو وهما يتآكل في ظلمة قبو، أرضه من أحجار دهرية ناتئة كالإبر الصدئة وحيطانه تنر بالرطوبة وروائحه كأنها جيف معلّبة ونزلاؤه الجردان المطهمة والبعوض المكتنز والقمل السيّار وأمم من حشرات دهرية عمرت قبل ميلاد الرذيلة³. وهي صورة تعكس عزلة الجزيرة التي نُقل إليها السجناء وحقارتها وكآبتها، إذ تعدّ جحيما إنسانيا يُفقد فيه هؤلاء، ويفقدون كلّ معاني الحياة والإنسانية.

وبذلك تنوعت صورة الأمريكي في الرواية الجزائرية، منها ما نقلت صوراً عن جوانب من حياته الإنسانية والاجتماعية التي تتميز بالانحراف والشذوذ والفوضى والعبثية، وركزت روايات أخرى على الأمريكي العدواني الذي يتحين الفرص للهجوم على العالم العربي والإسلامي. ويلتخص الجدول نوعية الآخر الأجنبي وصورته، والرواية التي ورد على مستواها.

¹ الصادق بخوش، حفنة السراب، ص 280

² ينظر: المصدر نفسه، ص 280.

³ المصدر نفسه، ص ص 281، 282.

جدول ملخص لصورة الأجنبي في الرواية الجزائرية:

صورة الأجنبي في الرواية الجزائرية		
الرواية	الصورة	الفرنسي
"رجالي" ل: مليكة مقدم	<ul style="list-style-type: none"> - رمز للمنفى الخلاصي والتحرّر من الجحيم. - بحار مهووس بالسفر عبر مركبه الشراعي. - مديد القامة، كستنائي الشعر، وسيم الحيا بمظهر لا مبالي. - الشعور بالسعادة إلى جانبه رفيقا وزوجا لمدة سبعة عشر عاما. - اقتناعها أن باريس بلدها، - أشاع السلام والتوازن في نفسها، وبدد الاضطراب والعنفوان. - حب وشغف، وعشق وانبهار به. 	جان لوي باريس
	<ul style="list-style-type: none"> - مدينة الحرية المطلقة، ورمز للسعادة والتحرّر، والجزائر رمز للقيود والضوابط. - الانبهار بمشاهد العشاق المفتقرين إلى الحياء الذين يضيئون لها الدرب والطريق. 	باريس
ل الصادق بخوش "حفنة السراب"	<ul style="list-style-type: none"> - بلد الخير، والألوان المختلفة من الفواكه وأنواع البقول والخضروات واللحوم والأسماك - الملابس الأنيقة، والمتنزهات، والسهرات المسائية - الحياة الممتعة والرغدة - الهجرة إليها حبا وشوقا وعشقا وهوسا 	فرنسا
ل الحفناوي زاغر "ضباع في عرض البحر"	<ul style="list-style-type: none"> - محاربة الأفكار البدائية والمعتقدات الزائفة على خلاف المجتمع الجزائري المتخلف المؤمن بالأساطير والخرافات. - لهم علماء مبدعون مبتكرون، وللعرب المتصوفون والزهاد - التماهي مع الآخر، والاعتراف من ثقافته والتشبع بعلومه، وخلع لباس الأنا المتخلفة والمعتقدات الزائفة - الهوس بالفرنسيين الغربيين وإهانة الأنا دينا ومعتقدا 	الثقافة الغربية الفرنسية

الحلم والهوس

صورة الأجنبي في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	الفرنسي
"مكر الكلمات" ياسمينه خضرا	<ul style="list-style-type: none"> - تشبه امرأة ارسقراطية مستنة - قبيحة متكبرة، لا جاذبية فيها - عدم المبالاة بالجزائريين، والتظاهر بعدم رؤيتهم 	باريس
"حفنة السراب" للصادق بخوش	<ul style="list-style-type: none"> - فتاة شهراء هيفاء - قاسية على العمال في المطعم (عنت وحشونة) - عاهرة وسط الزبائن (تدلل وغنج) - بحس العامل الجزائري حقه وتهديده وإهاناته. - رمز لشيطان أشقر، عنصرية متكبرة، مستغلة 	روزا
"ضباع في عرض البحر" للحفاوي زاعر	<ul style="list-style-type: none"> - ترفض العربي، وهو يمتقتها ويزدريها. - لا توجد صورة جميلة في ذاكرته لها ولا لأهلها. - مجتمع عملته النصب، الاتجار غير المشروع، العمالة والتجسس، القتل، الخطف. - الشعور بالغبرة والحنين إلى الوطن (الجزائر) 	فرنسا
"ضباع في عرض البحر" للحفاوي زاعر	<ul style="list-style-type: none"> - متوسطة الجمال، قوية الشخصية. - ميطرة على البيت وشؤونه. - بيتها فخم وأنيق ومنظم. - زوجها المهاجر (ليس جزائري) خادم لها، يري شؤون البيت، وأكل الكلب، والقط (إذلال وإهانة). - ابنها يرفض أباه لضعفه ويتبنى فكر أمه ودينها. 	زوجة دادي

المتسلط والعنصري

صورة الأجنبي في الرواية الجزائرية			
الرواية	الصورة	الفرنسي	
"الحفر في تجاعيد الذاكرة" لعبد الملك مرتاض	<ul style="list-style-type: none"> - ريف فرنسي مخضر، فاتن ساحر - عيون ماء للشرب (ماء معدني)، مدفئات في الغرف تشتغل بالفحم الحجري. - نساء متأنقات متحضرات، ألبستهن لا تستر إلا القليل (تبانات قصيرة) - أعمال مخلة بالحياء بين الفتيات والفتيان علانية ما شكل الصدمة الحضارية رقم 1 لدى الكاتب - الصدمة الحضارية رقم 2 تمثلت في: طلب الممرضة من المريض التعري، والتّحديق فيه دون خجل أو وجل 	باريس	المتحضر والإنساني
"الإنكار" لرشيد بوجدررة	<ul style="list-style-type: none"> - عدد النساء فيها متزايد باستمرار - الشوارع نظيفة منظمة، المقاهي متألفة وهاجة. - هيئة الناس نقية، مثقفة، هادئة - صورة مشعة إيجابية 	فرنسا	
"حفنة السراب" للصادق بخوش	<ul style="list-style-type: none"> - توضيب السلع من خضر وفواكه في أناقة وانتظام - منظر المدينة خلّاب تحت الأضواء المسائية - الناس في ازدحام يحترمون الوقت ويبتعدون 	فرنسا	
"ندير كيما يدبر في البحر العوام" الصادق عيسات	<ul style="list-style-type: none"> - طيبة ودودة، تضع ثقتها في المهاجر الجزائري - كريمة عليه بالطعام واللباس - تترك مفاتيح البيت له، أثناء سفرها وعطلها. 	العجوز ريموند	المرأة الإنسانية والمتعايشة
"الحفر في تجاعيد الذاكرة" عبد المالك مرتاض	<ul style="list-style-type: none"> - طيبة، كريمة وكلها عطف و إنسانية. - الإسراع لإسعاف الجريح ونقله إلى الطبيب. - دفع تكاليف الطبيب - رُوفة، حنونة كأنها ملاك، نظيفة أنيقة 	السيدة الفرنسية	

<p>لمحمد ديب " الله في بلاد البربر "</p>	<ul style="list-style-type: none"> - فرنسية زوجة الجزائري في الجزائر - وجه هزيل جميل جداً، مشرق، مبتسم، عينان زرقاوان لامعتان، شعر قصير كستنائي بمخصلات حريرية شقراء، امرأة متديّنة، مخصصة لزوجها، رؤوفة عطوفة بالجزائريين خاصة المسنّين والمعتهين. - مرهفة الحس، شديدة التأثر. - متعايشة مع مجتمع ودين غريبين عنها بكل فرح وسعادة. 	<p>مارث Marthe</p>	
<p>لمحمد ديب هايل</p>	<ul style="list-style-type: none"> - فتاة صغيرة نحيلة، بيضاء جميلة، لبقة ساحرة بأنوثتها وعينيها. - رقيقة حنونة لطيفة، ضعيفة منكسرة من أزمات كثيرة تصاب بالجنون لضعفها ورقة شخصيتها - تمّاتها في مستشفى المجانين. 	<p>ليبي</p>	
<p>ابن الشعب العتيق لأنور بن مالك</p>	<ul style="list-style-type: none"> - فتاة بريئة ووحيدة، تعيش في باريس رفقة ذكريات عائلتها المتوفاة. - أخت أحد المتمردين على النظام الإمبراطوري في باريس ضد التمرد، تسعى للعيش بسلام. - تشريدها ونفيها إلى كاليدونيا الجديدة بجرم لم تقترفه. - تحوّلها إلى فتاة شجاعة، شرسة تتشبث بالحياة بأي مقابل حتى ولو كان الشرف. - حنونة بمشاعر أمومة، وزوجة مخلصّة ذكية، بعد استقرارها في أستراليا وزواجها من الجزائري المنفي "قادر" 	<p>ليسلي</p>	<p>المرأة الإنسانية والمتعايشة</p>

<p>الإيثار la Répudiation</p> <p>لرشيد بوجردة</p>	<ul style="list-style-type: none"> - فتاة جميلة، أنيقة جذابة - معلمة فرنسية جاءت إلى قسنطينة، لم تتأقلم مع الأطفال الذين جاءت لتعلمهم (عنصرية) - البحث عن رجل عربي لإشباع نزواتها الجنسية - زيارة رشيد في المستشفى لسماع الحكاية الأخطبوطية - القدرة على تحويل رشيد إلى إنسان عاطفي منشرح الصدر، ترأف وتشفق على حاله - لا يجسدها في غرفته إلا شوقها لجسده - ترغب في محي ذاكرته ليخلص لها وحدها صافيا. دون تنكيد أو زعق، بحكاية لا تفهمها - سيطرة رشيد عليها بإغرائها واستبدالها بأخرى أو بالانتحار إن لم تستمع للحكاية. - مستسلمة ضعيفة لرغباتها، إلا في آخر الرواية تقرر الرّحيل والعودة إلى أرضها. 	<p>سـ</p>	<p>المرأة الإنسانية والمتعاشية</p>
<p>"هايل" لمحمد ديب</p>	<ul style="list-style-type: none"> - تفتح على كل معاني الجمال الخالد الذي يجمع بين الجمال المشرقي والمغربي بجسدها وشعرها الساحر. - عينان عميقتان - قوية، صارمة، مدركة للواقع من حولها - ثرثرة تبحث عن إجابات لكل الأسئلة - ضعيفة عنيدة، حادة المزاج - لا تتحكم في شهواتها ونزواتها التي لا تشبع من إروائها - ترمي بكل القيم والأخلاق رفقة الشاب العربي. 	<p>صاين</p>	<p>المرأة المتعطشة للرجل العربي</p>

<p style="text-align: center;">"ذاكرة الجسد" "عابر سرير" أحلام مستغانمي</p>	<ul style="list-style-type: none"> - سيّدّة فرنسية أربعينية حيوية نشيطة - جميلة القوام بشعر احمر متموج على كتفيها - مثقفة في حدود عالم الفن - متفتحة على الآخرين عرباً أو أجنب - عطش جنسي لا يظماً وشهوات لا حدود لها - إنسانية عطوفة على الكل، باللباس والطعام والسكن وحتى العطش الجنسي. - يعتبرها المهاجر الجزائري وسيلة لإيصاله إلى خالد (هدفه الرسام في رواية ذاكرة الجسد) - ويعتبرها خالد وسيلة لإرواء جوع عاطفي بعد الملل والضجر - لا حب في علاقتها بالجزائريين (إشباع لرغبات جنسية فقط) 	<p style="text-align: center;">فرانسواز = كاترين</p>	
---	--	--	--

صورة الأجنبي في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	الإيطالي	
" كيف ترضع من الذئبة دون ان تعضك " لعمارة لخصوص	<ul style="list-style-type: none"> - يلقب بالغلادياتور - شاب إيطالي وجد مقتولا في المصعد - عنصري لا يحب الأجنب ويصفهم بالحقيرين - مولع بالمبارزات القاتلة في عهد الرومان - يشرف على مباراة سرية بين الكلاب - متهم بالسرقة والقتل. ولعب القمار والعنف 	لورانزو مانفريدي	العنصري والحقود
	<ul style="list-style-type: none"> - أستاذ في جامعة روما، وهو من ميلانو - أحد سكان العمارة - يكره سكان روما (الجنوب) ويتهمهم بالكسل والثثرة، والنميمة والشعوذة والتخلف - يعتبر أهل الشمال (ميلانو) أكثر تحضرا، واحتراما للوقت، ورمزا للنور والتقدم - يرى أن إيطاليا ليست متوحدة إلا عند لعب مباريات كأس العالم - يرفض دعاة حماية البيئة ويسميهم البرابرة الجدد 		
" كيف ترضع من الذئبة دون ان تعضك " لعمارة لخصوص	<ul style="list-style-type: none"> - أرملة، من سكان العمارة - تحب الكلب فالنتينو وتعامله كزوج أو ابن - تعشق الأفلام البوليسية - ترغب في تحويل كلبها الى ممثل سينمائي مشهور - من لا يحب الكلاب عنصري ومتطرف - تخوض معركة حضارية من أجل الكلاب وتسعى إلى تعويض جميع البشر بالكلاب في قضاء الأمور والحاجات اليومية. تفضل الكلاب على المهاجرين - ترى في سويسرا أفضل بلد في رعاية الكلاب - تقتل الغلادياتور لسرقته لكلبها 	إيزابينا فاياني	

صورة الأجنبي في الرواية الجزائرية		
الرواية	الصورة	الإيطالي
<p>لعمارة لخصوص " كيف ترضع من الذئبة دون ان تعضك "</p>	<ul style="list-style-type: none"> - بؤابة العمارة في ساحة فيتوريو (عجوز) - متّهمة بالنميمة والتجسس - تكره الأجانب المهاجرين، وتتهمهم بكلّ الشرور التي تقع فيها إيطاليا وشعبها - تصفهم بالمنحرفين والملاعين، وعديمو التربية - تحقد عليهم وتغار منهم - تخاف من الهجرة المتزايدة أن تطرد السكان الأصليين - متشكية منتقدة للجميع، وترى أن إيطاليا وأهلها مجبولون على الخيانة، والمافيا 	<p>بنديتا إسبوزيتو</p>
<p>لعمارة لخصوص " القاهرة الصغيرة "</p>	<ul style="list-style-type: none"> - رجل مسن تجاوز الثمانين، مسّه الصّمم وبوادر الخرف - يجلس في الحديقة على مقعد رفقة صحيفته اليمينية. - يرفض انتماء رومانيا إلى الاتحاد الأوروبي - الرغبة في إغلاق المساجد وزج المصلين المسلمين في السجون، لا اندماج للمسلمين في المجتمع الإيطالي إلا باعتناق المسيحية، الخوف والفوبيا من المسلمين - اللعنة على الشوعيين، عنصري حقود تجاه سكان الجنوب - ينادي المسلمة صوفيا بالراهبة لطريقة لبس حجابها 	<p>الجد جوفاني</p>

العنصري والحقود

<p>القاهرة الصغيرة" لعمارة لخص</p>	<ul style="list-style-type: none"> - رجل في الخمسين من عمره - معاملة سيئة، إهانة ودفع ل"صوفيا" المسلمة العربية. - يصفها بالمومياء، ويأمرها بالعودة إلى وطنها، ببرقعها) حجابها) - يرى في قدوم المهاجرين المسلمين إلى إيطاليا لاختلاق المشاكل وتدمير التفجيرات - الحجاب رمز للرعب والخوف والضعف والضييق - الحجاب = مسلم = جهاد = كاميكاز = 11 سبتمبر = الارهاب = تفجيرات = العراق = أفغانستان = 11 مارس = القاعدة 	<p>رجل إيطالي</p>	<p>العنصري والحقود</p>
<p>كيف ترضع من الذئبة دون ان تعضك " لعمارة لخص</p>	<ul style="list-style-type: none"> - صاحب بار دنديني - ليس له أي عقدة تجاه المسلمين المهاجرين - يحترم المسلمين لبعض الخصال المتوافقة مع فحول) وما: حبّ الإنانث واحتقار الشواذ - يعامل المهاجرين بمحبة وتسامح - يكره أهل الشمال لادّعائهم الحضارة والتقدم ولا يعامل أبناء الجنوب إلا على أنهم متخلفون يتحكمون في ثروات البلاد ويحتكرونها - امرأة متسامحة، زوجة أميدو المهاجر الجزائري - تحبّ السفر إلى الصحراء، وتحبّ الطوارق الجزائرية - مدرّسة متطوعة للغة الايطالية إلى المهاجرين الأجانب - سيّدة مضحية، محبة، صادقة، ومخلصة لزوجها - ترفض العلاقات الزوجية القائمة على الاستجابات والتحقيقات - يحبّها أميدو ويجد فيها الصدر الحنون والعاطفة الصادقة 	<p>ساندرو ستيفانيا مسّارو</p>	<p>المتسامح</p>

<p>الصلاة الأخيرة لحميد قرين</p>	<ul style="list-style-type: none"> - تشبه لوحة ليوناردو دافينتشى بشعرها وخطرتها الهائلة والباسمة وبيضاوية وجهه، بشرتها مخملية، شكلها ساحر - تصاحب رجلا جزائريا تعتد أنه (اسباني(خوليو) - تهرب وتفرّ من حقيقة كونه جزائري 	<p>بنا</p>	
<p>لعمارة لخصوص "القاهرة الصغيرة" "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك "</p>	<ul style="list-style-type: none"> - يحبّ الإيطاليون كثير أكل البتزا والمعجنات - رجال الشرطة معاملتهم سيئة للمهاجرين - إبلاغ الشرطة عن أي ضيف يحلّ على بيت في ظرف يومين على الأكثر - كثرة الشيوخوخة وقلة الأطفال - صعوبة الأمومة للعاملات لقلة الحضانات - صعوبة الطلاق، على الأقل ثلاث سنوات للانفصال - المعاشرة دون زواج - الخوف من الإسلام والمسلمين وترقّب أيّ عمليات تفجيرية يمكن وقوعها بسبب المخابرات واندساسها في جميع التشكيلات والتجمعات العربية والإسلامية 	<p>إيطاليا</p>	

صورة الأجنبي في الرواية الجزائرية			
الرواية	الصورة	الإسباني	
"حارسة الظلال.. دون كيشوت في الجزائر" لـ واسيني الأعرج	<ul style="list-style-type: none"> - فايسكس دي سرفانتيس دالميريا، حفيد= ميغال دي سرفاتس - زيارة الجزائر عبر سفينة السكر القادمة من إسبانيا - يحمل كورديللو (كناش) كما كان جدّه. - يسعى لزيارة المواقع التي زارها جده والتعرف عن قرب على مراكز إلهامه، والتماس كل المشاعر والهواجس (البحث عن هوية جدّه الضائعة) - عظامه بارزة من تحت معطف أبيض، قامة طويلة تحاذي المترين، نحيف، يحمل حقيبة ظهرية، آلة التصوير، يرتدي مظل السامبرير - عيناه صغيرتان تشبهان عيناديك، يشبه دون كيشوت دي لامنشا بطل رواية جدّه. - مستعد للتصرف بودّ وبساطة، طيب القلب - يريد شراء كل المفرغة بأكملها، لما فيها من كنوز ضائعة - وجود الآثار التي يبحث عنها قد تحوّلت إلى مزيلة - اتهامه بالجوسسة وتهريب القطع الأثرية في فترة العشرية السوداء(الأوضاع الأمنية الصعبة) - مصيره مثل مصير جدّه المتّهم بالسرقة والتنصير، حبسه مدة ثم إطلاق سراحه. 	دون كيشوت	
	<ul style="list-style-type: none"> - في مخيِّلة حنّا المورسكية (سينورا) - بنية قوية تحاذي المترين، ومائة كيلو من العضلات - وجه مشع وعينان مليئتان بالنور والحب مقرونتان بحاجبين مثل الهلال. قبضة قوية وخفيفة. - صغيرة تنسدل من أرسه طويلة، شامة تتوسط الخد الأيسر 	الرجل الأندلسي	

صورة الأجنبي في الرواية الجزائرية			
الرواية	الصورة	الإسباني	
"السماء الثامنة" لأمين الزاوي	<ul style="list-style-type: none"> - أستاذ كرسي في جامعة قرطبة (علم الجمال والفلسفة العربية الإسلامية الوسيطة) - مهتم بحضارة الغلمانيات المزدهرة في العصر العباسي. - مخنث، غامض، مستغلّ للمهاجر الجزائري جنسيا. - شغف بالعربي وجسده وإغرائه، هو وزوجته. - يصف زوجته بأوصاف مراهقة في عشقها للتعري ومصّ أصابع الثلج وعشقها للسنغالين. - ينتمي وزوجته إلى نادي العراة الطبيعيين 	أنطونيو	
"العاشقان المنفصلان" لأنور بن مالك	<ul style="list-style-type: none"> - صديق الجزائري نصر الدين ويلقبه " بالمرور" - يلقب الجزائري مانويل بـ "العجري" - يلبس بدله صينية زرقاء، وحذاء قماشي (السبادري) - مساعدة الجزائري بملابس نظيفة وزوج حذاء- بعد هروبه من السجن) 	مانويل	
"Fascination" لرشيد بوجدرية	<ul style="list-style-type: none"> - مدينة تنحدر من مرتفعات موخويش إلى غاية الميناء. - نوع من المتاهة المحصورة تتلوى وتدور في الفراغ - دكاين صغيرة، مطاعم شعبية، زعران ومومسات - مدينة المنحرفين والشذاذ ومهربي السلاح، صعاليك تعساء مثيرون للشفقة - المبدأ الأساسي فيها الغش، الدهاء، الكذب تغيير الرأي واللون حسب ظروف متطلبات اللحظة - الشعور بالألم والغثيان فيها 	إسبانيا (برشلونة)	

صورة الأجنبي في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	الألماني	
<p>وإسبني الأعرج " كريمة توريروم .. سوناتا الأشباح القدس "</p>	<ul style="list-style-type: none"> - ممرضة ألمانية في مستشفى ألماني بفلسطين - نكره اليهود وترفض استقبالهم - حبيبة الفلسطيني (بابا حسن) - عواطف ومشاعر مرهفة وحساسة، عاشقة. - تكره اليهود لأنهم أبأس المخلوقات وأكثرها عطالة من الناحية الإنسانية - اليهود هم الذين دمروا العلاقات بين أهل الديانات الثلاث المتعايشة (المسلمين المسيحيين اليهود) - لم تكن نازية وإنما متعاطفة مع العرب تداوي المرضى باتفاق مع اللجنة العربية العليا 	<p>أيضا موهلر</p>	<p>المتعايشة</p>
<p>لأمين الزاوي " السماء الثامنة "</p>	<ul style="list-style-type: none"> - تنفر من المثقف الماركسي العربي في ذبحه لخروف (عيد الأضحى) - العرب دمويون بطبعهم مهما كان توجههم - حقد الشباب الجزائري عليها والرغبة في الانتقام منها - ألمانية حفيدة الجرمانيين الكلاب قتلة اليهود - تاريخها دموي (مع اليهود) - يخافون من الدم وهو الذين قتلوا اليهود - من دعاة حماية البيئة وحماية الحيوانات (الإيكولوجيين) - يكره الألمان اليهود، ويكرهون العرب، شعور بتعاطف الجزائري مع اليهود = عدوهم واحد - مسامحة الألمانية بالمدح.: - الألمان أحسنوا التصرف تجاه اليهود، العقل الألماني أكبر عقل عرفه الإنسان،، ألمانيا: القوة = الحروب = ال..... = الموسيقى = الفن 	<p>المرأة الألمانية</p>	<p>العنصرية</p>

صورة الأجنبي في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	البريطاني	
<p>أعشاب القلب ليست سوداء"</p> <p>لـ نعيمة معمري</p>	<ul style="list-style-type: none"> - مدينة جميلة، أنيقة، واسعة، إلى حدّ السّحر والهديان - مدينة قاسية بأوكار الجريمة، الشذوذ والانحراف - ناضجة، مثقفة، فاتنة - طرقاتها ذات حجارة صلبة مغروزة في الأرض - حضارات عريقة مرت بها (مدينة عتيقة) ترقد على كنوز التاريخ والحضارات المتعاقبة عليها - مدينة صامدة عادلة - حرية التعبير (منصة Hide park - مدينة البرد الشرس - الناس فيها بخطوات سريعة كالقطع الثلجية - الاهتمام بقضاء الحاجات الشخصية واللامبالاة بالآخرين - لا يهتم الناس شيء إلا أحوال الطقس - الغرباء ليسوا إلا أناسا مضرين بالسكان الأصليين 	<p>لندن</p>	
	<ul style="list-style-type: none"> - وديعة صافية، بعيون زرقاء - فتاة رشيقة كرمح، جميلة، مطيعة، عذبة، هادئة - مستمتعة رفقة المهاجر الجزائري، ولا يهتمها شيء سوى مصاحبتة - تقبلت منعه للخمر، والسهر والأصدقاء تحت مبررات الغيرة والتملك - أنوثتها باردة حافة - المرأة في لندن = تمثال صلب وبارد - رفض أهلها لعلاقتها بالجزائري (العربي) الهمجي والوحشي - في مصاحبتها له تحدّ خارق للأسرة والمجتمع 		<p>لورا</p>

صورة الأجنبي في الرواية الجزائرية			
الرواية	الصورة	البريطاني	
للصادق بخوش "حفنة السراب"	<ul style="list-style-type: none"> - امرأة من مدينة دوبلان في إيرلندا - بسيطة الهندام، على حياء وتواضع وقدر من الجمال - مسيحية - متسلطة، تجعل من زوجها (الشاب الجزائري) خادما لرعاية شؤون البيت، وأداء الواجبات المنزلية - إسراف في شرب الخمر، والستهر، ومصاحبة الأصدقاء - طلبها للطلاق برفض زوجها لمصاحبة غيره 	كاترين	
	<ul style="list-style-type: none"> - امرأة من مدينة دوبلان في ايرلندا - شقراء ، فارغة القامة، هيفاء، قوية الشخصية - لديها رغبة في إنجاب طفل ، زواجها من الشاب الجزائري أحمد - يسارية معادية للملكة البريطانية - صراع حول تسمية الولد " بجيم " أو " محمد " - انتصارها في تسمية الولد (قانون البلدية يحكم بحقها في فرض رغبتها) وتنصيرها لابنها - صراع وطلاق بسبب صراع الدين والحضارة - التأسف لفراق العربي ، الرجل، الفحل ، الغيور الشهم 		ديانا

صورة الأجنبي في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	الأمريكي	
<p>لواسيني الأعرج " كريمتاتوريوم .. سوناتا لأشباح القدس "</p>	<ul style="list-style-type: none"> - أمريكا أرض الغرباء، ليست ملكا لأحد وهي ملك الجميع، (كثرة المهجرة اليها) - نيويورك: مدينة كبيرة، كل ناسها غرباء عنها ناسها كرماء - سياتل: مدينة من مدن نيويورك - مدينة صناعية (طائرات البوينغ - الميناء - الصناعات البحرية) - أمراض خطيرة وحروق وسموم تصيب السكان 	<p>أمريكا</p>	<p>الإنساني</p>
	<ul style="list-style-type: none"> - ابن لأم من الإكوادور، وأب إيطالي - الخيانة الزوجية من طرف الأبوين - حدوث الطلاق وتشتت الطفل - كل زوج يعيش حياته الجديدة والطفل يتربّي عند جدته. - انعدام الشعور بالأمومة والأبوة - انعدام إحساس الابن بالمودّة والمحبة لأهله إلا لجدّته - يعيش حرّاً، متشرّداً، لا عائلة ولا أطفال. - يتعرف ويعاشر دون زواج ليسهل عليه الانفصال - العلاقات الزوجية والقوانين في نظره مجرد كذبة - لا يهتم إلا بالعمل الذي يشغله ولا سعادة إلا بنجاحه فيه - حياة فوضوية، فيها كل أنواع الانحراف والشذوذ والانفصال والتشتت والتشرد 		

صورة الأجنبي في الرواية الجزائرية			
الرواية	الصورة	الأمريكي	
الوالي الطار يرفع يديه بالدعاء" للطاره وطار	<ul style="list-style-type: none"> - الولايات المتحدة الأمريكية تعلن حالة الطوارئ لأي مستجد في المنطقة العربية - الادّعاء بأن حكام العرب استنجدوا بها للتدخل - عزل المنطقة العربية وأهلها في الداخل والخارج - المستشار الأمريكية ترى في موقف العرب المتهّم لأمريكا: تحريف عربي، شعب متخلف، استخفاف بالعرب واحتقارهم - صورة المستشار الأمريكية في حقيقتها تعبر عن مظهر بائس، ووجه مسن مجعد غير متحكّم فيه. - الرئيس جورج بوش مؤمن واثق ثقة مطلقة في اليهود، يكره العرب والمسلمين ويتحيز الفرص لضربهم والانتقام من شخص بنلادن وصدام حسين 	الولايات المتحدة الأمريكية	
" حفنة السراب" للصادق بخوش	<ul style="list-style-type: none"> - بعد عمليات التفجير 11 سبتمبر 2001 - القرار بضرب العرب والمسلمين بأقوى القوات العسكرية والحربية - الذهاب إلى الكنيسة رفقة زوجته للترك وطلب إعانة الرب - يصليان أمام القس وكأنه حاخام (يهودية) - القس: يعمل دور المحرّض، السياسي بعد رجل الدين - الكل يبارك الانتقام، ويزهو بالنتيجة المتوقعة - زوجته مخلصّة، وفيّة، مباركة له، يحبها ويحترمها - يعتبر نفسه شريك الربّ أو ظلّه في الأرض - الانتقام لأمريكا سيكون شرسا شديدا 	الرئيس الأمريكي = والكر بوش	

العدواني

صورة الأجنبي في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	الأمريكي	
<p>للصادق بخوش " حفنة السراب "</p>	<ul style="list-style-type: none"> - من لم يمت من المسلمين، يُقبر في المعتقلات غوانتانامو- شقة إكس الغابروفو - ديك تشيني = نائبة قائد الأركان العامة للجيش - الصحراء العربية بركا من الدم المسفوك - آبار النفط، والقناطر المقنطرة من الدولارات، تضخ من منابع الشمس، العالم من دون مسلمين ولاعرب - تاريخ الإسلام خلال أربعة عشر قرنا يؤكد أنه خطر على أية حضارة واجهها، خصوصاً المسيحية - مائة عالم أمريكي: الإسلام هو العدو الوحيد الذي يجب إسقاطه بعد إسقاط الشيوعية، إدانة الإسلام والتطرف - البدء بمحور الشر = بن لادن، صدام حسين 	<p>الرئيس = الكر بوش</p>	<p>العدواني</p>
<p>للصادق بخوش " حفنة السراب "</p>	<ul style="list-style-type: none"> - فخر الرئيس الأمريكي - حزم وجدية الضباط في اعتقال السجناء العرب والمسلمين - عساكر قلوبهم غلف، وعقولهم مشحونة بالبغضاء - العسكرية = ريس فاندنر: دمية الحلقة، هازته الوجه، ملونة البشرة مفلطحة الأنف، قاسية على السجناء، فضة، عنيفة، حاقدة، تضرب وترفس وتدوس وتسيل الدم من السجناء - سجن المسلمين في جزيرة غوانتانامو = جزيرة الخنازير = جحيم إنساني، يتحولون فيه. 	<p>جنود المارينز</p>	

الفصل الخامس:

صورة اليهودي في الرواية الجزائرية

المبحث الأول: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية

المبحث الثاني: صورة يهود فلسطين في الرواية الجزائرية

المبحث الثالث: صورة الصهيوني في الرواية الجزائرية

الفصل الخامس: صورة اليهودي في الرواية الجزائرية:

تقتضي دراسة صورة اليهودي في الرواية الجزائرية، تتبّعها من جوانب عدّة، لاسيما وأنّها لم تقتصر على تقديم صورة اليهودي الفلسطيني، إذ كان ليهود الجزائر حضور مكثّف على مستواها، وإن كان الحديث عن كلّ منهما يختلف من رواية لأخرى، حيث تعرض بعض الروايات صورة ليهود فلسطين مع التركيز على شخصيات كثيرة تتعدّد فيها الطباع والصفات والمواقف خاصة من العربي، كما هو الحال في روايات: "الصدمة L'attentat" ل(ياسمينه خضرا)، و"كريماتوريوم: سوناتا لأشباح القدس" لواسيني الأعرج.

في حين توجّهت روايات أخرى لرصد صورة يهود الجزائر من خلال إضاءة بعض الجوانب التاريخية المتعلقة بيهود قسنطينة ويهود تلمسان، إلى جانب موقف المستعمر الفرنسي منهم قبل وبعد سنّ قانون كريميو، وتعرض روايات أخرى ما يتعلّق بما يُشاع عن اليهودي من صفات خلفية وأمراض نفسية، وثناء فاحش من التجارة والصناعة وامتلاك للعقارات، كما هو الحال في روايات: السماء الثامنة لأمين الزاوي، عقاب السنين لعبد الجليل مرتاض، الحفر في تجاعيد الذاكرة لعبد الملك مرتاض، حفنة السراب للصادق نجوش، وباللغة الفرنسية، روايات الإنكار La Répudiation وانبهار Fascination لرشيد بوجدرّة، ورواية: فضل الليل على النهار la nuit Ce que le jour doit لياسمينه خضرا، ورواية حرّاقة Harraga لبوعلام صنصال، ورواية العاشقان المنفصلان Les amants désunis لأنور بن مالك، ورواية الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء للطاهر وطار.

وتبعاً لذلك تمّ التتبّع لصورة اليهودي في الرواية الجزائرية، عبر العناصر الثلاثة الآتية: صورة يهود الجزائر، صورة يهود فلسطين، صورة الصهيوني، وتندرج عناصر فرعية ضمن كل مبحث منها.

المبحث الأول: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية

قبل الحديث عن أهم الصور التي رصدها الروائيون الجزائريون ليهود الجزائر على مستوى رواياتهم، لا بأس من فتح نافذة تاريخية، نُجَلِّي بعض الغموض عن المقصود بيهود الجزائر، وإلى متى يعود تواجددها بها.

يعود وجود اليهود بالجزائر إلى فترة قديمة جداً، تُقارب الألفين سنة من الوجود، حيث يعود وجودهم بالعاصمة الجزائرية >> إلى فترة إفريقية الرومانية حينما كانت تُعرف الجزائر باسم إيكوزيوم²، وقد تعايش اليهود مع معظم الأمم التي حلّت بالجزائر أو احتلتها، وكانت أحوالهم فيها تتغير بتغير المؤسسين لها، فمرّة يقوى نفوذهم، وتتسع تجارتهم وصناعاتهم المختلفة، ويزيد عددهم، ومرّة يضعفون وينطوون على أنفسهم بسبب ما يتعرضون له من نكد ومحاربة كما كان الحال مع القدوم الإسباني للجزائر، حيث حاربتهم وعزلتهم المسيحية الإسبانية³ ومع حكم الأتراك لدولة الجزائر تعرّضوا لمجموعة من القوانين التي فرضت عليهم أنماطاً خاصة ومميّزة لهم عن غيرهم من السكان العاديين، تتعلّق بألبستهم، وسيرة حياتهم، وتضبط معاملاتهم في الشوارع والأماكن العمومية وعند المرور بالمساجد، وحتى ما يتعلّق بأنواع الدواب التي يحق لهم امتلاكها.⁴

وفي سنة 1830م >> لم يكن تعداد سكان مدينة الجزائر من اليهود الذين ذهب الكثير منهم ضحية الطاعون الكبير الذي اجتاح المدينة عام 1787م، ولم يسترجعوا أنفاسهم بعد هذه الفاجعة إلا بعد فترة

¹ اليهودية Judaism : وهي الملة التي يدين بها اليهود، وهم أمة موسى عليه السلام، وقد كانت في أصلها- قبل أن يحرفها اليهود- هي الديانة المنزلة من الله تعالى على موسى عليه السلام، وكتابها التوراة وقد كانت عقيدة اليهود قبل التحريف عقيدة التوحيد والإيمان الصحيح، ولكنها ابتدع فيها بما لم يُنزل به الله.

واليهودية معتقد يختلف عن معظم المعتقدات والأديان، فهي دين مغلق، لا يحقّ لأيّ إنسان أن يعتنقه، أي أن اليهود لا يقبلون في صفوفهم إنساناً جديداً يعتقد دينهم، وإنما الذي وُلد يهودياً وأمه يهودية فقط، ومازالت محاكم إسرائيل ترفض الاعتراف بيهودية مواطنيها من أب يهودي وأم غير يهودية (ينظر: الديانة اليهودية وعلاقتها بالماسونية والصهيونية العالمية، موقع:

arabic.islamicweb.com/Christianity/judaism.htm تاريخ الزيارة: 2016/01/01م

² عيسى شتّوف، يهود الجزائر: 2000 سنة من الوجود، دار المعرفة، الجزائر، 2008م، ص34.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص26.

⁴ ينظر: المرجع نفسه، ص30، وما بعدها.

طويلة، سوى 5000 نسمة¹ << وقد أبدى اليهود- في أغلب الأحيان- >> سرورهم بقدوم الفرنسيين ففي مدينة الجزائر كانوا يفرون على ركبهم في الطرقات شاكرين الله، ويقبلون الجنود، كما وضع وجهاء القوم بكري ودوران أنفسهم في خدمة المارشال دي بورمونت وزير الحربية (...). ويصرح قائد الأمة اليهودية فيما بعد للضباط الفرنسيين بقوله: "نحن ندافع عن أنفسنا بدفاعنا عن فرنسا"² << وقد تضمنت وثيقة تسليم المدينة التي وقعها الداي حسين في 05 جويلية 1830م بحضور المارشال دي بورمونت "حرية السكان من مختلف الطبقات، ولن يلحق أي ضرر بدينهم وأموالهم وتجارهم وصناعاتهم، ومنها حرية اليهود في الممارسة الدينية والاقتصادية"³ وهذا ما كفل لليهود انتعاشا في حياتهم من مختلف المستويات، إذ أصبحوا تحت وصاية اليهودية الفرنسية، كما منح >> مرسوم كريميو المؤرخ في 24 نوفمبر 1870 الجنسية الفرنسية لكل الأهل الإسرائيليين المولودين بالجزائر⁴.

وقد شهد يهود الجزائر في ظل الحكم الفرنسي بالجزائر تغييرات عديدة توافقت مع ما شهده اليهود في فرنسا- خاصة- من قوانين ومراسيم تُنظّم حياتهم ومكان إقامتهم، وقدّم اليهود لفرنسا كلّ الدعم والمساندة، لاسيما في اعتبار الجزائر مقاطعة فرنسية. وفي >> أواخر جوان 1962 غادر 142000 يهودي الجزائر للإقامة بفرنسا وفي أكتوبر 1962 لم يبق من يهود الجزائر سوى 25000 فرد، يعيش 6000 منهم بمدينة الجزائر، وأغلبهم كان يستعدّ للرحيل، وابتداء من هذا التاريخ انفصل مصيرهم عن مصير الجزائريين، واندمجوا في تاريخ فرنسا المعاصرة في فصل "المرحّلين من الجزائر"⁵، وكان رحيلهم خوفا من انتقام الشارع الجزائري لوقوفهم ضدّ الثورة التحريرية⁶. وأمّا ما تبقى من عائلات يهودية في الجزائر،

¹ عيسى شنوف، يهود الجزائر: 2000 سنة من الوجود، ص 87.

² المرجع نفسه، ص 70.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص ص 70، 71.

⁴ المرجع نفسه، ص 91.

⁵ المرجع نفسه، ص 140.

⁶ ينظر: يهود الجزائريين الإرث التاريخي والعيش المشترك، يومية الفجر، موقع:

www. Al-fadjr.com/ar/special/dossier/262718.html (تاريخ الزيارة 2016/01/11م)

بعد 1962، انصهرت في المجتمع بشكل مجموعات اجتماعية سرّية تتأقلم مع كل المستجدات اليومية¹، لذلك فإنّ ما يُطلق عليه بـ"يهود الجزائر" هم اليهود الذين وُلدوا بالجزائر أو سكنوها، قبل تاريخ 1962.

1- تاريخ يهود الجزائر وفق ما ورد في الرواية الجزائرية:

ويتحدّث الروائيون الجزائريين ك(رشيد بوجدره) و(أمين الزاوي)، عن تاريخ اليهود في مدّهم، قسنطينة وتلمسان، على مستوى رواياتهم، وكيف كان تعايشهم مع العرب الجزائريين آنذاك. يختار رشيد بوجدره شخصية المحامي اليهودي "ليفي" ليعرض جانباً من سيرة حياته وتاريخه، إذ كان² المحامي اليهودي مهووساً بالموسيقى، مولعاً بالموسيقى الأندلسية القسنطينية، التي كان أعلامها من ذوي الديانة الإسرائيلية الذين استقروا في المدينة رفقة المسلمين الذين فروا من الأندلس في العالم 1492م بعد سقوط غرناطة، التي فتحها قبل قرون بربارة شمال إفريقيا الحديثو التأسلم (...). بقي هؤلاء يكتنون للأندلس حينما يفوق بكثير حنين مواطنيهم المسلمين إلى درجة الاحتفاظ بمفاتيح بيوت أسلافهم، كالبقايا الأثرية الثمينة، مؤمّلين دوماً في رجوع محتمل، تحذوهم عزيمّة صلبة ومتعنتة في البقاء على تقاليد الوطن هناك²، وبذلك فإنّ يهود قسنطينة يميّزهم ولعهم بالموسيقى التي تتمرّج فيها الأصول الأندلسية- التي تمثّل وطنهم الأصلي الذي بقوا على عهده وعلى حنينهم إليه- بأصول الموسيقى القسنطينية، التي يعتبر مؤسسوها من اليهود.

وفي رواية "الإنكار" يقدّم (رشيد بوجدره) صورة للحَيّ اليهودي في قسنطينة، بوصف نساءه وأطفاله وذلك بقوله: > > ثمّ هناك أيضاً الحَيّ اليهودي، هناك النّساء لا يحملن الحجاب، إنهنّ يعيشن السنغاليين منذ وقائع شهر ماي 1945 التّسكّع في لامبالاة، وشراء الفطائر والوقففة الأولى، إن هؤلاء اليهود ليحسنون صنع المرطّبات! ما ألدها!...ولكن أطفالهم ليسوا ليّني الجانب، أنتحل لهجة الأنسة ليفي اليهودية، أستاذة الموسيقى؟ هاهم يدنون منّي ويتشّمون رائحتي (الله! ما هذه الرائحة؟) ثم الضيق،

¹ ينظر: عيسى شنوف، يهود الجزائر: 2000 سنة من الوجود، ص 09.

² رشيد بوجدره، انبهار، تر: إنعام بيوض، منشورات ANEP، الجزائر، ط2، 2002م، ص 47، 48.

الحكم غامض غير واضح المعالم، إنهم لا يتجاسرون على الحكم عليّ بوضوح (...). إنني مستعد لخيانة قبيلتي وجنسي مقابل أن ألعب معهم شوطاً بـ"البيس"، فأنا بطل في تلك اللعبة (...). فأنا أسمن منهم، وهم هزلاء عجاف، ولكن أمهاتهم سمينات بدينات تعودن لوك "الشوينقوم" منذ مرور القوات الأمريكية بحارة اليهود (...). رحبت جميع الأشواط فنعوتني بالساحر، ثم اكتشفوا أن يهوديتي فيها شيء من الغرابة فامتلكني الخوف وتلعثمت في الكلام وفضحتني لهجتي، فلذت بالفرار، إنها الفاقة والخصاصة نفسها في الأحياء العربية¹، وبهذا الانتحال لشخصية الطفل اليهودي تمكّن البطل "رشيد" في الرواية من التقرب من أطفال اليهود، ونساءهم، واللعب لعبتهم إلى جانبهم والتفوق عليهم فيها. وكذا من أكل الفطائر والمرطبات، وهي صورة مقرّبة حاول الكاتب تقديمها عن الحي اليهودي وحيثياته.

وقد كان وجود اليهود في قسنطينة عريقاً، وله آثاره على الواقع المعاش، غير أنه مع استقلال الجزائر سنة 1962م، غادر جلّهم إلى فرنسا، وقد ترك ذلك لدى البعض إحساساً بالأسى والفراغ، كما ورد ذلك على لسان "لامية" في رواية "حرّاقة" لـ(بوعلام صنصال) بأن مدينة قسنطينة قد >انتهت يوم هجرها اليهود في عام 1962م، وبقيت فيها الحجارة والشيخ المتكئون إلى الجدران التي تتظاهر بالحلم بجمال العصر الوسيط، وبالعلم بكلّ السحر الموجود في أندلس الأجداد، إنّ زلزالاً بقوة 9 درجات لم يكن ليفعل كلّ ذلك الدمار، لقد أخبرتني أن من بقي من النسوة فيها كنّ يتلقّعن بريش أسود، وكان الناس يطلقون عليهنّ اسم الغراب²، وكأنّ بناء قسنطينة لم يكن إلاّ بفضل اليهود، الذين بمغادرتهم تبدّل وجه المدينة وتقهقر.

ويروي (أمين الزاوي) في رواية "السماء الثامنة"، قصة تعايش اليهود مع المسلمين جنباً إلى جانب في مدينة تلمسان العريقة، من خلال التعليم المتبادل، والتزاوج، وتقاسم الملح والخبز، والسعادة العارمة إزاء تلك العلاقات، وذلك من خلال الأم في حوارها مع ابنها:

>> قالت الأم، قال لنا أبوك يا بني:

¹رشيد بوجدرّة، الإنكار، تر: صالح القرمادي، منشورات ANEP، الجزائر، ط2، 2002م، الجزائر، ص ص 284، 285.

²بوعلام صنصال، حرّاقة، تر: عبّاش سلمان، دار الفارابي - سيديا، لبنان - الجزائر، ط1، 2007م، ص 301.

-تعلمنا منهم الفلسفة والرياضيات، وتعلّموا منّا الشعر وركوب الخيل وركوب النساء، حيث امتزج دمنا، قال الطبيب الذي منهم [من اليهود] حيث لم يكن لنا نحن طبيب قال:

- هذا التزاوج، واختلاط الدّم يمكنه أن يقضي على عاهات العيون والعقول والضعف الجنسي^{1<<}.
وقد أوردت الأم بعض الصفات التي يتّصفون بها بقولها:

>هم مجانين ولكنهم يعشقون الموسيقى، ويعتبرونها دينهم الأول، حتى قبل الديانة الإسلامية التي ورثوها منذ خمس عشر قرنا، وبعضهم يتقن "الدرّازة" وخياطة الجلابة وتحضير الشاي على أصوله.

يا بني لقد تعلّموا منّا أشياء، وتعلّمنا منهم أشياء، النساء تذهبن لحمام واحد، والرجال كذلك، لكنّ الدم ظلّ يدور في مكانه حتّى عاد ليُنتج عاهات، ربّما آنذاك قصد البعض الشام وفلسطين وأثيوبيا عن طريق باريس، متأكّد أنّهم سيعودون إلى حوانيتهم وحواراتهم(...). فالسماة التي فوق المدينة تنتظرهم كل يوم، وقبر الحاخام الأكبر في تلمسان يمطرهم الدعوات والصلوات^{2<<}.

هذا السرد لتاريخ اليهود بتلمسان نلمس فيه تعاطفا من الشخصيات الروائية التلمسانية مع اليهود على الرغم ممّا يُتّصفون به من الجنون، وحبّ للموسيقى بجنون، وكذا إتقانهم للدرّازة والخياطة والشاي، كما أنّهم يذهبن إلى الحمام نفسه النساء والرجال، وظلّ الجميع يترقّب عودتهم بعد رحيلهم مع استقلال الجزائر. كما ينبّهنا الروائي إلى وجود قبر حاخام في مدينة تلمسان وعن عودة اليهود إلى حيّهم بمدينة تلمسان، يقول أمين الزاوي في الرواية نفسها: >ظهيرة سيف ليس كأية ظهيرة، عاد اليهود إلى حيّهم، داروا أحياء المدينة، في البداية خاف الأهالي من الحكومة التي تخطّب بالاشتراكية، وتصلّي صلاة الإيمان، ولم يتجرؤوا على التحدّث إليهم، الكبار كان بهم شوق كبير إلى المعانقة من الطرفين. كانوا يرغبون في أن يفتحوا لبعضهم البعض القلوب، وليستعدوا أيام الصباغة وخياطة الجلابة، والدرّاز والبلغة الصفراء الفاسية. كان الكبار من اليهود بهم حريق إلى الأسوار والأرصفة، وتراب الطرقات والغبار العالق بين مفاصل الأبواب العتيق، والكبار منّا أيضا كان بهم شيء كثير وخوف أكثر^{3<<}.

¹أمين الزاوي، السماء الثامنة، منشورات ضفاف-منشورات الاختلاف، بيروت-الجزائر، ط4، 1435هـ-2014م، ص157

²المصدر نفسه، ص158.

³المصدر نفسه، ص159.

تقدّم الروايات التي رسمت صوراً لليهود كل من قسنطينة وتلمسان مواقف ضمنية نحو اليهود، عن سعة علمهم، وعن تجارتهم وصناعتهم، وكذا عن محبتهم وحنينهم لجيرانهم وللسماء التي غطتهم بحميميتها ومودّتها، ممّا تقدّم لا توجد صورة سلبية عن اليهود كشعب وأشخاص عاديين مسلمين ومتعايشين، وإن كانت هذه المواقف تعود بالدرجة الأولى لمواقف الكتّاب الذين ضمّوها في رواياتهم.

2- يهود الجزائر وقانون كريميو في الرواية الجزائرية:

تحدّثت روايات عديدة عن قانون "كريميو" المتعلّق بمنح الجنسية الفرنسية لليهود الجزائري. وقد تعدّدت مواقف الأدباء حوله وفق ما ورد على ألسنة شخصياتهم الروائية المختارة لذلك. في رواية "عقاب السنين" ل(عبد الجليل مرتاض)، موقف أحد الأهالي من القانون >>... وكانت الطامة الكبرى -بعد أربعين عاما- أن أسنّ (كريميو) اليهودي مرسوماً يخوّل فيه لليهود حقّ الجنسية الفرنسية، فاستغلّوا هذه القوة ليتآزروا مع الكولون صفا واحداً ضدّ الشخصية الوطنية، سعياً منهم في إذلالها¹ فكان موقف عبد الجليل مرتاض من القانون، أنّه سبب إهانة الشخصية الوطنية وإذلالها، وتغليب المستعمر عليها، وهو من ناحية أخرى يدين باريس في عدم عدلها، وتفضيلها لليهود بقوله: >>... ولو كانت باريس ذات ذوق في العدل لعاملتنا على الأقل مثل اليهود الذين سمحت لهم بالمواطنة الفرنسية مع احتفاظهم بأحوالهم الشخصية اليهودية، ولكن هذا هو عدل الاستعمار في كل زمان ومكان². فكان اليهود بالنسبة لفرنسا المستعمرة أفضل من الأهالي.

ويسرد (رشيد بوجدره) في رواية "انبهار"، قصّة منح يهود الجزائر الجنسية الفرنسية من خلال قانون كريميو، إذ يقول: >>... لكون اليهود الجزائريين قد مُنحوا الجنسية الفرنسية من طرف إسحاق موز (الملقب أدولف) كريميو، وزير العدل في حكومة الدفاع الوطنية التي شكّلت بعد سقوط الإمبراطورية في العام 1870م، والذي كان مؤسس الرابطة الإسرائيلية العالمية في العام 1875م، كان عدد من يهود قسنطينة يعتبر هذا القرار، وهذا المرسوم المشهور باسم كريميو كمناوره وخيانة عنصرية بالنسبة إلى أبناء

¹ عبد الجليل مرتاض، عقاب السنين، رابطة الأدب بالحديث، القاهرة، ط1، 1990م، 1410هـ، ص 79.

² المصدر نفسه، ص 80.

بلدهم المسلمين. محاولة مغرزة وخطيرة لتأجيج نار العنصرية بين الطائفتين اللتين كانتا إلى ذلك الوقت ملتحمتين لا تتميز الواحدة عن الأخرى، أو تكاد¹، وبذلك يعرض الكاتب موقف اليهود الذين كانوا - في رأيه إلى ذلك الوقت - يشكّلون لحمة مجتمع واحد، وكأن المستعمر الفرنسي أراد التفريق وزعزعة العلاقة المتينة بينهما. وهو ما يوضّح موقف المحامي ليفي في الرواية، (محامي إيلا)، من حيث مسانده² منذ الأزل لقضية استقلال الجزائر، كان يبذل كل ما في وسعه لمساعدة إيلا إبان المحاكمات السياسية التي لا تحصى، لكنّه كان يقضي في السجن وقتاً أكثر من موّله، لأنّ الإدارة الاستعمارية كانت تُكّن الضغينة لمن كانت تعتبرهم كانتهازيين³، وقد كان المحامي دائم المكافحة لمرسوم كريميو - حسب الرواية - المفروض على طائفته، والدفاع عن المواطنين الجزائريين مهما كانت ديانتهم، ومن بينهم إيلا صديقه الحميم ورفيقه في الحرب³، وبذلك تتضح للباحث صورتان متناقضتان عن يهود الجزائر وموقفهم من قانون كريميو، بين مؤيد له، مستغلّ لحيشاته، للتآزر مع الكولون ضد الشخصية الوطنية وبين رافض له، ومكافح لمبدئه الذي يقوم على التفرقة بين مجتمع واحد، لا تكاد تتضح معالمه لولا الديانة اليهودية والديانة الإسلامية التي تميّز كل فئة من أفرادها.

3- صورة المرأة اليهودية من منظور المستعمر الفرنسي:

في رواية "العاشقان المنفصلان" ل(أنور بن مالك)، نصادف نوعاً خاصاً من النظرة إلى المرأة اليهودية، من طرف المستعمر الفرنسي، شعبا وحكومة. وذلك من خلال موقف الرجل المالطي من الممثلة اليهودية "رينا" في سيرك السيد شارل، حيث كانت فرقته تحوي مجموعة من الممثلين، وتجوب بهم مختلف المناطق من العالم غير أنّ "رينا" - واسمها إيكاترينا جيرود - كانت تخفي جنسيتها الإسرائيلية عن الطاقم العامل معها، وحدث وأن فضحها أحد المالطيين ذات يوم، لما كانت تُعذب نفسها، تضحية من أجل صديقها المتهم بالسرقة الإسباني مانويل، حيث أخذت⁴ عصا غليظة وهوت بها على رأسها، ترنّحت، اتكأت على ساقها، وصعدت يدها الشاغرة إلى غاية شعرها، راهنت المجنونة حياتها على

¹ رشيد بوجدر، انبهار، ص 47.

² المصدر نفسه، ص 46.

³ المصدر نفسه، ص 47.

التخويف الوحيد الممكن، إذا واصلوا تعذيب مانويل، ستقتل نفسها هنا بضربات الهراوة، أمام كلّ المتفرّجين ! ارتفع الذراع-الجلاد-مرّة أخرى وانحطّ بعنف على الأنف، احمرّ الوجه، سال الدّم بقطرات غليظة على ملابسها، يمكن إدراك بقع الدم غارقة في أبواب السترة¹، وبهذا يقدم الكاتب صورة عن صديق المرأة اليهودية، وتضحيتها في سبيل حبيبها، بكلّ ما أوتيت من قوة وحيلة من أجل دفع الضّرر عنه. والملاحظ أنّ هذه اليهودية البولونية لم تُثر تصرّفاتّها وتضحيتها شفقة المحيطين بها، باستثناء صديقتها "آنا"، إذ راح المالطي يفصح:

>> -خسارة على... رأسك الثمين... يا يهودية... ولكن، هذا يعلمك... أن لا تخدعي الناس الطيّبين.

ثم غيّر من لهجته:

- وأن تنامي... مع اللصوص !

تصاعدت جلبة غامضة من الجمهور، انحنى المالطي على القضيب الحديدي، وخاطب الجمع بصوت حالم:

- يهودية، يهودية، النكتة الجميلة... هل يجروّ شخص في مثل هذا الوقت، أن يُضحك الناس، وهو يعرف أنه يهودي، هاه، قولوا لي؟"²، غير أنّ موقف الإهانة والنبد لليهودية لم يكن من طرف المالطي فقط، وإنما حتّى مع حراس سجن الحراش، الذي نُقلت إليه، بعد العملية التي أقدمت عليها، إذ تمّ وضعها في قسم الأهالي. وتمّ منع أي زيارة لها ما لم تكن من عائلتها، حتى زميلتها "آنا" تمّ منعها من ذلك، وهو ما أدّى بها إلى الاحتجاج بقولها:

>> -لماذا؟ احتجّت آنا ساخطة، إنّ السيدة جيرو هي أوروبية، إنّها... إنّها...

-تريدون أن تقولي: بيضاء! ربما كان هذا صحيحا، ولكنّها يهودية، وبالتالي فهي من الأهالي! ردّ البيروقراطي بجفاء زيادة على ذلك، إنّ مدير السجن هو المخوّل الوحيد، وليس أجنبية مثلك، لأنّ يحدّد مكان حبس سجين! ابتسم ساخراً:

¹ أنور بن مالك، العاشقان المنفصلان، تر: محمد ساري، منشورات مرسى الجزائر، 2002م، ص 227.

² المصدر نفسه، ص 227، 228.

-صحيح أن صديقتك أوروبية، ولكنها حسب القانون ليست أوروبية بالمعنى الكامل في الجزائر، كي تفلت من التصنيف ضمن الأهالي!¹ و يعود ذلك إلى اعتبارها أجنبية عن الجزائر وعن يهود الجزائر المستفيدين من قانون كريميو، في التجنيس بالجنسية الفرنسية، وأن أوروبيتها غير كاملة في الجزائر المستعمرة، وهو ما يفسر الصورة السلبية عن اليهود، حيث تحقّق الشرطة الفرنسية مع مدير السيرك، السيد شارل، الذي راح يُقسم > بكلّ الآلهة بأنه كان يجهل الأصل الإسرائيلي لموظفته. وصفه الرجلان بالكذاب القذر وأعطوا له مهلة ثمانية وأربعين ساعة لمغادرة الجزائر، هو وعصابة المتشرّدين التي تحيط به <<²، وفي ذلك دلالة على رفض اليهودية حتى في التوظيف من طرف مدير السيرك الذي لو علم جنسيتها لما قبلها في فرقته.

4- صورة اليهودي غريب الأطوار ذي النفسية المريضة:

يعتبر علماء النفس الشخصية اليهودية مريضة نفسياً، وهي تحمل في ذاتها بعض هذه الأمراض، ومنها: الاضطرابات الطفيلية، البارانويا (جنون العظمة)، الاضطرابات السلوكية في الشخصية اليهودية العدوانية، الانطوائية، والتمركز حول الذات، التشاؤم والحذر التوجّسي بالآخرين(الشك)، انعدام الانفعال والنقص في الحسّ الاجتماعي والأخلاقي، التوحّد بالمعتدي، الإغراق في المادية والحرص على التعلّق بالحياة³ وهي سمات يكتسبها اليهودي منذ طفولته بفعل تنشئة أسرته، المعرفة في أجواء من الأساطير والخرافات والتراث المتعالي على الآخر.

ويقدّم (ياسمينه خضرا) نموذجا لشخصية اليهودي المريض نفسياً في رواية "فضل الليل على النهار"، وهي شخصية الطفل سيمون بن يامين، الذي كان تلميذا في مدرسة فرنسية في الجزائر المستعمرة، إذ يقول زميله الجزائري يونس: >> أمّا سيمون فلا أطمئنّ إليه بتاتا، إنّ ردود أفعاله غير متوقّعة إطلاقاً، يستطيع دون سابق إخبار أن يركل زميلاً له، فقط ليضع حداً لحوار أزعجه، كان في قسمي

¹ أنور بن مالك، العاشقان المنفصلان ، ص ص241، 242.

² المصدر نفسه ، ص241.

³ ينظر: خضر عباس، خصائص الشخصية اليهودية، لدى علماء النفس، موقع: خصائص الشخصية اليهودية-لدى-علماء-النفس

https://drallass.wordpress.com/2013/01/24 تاريخ الزيارة: 2016/01/10م

يجلس في آخر الصفوف، ويقضي جلّ وقته في التهريج وإزعاج المجتهدين، والتلاميذ النجباء، كان واحداً من التلاميذ المشاغبين القلائل، الذي يحتجّ عندما يتلقى نقطة رديئة، كما أنّه يُغذي عدوانية صريحة اتجاه البنات، وبالأخص الجميلات والمجتهدات...¹ وبذلك يعدّ "سيمون" صورة عن اليهودي الغريب الأطوار، من حيث صدور تصرفات غريبة وغير متوقّعة، إلى جانب الغيرة والعدوانية والاحتجاج وغيرها من الصفات السلبية التي تميّز الشخصية اليهودية على العموم.

ويقول عنه يونس في موقع آخر: > سيمون بن يامين من يهود الجزائر، خمسة عشر سنة مثلي تماماً، قصير القامة، يميل إلى السمّنة، قليلاً، وحماقات لا حصر لها، إنه فتى بشوش، متحرّر من الأوهام بسبب إخفاقاته العاطفية، ولكنّه حبّوب عندما يبذل قليلاً من الجهد، يحلم بامتهان المسرح أو السينما، في "ريو" لم تكن عائلته ذات مكانة، أبوه سيء الحظ، لا يشتغل في قضية إلاّ ومألها الفشل، بحيث أصبح يدين للجميع بما في ذلك العمال الموسميّين الذين يُشغّلهم². لم تكن بذلك شخصيته ذات غرابة في التصرفات فقط، وإمّا كانت ذات إخفاقات عاطفية أيضاً، وكان والده قليل الحظّ فاشلاً في أعماله، يدين للجميع، وهي صورة عن الوضعية المأساوية التي عاشت فيها فئة من يهود الجزائر. وفي أحداث الرواية، يتزوج سيمون من الفتاة التي أحبّها يونس³، وينجبان ولداً. غير أنّ نهاية ذلك اليهودي تكون على يد الفلاقة، ويدفن في النهاية بمقبرة يهودية في الجزائر.⁴

ومن جهة أخرى يقدم (رشيد بوجدره) في رواية الإنكار **La répudiation** صورة عن اليهودي الغريب الأطوار، مجسداً في شخصية أستاذ الفيزياء، الذي يصفه بالملحد، بقوله: > لقد كان أحياناً غريب الأطوار، ونحن الآن بيننا جفوة، لأنّ هذا اليهودي الملحد، يزعم أنّ التّوراة هي أجمل قصيدة شعرية كتبها البشر، ووضعتُ حدّاً لتحّمسه هذا بأن ادّعتُ أنّ القرآن أجمل من التّوراة بكثير، وهو الآن

¹ ياسمينه خضراء، فضل الليل على النهار، تر: محمد ساري، سيديا، ديسمبر، 2013م، الجزائر، ص ص 170، 171.

² المصدر نفسه، ص 185.

³ المصدر نفسه، ص 423.

⁴ المصدر نفسه، ص 424.

قد هجر علم الفيزياء ليتفرّغ إلى تعلّم اللغة العربية، حتّى يتسنى له المقارنة بين الكتابين^{1<<}، وفي ذلك إشارة من الكاتب إلى أنّ هذا اليهودي ملحد، ولكنه مع ذلك يرغب في المقارنة بين القرآن والتوراة، وهو ما يفسّر التناقض في شخصيته وفي معتقده. ومما يميّز به الأستاذ اليهودي-حسب الرواية-جماله ورقّة صوته، وتّفوقه في مادّة الفيزياء، ولكنه في الوقت نفسه ذو شدوذ جنسي، يقول عنه الكاتب على لسان شخصية رشيد في الرواية: >>وبداية الأمر كنت أحسب أنّ اللواط علامة على التّفوق والامتياز، لأن اليهودي كان فائق الجمال، وذا صوت رقيق لطيف، ولأنه كان سريع البكاء^{2<<}، فهو بهذه الصفات أقرب إلى الأنثى منه إلى الذكر، يحبّ أخ رشيد المسمّى زاهر، ويتردّد عليه في بيته، من أجل العلاقة الجنسية المشبوهة بينهما.

وعند وفاة زاهر، أبي اليهودي إلّا أن يحضر جنازته متحفياً، حيث برز >>وقد تنكّر في زيّ مضحك لا يتصوّره العقل، فكان بروزه كافياً لاضمحلال الواقع اضمحلالاً نهائياً، ووصل إلى المكان مستتراً يسير والحائط، وقد بدت على لحيته علائم التوبة، وغرقت يداه وجبهته عرقاً، ولم يقف إلّا عندما وصل إلى مكان المدخّنين فأسلم أمره لهم غير متجاسر على رفع عينيه والنّظر إلى الجماعة المنكوبة وقد لاحت على شفّيته ابتسامة النشوة والذهول، وكنت أقرّ رغم كلّ شيء بأنّ في إصرار هذا اليهودي على حضور جنازة أحد المسلمين كثيراً من التجاسر^{3<<}.

ولم يكن المجتمع الجزائري المسلم بما فيه والده رشيد وأعمامه، ليرحّب بهذا اليهودي في بيت العائلة، حيث كانوا يصفونه بالكافر، يقول عنه رشيد: >>كان يختلف كثيراً إلى دارنا رغم عداء أمّي له عداء واضحاً (...). وكانت أمّي تلعن اليهود أمام عصابة الأعمام، فكانوا يقاطعوننا مقاطعة من أجل نوعية صداقات زاهر المشبوه فيها من ناحيتين، وكانت أمّي بمجرد ما ينصرف الأستاذ اليهودي، تفتح أبواب الغرف، وشبابيكها ليدخلها الهواء، وتغسل الكؤوس التي شرب منها ذلك الكافر وتتلو الرقى

¹رشيد بوجدرّة، الإنكار، ص143.

²المصدر نفسه، ص140.

³المصدر نفسه، ص231.

والتعاويد¹، كأنّ اليهودي هو الشيطان الرحيم بعينه، يلعنه الجميع، ويقاطعه ويعاديه، ولا يرحّب بصدافته إلاّ المريض مثله.

5- صورة اليهودي الشري التاجر المالك للعقارات:

تتناول العديد من الروايات الجزائرية صورة اليهودي بوصفه تاجراً أو صانعاً أو صائغاً أو مالكا للعقارات أو مسيراً للثروات، وإن كان ذلك مذكوراً بين ثنايا الحديث، قلّما خُصّصت لذلك شخصية بعينها.

يذكر (عبد الملك مرتاض) في روايته السّير ذاتية "الحفر في تجاعيد الذاكرة"، أنّه لما أراد الهجرة إلى فرنسا، اشترى له والده، > مبلغ عشرة آلاف فرنك من يهودي في أحفير، كان يبيع النقود رباً، بحيث كان الناس يعيدون إليه مقابل عشرة آلاف فرنك خمسة عشر ألفاً بعد ستة شهور²، وهي صورة مزدوجة عن اليهودي، من حيث أنّه صرّاف وبائع للفرنكات فهو غني صاحب ثروة لكنه في الوقت نفسه تاجر مُرابي، يبيع النقود بفوائد بعد مدّة من الزمن.

كما أنّ اليهود كانوا محترفين في صناعة الأحذية، مسيطرين عليها، لاسيما في مدينة تلمسان، حيث يقول (عبد الملك مرتاض) أن والده اشترى له > نعلا من الجلد من صنع اليهود³ وهو نفسه ما ذكره (أمين الزاوي) في رواية "السّماء الثامنة"⁴ من حيث كون اليهود بارعين في صناعة الأحذية.

ووردت في رواية "حفنة السّرّاب" ل(الصادق نجوش) صورة عابرة عن اليهودي التاجر⁵ الذي كان يبيع اللحم بعد أن يُقيم الذبح الشرعي على ذبائحه.

ونجد شخصية اليهودي "داود بن شقرون" في رواية "حراقّة" ل(بوعلام صنصال)، حيث كان من يهود باب عزون، > جعل من إبرام صفقات عقارية ثابتة ومنقولة بين أتراك فارين من البلد، وفرنسيين

¹ رشيد بوجدر، الإنكار، ص140.

² عبد الملك مرتاض، الحفر في تجاعيد الذاكرة، دار العرب للنشر والتوزيع، وهران، 2004م، ص226.

³ المصدر نفسه، ص227.

⁴ أمين الزاوي، السماء الثامنة، ص159.

⁵ الصادق، نجوش، حفنة السّرّاب، دار الحكمة للنشر-الجزائر، 2009م، ص64.

قادمين إليها مورد رزق يقتات به، ثم عاش بقية عمره كواحد من أغنى أغنياء البلد، أو على الأقل هذا ما كانت تتداوله الألسن، وفي إحدى الصور القديمة من طراز داغير التي ظلت في حوزتنا، كان يظهر هذا الشخص جالسا القرفصاء، ومتمكنا إلى كوخ متهالك آيل للسقوط، وفي يده ذنب عجل ينش به الذباب، وكان أشعث أغبر، ورث الثياب، يشبه أي قرد طاعن في السن، ولكن يجوز أن يكون المرء ثريا وماكرا وذا وجهين، لهذا يجب ألا تستبعد فرضية مخادعته المصوّر لكي يظهر بتلك الصورة التي خلّدهه كمن يعاني البؤس بالإثبات والبيّنة^{1<<}، وهي صورة عن اليهودي الثري والشحيح والمخادع، المتظاهر بالبؤس والشقاء.

وفي رواية "انبهار" ل(رشيد بوجدره) شخصية "كوهين" اليهودي، التي تعدّ صورة لليهودي مسير الثروات الخاصة والعامة، حيث >> كان السيد كوهين يُسير ثروة إيلا بطريقة نابعة وبراعة وشغف سياسي^{2<<}، فاليهودي يحبّ المال، ويحبّ تسييره، وهو ناجح في ذلك، لأنه يمارس ذلك بإرادة وشغف وبراعة.

¹بوعلام صنصال، حراقة، ص ص96، 97.

²رشيد بوجدره، انبهار، ص46.

المبحث الثاني: صورة يهود فلسطين في الرواية الجزائرية

تُقدّم بعض الروايات الجزائرية، صوراً متعدّدة عن مختلف أنماط الشخصيات اليهودية، بتفصيل عن طباعها، ومواقفها تجاه العرب في فلسطين، وبعض القضايا المتعلقة بالعلاقات الإسرائيلية العربية ومواقفها من محرقة هتلر النازية، وحاولنا في ذلك ضبط أنواع من الصور، وفق ما قدّمه الروائيون أنفسهم لاسيما من خلال روايتي: "كريماتوريوم" ل(واسيني الأعرج)، و"الصدمة L'attentat" ل(ياسمينه خضرا).

1- صورة اليهودي العنصري الحقود:

يعدّ اليهودي العنصري الشخصية الطاغية في المخيلة والعقلية العربية، لاسيما ما تعلق بالشعور بالاستعلائية، واعتقادهم بالتفوق والتمييز، وأنهم شعب الله المختار، وبأنهم أحبّاءه وخاصته، بأن كل من هو غير يهودي (الأغيار) خلّقوا لخدمتهم، وسُخّروا لهم كالبهائم، واعتقادهم بأنه الجنس السامي الوحيد جعلهم يستعلون على الآخر سواء كان مسيحياً أو مسلماً، إلى جانب العدوانية والميل للعنف والتطرف في كل شيء، والتناقض بين ما يعتقدونه من تميّز وتفوق¹، وما يحسّ به من مذلة ومهانة وكراهية للنفس واحتقار للذات.

وقد أدرج (ياسمينه خضرا) صورة عن اليهودي العنصري، وتتمثل في شخصية الطبيب اليهودي "إيلان روس" الذي يعمل في مستشفى إسرائيلي إلى جانب الطبيب العربي "أمين جعفري" الحاصل على الجنسية الإسرائيلية، حيث يسرد هذا الأخير جوانب من شخصية الطبيب إيلان وروس، وبعض مواقفه تجاهه، يصوره الكاتب شرهاً في الأكل، وذا منظرٍ جسّمي داعٍ إلى الاشمئزاز، إذ يقول عنه: >> جلس إلى يميني قبالة "كيم" حاملاً صينيته المترعة بمربلته المفتوحة على كرشه الهائل وخديه المتهدّلين، شرع أولاً

¹ ينظر: محمد فتوح سعادات، سمات الشخصية اليهودية الإسرائيلية، موقع: www.alukah.net/culture/0/79906 تاريخ

الزيارة: 2016/01/10م وينظر أيضاً سيد حلمي سيد، سمات الشخصية اليهودية في العقلية العربية، موقع:

gawdateam.ahlamontada.net/t342-topic تاريخ الزيارة: 10 جانفي 2016م

بالتهام ثلاث شريحات من اللحم البارد، قبل أن يمسخ فمه بفوطة من الورق(..) ضحك إيلان روس ضحكة مقتضبة، ارتعش بسببها عنقه القرمزي مثل الهلام¹.

وعلى الرغم من أن "أمين جعفري" قد تحصلّ على الجنسية الإسرائيلية، وهو زميل لإيلان روس في العمل، إلا أنه ظلّ يحيك المؤامرات ضدّه، حيث يقول عنه: >>تأثرت جداً بالمؤامرة التي حاكها ضدّي إيلان روس، ومع ذلك كنت لا أستعرض تدبّينا مفردا في أي مكان²، فقد ظلّ هذا اليهودي يكتّم عداؤه، ولا يظهره إلاّ خفية، إلى أن أعلنه صراحة، بعد حادثة العملية الانتحارية التي أقدمت عليها زوجة أمين جعفري، في أحد المطاعم الإسرائيلية، والتي راح ضحيتها العديد من الإسرائيليين كباراً وصغاراً، حيث اتضح حقد إيلان روس لأمين جعفري واستطاع إثر ذلك >>تأليب أغلبية الطاقم الطبي ضدّي، ومن بين موقفي العرائض المعارضة على عودتي، اقترح بعضهم تجريدي من جنسيتي الإسرائيلية. لا يفاجئني موقف إيلان روس كثيراً، لقد فقد أخاه الأصغر، الرقيب في حرس الحدود أثناء كمين في جنوب لبنان، منذ عشرات سنوات، لم يتمكّن من تخطّي ذلك، لا يسمح لنفسه أن ينس أصولي وإرثي وإن تلامنا في أغلب الأحيان على الرغم من مهاراتي كجراح ونجاحي في علاقتي المهنية والاجتماعية، أظنّ بنظرة العربي الذي لا ينفصل عن صورته الوضيعة وبدرجة أقل عن كونه العدو المحتمل(...). فقد كان يغار من نجاحي فقط لا غير...³. يعدّ هذا الطبيب اليهودي على الرغم من نبالة المهنة التي يمارسها-في نظر الطبيب العربي-حقودا عنصريا غيوراً، له حساسية مفردة تجاه العربي، الذي تسبّب في مقتل أخيه، ومهما قدّم هذا الطبيب العربي من تفوّق ونجاح وإثبات وولاء للجنس اليهودي، من حيث تبنّيه للجنسية الإسرائيلية، والعمل في خدمة الإسرائيليين، ونسيان أهله وأصله، إلا أنّ اليهودي الحقود لا يمكنه أن ينس الأصول العربية، والتي يتمنى أن تبقى خاضعة وفي خدمة اليهود عموماً. وما يثير الانتباه في هذه الصورة، أن الكاتب يقدم على لسان شخصيته المحورية، تبريراً لموقف الطبيب اليهودي الحقود، من

¹ ياسمينة خضراء، الصدمة، تر: نحلة بيضون، الفارابي-سيديا، لبنان-الجزائر، ط1، 2007م، ص19.

²المصدر نفسه، ص113.

³المصدر نفسه، ص98.

حيث أنّ أفعاله السلبية والعنصرية تجاه العربي لها مبرراتها، التي جعلت الكاتب يفسرها بالغيرة من نجاح الطبيب العربي فقط.

وضمن الصورة نفسها المتعلقة باليهودي العنصري، يقدم ياسمينه خضرا في الرواية نفسها صورة لمريض يهودي وقع بين يدي الطبيب أمين جعفري حيث كان المريض متصلبا، يتأوه بجسمه المتهالك، ولكن لما انحنى عليه الطبيب، هدده بعينه، >«وقلب شفثيه في تكشيرة مغتاظة، زجر وهو يدفعني بيد حقودة قائلا:

-أفضّل الموت على أن يلمسني عربي.

قبضتُ على معصمه، وأطبقتُ ذراعه بجزم على خاصرته.

قلت للممرضة: -لا تفلتيه، سأعائنه.

تدمّر الجريح: -لا تلمسني، إياك أن تضع يديك عليّ.

بصق عليّ، ولكن بصاقه الواهن تساقط على ذهنه مرتعشا مطاطيا، فيما بلّلت دموع ساخطة رموشه، أزحّت سترته، بطنه مجرّد عسيده أسفنجية تنضغط لدى أقل جهد يبذله، فقد الكثير من دمائه، وصرخاته تزيد النزيف (...). كان الجريح يحدجني بعينين حقودتين تكادان تنقلبان في محجريهما اشتمزازا، حاول أن يعترض، ولكن تشنجاته أرهقته، أشاح بوجهه مجندلا، لئلا يضطرّ لمواجهة، واستسلم للحذر الذي كان يستولي عليه¹. وفي هذا النص صورة عن حقد اليهودي على العربي، حتى وهو يعاني الألم ومرارته، يفضّل الموت على الشفاء على يدي عربي، إهانات وبصاق وحقد دفين ومعلن، يملأ عيني وقلب المريض اليهودي، ولكن في المقابل، يقدم الكاتب صورة عن روح التسامح ونبل المهنة التي يُزاوها الطبيب العربي، من أنه لم يُعر كلّ تلك المهانة، وذلك العدا باهتمام.

2- صورة اليهودي المتسامح:

عبّرت الرواية الجزائرية-في كثير من الأحيان-عن وجود اليهودي المتسامح، الإنساني والناجح في حياته وعمله، لاسيما في موقفه تجاه العربي، الذي لا يكنّ نحوه أيّة ضغائن أو أحقاد، على غرار

¹ياسمينه خضرا، الصدمة، ص ص23، 24.

شخصية مدير المستشفى الذي يعمل به الطبيب العربي الحاصل على الجنسية الإسرائيلية، حيث يعدّ المدير عزرا بن حاييم- في رواية "الصدمة" لياسمينه خضرا- ذا إنسانية عالية، مسانداً ومساعداً للطبيب العربي منذ أن كان في بداياته الأولى في المهنة، وقبل أن يحصل على الجنسية الإسرائيلية إذ يقول عنه: >مرّ مديرنا عزرا بن حاييم بمكتبي بعد انتهاء العملية الجراحية، إنه رجل نشيط ويقظ، مع أنّه تخطّى السنتين، وبدأ كرشه يتكوّر، في المستشفى يلقّبونه بالرّقيب لفرط استبداده، الذي تزيده سوءا روح دعابة لا تتلاءم دائماً مع موضوع الحديث، ولكنّه أوّل من يشمّر عن ساعديه في الحوادث الأليمة، وآخر من ينصرف. قبل حصولي على الجنسية الإسرائيلية، حيث كنتُ جراحاً شاباً، لا أدخر وسعا لأنتبت في الوظيفة، وقف إلى جانبي، كان لا يزال رئيس قسم متواضعاً، ولكنّه وظّف النفوذ القليل الذي يمنحه إياه منصبه لإبعاد خصومي... حين يستفزّني أحدهم لا يحاول عزرا حتّى أن يعرف من البادئ، بل يتضامن معي تضامناً منهجياً...¹. يقدم ياسمينه خضرا جانبا من الصفات التي يتّصف بها المدير اليهودي، من جدّية في العمل، وصرامة في تطبيق القوانين، ونشاط ويقظة، ومع ذلك يقف مراراً وتكراراً إلى جانب الطبيب العربي مآزرا ومسانداً ومدافعاً عنه، حتى قبل حصوله على الجنسية الإسرائيلية.

ويعدّ المدير "عزرا بن حاييم" من الذين وقفوا إلى جانب الطبيب العربي بعد العملية الانتحارية لزوجته، حيث تأسف له، وأعرب أمين جعفري عن تلك المساندة بقوله: >وصل عزرا بن حاييم بعد عشر دقائق من ذهابي المشرحة، كان في حالة متقدمة من الإجهاد، يترنّح تعباً، عانقني وضمّني بشدّة إلى صدره، لم يعرف ماذا يقول، وقد تجمّد الكلام في حلقه²، وهو موقف مخالف لذلك الطبيب اليهودي العنصري، الذي راح ينادي بضرورة سحب الجنسية الإسرائيلية منه.

ويعدّ المفتشّ رونين نافيد مسؤولاً رفيعاً في الشرطة. وهو يهودي متسامح صديق الطبيب العربي أمين، وبدأت علاقتهما مع العملية الجراحية التي قام بها الطبيب للمفتش، والتي أنقذه فيها من بتر ساقه اليمنى، ويقول عنه الطبيب: >>كان نافيد رونين من أكثر مرضاي جاذبية يتحلّى بمعنويات حديدية،

¹ ياسمينه خضرا، الصدمة، ص ص13، 14.

² المصدر نفسه، ص41.

وبجسّ دعابة خاضع للنقاش لا ريب، إنما مواظب، هو الذي أخبرني الدعابات السفيهة الأولى عن الشرطة¹، ويعدّ من الشخصيات التي بقيت على مودّتها وصدقتها مع الطبيب العربي بعد مصّاب زوجته وما قامت به في عمليتها انتحارية، وكان في كلّ مرة، يطلب منه الاعتراف، أو التذكّر بجوانب ممّا كانت قد أسرت به زوجته له، أو لمحت من المدعّمين لها، والجماعة التي حرّضتها على هذه العملية، وهذا الفعل الذي يعتبرونه إجراماً وإرهاباً في حق الضحايا الأبرياء.

ومن الشخصيات اليهودية المتسامحة في رواية الصدمة لياسمينه خضرا، صورة المرأة اليهودية الطيبة كيم يهودا، التي يبدو أمين جعفري في الرواية معجبا بها، لذكائها، وقدرتها على تحليل الأمور بحكمة²، يقول لها: >>أنت امرأة عظيمة يا كيم³<<، ويقول عنها: >>تزعجني فطنتها، ولكنّي تعلّمت التعايش معها، أعرف كيم منذ أيام الجامعة، لم نكن في الدفعة نفسها-فقد كنت أسبقها بثلاثة أشواط-ولكن كُلا منّا استلطف الآخر، منذ لقاءنا الأولى، كانت جميلة وعفوية، لا تتردّد في المواقف التي يأتي ويحجم فيها الطلاب الآخرون عن طلب ولعةٍ لسجائرهم من قداحة طالب عربي، ولو كان هذا الطالب شابا متفوّقا ووسيماً، كانت كيم مرحة وسخية ومغازلاتها مؤثرة بسبب سذاجتها⁴ وبذلك تمثّل كيم يهودا صورة المرأة اليهودية المتسامحة، الرؤوفة والحنونة والعطوفة⁵ والمساندة للعربي، وهي صورة المرأة الوجودية (المتعايشة)⁶ مع العربي، قبل وبعد حصوله على الجنسية الإسرائيلية- فهي تقدّم نُبلها وإنسانيتها على عنصريتها وحقدتها، وتحرص على مشاعر الآخر العربي، الذي كثيرا ما أُعجب بحكمها وأفكارها، وأن كلّ ما كانت تتوجّه به إليه من تحذيرات ونصائح هو عين الصواب >>كيم على حق، كان يجدر بي أن أسلم الرسالة إلى نافيد، لكان أحسن استعمالها أكثر منّي، لم تخطئ كذلك حين كانت تحذّرني من

¹ ياسمينه خضرا، الصدمة ، ص35.

² المصدر نفسه ، ص ص120، 121.

³ المصدر نفسه، ص126.

⁴ المصدر نفسه ، ص16.

⁵ المصدر نفسه، ص74.

⁶ ينظر: حسين أبو النجا، اليهودي في الرواية الفلسطينية، دار هومه (رابطة إبداع الثقافة الوطنية)، ط1، 2002م، ص26.

نفسى، فمن بين كل الأمور المستبعد حدوثها كانت أكثرها صعوبة على التصديق¹ ومن جهة أخرى تعد كيم مسانده لأمين حتى بعد العملية الانتحارية التي قامت بها زوجته، وسخرت كل وقتها لإخراجه من الحالة النفسية المزرية التي كان يمر بها.

3- صورة اليهودي الناقم على ألمانيا النازية (الواهن- الضعيف):

يعيش كثير من اليهود في الذكرى الأليمة التي تجرعوها مما لحق أهلهم وذويهم من محرقة ألمانيا النازية، وحقد على جنسهم وتشريدهم من طرف الألمان.

وبعد العجوز يهودا جد كيم يهودا، واحدا من الذين يعيشون في ذلك الزمن بذكرياته المريعة. إذ يقدمه ياسمينه حضرا في رواية الصدمة كنموذج عن تلك الشخصية اليهودية الناقمة على الألمان، يقول عنه الطبيب أمين جعفري: >استقبلنا يهودا العجوز بلباقته المعهودة، ترمل منذ ثلاثين عاما، ورحل أولاده للعيش تحت سماوات أخرى. إنه عجوز ناكل، بدت العظام في أعلى ووجنتيه وتحجرت مقلتاه، في وجه أضنته السنون، يتمائل للشفاء من سرطان في غدة البروستاتا، أوهن قواه في غضون أشهر قليلة، يفرح دائما حين يزوره الناس، كما لو أنهم يردون له الروح، يعيش منتكسا رغما عنه، منسيا في بيته الذي شيده بيديه، وسط كتبه وصوره التي تروي بالطول وبالعرض فضائح الإبادة، ولذلك عندما يدقّ بابه قريب أو صديق، يكون الأمر كما لو أنّ أحدهم رفع الفتحة التي يختبئ تحتها لإشاعة بعض النور في ليله الدامس (...). كلما هم يهودا العجوز بسرد أسرته التي أرسلت إلى معسكرات الاعتقال، ذكرته كيم بأنه وعدّها بعدم إفساد السهرة اعترف أنّه تعهد بعدم إثارة مآسي الأمس، واستقرّ في مقعده منزعجا بعض الشيء لأنّه مضطرّ للاحتفاظ بذكرياته لنفسه² يبدو من خلال هذا النص من الرواية، نظرة الأديب الخاصة تجاه اليهودي المتأزم الوحيد والحزين، وهي تبين نقطة ضعف اليهودي، الذي لا يزال يعيش تحت وقع الإبادة الألمانية النازية، حيث شرّدت وقتلت أهاليهم، وهم يعيشون اليوم، العديد من الأمراض الجسدية والنفسية التي تنهش الكيان، وتعيّب عنه كل لحظات السعادة والفرح، و لا حديث لهم إلا عن

¹ ياسمينه حضرا، الصدمة، ص 188.

² المصدر نفسه، ص 90، 91.

الماضي والجراح الدفينة، وفي الوقت نفسه، نجد تعارض الأحفاد مع الأجداد فيما يتعلق بسرد قصص الحزن الغابر، كما هو الشأن بالنسبة لـ "كيم" التي تطلب من جدّها عدم إفساد السهرة بحكاياته الحزينة وتحث على طلب الحياة وعيشها بكل ما فيه من سحر وجمال.

وفي رواية **كريماتوريوم** لـ (واسيني الأعرج)، صورة عن اليهودي الذي يفضل الموت والانتحار من الوقوع في يد الألمان، تسرد "مي" في الرواية قصة جارهم وصديقهم وطبيب عائلتهم، اليهودي **هرمون سيمون**، تقول عنه: >> عندها نزل الألمان في طبرق تحت قيادة رومل، كان طبيب العائلة اليهودي، واسمه **هرمون سيمون**، في حالة لا توصف من الرعب، قال له **بابا حسن** عندما زاره في بيته في شارع الملك جورج وكان مرعوباً هو وعائلته، تعال إلى بيتي يا **سيمون**. لن يمسك أحد بأذى، وعرض عليه البقاء عنده في حالة ما إذا تمكّن الألمان من الدخول إلى فلسطين، وتقاسم بيته معه هو وزوجته وابنته، لكن **هرمون** بعد أن شكره وباسه على رأسه اعترفاً، قال له: يا صديقي وحبيبي، مُجبر أن أقول لك الحقيقة، فبيننا ملح وخبز ومحبة كبيرة، أفضل الموت على السقوط بين أيدي القتلة الألمان وأشار إلى ثلاث إبر جاهزة بالسم له ولزوجته ولابنته <<¹، وهي صورة عن كره اليهودي للألمان الذين يصفهم بالقتلة، ويفضل الانتحار والموت على الوقوع بين أيديهم.

وقد أورد **واسيني الأعرج** في الرواية نفسها، موقفين متباينين موقف "مي" الفنانة الفلسطينية التي غادرت أرضها رفقة والدها تجاه أمريكا وموقف والدها "بابا حسن" إبادة الألمان لليهود. لاسيما وأن "بابا حسن" كان على علاقة مع المرأة الألمانية "إيفا موهلر"، التي كانت تعمل بمستشفى بفلسطين، ويقرّ الجميع بأنها كانت تكره اليهود وتمقتهم، يقول عنها "بابا حسن" مدافعاً: >> كلّمك تتهمون إيفا موهلر، وأنتم لا تعرفون عنها شيئاً، لم أكن نازياً إلا بالقدر الذي ساعدني على استرجاع ما سُرق مني (...). لم تكن إيفا موهلر تكره اليهود ولا قتلت أحداً كما يشيعون، ولكن الذين حملوا أمتعتهم من كلّ أصقاع الأرض وجاؤوا ليسرقوا أرض غيرهم من العرب واليهود هم القتلة الفعليون؟ <<² غير أنّ "مي"

¹ واسيني الأعرج، كريما توريوم، سوناتا لأشباح القدس، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، ط1، 2008م، ص39.

² المصدر نفسه، ص80.

ترى أنّ الألمان هم الذين أحرقوا اليهود الأبرياء: >> لقد أحرق أصدقاؤك النازيون وأحباب إيفا موهلر، يهوداً أبرياء، وأبادوا الملايين، فقط لأنهم يهود؟ هل تتصوّر هول الفاجعة؟^{1<<}

من خلال هذين الموقفين وإن يبدو أنهما مختلفين ظاهرياً، إلا أنّهما يتفقان من حيث كون "بابا حسن" لا يكن أية عداوة لليهود الأبرياء، تدافع عنهم ابنته "مي"، وهو يتّهم اليهود الصهيانية الذين جاءوا لسرقة البلاد من أهلها، واغتصاب وإبادة شعبها، فهؤلاء في رأيه هم الذين يستحقّون الإبادة الحقيقية والموت . ولكنّ "مي" ترى أن الألمان لم يفرّقوا بين العدو المغتصب واليهودي البريء المتعايش والمسلم.

3- صورة اليهودي النَّاسك:

يلتقي الطبيب أمين جعفري في رواية "الصدمة" لياسمينه خضرا بشخصية اليهودي شلومي هيرش المدعو "زيف الناسك" من طرف العرب بسبب أحد الزاهدين القدامى يقول: >> أقطن في الكوخ هناك، خلف أشجار البرتقال، في الماضي كنت أعمل سمساراً عند كبير أسرتكم، منذ أن خسر أراضي، تحوّلت إلى دجّال، لا يخف على أحد أنّي لا أتمتع بقدرات خارقة أكثر من الدجاجات التي أضحي بها على مذبح الأحزان الضائعة، إنما لا أحد يعبأ بذلك، مازال الناس يقصدونني ويطلبون أن أجتزح لهم معجزات لن أحققها، أعدهم بأيام فضلى لقاء بضعة يشكلات بائسة، وبما أنّ هذا لا يكفي لإسعادي، فزبائني لا ينعمون عليّ حين لا تُصيب تنبؤاتي^{2<<} تعدّ شخصية هذا اليهودي ناسكة متواضعة، يعترف بعمله لدى العربي الجدّ الأكبر لأمين جعفري، كان هذا اليهودي متعايشاً مع العربي من جهة، ويتقبل العمل لديه من جهة أخرى، وفي ذلك دلالة على أنّ الناسك زيف لا يملك عداوة للعرب كالذي يحمله الكثير من اليهود.

¹ واسيني الأعرج، كريمة توروم، ص 80.

² ياسمينه خضرا، الصدمة، ص 276.

ويعتمد في معيشته على بعض النبوءات والمعجزات التي يطلب زبائنه منه أن يُبلّغهم إيّاها، على الرغم من معرفتهم لتواضعه في لمس الصواب والحقائق إلّا أنّهم يلجئون إليه، مقابل مبلغ زهيد. وفي ذلك دلالة على ما يخبّؤه القدر ولما سيقع في المستقبل.

وفي حوار الناسك زيف مع أمين جعفري، يتلو العربي جزءاً أو آيات من سفر أشعيا¹، ويقول للعجوز عن العلاقة العريقة التي تجمع بين العرب واليهود:

>> - كل يهودي من فلسطين هو عربي بعض الشيء، وما من عربي من عرب إسرائيل يستطيع الادّعاء أنه ليس يهودي بعض الشيء.

- أوافقك الرأي تماماً، فلماذا كلّ هذا الحقد وأواصر القربى هي نفسها؟

- لأننا لم نفهم شيئاً من النبوءات وأبسط قواعد الحياة.

رجح رأسه موافقاً وحزيناً.

سألني:

- فماذا نفعل؟

- أولاً نفرج عن الله، بعد كل هذا الوقت الذي كان فيه رهينة تزمّتنا وتعصّبنا²

وبذلك فإنّ كلّ من العربي واليهودي يتفقان على أنّ اليهود والعرب تجمع بينهما علاقات التشابه في الكثير من العناصر، ولذلك لا داعي للحقد والعداء، وهما إثر ذلك يبحثان عن الحلّ في زوال الضغينة بالابتعاد عن التزمّت والتعصب.

¹ سفر إشعيا هو السفر رقم 12 في التوراة (التناخ) و 23 الإنجيل عند المسيحيين البروتستانت و 26 عند الأرثوذكس والكاثوليك . يضم هذا السفر 66 أصحاحاً تتحدث عن رؤى النبي إشعيا لبني إسرائيل. يصنف هذا السفر ضمن الأسفار الشعرية مثل سفر نشيد الأنشاد والأمثال والمزامير. ينظر: موقع ويكيبيديا: <https://ar.wikipedia.org/wiki/> ، تاريخ الزيارة:

2016/06/13

² ياسمينة خضرا، الصدمة ، ص ص278، 279.

المبحث الثالث: صورة الصهيوني¹ في الرواية الجزائرية

عاش اليهود إلى جانب العرب في فلسطين، منذ وقت طويل، دون أي مشاكل تُذكر بل كانوا يتقاسمون العطف والمودة والمحبة. كما يتّضح ذلك على لسان الخالة دنيا ل"مي" الطفلة في رواية كريما تور يوم ل(واسيني الأعرج): >> "كنا عايشين مع اليهود، وكنا نعطف عليهم، وكانوا يعطفون علينا، كنا نتقاسم أكلنا في الأيام الصعبة ومحلنا، حتى حروبنا الصغيرة، كنا نحلّها بالتوافق والاسترشاد بكبار الحيّ، ما الذي تغيّر؟">>². يعدّ سؤال الخالة دنيا عن الذي تغيّر، لكون مصاب الفلسطينيين كبير وعميق، معاناة وألم قاهرين، واغتصاب وتشريد للسكان، ودمار لمساكنهم. ما الذي تغيّر؟ لاسيما وأنّ المسئول عنه هو اليهود، ولكن أيّ يهود، إن كان الماضي الذي يجمع بينهما كلّ تعاش وتسامح ومودة لقد بدأت معاناة الفلسطينيين كما يصوّرها (واسيني الأعرج) في الرواية يوم الثلاثاء 29 نوفمبر 1947م حيث كانت العائلة مجتمعة في ذلك المساء الذي تقرّر فيه تقسيم فلسطين بكلّ بساطة، وقد سبق ذلك بحوالي شهر يوم 30 أكتوبر 1947م، حيث تمّ توزيع المناشير من طرف >> الوكالة اليهودية على سكان الأحياء المقدسية العربية، كتبت عليها بخطّ عربي جميل: "أنتم أيّها العرب، أبناء عمّ ساميين، حكموا عقولكم ولا تردّوا على زعمائكم من العرب، فكلّ له مصلحة خاصة، انضمّوا معنا وسيروا على بركة الله لنقوم بتعمير البلاد من كلّ الوجوه، ونسير فيها سوية كالإخوان" (...). لقد أصبح للحجّ مذاق الكبريت والبارود والخوف وزادت الأحقاد ترسّخا وأصيب الناس بالعمى، كلّ الناس بدون استثناء >>³.

¹ الصهيونية هي حركة سياسية يهودية، ظهرت وسط وشرق أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر، ودعت اليهود للعودة إلى أرض الآباء والأجداد (إيرنيس إسرائيل)، ورفض اندماج اليهود في المجتمعات الأخرى للتحرر من معاداة السامية والاضطهاد الذي وقع في الشتات، وبعد فترة طالب قادة الحركة بإنشاء دولة منشودة في فلسطين، والتي كانت ضمن الأراضي التي تسيطر عليها الدولة العثمانية، وبعد تأسيس دولة إسرائيل أخذت الصهيونية على عاتقها توفير الدعم المالي والمعنوي لإسرائيل. وقد عقد أول مؤتمر صهيوني في بازل سويسرا ليتمّ تطبيق الصهيونية بشكل علمي على فلسطين، فعملت على تسهيل الهجرة اليهودية، ودعم المشاريع الاقتصادية لليهودية، وقد سميت الصهيونية بذلك، نسبة إلى (صهيون) جبل يقع جنوب بيت المقدس، يقدهسه اليهود. (موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة: صهيونية/ <https://ar.wikipedia.org/wiki/صهيونية> تاريخ الزيارة: 2016/01/11)

² واسيني الأعرج، كريما تور يوم، ص 248.

³ المصدر نفسه، ص 125.

وقامت على أنقاضه إضرابات وفوضى عمّت كلّ الشوارع والأسواق، حَرَقَ لمخازن اليهود ونُحِبَ لموجوداتها، وتبع ذلك انفجار كان في >> يوم الأربعاء 1 فبراير 1948م، في شارع بن يهودا بالقدس، الانفجار هزّ أركان المنطقة اليهودية، وأسفر عن نسف جزء من شارع بن يهودا وجريدة البالستين بوست، التي كانت تبث أخباراً عدائية ضدّ العرب، وتصفهم بكلّ الصفات القبيحة¹. فكان كلّ من شارك في تلك الانفجارات هدفا للصهيونية الجهنمية، بما فيها والد "مي".

تقول الخالة "دنيا" للطفلة "مي": >> هناك آلة جهنمية، منظمّة جداً. لقد برزت الصهيونية في مرحلة الشتات، وعلى مرّ العصور، استغرقت في النوم، ولم تمت، كان روادها يرّدون دائما: "عائدون إلى أورشليم فرحين، في العام القادم" القصة الجادة ولم تكن في أي يوم من الأيام طرفة عابرة أو مجرد أسطورة، في القرن الماضي ظهرت جماعة أحباء جبل صهيون الذين يهيمنون حبّا ويتمنّون رؤيتهم قبل موتهم، فقد ظهر شخص اسمه تيودور هرتزل، وأشاع فكرة أنه لا استقرار لروح اليهودي إلاّ في أرض فلسطين، وأثار هذا الإحساس مشاعر يهود العالم، وأصبح باستطاعة هرتزل هذا اليهودي النمساوي الذكي. أن يقف أمام السلطان العثماني عارضا عليه شراء أرض فلسطين ليسكنها اليهود، ولكن السلطان الذي كان يحمل لقب خليفة المسلمين، قابل عرضه بالرفض، وكاد الأمل في إحياء إسرائيل أن يموت، لقد خطّطوا لذلك كله، وفرصة لأوروبا لكي تمحو عقدة الهولوكوست الذي تسببت هي فيه، وليس نحن من نستطيع منعهم بعد أن وضع الانجليز مفاتيح البلاد كلها في جيوبهم، الانجليز سبب في كلّ ما لحق بأرضنا، كنّا نصف لهم ونمنحهم مفاتيح المدن، وكانوا يتضحكون ملء أشدّاقهم مع أعدائنا ويقسمون الجغرافية كما يشتهون ويُنكّتون على غبائنا، هل يدري هؤلاء أنهم كانوا يفعلهم المشين هذا يَصْنَعُونَ حقد الأجيال القادمة².

لقد حاول هؤلاء اليهود الصهاينة اغتصاب الأرض الفلسطينية بدعوى شرائها وإن كان الانجليز هم الذين سهّلوا لهم ذلك، وحمل الصهاينة صورة المستعمر دوما، حيث فكّروا في بداية الأمر في >> استعمار أمريكا الجنوبية ولم يُفْلِحُوا، إذ لم يكن الأمر هيّنا بل كان جنونا، وعندما كان جوزيف تشمبرلين في

¹ واسيني الأعرج، كريما توربوم، ص 126.

² المصدر نفسه، ص 247، 284.

منصب وزير خارجية أكبر إمبراطورية استعمارية، فكّر في منح اليهود أراضي خصبة وحيّدة في شرق إفريقيا، كاد العرض أن ينال القبول عند الكثيرين من بينهم هرتزل نفسه، لولا اعتراض رجل كانت تجري الصهيونية في عروقه ودمه بقوة، هو حاييم وايزمان، كان يعمل مدرّسا للكيمياء في جامعة مانشستر، وفي أثناء الحرب أصبحت الحاجة الماسّة إلى البارود TNT ضرورية، واتّضح أنّ مادة الأستون المكوّنة له لم تكن متوفّرة خارج ألميرا، وكان الكيميائي اليهودي وايزمان هو من حل المشكلة، وتمّ توفير الأستون، وسجل وايزمان براءة اختراعه، ولم يطلب أي مقابل له، ولكنه طلب من الانجليز مقابل جهده العلمي تأييد قضيتّه الحيوية، فكان **وعد بلفور** المتعاطف علناً مع اليهود: "إنّ حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، وستبذل كل جهودها لتحقيق هذا العرض، وسيتمّ ذلك دون المساس بالحقوق المدينة والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين" اتّضح منذ ذلك الوقت أن المسألة كانت جادّة ولم تكن لعبة أو مجرد طمع و صار واضحا أنّ ظروف العرب من مسلمين ومسيحيين ستكون قاسية جداً في السنوات والقرون اللاحقة¹. يعدّ هذا السرد لتاريخ الحركة الصهيونية، مبرزا لأهم مميزات الفكر الصهيوني من استغلال للفرص لتحقيق الأهداف الخفية، في دعم قضيتهم الحيوية في إيجاد وطن قومي لهم في فلسطين.

ومن الأفعال الشنيعة التي كانت تقوم بها فرق الهاجاناه السّفاحة، تدمير واحتلال مناطق متعدّدة من فلسطين، يقول عنها "بابا حسن" >> حاولت قوات الهاجاناه استغلال ما حدث في دير ياسين لتعزيز قواتها المعزولة في جيب على جبال المشارق Scopus في القدس الشرقية، بعد دير ياسين بأيام أرسلت الهاجاناه إلى جبال المشارق وعبر حي الشيخ جراح العربي، قافلة مكوّنة من عشر مركبات: باصات مصفحة، وسيارات شحن محمّلة بالمؤن وسيارتي إسعاف وصفحتي حراسه، كان على متنها جميعها أكثر من مئة شخص، وكن لها المقاومون، وكانت النتيجة تدمير معظم الآليات، وقتل مالا يقل عن 77 من ركبها واعتقال الباقين، ولكنّ القدس كانت مستهدفة بموجب الخطة (د) ووضع لها اسم ييوسي Jevussi وجعل توقيتها متزامنا مع يافا، في 23 أبريل في اليوم الذي كنت أواجه فيه الموت في

¹ واسيني الأعرج، كريما توربوم، ص 249.

حيفا، كانت قوات الهاجاناة والأرغون وإشتيرن تشنّ هجوما عنيفا على أربعة محاور...¹ وكانت النتيجة نجاح القوات الصهيونية في احتلال المحور الرابع بتاريخ: 30 أفريل الذي يتمثل في حي القطمون أحد أهم الأحياء العربية في القدس الغربية، والذي يعدّ بوابة لاحتلال باقي الأحياء العربية²، وقد كانت في كلّ ذلك مدعومة من طرف الانجليز، واتّضح الدّعم أكثر بعد نهاية الانتداب في 15 ماي 1948م³. وبذلك فإن اليهود الصهاينة يمثّلون الصورة الأبعث لليهود، سواء على مستوى المتن الروائي الجزائري، أو في الفكر والرأي العام العربي، من حيث بروز صورته مستعمرا، مغتصبا، قاتلا وحشيا ومدمرا، مُتحيالا، ومُخادعا.

وتتضح من خلال رواية **الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء ل(الطاهر وطار)** صورة اليهودي الإسرائيلي، من حيث كونه المسير للعالم من وراء البيت الأبيض بقوله: >البيت الأبيض كما هو معلوم، ليس سوى المرآة العاكسة، لرؤى إسرائيل الإستراتيجية واللسان الذي تموّه به الدولة العبرية<<⁴، ويعود ذلك لطول يد اليهود في العالم، نتيجة استغلالها للفرص، وتسخير كلّ جهودها في سبيل تحقيق ودعم قضيتها الحيوية الأساسية، باستعمالها أسلحتها الخاصة، يقول الطاهر وطار في الرواية: >إنّ الغرب كلّ الغرب، يمكن أن يخطئ في أيّ شيء ماعدا حسابات ديونه وفوائدها، فهي أهمّ سلاح اخترعه اليهود منذ آلاف السنين<<⁵، وحساب الأموال واكتنازها والثراء الفاحش يعدّ اليوم ملكا لليهود، وهذا ما يسمح لهم بتسيير العالم وقضاياه.

ومن الصور الأخرى التي قدّمها الطاهر وطار عن اليهود هي السّحر والإيمان به، وتفسير جميع ما يقع في العالم من مشاكل بقضايا تدّعم أهدافهم، حيث يفسّر كبير اليهود المدعو شرططوخ، ظاهرة الظلام السائد في العالم في وضح النهار >بأن عفاريت سيدنا سليمان هم الذين انطلقوا من أعماق

¹ واسيني الأعرج، كريما توريوم، ص 261.

² المصدر نفسه، ص ص 261، 262.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 263.

⁴ الطاهر وطار، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، موفم للنشر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007م، ص 87.

⁵ المصدر نفسه، ص 110.

الأرض، ليعلنوا عن غضب الرب من التأخير في إعادة بناء الهيكل¹، وقد سخرت منه بعض الآراء العالمية² واعتبرت أن فيه صهينة للظاهرة، فلم ترتبط صورة اليهودي الصهيوني إلا بأشع الصفات وأقبحها.

ومما سبق يتضح أنّ صورة اليهودي وردت على مستوى بعض الروايات الجزائرية في مرحلة ما بعد الاستقلال، وإن كان ذكره آنذاك يقتصر على فئة يهود الجزائر، في كيفية تعايشهم مع الاستعمار الفرنسي، وقانون كريميو الذي سمح لهم بأخذ الجنسية الفرنسية، وعن طباع أهله وما اشتهروا به من حب للمال، وامتلاك للعقارات، وقدرة على تسيير الأموال والتخطيط والمحاسبة، وفي الوقت نفسه البخل والشح والتظاهر بالفقر، إلى جانب بعض الصفات النفسية المريضة والمعقدة. وبدأت تظهر في روايات المرحلة الأخيرة صورة ليهود فلسطين، الذين عاشوا جنبا إلى جنب مع المسلمين والمسيحيين في أرض الميعاد، منهم فئات عنصرية حاقدة على الجنس العربي، ومنهم المتسامحون المتعايشون، وفي روايات أخرى تبرز صورة اليهودي الصهيوني المعتدي المغتصب للأرض الفلسطينية، وهو من جهة أخرى مسير للعالم من البيت الأبيض باسم الولايات المتحدة الأمريكية.

وفيما يلي جدول ملخص لصورة اليهودي وأهم الصفات والميزات التي خصّه بها الروائيون الجزائريون في وياتهم.

¹ الطاهر وطار، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، ص 321.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 46.

جدول تلخيصي لصورة اليهودي في الرواية الجزائرية:

صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية			
الرواية	الصورة	اليهودي	
لرشيد بوجدارة "النهار"	<ul style="list-style-type: none"> - مؤسسو الموسيقى الأندلسية القسنطينية. - حنين دائم إلى الأندلس والأمل في الرجوع. - الحفاظ على تقاليد الوطن الأصلي (الأندلس). 	يهود قسنطينة	
لرشيد بوجدارة "الإنكار"	<ul style="list-style-type: none"> - لا يلبس الحجاب. - يعشقن السنغالين. - بدينات. - يلوكون الشوينغوم. - بارعات في صناعة الفطائر والمرطبات اللذيذة. 		نساء يهود قسنطينة
	<ul style="list-style-type: none"> - غير لطفاء. - نحيلون (هزلاء عجاف). - يفضلون لعبة البيس. 		الأطفال
لأمين الزاوي "السماة الثامنة"	<ul style="list-style-type: none"> - البراعة في الفلسفة والرياضيات. - الجنون وعشق الموسيقى - إتقان الدرازة، خياطة الجلابة، الصياغة، التجارة. - البراعة في تحضير الشاي . - قبر حاخامهم موجود في تلمسان. 	يهود تلمسان	

صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية		
الرواية	الصورة	اليهودي
لعبد الجليل مرتاض "عقاب السنين"	<ul style="list-style-type: none"> - قانون غير عادل. - هدفه تعاون المستعمر الفرنسي مع اليهود والتغلب على الشخصية الوطنية. 	قانون كريميو
لرشيد بوجدارة "انبهار"	<ul style="list-style-type: none"> - التفرقة بين المجتمع الجزائري الذي يشكل لحمة واحدة من اليهود والمسلمين. - لم يرحب به بعض اليهود. 	
لأنور بن مالك "العاشقان المنفصلان"	<ul style="list-style-type: none"> - مضحية في سبيل حببها حتى الموت. - في منزلة الأهالي (لسكان الجزائر المستعمرة) لأنها يهودية أجنبية (لم تستفد من قانون كريميو). - غير مرغوب فيها حتى من قبل الأوروبيين للعمل لديهم . 	المرأة اليهودية الأجنبية من منظور المستعمر الفرنسي
لأنور بن مالك فضل الليل على النهار"	<ul style="list-style-type: none"> - عدواني، غريب الأطوار، غيور، حقود، فتي بشوش متحرر من الأوهام. - مُحفِق عاطفيا. - مكانة أسرته سيئة. - أبوه فاشل في أعماله . - يدين للجميع بالمال. 	سيمون بن يامين اليهودي الغريب الأطوار (مريض النفسية)

صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية		
الرواية	الصورة	اليهودي
لرشيد بوجدرية "الإنكار"	<ul style="list-style-type: none"> - يهودي ملحد. - غريب الأطوار، متناقض في شخصيته ومعتقداته. - ذو شذوذ جنسي (اللواط) - أقرب إلى الأنثى منه إلى الذكر (جميل، رقيق الصوت، سريع البكاء) - يقيم علاقة مشبوهة مع العربي المسلم (يمثل فيها الأنثى) - رمز للشيطان الرجيم من منظور المجتمع الجزائري. - العداوة والمقاطعة لمن يصاحبه. 	أستاذ مادة الفيزياء اليهودي الغريب الأطوار (مريض النفسية)
"الحفر في تجاعيد الذاكرة" لعبد الجليل مرتاض	<ul style="list-style-type: none"> - صرّاف، بائع للنقود، مُرابي.. - صانع جيد للأحذية الجلدية. 	اليهودي التاجر، الثري مالك العقارات
"حفنة السراب" للصادق نجوش	<ul style="list-style-type: none"> - يقيم الذبح الشرعي لذبائحه، (جزّار) 	
"انبهار" لرشيد بوجدرية	<ul style="list-style-type: none"> - مسيرّ جيد للثروة، بشغف، وبراعة ونجاح. 	
"حرّاقة" لبوعلام صنصال	<ul style="list-style-type: none"> - <u>داوود بن شقرون</u>: - يهودي ثري، منافق، مخادع، ماكر - متظاهر بالبؤس والشقاء. 	

صورة يهود فلسطين في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	اليهودي	
"الصدمة" لياسمينه خضرا	<ul style="list-style-type: none"> - مظهر جسمي باعث على الاستمئزاز(كرش هائل-خدين متهدّلين). - شره في الأكل. - يجبك المؤامرات ضدّ العربي. - حقود - غيور. - العربي عدوه المحتمل. 	الطبيب إيلان روس	العنصري الحقود على العربي
	<ul style="list-style-type: none"> - حقد دفين ومُعلن. - تفضل الموت على الشفاء على يدي عربي. - إهانة واحتقار للعربي وبصق. - الاعتراض على معالجة العربي له. 	المرريض اليهودي	المتسامح والمتعاش مع العربي
	<ul style="list-style-type: none"> - مدير المستشفى الإسرائيلي. - ذاو إنسانية عالية، مجتهد، جاد في العمل. - مساند ومساعد للطبيب العربي حتى قبل الحصول على الجنسية الإسرائيلية. - متضامن ومتأسف لمصابه وأمه 	عزرا بن حاييم	المتسامح والمتعاش مع العربي
	<ul style="list-style-type: none"> - مسؤول رفيع في الشرطة. - صديق للطبيب العربي. - أكثر المرضى جادية. - معنويات حديدية، حسنّ دعاية. - إنسان نبيل - متضامن مع العربي ومعين له في مُصابه. 	روينين نافيد المفتش	المتسامح والمتعاش مع العربي

صورة يهود فلسطين في الرواية الجزائرية

الرواية	الصورة	اليهودي	
"الصدمة" لياسمينه خضرا	<ul style="list-style-type: none"> - ذكية، فطنة، قادرة على تحليل الأمور بحكمة. - امرأة عظيمة، جميلة، عفوية. - متسامحة، متعايشة، إنسانية. - مرحة، سخية، ساذجة. 	الطبيبة كيم يهودا	المتسامح والمتعايش مع العربي
	<ul style="list-style-type: none"> - متأزم، وحيد، حزين. - مريض جسديا ونفسيا. - يعيش في ماضي الإبادة الألمانية لعائلته. - تغيب عنه السعادة والفرح. - يحقد على الألمان الذين شردوا أهله وقتلوهم 	يهودا العجوز	اليهودي الضعيف، الواهن، الناقم على الألمان
	<ul style="list-style-type: none"> - طبيب عائلة عربية. - متعايش طيب إلى جانب جيرانه العرب. - يحقد على الألمان ويكرههم. - يصف الألمان النازيين بالقتلة. - يفضل الموت انتحاراً بالأبرياء المسمومة على الوقوع في يد الألمان. 	هرمون سيمون	
	<ul style="list-style-type: none"> - يقطن في كوخ متواضع. - عمل سمساراً لدى العربي، ولا يحقد عليه. - يدعي النبوءات والمعجزات بطلب من زبائنه. - يتقاضى أجراً زهيداً لتواضع نبوءاته وعدم صدقها في كل مرة . - يتفق مع العربي على أنّ اليهود والعرب تربطهم علاقات عريقة. - البحث مع العربي عن الحلّ في إبعاد الحقد والعداء بالابتعاد عن التعصّب والتزمت 	شهمي هيرش (زيف الناسك)	اليهودي الناسك

صورة الصهيوني في الرواية الجزائرية

اليهودي	الصورة	الرواية
الحركة الصهيونية	<ul style="list-style-type: none"> - خداع العرب بشعارات لإقامة العداوة بين العرب الفلسطينيين وحكامهم. - زعم تعمير البلاد والسير فيها إلى جانب العرب كالأخوان. - بث أخبار عدائية عن العرب. 	"كريماتوريوم" واسيني الأعرج
الصهيونية آلة جهنمية	<ul style="list-style-type: none"> - آلة جهنمية منظمة. - برزت في مرحلة الشتات. - أحبباء جبل صهيون. - أرض فلسطين: الأرض التي يستقر فيها اليهودي. - السعي لشراء أرض فلسطين من الحاكم العثماني آنذاك. - الاستعانة بالانجليز لتمكّنهم من إقامة دولتهم بفلسطين. 	
الصهيونية المغتصبة (المستعمرة)	<ul style="list-style-type: none"> - روح الاستعمار والاحتلال. - انتهازية واستغلالية لنقطة ضعف الانجليز في احتلال فلسطين. - القضية الحيوية الأساسية: تأسيس دولة في فلسطين . - قاتلة، مدمرة، مغتصبة، محتلة، وحشية بقواتها(الهاجاناة، الإرغون، إشتيرن). 	
الحركة الصهيونية الإسرائيلية	<ul style="list-style-type: none"> - المسيرة للعالم من وراء البيت الأبيض وفق رؤية إسرائيل الاستراتيجية - سلاحها الأول الحسابات المالية بديونها وفوائدها. - تفسير وتحليل كل ما يقع في العالم بما يدعّم هدفها ومخططاتها في إعادة بناء الهيكل وتسيير العالم. 	"الولي الطاهر" يرفع يديه بالدعاء " للطاهر وطار

يخلص البحث عبر خطواته المحددة سلفاً، إلى مجموعة من النتائج الملخصة والدقيقة، حول أهم ما ورد عبر الفصول الخمسة المدرجة ضمنه، من نتائج الفصل الأول: صورة الآخر في العمل الروائي ما يلي:

- الذات هي من ترسم حدود الآخر وتضع مواصفات شكله، فكما يكون الآخر فرداً يكون في أحيان أخرى جماعة، وكما يكون الآخر معروفاً للذات وقريباً منها، فإنه يكون في أحيان أخرى في أماكن بعيدة وحتى في أزمنة مختلفة .

- العلاقة بين الأنا والآخر علاقة تقتضي الحذر في التعامل معها، لكونها تلازمية في الوجود، جدلية في المفهوم والبناء تقتضي حسن الإدراك والوعي، ومن ثم القبول والاحترام الذي يوجب حسن الاستماع وحسن التحاور من منطلق الإفادة والاستفادة، بالتسامح والانفتاح بعيداً عن الانعزال وسوء الفهم.

- يعدّ حقل الصورئية أو الصورولوجيا (Imagologie) من أكثر حقول الأدب المقارن اهتماماً بالعلاقات بين الشعوب واحتكاكها وتواصلها الثقافي، كونها تسعى إلى دراسة صورة البلد الأجنبي وتجلياتها في الأعمال الأدبية؛ مما يسمح بإجلاء الغموض الذي يعتري الصور الخاطئة التي تقدمها الأمم لغيرها نتيجة سوء الفهم وقلة الإطلاع، وعدم الوقوف على الحقائق. وهي تهتم بدراسة الصورة الأدبية الممثلة لبلد أجنبي معين، إذ تعدّ المحور الأساسي الذي تدور حوله جلّ دراسات هذا الحقل.

- تعتبر الصورة التي يقدمها المبدع وسيلة يرى من خلالها المجتمع مرآة أعماقه فيها من قبح وجمال، فترسم عبرها ملامح ذاته والآخر، فتعايش أفكاره وأحلامه وانفعالاته التي تجلّت في هذا العالم الرمزي الذي يشكّله الأديب في كتاباته .

- الذات هي التي تُوجّه صورة الآخر، وتشكّلها وفقاً لمنظورها الجماعي ووعيها الذاتي وإن كانت تُشيد دائماً على ميدان التاريخ، ولكنها تشيد انطلاقاً من أنماط أصلية عابرة للتاريخ، هي التي تؤسس مخيالنا الإنساني، وبذلك يُسهم الإدراك الذاتي إلى جانب الوعي التاريخي، والمخيل الذهني في بلورة وتشكل صورة للآخر، تُسهم بدورها في بلورة الذات وتمتّع الإنسانية بمخيلتها كاملة والاستعاضة من نقائصها بالاستلها من الآخر، إذا دعت الحاجة إلى ذلك بما يمكن من إقامة التواصل بين أبناء البشر.

من نتائج الفصل الثاني: تطوّر الرواية الجزائرية من 1950م إلى 2010م ما يلي:

- مرّت الرواية الجزائرية، خلال الفترة المدروسة بعدّة تحولات على مستوى المضامين عبّرت عنها تبعاً للتغيّرات التاريخية والاجتماعية والسياسية التي مرّ بها المجتمع الجزائري.
- تعود نشأة الرواية الجزائرية إلى الفترة الاستعمارية من تاريخ الجزائر، ظهرت فيها الرواية المكتوبة باللغة العربية، وإن كانت بسيطة في موضوعها وطريقة بنائها. أما الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية فكانت بدايتها مع رواية ابن الفقير Le fils du pauvre سنة 1950م لمولود فرعون، وتلتها جملة من الأعمال تعدّدت فيها أصوات الأدباء وتنوّعت وسايرت وقائع الشعب الجريح المنتهكة حقوقه، وقد كان اللقاء والتصادم بين المجتمعين الجزائري والفرنسي في أوجّه في هذه المرحلة حيث عاشا جنبا إلى جنب في الجزائر أو في فرنسا فكانت الروايات محمّلة بأمثلة من هذا التقابل بين الأنا والآخر، تعكس صورة الآخر الفرنسي بالدرجة الأولى كما يتمثّل عند أديب بعينه وفي رواية بعينها.
- وفي المرحلة الثانية بعد الاستقلال، عرفت الرواية الجزائرية تطورا على مستوى المضامين، وعرفت الرواية العربية منها بعد النشأة والتأسيس مواضيع متعدّدة؛ كتمجيد الثورة ومهادنة السلطة، ومنها ما تبنت الخطاب الرسمي للبلاد (الخطاب الأيديولوجي الاشتراكي)، وابتعدت روايات أخرى عن الأيدولوجيا وكترّست موضوع الواقع الاجتماعي. وعرفت الرواية الجزائرية موضوعا جديدا يتعلّق بنوع من الاغتراب عاشه الأدباء في اللغة والوطن، بعد الهجرة إلى بلاد الغربية. وبذلك فإن الآخر الذي برز على مستوى روايات هذه المرحلة هو المستعمر الفرنسي من خلال استذكار وقائع حب التحرير، أو الآخر الفرنسي الذي أصبح الاحتكاك به واردا من خلال الهجرة إلى فرنسا. وتوجد بعض الصور عن يهود الجزائر وقانون كريميو، كما وردت عند رشيد بوجدره.
- في المرحلة الأخيرة، انعكس الواقع الجزائري بسلبياته وإيجابياته على مستوى المتن الجزائري باللغتين العربية والفرنسية، وقد كانت الرواية التسعينية بالخصوص حاملة لجميع ما اعتمل في الجزائر من أوضاع ومشاكل وتصدّعات وصراعات، إذ سعى الروائيون إلى نقل القارئ إلى كل ما هو حيني وظرفي، بتحويل التجربة الواقعية المرّة إلى تجربة إبداعية فنيّة، فراحت الكتابة الروائية تواكب الأزمة وتتبع مسارها خطوة خطوة

مسألة المحنة، والأطراف المتسببة فيها. واستمرّ موضوع الاغتراب عن الوطن ونقل هواجس الغربة والحنين ضمنها في بعض الروايات الجزائرية باللغتين العربية والفرنسية. وأصبحت الروايات في هذه المرحلة تتخطى حدود المحلية، والتعبير عن الواقع الجزائري بكلّ إشكالاته، إلى ما يمسّ الفرد العربي والمسلم في بقية الأقطار العربية الأخرى وإلى ما يواجهه من تحدّيات. وبذلك فإنّ انفتاح الرواية الجزائرية في هذه المرحلة يعدّ واسعاً على العالم بأكمله، واتسعت تبعاً له دائرة الآخر المنظور إليه في الرواية، فلم يبق الآخر هو المستعمر الفرنسي فقط، ولا الفرنسي كما هو في بلده بعد الهجرة إليه والاطلاع على حياته عن قرب بمشاعر الغربة والحنين، وإنما أصبح الآخر يشمل ذلك وأكثر، من يهود الجزائر ويهود فلسطين، الأجنبي بمختلف أقطاره الجغرافية، بما فيها الأوروبية والأمريكية.

من نتائج الفصل الثالث: صورة المستعمر في الرواية الجزائرية ما يلي:

• وردت صورة المستعمر في الروايات الجزائرية من خلال رجال السلطة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر وبرزت ضمن أربع صور أساسية (مخورية)، وهي صورة رجل السلطة الظالم والمستبد، صورة رجل السلطة المراوغ والمخادع، صورة رجل السلطة المتمرد على أوامر سلطته، وصورة رجل السلطة المريض والمعقّد والمتأزم، وقدّم لذلك الروائيون الجزائريون شخصيات متباينة، تتضح صفاتهم، إمّا عن طريق السرد المباشر والوصف، أو من خلال الحوار بين عدّة شخصيات، تظهر أهم السمات وأبرز الأفعال التي تميّز كل صورة على حدة.

• يعتبر المستوطن الفرنسي (الأوروبي الذي يحمل الجنسية الفرنسية في الجزائر المستعمرة) نفسه أفضل بكثير من العربي، فهو الذي يحتل مكانه، وسيطر على أملاكه ومع ذلك يحقد عليه، ويرى فيه أسوأ المخلوقات، يشبّهه بالحيوانات المتوحشة، لا يستحقّ الراحة ولا الأمان، بل يجب ضربه واحتقاره وإهانته، وإثارة الفزع والخوف في نفسه حتّى يبقى دائماً في الخدمة، لا يدافع عن نفسه ولا يدفع عنها الألم أو الإهانة.

• تختلف الصورة التي خصه بها الأدباء زمن الثورة عن زمن الاستقلال وبعده، حيث كانت في المرحلة الأولى تدرج صورته بطريقة رمزية في قهره للجزائريين وتوضيح معاناتهم باستثناء كتابات محمد ديب

التي فضحت الواقع المعاش بطريقة جليّة واضحة، و يعود ذلك لعدم توضح الأمور آنذاك، ومصير الجزائر لم يحدد بعد، أما بعد الاستقلال فقد توجّهت الروايات لفضح جرائم المستعمر الفرنسي وكانت أكثر انهما وإدانة له ولاغتصابه الأراضي والممتلكات الجزائرية، في حين وضّحت بعض الروايات جوانب التسامح في أوساط المستعمرين؛ رجال سلطة ومستوطنين، نساء ورجالا، بتعايشهم مع الأهالي، وتمردهم على القوانين التي تسيّر شؤونهم. وعرضت بعض الروايات صورة الأقدام السوداء بعد مغادرتهم الجزائر مع الاستقلال وحنينهم الكبير لما ألفوه من رغد العيش والخيرات والثروات والممتلكات في الجزائر المستعمرة.

من نتائج الفصل الرابع: صورة الأجنبي الأوروبي والأمريكي في الرواية الجزائرية وردت عبر:

● **صورة الفرنسي** بتحليلها في مواقف متباينة خصها بها الأدباء، كموقف الانبهار بفرنسا وبأهلها، تتضح الإيجابيات فيها من منظور بعض الشخصيات الروائية التي وجدت في الحرية الفكرية، وممارسة الأفعال المرغوب فيها دون أي رقابة أو شروط أو قيود. وكان الانبهار بجمال مدنها، وما فيها من مظاهر الزينة والرخاء في العيش. وعبر بعض الروائيين عن صورة الفرنسي بصفات سلبية كثيرة تتراوح بين التسلط والعنصرية، والتعجرف والتكبر، نسبها البعض منهم للفرنسيين كشعب، وخصّ بعضهم الآخر بها فئة دون أخرى، وقد وردت في الأغلب في صورة المرأة الفرنسية المتسلطة والعنصرية الحقودة. وفي روايات أخرى تبرز فرنسا بصورة البلد المتحضّر والإنساني، وبطيبة سكانها وأخلاقهم الفاضلة، وفي كل مرة يتم اختيار المرأة للتعبير عنها. وإن كانت المرأة في بعض الروايات متعطّشة لإرواء ضمناً جنسي، يكون الرجل العربي الجزائري مستهدفا فيه لذلك.

● كتب بعض الروائيين الجزائريين عن الآخر الإيطالي، ووضحوا بعض الجوانب من صورته وشخصيته وفكره، وذلك من خلال بعض الشخصيات الإيطالية التي تظهر فيها سمات التسامح محدودة، مقارنة بسمات العنصرية، وهو ما يبيّن أنّ التسامح استثنائي في إيطاليا، إذ يشعر معظم الإيطاليين بالحققد على المهاجرين لاسيما منهم المسلمين، حيث يشكلون مصدر قلق وخوف ورعب في وسط إيطاليا

أما المتسامحون، فلا يرون أي خطر قادم من هؤلاء، لوعيهم بقيمة تعاليمهم الدينية السمحة، وتعدّ روايات عمارة لخص أكثرها تعبيرا وتصويرا للشخصية الإيطالية.

● تعرّضت بعض الروايات الجزائرية للشخصية الأجنبية الإسبانية رصدت ملاحظها، وأهمّ ميزاتها. وتختلف إثر ذلك صورة الإسباني تبعا لمنظور الكاتب وتصوّره له، وسعيه في إبراز جانب من جوانب شخصيته على حساب جانب آخر، ولم تأخذ في ذلك بعدا واحدا، حيث ربطتها بعض الروايات بالتاريخ العربي الإسلامي في الأندلس، ومنها ما اهتمت بالحنين الجارف لكل من الجزائريين (المورسكيين) للأندلس وشوق وشغف الإسباني بالعربي وبجسده، ومنها ما ارتبطت الصورة فيها بأجواء المافيا والانحراف والشذوذ.

● ارتبطت صورة الألماني في الرواية الجزائرية بالأجنبي الذي اضطهد اليهود في المحرقة التي راح ضحيتها الملايين، في وقت ألمانيا النازية، وهي واقعة تاريخية نقلتها العديد من الروايات الجزائرية، واختلف فيها الكتاب حول الشخصية الروائية المختارة للتعبير عن صورة الألماني، وإن كانت المرأة غالبا، غير أن بعض الروايات قرأت ذلك من منظور مساندة الألمان للعرب في القضية الفلسطينية، والتعاطف معهم، في حين رأت شخصيات روائية أخرى أن ذلك يعود للكره والحقد المشترك لكل من اليهود والعرب الذين أصبحت تصفهم ألمانيا بالإرهاب والدمويين.

● وصورة البريطاني في الرواية الجزائرية، وردت عند بعض الأدباء دالة على برودة المدن البريطانية وصلابة جدرانها، وجفاف عواطف أهلها المنصرفون لشؤونهم مع اللامبالاة بمن حولهم، منهم المنحرفون الذين يعيشون الحياة بعنفوانها وصخبها، ومنهم المؤمنون المخلصون لمسيحتيتهم التي يضحون فيها بالسعادة الزوجية مقابل التمسك بمبادئها.

● تتضح صورة الأمريكي على مستوى بعض الروايات الجزائرية، من خلال سمات وصفات يضيفها الكتاب على شخصياتهم الروائية؛ منهم من اختار التطرق لصورة الأمريكي الإنساني، وجوانب من شخصيته وطباعها وعاداتها، تنبني في المجتمع الأمريكي علاقات جافة باردة أو منعدمة بين الآباء والأبناء، يعيش الشباب ضحايا الأبوين في حالة من الفوضى والتشرد، لا دين يضبط معتقداتهم

وعباداتهم ولا قانون أسري يجمع بين الأفراد في بيت واحد، يتمتع الجميع بالحرية. يؤمنون بالحياة الفوضوية العنيفة.

● تطرح بعض الروايات الجزائرية الصّراع القائم بين المنطقة العربية الإسلامية والعالم الغربي المتمثل في الإتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية، فتصوّر أمريكا عدوانية متجبرة، تتحَيّن الفرص للهجوم على العالم العربي والإسلامي وأوّل أعدائها الإرهاب الإسلامي.

في الفصل الخامس: صورة اليهودي في الرواية الجزائرية نتائج مهمة:

● وردت صورة اليهودي على مستوى بعض الروايات الجزائرية، في مرحلة ما بعد الاستقلال، وإن كان ذكره آنذاك يقتصر على فئة يهود الجزائر، في كيفية تعايشهم مع الاستعمار الفرنسي، وقانون كريمو الذي سمح لهم بأخذ الجنسية الفرنسية، وعن طباع أهله وما اشتهروا به من حب للمال، وامتلاك للعقارات، وقدرة على تسيير الأموال والتخطيط والمحاسبة، وفي الوقت نفسه البخل والشح والتظاهر بالفقر، إلى جانب بعض الصفات النفسية المريضة والمعقدة. وبدأت تظهر في روايات المرحلة الأخيرة صورة ليهود فلسطين، الذين عاشوا جنبا إلى جنب مع المسلمين والمسيحيين في أرض الميعاد، منهم فئات عنصرية حاقدة على الجنس العربي، ومنهم المتسامحون المتعايشون، وفي روايات أخرى تبرز صورة اليهودي الصهيوني المعتدي المغتصب للأرض الفلسطينية، وهو من جهة أخرى مسيرّ للعالم من البيت الأبيض باسم الولايات المتحدة الأمريكية.

● وما يمكن قوله في الأخير أن صورة الآخر في الرواية الجزائرية عموما، اتّسمت بالتّغير وانعدام الثّبات، تبعا لطبيعة الآخر، ومنظور الكاتب الخاص، وتبعا للمرحلة التي كُتبت عنها وفيها الظروف المحيطة بها، فإذا التزم الأديب بالأنا الجمعي وعبر عن آخر المقابل له من منظور الجماعة فإن الصورة تكون ذات أبعادا واحدة ورؤى متوافقة فيما بينها، أما إذا عبر الكاتب عن الأنا الذاتية الفردية، فإن الصورة التي ترسم الآخر ستعبّر لا محالة عن موقفه الخاص وتوجهه الفكري، ومبدئه الذي يؤمن به.

قائمة المصادر والمراجع:

1- الروايات :

أ. باللغة العربية:

1. أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، منشورات ANEP، الجزائر، 2004م.
2. أحلام مستغانمي، عابر سرير، منشورات ANEP، الجزائر، 2004م.
3. الأزهر عطية، خط الاستواء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.
4. أمين الزاوي، الرعشة، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005م.
5. أمين الزاوي، شارع إبليس، الدار العربية للعلوم ناشرون-منشورات الاختلاف، لبنان-الجزائر، ط1، 1430هـ-2009م.
6. بشير مفتي، أشجار القيامة، الدار العربية للعلوم ناشرون-منشورات الاختلاف، لبنان-الجزائر، ط1، 2005م.
7. بشير مفتي، خرائط لشهوة الليل، الدار العربية للعلوم ناشرون-منشورات الاختلاف، لبنان-الجزائر، ط1، 2010م.
8. بشير مفتي، دمية النار، الدار العربية للعلوم ناشرون-منشورات الاختلاف، لبنان-الجزائر، ط1، 2010م.
9. حبيب مونسي، جلالتة الأب الأعظم، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2002م.
10. الحفناوي زاغر، الزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992م.
11. الحفناوي زاغر، ضياع في عرض البحر، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2009م.
12. الحفناوي زاغر، عندما يختفي القمر، منشورات الحكمة، الجزائر، 2009م.
13. الحفناوي زاغر، خطوات في الاتجاه الآخر، دار الحكمة، الجزائر، 2009م.
14. رشيد بوجدره، تيممون، منشورات ANEP، الجزائر، ط2، 2002م.
15. زهور ونيسي، لونجة والغول، مطبعة دحلب، الجزائر، 1993م.
16. زهور ونيسي، يوميات مدرسة حرة، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م.
17. سفيان زدادقة، سادة المصير، الدار العربية للعلوم -منشورات الاختلاف، لبنان- الجزائر، ط2، 2006.
18. سمير قسيمي، هلايل، الدار العربية للعلوم ناشرون-منشورات الاختلاف، لبنان-الجزائر، ط1، 1431هـ-2010م.
19. سمير قسيمي، يوم رائع للموت، الدار العربية للعلوم ناشرون-منشورات الاختلاف، لبنان-الجزائر، ط1، 1430هـ-2009م.

20. سميرة قبلي، بعد أن صمت الرصاص، دار القصة للنشر، الجزائر، 2008م .
21. الصادق بخوش، حفنة السراب، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2009م.
22. الطاهر وطار، اللاز، موفم للنشر، الجزائر، 2007م
23. الطاهر وطار، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، موفم للنشر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007م
24. عبد الجليل مرتاض، عقاب السنين، رابطة الأدب، الحديث، القاهرة، ط1، 1990م.
25. عبد العزيز غرمول، زعيم الأقلية الساحقة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2005م.
26. عبد الله خمّار، كنز الأحلام، دار القصة للنشر، الجزائر، مارس 2009م .
27. عبد الملك مرتاض، الحفر في تجاعيد الذاكرة، دار الغرب للنشر، وهران، 2004
28. عبد الملك مرتاض، وادي الظلام، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م.
29. العربي حاج صحراوي، أحلام الغد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991م.
30. عمارة لخص، القاهرة الصغيرة، الدار العربية للعلوم ناشرون- منشورات الاختلاف، لبنان-الجزائر، ط1، 1431هـ-2010م.
31. عمارة لخص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك، الدار العربية للعلوم ناشرون -منشورات الاختلاف، لبنان-الجزائر، ط2، 1431هـ-2006م.
32. العيد بن عروس، طائر المواسم، دار الهدى، الجزائر، 2008.
33. عيسى شريّط، لاروكاد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2004م.
34. كمال بركاني، امرأة بلا ملامح، منشورات الاختلاف- الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر - لبنان، ط1، 2007م.
35. كمال قروور، سيد الخراب، فيسيرا للنشر، الجزائر، 2010م.
36. محمد العالي عرعار، الآمال الزائفة، دار القصة للنشر، الجزائر، نوفمبر، 2012م.
37. محمد المعراجي، شوك الأسي، منشورات ANEP، ط1، 2004.
38. محمد ساري، على جبال الظهرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988م.
39. محمد مفلح، زمن العشق والأخطار، ضمن الأعمال غير الكاملة، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2012م
40. مراد بوكرزازة، ليل الغريب، جمعية البيت للثقافة والفنون، الجزائر، 2010م.
41. مرزاق بقطاش، طيور في الظهيرة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م
42. مرزاق بقطاش، عزوز الكابران، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1989م.
43. نعيمة معمري، أعشاب القلب ليست سوداء، فيسيرا للنشر، الجزائر، 2010م.

44. واسيني الأعرج، كتاب الأمير-مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر، الجزائر العاصمة، ط1، 2004م.

45. واسيني الأعرج، البيت الأندلسي، منشورات الجمل، بيروت- لبنان، ط1، 2010م

46. واسيني الأعرج، حارسه الظلال..دون كيشوت في الجزائر، الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، منشورات السهل، الجزائر العاصمة، 2009م.

47. واسيني الأعرج، ذاكرة الماء:محنة الجنون العاري، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، ط4، 2008.

48. واسيني الأعرج، كريما توريوم-سوناتا الأشباح القدس، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، ط1، 2008م.

49. ياسمينه صالح، وطن من زجاج، منشورات الاختلاف- الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر - لبنان، ط1، 2006م.

ب. المترجمة:

1. آسيا جبار، لا مكان في بيت أبي، تر: محمد يحياتين، سيديا، الجزائر، أفريل، 2014.

2. آمنة مشاكرة، المغارة المتفجرة، تر: عائدة أديب بامية، المؤسسة الوطنية للكتاب ال جزائر 1989م

3. أنور بن مالك، ابن الشعب العتيق، تر: رلى ذبيان، الفارابي- سيديا، الجزائر، ط1، 2007 .

4. أنور بن مالك، العاشقان المنفصلان، تر: محمد ساري، منشورات مرسى، الجزائر.

5. أنيسة بومدين، نهاية عالم، تر: بشير عليّة، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

6. بوعلام صنصال، حراقة، تر: عياش سلمان، دار الفارابي- سيديا، لبنان- الجزائر، ط1، 2007م

7. حميد قرين، الصلاة الأخيرة، تر: ميرنا صعب، سيديا، مطبعة الفنون الجميلة، الجزائر، جويلية 2012

8. رشيد بوجدره، الإنكار، تر: صالح القرمادي، منشورات ANEP، الجزائر، ط2، 2002م،

9. رشيد بوجدره، انبهار، تر: إنعام بيوض، منشورات ANEP، الجزائر، ط2، 2002م

10. سليمة غزالي، عشاق شهرزاد، تر: عبد الرزاق عبيد، مرسى، المتبعة للطباعة، 2002.

11. الصادق عيسات، ندير كيما يدير في البحر العوام، تر: إلياس تملالي، منشورات البرزخ، الجزائر، ديسمبر

2007

12. عيسى خلادي، وردة الهاوية، تر: محمد يحياتين، منشورات مرسى، الجزائر، 2002 م.

13. مالك حداد، الانطباع الأخير، تر: السعيد بوطاجين، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت منشورات

الاختلاف-الجزائر، ط1، 1429هـ، 2008م

14. محمد ديب، الحريق، تر: فارس غصوب، منشورات ANEP، الجزائر، 2007

15. محمد ديب، إن شاء إبليس، تر: جوزيف بورزق، منشورات ANEP، الجزائر، 2007.

16. محمد ديب، هاويل، تر: أمين الزاوي، المكتبة الوطنية الجزائرية، 2007م.

17. مليكة مقدم، رجالي، تر: نهلة بيضون، منشورات سيديا- الفارابي، الجزائر- بيروت، ط1، 2007.
18. مولود فرعون، ابن الفقير، تر: عبد الرزاق عبيد، تقديم: فريدة بوعليط، دار تالانتيكيت للنشر والتوزيع، بجاية- الجزائر، 2012.
19. نجية عبير، باب القنطرة، تر: آسيا علي موسى، مراجعة: إنعام بيوض، منشورات أبيك، مطبعة متيجة، أفريل 2007.
20. ياسمينه خضرا، الصدمة، تر: نهلة بيضون، الفارابي- سيديا، لبنان-الجزائر، ط1، 2007م
21. ياسمينه خضرا، القرية كاف، تر: نهلة بيضون، سيديا، الجزائر، 2014م.
22. ياسمينه خضرا، بم تحلم الذئاب، تر: أمين الزاوي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران.
23. ياسمينه خضرا، سنونات كابول، تر: محمد ساري، دار الفارابي - سيديا، لبنان-الجزائر، ط1، 2007
24. ياسمينه خضرا، فضل الليل على النهار، تر: محمد ساري، سيديا، الجزائر، ديسمبر 2013م.
25. ياسمينه خضرا، قسمة الميت، تر: عبد القادر بوزيدة، دار سيديا، الجزائر، ديسمبر 2013م.

ت. باللغة الفرنسية:

1. Assia Djebar, Nulle part dans la maison de mon père, Editions sedia, Alger, 2008
2. Kateb Yacine , Nedjma, Seuil, Paris, 1956
3. Mohammed Dib , L'arbre à dire, Dahleb, Alger, 2009.
4. Mohammed Dib , L'infante maure ,Dahlal , Alger , 1994
5. Mouloud Feraoun, Las Chemins qui montent , Présentation : Christiane Achour, ENAG Editions , Alger , 2011.
6. Mouloud Feraoun, Le Fils du pauvre, Editions TALANTIKIT ,Bejaia , Algerie , 2015
7. Mouloud Mammeri , L'opium et le Bâton, Auresses Pocket nouvelle éd, Paris, 1970
8. Yasmina Khadhra, L'imposture des mots, Editions Julliard, Paris, 2002

2- المصادر والمراجع:

أ. باللغة العربية:

1. إبراهيم الحجري، المتخيل الروائي العربي الجسد-الهوية-الآخر: مقارنة سردية أنثروبولوجية، الناية للدراسات والنشر والتوزيع- سورية ، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع- دمشق، الشركة الجزائرية السورية للنشر والتوزيع- الجزائر، ط1، 2013.
2. إبراهيم مياسي، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2007.

3. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 1426هـ- 2005 م .
4. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الآداب، الجزائر، ط2، 1997م.
5. أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006
6. أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي: نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 4/ 2007م.
7. إدريس خضير، البحث في تاريخ الجزائر الحديث 1830-1962، ج1، دار العرب للنشر والتوزيع، وهران، 2006م
8. أمينة بلعلي، المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2011.
9. إيهاب النجدي، صورة الغرب في الشعر العربي الحديث، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2008م.
10. بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر: 1930-1989، دار المعرفة، الجزائر، 2007م.
11. جورج طرايشي، شرق وغرب- رجولة وأنوثة، دراسة في أزمة الجنس والحضارة، دار الطليعة، بيروت-لبنان، ط4، شباط(فبراير) 1997م.
12. حسين أبو النجا، اليهودي في الرواية الفلسطينية، إصدارات رابطة إبداع الثقافة، الجزائر، ط1، 2002م،
13. حسينة حماميد، المستوطنون الأوروبيون والثورة الجزائرية، 1954-1962، منشورات الخبر، الجزائر، ط1، 2007م
14. حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية: الطاهر وطار (مقاربة سوسيو ثقافية) دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران.
15. رزان محمود إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، م2003.
16. سالم المعوش، الأدب وحوار الحضارات (المنهج والمصطلح والنماذج)، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، ط1، 1428هـ -2007م.
17. سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1967م.
18. سعيد علوش، إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي- دراسة مقارنة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1406هـ - 1986م.

19. سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن- دراسة منهجية، المركز الثقافي العربي، ط1، 1987.
20. سعيد يقطين، قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجوه والحدود، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت- لبنان، دار الأمان، الرباط منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1433هـ- 2012م.
21. سمير مرقس، الآخر. الحوار. المواطنة: مفاهيم وإشكاليات وخبرات مصرية وعالمية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 1426هـ- 2005م.
22. شريط أحمد شريط، دراسات ومقالات في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرعاية، الجزائر، 2003م
23. شعيب حليفي، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، دراسات في الرواية العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، يناير 2005.
24. صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2009.
25. عائدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، 1925، 1967، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.
26. عبد الحميد إبراهيم، الأدب المقارن من منظور الأدب العربي: مقدمة وتطبيق، دار الشروق، بيروت- لبنان، ط1، 1418هـ- 1997م.
27. عبد الحميد بوزوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، 1930-1900، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.
28. عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر- أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان.
29. عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، مصر، 1419هـ- 1999م
30. عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث (1830-1974)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 8، 1967م.
31. عبد الله خليفة الركيبي، القصة الجزائرية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط3، 1977م.
32. عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
33. عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954: النهضة الفكرية النهضة الصحفية و الأدبية النهضة التاريخية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969

34. عز الدين المناصرة، الهويات والتعددية اللغوية: قراءة في ضوء النقد الثقافي المقارن، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1425هـ-2004م.
35. علي حرب، العالم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول، منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002م.
36. علي عجوة، العلاقات العامة والصورة الذهنية، عالم الكتب، ط1، 1983م .
37. عمار بوحوش، العمال الجزائريون في فرنسا، دراسة تحليلية، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، 2008م
38. عمر بن قينة، الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، شركة دار الأمة، الجزائر، ط1، ماي 1995.
39. عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، دار ربحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2002م.
40. عيسى شنّوف، يهود الجزائر: 2000 سنة من الوجود، دار المعرفة، الجزائر، 2008م
41. غريغوار منصور مرشو، سيد محمد صادق الحسيني، نحن والآخر، دار الفكر، دمشق-سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ط1، رجب 1422هـ-سبتمبر 2001م.
42. فريدة النقاش، العرب وأسئلة الهوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، م2014.
43. ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان- منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1431هـ-2010م.
44. ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن- دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000.
45. محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007/3م.
46. محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة..دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002م.
47. محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2005.
48. محمد عابد الجابري، مسألة الهوية: العروبة والإسلام...والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط4، سبتمبر 2012 م.
49. محمد علي داهش، دراسات في الحركة الوطنية والاتجاهات الوجدانية في المغرب العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004
50. محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن ، دار العودة، بيروت - لبنان، ط2، 1961.
51. محمد نور الدين أفايه، المتخيل والتواصل- مفارقات العرب والغرب، دار المنتخب العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1414هـ-1993م.

52. محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1996م.
53. مخلوف عامر، الرواية والتحويلات في الجزائر (دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000.
54. مفيد الزبيدي، موسوعة تاريخ أوربا الحديث والمعاصر - من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الأولى (1789-1914)، ج3، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2004.
55. مولود عويمر، الإسلام والغرب بين رواسب التاريخ وتحديات المستقبل، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2008م.
56. ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 2000م.
57. نبيل سليمان، أسرار التخيل الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005م.
58. نبيل سليمان، وعي الذات والعالم، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 1431هـ - 2010م.
59. نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2013م.
60. نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتجريح.
61. همت بسيوني عبد العزيز، الشخصية المصرية وصورة الآخر، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط1، 2013.
62. واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر (بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
63. يحي أبو زكريا، الجزائر من أحمد بن بلة وإلى عبد العزيز بوتفليقة، ناشري (النشر الإلكتروني) 2003 ص117.
64. يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية، 1830-1945، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 2007.
65. يوسف الأطرش، المنظور الروائي عند محمد ديب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، 2004م.

ب. المترجمة:

1. إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 2006، م.
2. ألبير ماتي، صورة المستعمر، تر: ميشال سطوف، منشورات ANEP، الجزائر، 2007م
3. إيغوركون، البحث عن الذات-دراسة في الشخصية ووعي الذات، تر: غسان أدب نصر، منشورات دار معدّ للنشر والتوزيع، دمشق-سورية، 1992.
4. بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة -مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت -لبنان، ط1، تشرين الثاني (نوفمبر) 2005.
5. بيل اشكروفت، غاريت غريفيت، هيلين، تيفن، الرّد بالكتابة النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، تر: شهرت العالم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2006.
6. بيير برونيل، كلود بيشوا، أ.م.روسو، ما الأدب المقارن؟ تر: عبد المجيد حنون، نسيم.م.عيلان، عمار رجال، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط1، 1431هـ-2012م.
7. جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ترجمة وتقديم: عمر مهيل، الدار العربية للعلوم ناشرون-بيروت، منشورات الاختلاف- الجزائر، ط1، 1429هـ-2008م.
8. دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1997،
9. ضياء الدين ساردار، الاستشراق: صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية، تر: فخري صالح، مراجعة: أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ط1، 1433هـ-2012م.
10. مصطفى الأشراف، الجزائر: الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2007م.

ت. باللغة الفرنسية:

1. Anwar Benmalek , Entretien avec Yousef Merahi ,vivre pour écrire , Editions Sedia, Algerie, 2006 .
2. Jacqueline Arnaud , La littérature maghrébine de langue française , tome1, Origines et perspectives; Publisud; 1986

3. Jean Dejeux, La littérature Algérienne contemporaine, 2^{ème} Edition.
4. Lantri Elfoul, Traductologie littérature comparée - Etudes et essais , CASBAH , Alger , 2006.
5. Naget khadda , L'œuvre romanesque de Mohammed Dib , Propositions pour l'analyse de deux romans , Office publications universitaires ,Alger , 1983 .
6. Naget Khadda , Mohamed Dib cette intempestive voix recluse ; EDISUD ; Provence ; 2003
7. Omer Massoumou, L'image de L'autre dans la littérature française, L'Harmattan, Paris, 2004.
8. Rabah soukehal , Le Roman algérien de langue Française (1950-1990) thématique, Edition publisud , Paris .
9. Schopfel Mariannick, Les Ecrivains francophones du Maghreb , Ellipses -Editions marketing , Paris , 2000.
10. Tahar berki; Une Lecture de la trilogie nordique de Mohamed Dib; Horizons maghrébins le droit à la mémoire, 1998

3- المعاجم والموسوعات:

- أ. أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، تعهده وأشرف عليه حصراً: أحمد عويدات، المجلد الأول A.G، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط1، 2001.
- ب. جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، م1982.
- ت. جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، م1982.

4- المقالات:

أ. الورقية:

1. أسماء العريف بياتريكس، الآخر أو الجانب المعلن، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
2. آنا أندرينكوفا، صورة الآخر كخلفية لتصوير الذات في المجتمع الروسي، في "الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
3. باقر سلمان النجار، الفئات والجماعات: صراع الهوية والمواطنة في الخليج العربي، في رياض زكي قاسم (تحريرا وتقديم)، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط1، نوفمبر 2013.
4. جان فارتو، الآخر بما هو اختراع تاريخي، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظور إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
5. جواد الديوان، ثلاثية مستغامي شجاعة تفتقدها دراسات التاريخ، زهرة ديك، أحلام مستغامي: هكذا تكلمت... هكذا كتبت، دار الهدى، الجزائر، 2013م.
6. جوزي أنطونيو غونزاليس ألكنتود، أصل الشغف بالآخر لدى حركات الأنتلجنسيا الطلائعية في أوروبا، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
7. جوغا شفيلي غالينا ضمن كتاب عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2002.
8. حلمي خضر ساري، المرأة ك"آخر" دراسة في هيمنة التنميط الجنساني على مكانة المرأة في المجتمع الأردني، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظور إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
9. حيدر إبراهيم علي، صورة الآخر المختلف فكريا: سوسولوجية الاختلاف والتعصيب، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظور إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008..
10. دلال البرزي، الآخر: المفارقة الضرورية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظور إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
11. رامي فليبي، رشيد بوجدرية في "الرعن" استحضار طفولة، زهرة ديك، رشيد بوجدرية: هكذا تكلم... هكذا كتب، دار الهدى، الجزائر، 2013م.

12. رشيد بوجدره، الكاتب الحقيقي لا يكتب إلا رواية واحدة في حياته، حاورته فضيلة بودريش، رشيد بوجدره: هكذا تكلم... هكذا كتب، تقديم وإعداد: زهرة ديك، سلسلة أدباء جزائريون، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، 2013م.
13. روبر شارفان، الآخر في فرنسا المعاصرة: العربي كبش الغداء، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
14. ريجين عزرية، اليهود والعرب: صورة الآخر وأثار المرآة، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
15. سالم ساري، الذات العربية المتضخمة: إدراك الذات المركز والآخر الجواني، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
16. سالم لبيض، الهوية: الاسلام، العروبة، التونسية، في رياض زكي قاسم (تحريرا وتقديم)، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط1، نوفمبر 2013.
17. سفيطانا براجوغينا، رشيد بوجدره أو تطبيق الماضي، عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2002.
18. سليم بوفنداسة، حوار مع رشيد بوجدره، زهرة ديك، رشيد بوجدره: هكذا تكلم... هكذا كتب، دار الهدى، الجزائر، 2013م.
19. سيغوردن سكيرباك، صورة الآخرين: المخاوف الحقيقية والكاذبة في العلاقات العربية-الأوروبية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
20. الطاهر لبيب، الآخر في الثقافة العربية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
21. عبد الباسط عبد المعطي، صورة الإسرائيلي لدى المصري بين ثقافة العامة والدراما التلفزيونية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
22. عبد الجليل حلیم، الفلاحون المغاربة في الأثنولوجيا الكولونيالية بين الجمود وقابلية التحسن، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
23. عبد الحفيظ النمري، رشيد بوجدره... يضيء عتمة الحياة في الجنازة، زهرة ديك، رشيد بوجدره هكذا تكلم... هكذا كتب، دار الهدى، الجزائر، 2013م.

24. عبد الرحمن منيف، القومية والهوية والثورة العربية، في رياض زكي قاسم (تحريراً وتقديم)، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط1، نوفمبر 2013.
25. عبد العزيز الدوري: الهوية الثقافية العربية والتحديات، في رياض زكي قاسم (تحريراً وتقديم)، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط1، نوفمبر 2013.
26. عبد العزيز العاشوري، اللغة العربية والهوية الثقافية وتجارب التعريب، في رياض زكي قاسم (تحريراً وتقديم)، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط1، نوفمبر 2013.
27. عروس الزبير، الذات الممزقة: بين الأنا والآخر، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
28. عزيز حيدر، الآخر العربي والآخر الفلسطيني والآخر الإسرائيلي في نظر الفلسطينيين في إسرائيل، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
29. عزيز حيدر، دور المقاومة الثقافية في صياغة الهوية الجماعية، دراسة في الهوية الجماعية للعرب في إسرائيل، في رياض زكي قاسم (تحريراً وتقديم)، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط1، نوفمبر 2013.
30. غنيفة البوني، في الهوية القومية العربية، في رياض زكي قاسم (تحريراً وتقديم)، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط1، نوفمبر 2013.
31. علي أسعد وطفة، إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط1، نوفمبر 2013.
32. علي عباس مراد، إشكالية الهوية في العراق.. الأصول والحلول في رياض زكي قاسم (تحريراً وتقديم)، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط1، نوفمبر 2013.
33. فتحي أبو العينين، صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي العربي: تحليل سوسولوجي لرواية "محاولة للخروج"، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
34. فيلهو هارثي، مفهوم وموارث "العدو" في ضوء عملية التوحيد والسياسات الأوروبية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.

35. ل. ستيبانوف، عبد الحميد بن هدوقة: الكاتب الكلاسيكي، عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2002.
36. محمد الداودي، اللغة الفرنسية في المغرب العربي: غنيمه حرب أم استلاب هوية، في رياض زكي قاسم (تحرير) وتقديما)، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط1، نوفمبر 2013.
37. محمد نجيب بوطالب، العلوم الاجتماعية والاستشراق، صورة المجتمع العربي الإسلامي، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
38. مصطفى عمر التير، البعد الجغرافي وصورة الآخر- مقارنة امبيريقية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
39. منذر الكيلاني، الاستشرق والاستغراب: اختراع الآخر في الخطاب الأنثروبولوجي، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
40. مهنا يوسف حداد، أثر الصورة الذاتية في الموقف العربي من دولة إسرائيل، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: صورة العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008.
41. ياسين تملالي، رشيد بوجدره... يفكك التاريخ الرسمي لثورة التحرير(الصبان) أدمت نفسها وهي تدمي يد الاستعمار، زهرة ديك، رشيد بوجدره: هكذا تكلم... هكذا كتب، دار الهدى، الجزائر، 2013م

ب. الإلكترونية:

1. أحسن ثليلاني، عز الدين جلاوجي في رواية (راس المحنة) أو الجزائر في خرائب الفتنة، موقع:

www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=14682 تاريخ الزيارة:

16 جوان 2015.

2. أحمد حمدي يكتب عن فيزيولوجيا المجتمع الجزائري في "حومة الطالين"، موقع: <http://www.al->

[fadjr.com/ar/index.php?news=173404?print](http://www.fadjr.com/ar/index.php?news=173404?print) تاريخ الزيارة: 2015/06/14

3. أحمد رضا حوحو وعبد المجيد الشافعي، ج3، جريدة صوت الأحرار(10-10-2014م) موقع:
<http://www.sawt-alahrar.net/ara/permalink/20591.html>
18:25، 2015/06/09
4. أحمد قريش، الإرهاب في الرواية الجزائرية: رواية "خرفان المولى" لياسمينه خضرا أمودجاً، عود الند، المجلة الثقافية الشهرية، العدد74 موقع:
<http://www.oudnad.net/spip.php?article1425>
2015/05/10
5. احميده عياشي، ديوان العرب موقع:
http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=18
68 تاريخ الزيارة: 22/06/2013.
6. إصدار جديد للكاتبة الجزائرية هدى درويش، آمال... حب يبحث عن وطن، موقع:
<http://elraaed.com/ara/news/22619>
2015/06/23 تاريخ الزيارة:
7. أكوخ تحترق، آخر روايات محمد زيتلي، موقع:
<http://essalamonline.com/ara/culture/21811.html>
تاريخ الزيارة: 2015/06/22م.
8. أمين الزاوي: لا أريد قارئاً مطمئناً للحياة، بل أريد مشوشاً دائم الحيرة و الأسئلة القلقة موقع:
<http://www.al-madina.com/node/355167>
تاريخ الزيارة: 2014/10/10
9. أمين الزاوي: متى يموت الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية؟ الكتاب الأبيض للثقافة في الجزائر 08-04-2009 موقع:
<http://www.ingdz.net/vb/showthread.php?t=47025>
تاريخ الزيارة: 2014/10/10
10. أمين الزاوي، الأدب المغاربي المكتوب باللغة الفرنسية لا يزال مستمراً، ال خميس 13 تشرين الثاني(نوفمبر 2014) موقع:
<http://www.al-fadjr.com/ar/culture/290216.html>
11. أمين الزاوي، ثلاثون كاتباً ومترجماً وناقداً يتحدثون عن التجربة الإبداعية لآسيا جبار، موقع:
<http://www.nizwa.com> / تاريخ الزيارة: 2015/06/04.
12. أنس سليم الرشيد، صورة الآخر في رسالة ابن فضلان ورواية أكلة الموتى، المجلة العربية، الرياض، موقع:
<http://www.shatharat.net/vb/showthread.php?t=13518>
تاريخ الزيارة: 2014/05/15

13. بشير مفتي، "الغيث" رواية للكاتب محمد ساري: تحولات العنف الجزائري ماضيا وواقعا، موقع:
http://daharchives.alhayat.com/issue_archive/Hayat%20INT/2007/2015/06/14
 6/24 تاريخ الزيارة: 2015/06/14
14. تاريخ تطور الجزائر من الاستقلال 1962م إلى 2004م، منتدى النقابة الوطنية لعمالة التربية بتيسمسيلت، موقع: <http://snte38.3oloum.org/t3-topic>
15. جميل حمداوي، صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي، موقع: [https://ar-](https://ar.facebook.com/TnmytBshryh/posts/539553032795051)
ar.facebook.com/TnmytBshryh/posts/539553032795051
 تاريخ الزيارة: 2014/11/04
16. الجليلي شرادة، قراءة جديدة في رواية "تماسخت.. دم النسيان" للروائي الحبيب السايح، موقع:
www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=47000
 تاريخ الزيارة: 2015/06/14
 2015
17. حمزة بسو، إشكالية الهوية في الرواية الجزائرية بين ضفتي المتوسط (قراءة في كتاب: الرواية بين ضفتي المتوسط) أصوات الشمال، مجلة عربية ثقافية اجتماعية شاملة، موقع: [http://www.aswat-](http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=31475)
[elchamal.com/ar/?p=98&a=31475](http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=31475)
 تاريخ الزيارة: 2015/01/06
18. حميد عبد القادر: تحيَّزت لقيم البرجوازية التي أظهرها أدب السبعينات كأنها الشر المطلق، موقع:
<http://chouar.blogspot.com/2014/01/blog-post.html>
 تاريخ الزيارة: 2015/06/19.
19. تحليل حشلاف، الشخصية المفهومية في الرواية الجزائرية الجديدة - [http://aswat-](http://aswat-elchamal.com/ar/?p=98&c=4&a=13545)
[elchamal.com/ar/?p=98&c=4&a=13545](http://aswat-elchamal.com/ar/?p=98&c=4&a=13545)
 تاريخ الزيارة: 2015/06/15
20. رواية الغيث، لمحمد ساري، موقع: www.alapn.com/ar/news.php. تاريخ الزيارة:
 2015/06/16.
21. الروائية الجزائرية سارة حيدر تهرب من الواقع إلى الكتابة، موقع: www.albawaba.com/ar/
 تاريخ الزيارة: 2015/06/22
22. زهية منصر، في رواية "صمت الفراغ" إبراهيم سعدي يكرر الاشتغال على تجربة العشرية السوداء، موقع:
<http://www.echoroukonline.com/ara/articles/10111.html>
 تاريخ الزيارة: 2015/05/16
23. سامية بلقاضي، قليل من العيب يكفي... رواية لـ"زهرة ديك" اكتشاف روائية شرحت الوطن دون تملُّق،
 موقع: <http://www.djazairnews.com/djazairnews/10996>
 تاريخ الزيارة: 2015/06/19

24. سلاف بوحلايس، صورة الأنا والآخر في شعر فكتور هييجو، موقع: <http://manifest.univ-ouargla.dz/index.php/fr-FR/seminaires/archive/facult%C3%A9-des-lettres-et-des-langues/38> تاريخ الزيارة: 2014/10/15
25. سليم بتقة، الرواية الجزائرية: سرد الهوية ورهانات الكتابة، ندوة المخبر، الهوية في الأدب الجزائري، موقع: http://lab.univ-biskra.dz/lla/images/pdf/nadoua2/12-03-2015/06/09_2014/3.%20%20.pdf تاريخ: 2014/3.09
26. سناء صليحة، مواجهات الشرق مع الغرب في الرواية العربية، الآخر أصبح الملجأ... في القرن الحادي والعشرين، (حوار مع رشيد العناني)، موقع: <http://www.ahram.org.eg/Archive/2009/12/20/ARTS1.HTM> تاريخ الزيارة: 2014/05/16م
27. شادية بن يحيى، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع، موقع: http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=37074 تاريخ الزيارة: 2015/06/09
28. شرين يونس، الأنا والغرب في الرواية العربية من النمطية إلى التعدد، أخبار-فن-جزيرة نت، موقع: <http://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2008/2/7> تاريخ الزيارة: 2008/02/08.
29. شهرة بلغول، مستويات الخرق في رواية بعيدا عن المدينة للروائية أسيا جبار، موقع: <http://aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=32896> تاريخ الزيارة: 2015/06/19
30. صادق الحموي، البطولة والموت في رواية "زمن العشق والأخطار" لمحمد مفلح، موقع إلكتروني: <http://www.startimes.com/?t=15584854> تاريخ الزيارة: 2015/06/14
31. عبد الحق منصور بوناب، دلالة الشخصيات في رواية المملكة الرابعة للأزهر عطية، موقع: <https://www.facebook.com/leroman.agerien/photos/a.443277662380531> تاريخ الزيارة: 2015/07/14
32. عبد الرؤوف زوغبي، إضاءة حول حلم على الضفاف للأديبة المبدعة حسيبة موساوي، موقع: <http://www.dzroman.com/?p=5065> تاريخ الزيارة: 2015/06/20.
33. عبد الغني بارة، التأويل ومتخيل النص-قراءة تفكيكية في رواية "كواليس القداسة"، لسفيان زدادقة، موقع: www.startimes.com/f.aspx?t=10344170 تاريخ الزيارة: 2015/06/22.
34. عبد القادر بن عوالمى، رواية الإعصار الهادئ للكاتب بوفاتح سبفاق... موسم جديد للهجرة إلى الجنوب، موقع:

تاريخ <http://montada.echoroukonline.com/showthread.php?t=67671>

الزيارة: 2015/06/19

35. عبد اللطيف حّي، الرواية الجزائرية بين الأزمة وفاعلية الكتابة، موقع إلكتروني: [http://dr-](http://dr-cheikha.blogspot.com/2012/05/normal-0-false-false-false_29.html)

[cheikha.blogspot.com/2012/05/normal-0-false-false-false_29.html](http://dr-cheikha.blogspot.com/2012/05/normal-0-false-false-false_29.html) تاريخ الزيارة: 2015/06/14

36. عبد المجيد جابر، تحليل رواية " نساء بلا ذاكرة" للقاصة هدى درويش، موقع:

تاريخ الزيارة <http://www.mnaabr.com/vb/showthread.php?t=14742>
2015/06/23

37. عز الدين ميهوبي، التاريخ هو ما نصنعه مستقبلا، في حوار مع غالية خوجة، مجلة دبي الثقافية، موقع:

azzedinemihouli.com/content تاريخ الزيارة: 2015/06/22

38. عز الدين ميهوبي، المثقف هو من يقدم قيمة مضافة للمجتمع، الموقع الرسمي:

azzedinemihoubi.com/content/ تاريخ الزيارة: 2013/09/04

39. علي بن محمد، مرجعيات الهوية الجزائرية في فكر الإمام ابن باديس، موقع:

<http://www.echoroukonline.com/ara/articles/129751.html>

40. عمار بن طوبال، الهوية المأزومة في الخطاب الثقافي الجزائري، موقع:

تاريخ http://koutama18.blogspot.com/2009/04/blog-post_22.html

الزيارة: 2015/04/15

41. عمار بن طوبال، جيل السبعينات وميلاد الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية-نشر في موقع الرواية الجزائرية:

تاريخ http://koutama18.blogspot.com/2010/09/blog-post_11.html

الزيارة 2015/06/13

42. عمر أزرراج، رواية "الأعظم" عمل سردي في يشرح شخصية الطاغية إبراهيم سعدي، موقع:

تاريخ الزيارة: <http://www.wata.cc/forums/showthread.php?90316>

2015/06/22

43. غريب عسقلاني، قراءة في رواية أوجاع الذاكرة للكاتبة جميلة طلباوي موقع:

<http://www.djazairnews.com/djazairnews/12559> تاريخ الزيارة: 2015/06/19

44. كاتب جزائري، سؤال الأنا الجمعي في عتمات الهوية المؤدجلة "عودة برج إيفل لآية عجيبة" للجزائرية

ضاوية كربوس، الموقع: www.alquds.co.uk/?p=337127 تاريخ الزيارة:

2015/06/18

45. لطيفة دارين، حوار مع الأديب الفرانكفوني الجزائري أنور بن مالك، مجلة إتحاد الكتاب المغاربة، 30 أكتوبر 2011، موقع: <http://wp.me/p1gn8M-1fo> تاريخ الزيارة: 2015/07/13
46. مادة التربية المدنية، قسم السنة الثالثة متوسط، منتديات خنشة التعليمية www.forum.educ.40.net
47. محفوظ رموم، أشكلة الهوية في الجزائر بين الأمزجة والعروبة والعمولة: رؤية تاريخية استشرافية لظاهرة العنف في الجزائر، موقع: <http://www.aranthropos.com/>
48. محمد بن زيان، الرواية الجزائرية-هواجس وتمثلات، موقع: <https://fbcdn-sphotos-d-a.akamaihd.net>
49. محمد عاطف بريكي، فشلي في تعلم لغة بلادي أثبت غبائي عن جدارة، حوار نادر مع الكاتب الجزائري مولود معمري، أجري أكثر من 30 سنة، مجلة مسارب، يوم 23 فبراير 2012، موقع: <http://massareb.com/?p=857> تاريخ الزيارة: 2015/07/15
50. محمد فايد، الرواية والذاكرة الوطنية: حوار الأدب والتاريخ: قراءة في نماذج روائية جزائرية، موقع: http://saadboulaoued.blogspot.com/2012/12/blog-post_3974.html تاريخ الزيارة 2015/07/02.
51. محمود قاسم، الأطفال العرب في أدب المهجر، فرنسا كنموذج، مجلة الطفولة والتنمية، العدد 11، مجلد 3، خريف 2003، موقع: www.arabccd.org/page/282 تاريخ الزيارة: 2015/06/14.
52. مخلوف عامر، "جدير أن يقرأ... حروف الضباب ل: الخيرشوار، موقع: <https://www.facebook.com/notes/561241377295325> تاريخ الزيارة 2015/06/19
53. مخلوف عامر، حادثة الكتابة الروائية في رواية "أعوذ بالله" للسعيد بوطاجين، موقع: <http://massareb.com/?p=5064> تاريخ الزيارة: 2015/06/19 م.
54. منجي جبار، عن رواية أقاليم الخوف، موقع: <http://www.fobyaa.com/2010/06> تاريخ الزيارة: 2015/06/20
55. موقع الجزيرة. نت، برامج وثائقية، المشاء، وهران... مناورات ياسمينية خضراء، موقع: <https://www.youtube.com/watch?v=LFrkKgZk628> تاريخ الزيارة: 2015/06/06
56. موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة: <https://ar.wikipedia.org/wiki/>
57. نهي أبو سديرة، ليلي صبار... الوطن والذاكرة الجريحة، عن مجلة العربي الكويتية، موقع: <http://www.startimes.com/?t=15833011> تاريخ الزيارة: 2015/06/14.

58. نورة بعيو، روايات الطاهر وطار بين قيود الأدلجة وحدائية الكتابة، موقع : manifest.univ-ourgla.dz/index.php/seminaires/archive/faculté-des-lettres-et-des-langues/24 تاريخ الزيارة: 2015/06/15
59. وذناني بوداود، تجليات ثورة التحرير الجزائرية في الرواية الجزائرية (مقارنة في بعض النصوص) موقع: manifeste.univ-ourgla.dz/index.php/seminaires/archive/faculté-des-lettres-et-des-langues/38
60. ياسين تملالي، اقتلوهم جميعا لسليم باشي، موقع: www.aljazeera.net/knowledgegate/books/2007/6/24 تاريخ الزيارة: 2015/06/22
61. يوسف بن بزة، الفضيلة في الرواية الجزائرية، المدرسة النقدية الجزائرية، موقع: http://youcefbenyazza.blogspot.com/2011/04/blog-post_7502.html تاريخ الزيارة: 2015/06/16
62. يوسف ناوري، البناء الروائي في رواية "بوح الرجل القادم من الظلام"، ضمن: جمال أبو طيب، الرواية الجزائرية= الذات والتاريخ والحلم، موقع: <http://maakom.com/site/article/176>

5- المجالات والدوريات:

1. أحلام معمري، نشأة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، مجلة الاثر، العدد 20، جوان 2014.
2. بشير مفتي، السماء الثامنة لأمين الزاوي: الراوي الجزائري يقع في خطية السر، الحياة: 2008/4/3، الجزائر، العدد 16435.
3. جابر عصفور، تحديات الإبداع العربي، ضمن سليمان العسكري، تجارب في الابداع العربي، وزارة الاعلام، مجلة العربي، ط1، يوليو 2009، الكويت.
4. حبيب بوهورور، تمثل الآخر في النص الأدبي الأوروبي الحديث - مقارنة للآليات التفاعل النصية، مجلة آداب البصرة، العدد 56، سنة 2011.
5. خليل بروني، هادي نظري منظم، كاوه حضري، صورة مايكوفسكي في شعر عبد الوهاب البياتي وشير كويكس (دراسة صورولوجية في الأدب المقارن)، مجلة إضاءات نقدية، السنة الثانية، العدد الثامن، شتاء 1391 ش/كانون الأول 2012م.
6. رابح طيحيون، رحلة البحث عن الذات والمعنى في رواية "وادي الظلام" لعبد الملك مرتاض، مجلة قراءات، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها جامعة بسكرة، العدد الخامس.

7. عبد القادر شريف بموسى، المنهج النفسي وتطبيقاته على الرواية الجزائرية، السادية في علاقة الشرق بالغرب في الرواية الجزائرية، مجلة طنجة الأدبية، العدد51، 2013.
8. عبد الله أبو هيف، صورة الآخر والحوار بين الحضارات في الرواية العربية، مجلة جامعة دمشق، المجلد24، العدد الثالث والرابع، 2008.
9. علي بن محمد، مرجعيات الهوية الجزائرية في فكر الإمام ابن باديس، جريدة الشروق اليومي، الاثنين 21 ماي 2012 الموافق ل 29 جمادى ال ثانية 1433 هـ، العدد3661.
10. غسان السيد، صورة الغرب في الأدب العربي- رواية (فياض) لخيري الذهبي نموذجاً، مجلة جامعة دمشق، المجلد24، العدد الثالث+الرابع، 2008.
11. غنية بوحرة، المثقف والصراع الإيديولوجي في رواية الأزمة الجزائرية: "متاهات" ل: احميدة عياشي أنموذجاً، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، مركز جيل البحث العلمي، لبنان، العدد03، 2014م.
12. ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر في الرواية العربية، مجلة الموقف الأدبي، العدد 492، نيسان2012.
13. محمد بشير بويجرة، ملامسة أوجاع الإخفاق في عشرية الانزلاق، نبش في جذور رواية الانزلاق لمحمد مفلح، الحوار، الاثنين 03 جوان 2013، الموافق ل 24 رجب 1434 هـ.
14. محمد بن عبد الله العوين، المرأة عند أحمد رضا حوحو: غادة أم القرى نموذجاً، النسخة الالكترونية من صحيفة الرياض اليومية، الخميس 03 ذي الحجة 1428 هـ- 13 ديسمبر 2007، العدد14416.
15. محمد خان: الأدب الإصلاحي في الجزائر، دراسة تحليلية لأدب حوحو(ج2)، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد الثاني، جوان2002.
16. مخلوف عامر، تطور النص السردي في الجزائر، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، مركز جيل البحث العلمي، لبنان، العدد04، ديسمبر2014م.
17. نصيرة زوزو، صورة الثورة في رواية هموم زمن الفلاقي لمحمد مفلح، مجلة المخير، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة.
18. نوافل يونس الحمداني، الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر، مجلة ديابي، العدد الخامس والخمسون، 2012م
19. نوال صالح، استشراف القطيعة في أدب مولود فرعون، نموذج "الأرض والدم" مجلة المخير: أبحاث اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، العدد التاسع، 2013.
20. الهوية الثقافية واللغة، جريدة الأهرام، عدد 2009/04/03.

6- الرسائل الجامعية:

أ. دكتوراه:

1. أحلام صغور، واقع الدراسات المقارنة في المغرب العربي، رسالة دكتوراه- مخطوط، جامعة وهران، 2010.
2. سامية داودي، صوت المرأة في رواية إبراهيم سعدي، إشراف: بوجمعة شتوان رسالة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة مولود معمري، تيزي وزو.
3. نجوى منصور، المورث السردي في الرواية الجزائرية-روايات الطاهر وطار وواسيني الأعرج أنموذجا، مقارنة تحليلية تأويلية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف: الطيب بودريال، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012.

ب. ماجستير:

1. بن سعدة هشام، بنية الخطاب السردي في رواية "شعلة المائدة" لمحمد مفلح، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، مخطوط، جامعة تلمسان، 2013-2014.
2. بوراس منصور، البناء الروائي في أعمال محمد العالي عرعار الروائية: الطموح، البحث عن الوجه الاخر، زمن القلب: مقارنة بينوية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، مخطوط، إشراف محمد العيد تاورته: جامعة فرحات عباس، سطيف، 2009-2010.
3. سماح بن خروف، الاغتراب في رواية كراف الخطايا لعبد الله عيسى لحيلح، إشراف: محمد زومان، مذكرة لنيل شهادة الماجستير جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012.
4. الطاهر رواينية: اتجاهات الرواية العربية في بلدان المغرب العربي "تونس-الجزائر-المغرب" 1945-1975، رسالة ماجستير محفوظ، إشراف: معروف خزنة دار، جامعة الجزائر، 1985-1986.
5. عبد القادر توزان، الجزائر في أدب ألبير كامو، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، 1405هـ-1985م.
6. غنية بوحرّة، المثقف والصراع الإيديولوجي في رواية الأزمة الجزائرية: متاهات ليل الفنية ل: احميدة عياشي أنموذجا، مذكرة ماجستير، إشراف: محمد منصور، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012.
7. ليندة حفصي، مستويات البناء النصي في " رائحة الكلب، حمام الشفق، عواصف جزيرة الطيور، وزهور الأزمنة المتوحشة" ل: جيلالي خلاص، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة قسنطينة، 2009-2010.

7- موثيق و دساتير :

ديباجة الدستور الجزائري، دستور الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، الجريدة الرسمية رقم 76 المؤرخة في: 08 ديسمبر 1996، معدل ب: القانون رقم 02-03 المؤرخ في 10 أبريل 2002، الجريدة الرسمية رقم 25 المؤرخة في 14 أبريل 2002 . القانون رقم: 08-19 المؤرخ في: 15 نوفمبر 2008، الجريدة الرسمية رقم 63 المؤرخة في 16 نوفمبر 2008

90.....	2-	روايات تبنت الخطاب الرسمي للبلاد.....
95.....	3-	روايات ابتعدت عن الإيديولوجيا وكرّست موضوع الواقع الاجتماعي.....
98.....		الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية.....
98.....	1-	الاتجاه الملتزم بقضايا الثورة وحيثياتها.....
100.....	2-	موضوع النقد والاحتجاج.....
104.....	3-	موضوع الاغتراب في اللغة والوطن.....
107.....	3-	مضامين الرواية الجزائرية من 1990 إلى 2010 م.....
109.....	1-	موضوع الصّراع السياسي بين أطراف الأزمة.....
111.....	2-	موضوع العنف وأجواء الخوف.....
113.....	3-	موضوع المثقف وصراعه مع السلطة.....
114.....	4-	روايات تبرز الواقع المأساوي من خلال شخصية معينة.....
115.....	5-	موضوع الهروب أثناء العشرية السوداء.....
116.....	6-	موضوع ما بعد العشرية السوداء.....
117.....	7-	موضوع الثورة المجيدة في الرواية الجزائرية.....
119.....	8-	موضوع النقد والاحتجاج.....
125.....	9-	موضوع التاريخ في الرواية الجزائرية.....
128.....	10-	مواضيع مستوحاة من الخيال عن الزمن الغابر.....
129.....	11-	موضوع السيرة الذاتية في الرواية الجزائرية.....
131.....	12-	موضوع الاغتراب والبحث عن الهوية.....
133.....	13-	موضوع المرأة في الرواية الجزائرية.....
135.....	14-	موضوع الأحلام والهواجس الداخلية والمعاناة النفسية.....
136.....	15-	موضوع الواقع العربي والعالمي في الرواية الجزائرية.....
141.....		الفصل الثالث : صورة المستعمر في الرواية الجزائرية.....
145.....		المبحث الأول : صورة رجال السلطة الفرنسية في الرواية الجزائرية.....
145.....	1-	صورة رجل السلطة الفرنسية الاستعمارية الظالم و المستبد.....
149.....	2-	صورة رجل الشرطة المخادع و المراوغ.....
152.....	3-	صورة رجل السلطة المتمرد و العاصي.....
153.....	4-	صورة العسكري المتأزم و المريض نفسيا.....
158.....		المبحث الثاني: صورة المستوطنين الفرنسيين في الرواية الجزائرية.....

159.....	1- صورة المستوطن المغتصب
165.....	2- صورة المستوطن العنصري.....
170	3- صورة المستوطن المتمرد على بلده المتعايش مع الأهالي.....
176.....	4- صورة الجزائر الفرنسية من منظور المستوطنين.....
177.....	5- صورة فرنسا من منظور المهاجرين الجزائريين.....
180.....	6- صورة المستوطن الفرنسي المغادر للجزائر بعد الاستقلال.....
184.....	المبحث الثالث : صورة المرأة المستوطنة الفرنسية في الرواية الجزائرية.....
184.....	1- صورة المستوطنة المتحررة و المتمردة.....
190.....	2- صورة المستوطنة المتعايشة مع الجزائري.....
194.....	3- صورة المستوطنة العنصرية.....
198.....	4- صورة المستوطنة المثقفة.....
200.....	5- صورة المستوطنة الجميلة الجذابة.....
201.....	6- الموقف الجزائري من المرأة الفرنسية
204.....	جدول ملخص لصورة المستعمر في الرواية الجزائرية.....
218	الفصل الرابع : صورة الأجنبي الأوروبي والأمريكي في الرواية الجزائرية.....
220	المبحث الأول : صورة الفرنسي في الرواية الجزائرية.....
221.....	1- صورة باريس في الرواية الجزائرية.....
222	2- صورة الفرنسي الحلم والهوس في الرواية الجزائرية.....
228.....	3- صورة الفرنسي المتسلط والعنصري.....
233.....	4- صورة الفرنسي المتحضر والإنساني في الرواية الجزائرية.....
235..	5- صورة المرأة الفرنسية الإنسانية والمتعايشة.....
240.....	6- صورة المرأة الفرنسية المتعطشة للرجل العربي.....
250	7- صورة الفرنسي الفضولي.....
253	المبحث الثاني: صورة الإيطالي في الرواية الجزائرية
253	1- صورة الإيطالي العنصري في الرواية الجزائرية.....
262	2- صورة الإيطالي المتسامح في الرواية الجزائرية.....
266	3- ملامح من البيئة الإيطالية.....
269	المبحث الثالث: صورة الإسباني في الرواية الجزائرية
269	1- صورة الإسباني المتعلق بالماضي الجزائري.....

274	2- صورة الإسباني المخنث والاستغلالي
281	المبحث الرابع :صورة الألماني في الرواية الجزائرية
281	1- صورة الألمانية المتعايشة مع العربي
283	2- صورة الألمانية العنصرية
287	المبحث الخامس : صورة البريطاني في الرواية الجزائرية
287	1- صورة مدينة لندن
290	2- صورة المرأة البريطانية
295	المبحث السادس : صورة الأمريكي في الرواية الجزائرية
295	1- صورة المجتمع الأمريكي في الرواية الجزائرية
298	2- صورة الأمريكي العدواني في الرواية الجزائرية
307	جدول ملخص لصورة الأجنبي في الرواية الجزائرية
325	الفصل الخامس : صورة اليهودي في الرواية الجزائرية
327	المبحث الأول : صورة اليهودي في الرواية الجزائرية
329	1- تاريخ يهود الجزائر في الرواية الجزائرية
332	2- يهود الجزائر وقانون كريميو في الرواية الجزائرية
333	3- صورة المرأة اليهودية من منظور المستعمر الفرنسي
335	4- صورة اليهودي غريب الأطوار ذي النفسية المريضة
338	5- صورة اليهودي الثري التاجر مالك العقارات
340	المبحث الثاني : صورة يهود فلسطين في الرواية الجزائرية
340	1- صورة اليهودي العنصري الحقود
342	2- صورة اليهودي المتسامح
345	3- صورة اليهودي الواهن الضعيف (التاقم على ألمانيا النازية)
348	4- صورة اليهودي الناسك
349	المبحث الثالث :صورة الصّهيوني في الرواية الجزائرية
354	جدول ملخص لصورة اليهودي في الرواية الجزائرية
360	خاتمة
366	قائمة المصادر و المراجع
389	فهرس الموضوعات